

الأئمة (ع)...

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- سيرة الأئمة الإثنا عشر (ع)
- دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية


الأئمة (ع)...
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الطبعة الأولى

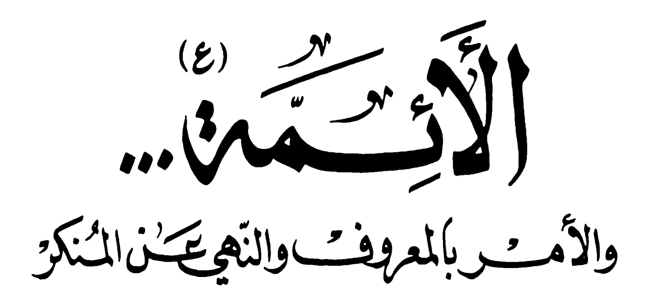
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع تلفون ٧٠/١٢٤٦٩١

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع دكاش بناية فواز ٠١/٢٧٥٦٧٨

E-mail: al-ershad@live.com

سلسلة تراث وآثار الشهيد مرتضى مطهري



سيرة الأئمة الإثنا عشر (ع)

دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع



«..أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء، والطبقة المثقفة المتنورة، الملتزمة، أن لا يدعو دسائس غير المسلمين تنسيهم مطالعة كتب هذا الأستاذ العزيز..».

الامام الخميني

تمهيد

الكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم، يتألف من عدد من المحاضرات التي تفضّلَ الشهيد مطهّري رضي الله عنه بإلقائهافي أزمنة مختلفة وأماكن متفرقة، وهو يتألف من مقدّمة وثمانية فصول:

الفصل الأول: وهو محاضرة تحت عنوان «مشكلات الإمام علي عليه السلام» أُلقيت في ٢١ رمضان ١٣٩٠هـ في حسينية (إرشاد).

والفصل الثاني: عبارة عن محاضرتين حول «صلح الإمام الحسن عليه السلام» أُلقيتا في ربيع ١٣٥٠هـ. ش في الجمعية الإسلامية للأطباء.

والفصل الثالث: يتكوّن من بحث قصير حول الإمام زين العابدين عليه السلام ألقاه الشهيد (رض) استمراراً لمحاضرة كان قد ألقاها قبله تحت عنوان (خرافة الثلاثة عشر) بتاريخ ٢٥ محرم ١٣٩٠هـ، في حسينية (إرشاد).

والفصل الرابع: يشتمل على بحث حول (الإمام الصادق عليه السلام ومسألة الخلافة) على أثر بحث (صلح الإمام الحسن عليه السلام) وبحث (مسألة ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام) ضمن محاضرتين أُلقيتا في الجمعية الإسلامية للأطباء.

والفصل الخامس: محاضرة تحت عنوان (أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام) أُلقيت بتاريخ ٢٤ رجب ١٣٨٩هـ، والمكان حسينية «إرشاد».

والفصل السادس: يشتمل على بحث حول (مسألة ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام) استغرق محاضرتين أُلقيتا ـ كما أشرنا ـ في الجمعية الإسلامية للأطباء.

والفصل السابع: (كلمة حول الإمام الحسن العسكري عليه السلام) ألقاها الشهيد (رض) استمراراً لإحدى محاضرات (السيرة النبويّة) في عام ١٣٥٤هـ. ش. في المسجد الجامع لسوق طهران بمناسبة الذكرى السنوية لولادة ذلك الإمام عليه السلام.

والفصل الثامن: يتألف من محاضرتين حول الإمام المهدي (عج):

الأولى: تحت عنوان (العدل الكلّي الشامل) أُلقيت بتاريخ ١٤ شعبان ١٣٩٠هـ.

والثانية: تحت عنوان (المهديّ الموعود) أُلقيت بعدها باسبوع واحد وكلاهما في حسينية «إرشاد».

وكما يظهر من اسم الكتاب ـ الذي تمّ اختياره من قبل لجنة الإشراف على نشر آثار الاستاذ الشهيد ـ فإن هذا الكتاب يقوم بجولة في رحاب سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام. ومن البديهيّ أن تدوين السيرة الكاملة للأئمة الأطهار، وبحثها من جميع الأبعاد، عمل ضخم يتطلّب عدداً من المجلدات الكبيرة، وربّما لا يستطيع عمر فرد واحد لأن يقوم به.

ونحن نأمل أن يكون هذا الأثر للاستاذ الشهيد، والذي ينشر في غيابه ـ ولو كان رحمة الله عليه حاضراً لقدّمه بشكل أفضل من وضعه الحالي بدون شك ـ خطوةً في اتجاه تبيين المعارف الإسلامية، وخصوصاً تسليط الأضواء على سيرة المعصومين عليهم السلام.

ربيع الأول ١٤١٢هـ
«لجنة الإشراف على نشر آثار
الاستاذ الشهيد مطهري»

المقَدّمَة
مقارنة نهج الإمام الحسين عليه السلام مع سائر الأئمة.. التقيّة

هناك موضوع من الجدير أن يتمّ بشأنه البحث والتحقيق، وهو موضوع مقارنة نهج سيد الشهداء عليه السلام مع نظيره عند سائر الأئمة الأطهار عليهم السلام. فقد يظنّ بعض الناس أن نهج الإمام الحسين عليه السلام يتناقض مع نهج سائر المعصومين عليهم السلام مثل نهج الإمام الحسن والإمام الباقر والإمام الصادق وحتى نهج أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين. كما أن الحسين عليه السلام له منهج خاص به يختلف مع مناهج الأئمة الآخرين عليهم السلام.

إن هذا في الواقع شيء يولّد في القلوب مشكلة كبيرة وعقدة مستعصية، لأن المفروض أن لا يكون هناك تناقض بين المعصومين عليهم السلام، أضف إلى ذلك أن الموالي يجب أن يعرف كيف ينبغي أن يتصرّف على الصعيد العملي.. هل يتّبع هذا المهج، أم ذاك؟؟.

ولكي يتضح الموضوع بشكل أفضل، أقول: إن الإسلوب الذي عرفت به الشيعة في تعاملهم مع غيرهم خصوصاً مع الحكام الظالمين ـ يرجع إلى موضوع بيّنه أئمة الدّين عليهم السلام وركّزوا عليه، وهو موضوع (التقيّة)، بحيث أصبحت كلمتا (الشيعة) و(التقيّة) مثل كلمتي (حاتم) و(الجود) إحداهما لازمة والأخرى ملزومة. وكل الأئمة عليهم السلام كانوا يمارسون التقيّة ويقولون بها..

فكيف ثار الإمام الحسين من بينهم وخالف مبدأ التقيّة؟.

إذا كانت التقيّة حقّاً، فلماذا لم يلتزم الإمام الحسين بها، برغم أن ظروفه عليه السلام آنذاك كانت توجب التقيّة بحسب الظاهر؟.

وإذا لم تكن التقيّة حقّاً، إذن فلم التزم بها سائر الأئمة عليهم السلام بل وأمروا بها؟.

إن هذه المسألة إنما هي بحث أصوليّ بغض النظر عن اتفاق مناهج الأئمة بشأنها أو اختلافها فيمكن من الناحية الكلامية والأصوليّة أن نبحث هل أن التقيّة يمكن أن تكون حقّاً؟ وهل أنها تتفق مع العقل والقرآن أم لا؟.

هنا لا بدّ أن نقول: إن التقيّة مهما كانت مشهورة ومعروفة أنها من مختصات الشيعة، إلا أن ذلك ليس له أساسا من الصحّة، إذ أن التقيّة موجودة أيضاً عند غير الشيعة. وهذه المسألة مثل مسألة تحريف القرآن التي اعتبرها بعضهم من مختصّات الشيعة، والحال أنه لو كان هناك من بين الشيعة من يقولون بتحريف القرآن، فإنّ من بين السنّة عدد لا يقل عنهم يقولون أيضاً بذلك. وهذا الأمر ذكرناه بعنوان المثال ولا نريد أن ندخل في بحث تحريف القرآن.

إن الموضوع الذي نحن بصدده يمكن التوسع فيه بحيث يكون أشمل من موضوع الالتزام بالتقيّة.. فهناك في بعض الأمور الأخرى ـ أيضاً ـ يمكن أن يلاحظ للوهلة الأولى تعارض أو تناقض في سيرة الأئمة الأطهار بين بعضهم البعض.. فمن الممكن مثلاً أن يعمل الرسول صلى الله عليه وآله عملاً بكيفية معينة، بينما يقوم أمير المؤمنين عليه السلام بنفس العمل ولكن بكيفية أخرى، أو أن يعمل الإمام الباقر أو الإمام الصادق صلوات الله عليهما ذات العمل بطريقة تختلف عنهما كليهما. إن هذه التعارضات والتناقضات الظاهريّة كثيراً ما تشاهد وتلاحظ، وسأقوم لاحقاً بذكر بعض منها على سبيل المثال. وحيث أن جميع الأئمة معصومون كما نعتقد، وحيث أن فعلهم جميعاً حجّة مثل قولهم.. إذن كيف يمكن لنا أن نتصرّف عمليّاً؟ وأي سيرة نقتفي؟ وأي عمل نتّبع؟.

نحن من حيث أنّنا نقبل إمامة أهل البيت عليهم السلام ونعتبر أقوالهم وأفعالهم حجّة، ونعتقد بأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أمرنا بالرجوع إليهم، فإننا من ناحية الآثار والمأثورات الدينيّة أغنى من أهل السنّة والجماعة.. فعندنا من الأحاديث والأخبار، وعندنا من الحكم الأخلاقية والاجتماعية، وكذلك لدينا من الأدعية

القيّمة التي هي بحد ذاتها باب عظيم من أبواب المعارف والتعاليم الإسلامية في شتى المجالات، أكثر ممّا عندهم.

ولهذا فإن أهل الإحصاء يقولون مثلاً: إنّ تمام الصحاح الستة لأهل السنّة لا تحتوي من الأحاديث بقدر ما يحتويه كتاب «الكافي» وحده، حيث يجد المرء فيه ما يجاوز الستة عشر ألف حديثاً، ولهذا فإن الشيعيّ لا يرى نفسه محتاجاً للقياس والاستحسان وما أشبه ذلك، والشيعة دائماً يفتخرون بهذا الأمر.

وهنا أريد أن أقول بأن هذا الشيء الذي يعتبر مفخرة للشيعة.. يمكن ـ إذا توجهنا إلى الإشكال المذكور آنفاً ـ أن يحتسب نقطة ضعف لهم، فيقال مثلاً: بما أن الشيعة ليس لهم إمام واحد، بل أربعة عشر إماماً، وكل واحد من هؤلاء قد نقلت عنه أحاديث وطرق ورسوم مختلفة، إذن سوف ينشأ نتيجة ذلك عند الشيعة نوع من الضلال والحيرة ودوار الرأس، وبالتالي فإنّهم يقعون في هرج ومرج ولا يدرون كيف يتصرفون. وهنا يكون هذا الأمر ذاته وسيلة جيدة بيد أولئك الذين يستهدفون الدّين بسوء، ويبحثون عن غطاء شرعي من النصوص الإسلامية لأعمالهم المشبوهة وأقوالهم المغرضة.. فكل من يريد منهم أن يخطط لعمل منافٍ، يأتي بحديث أو عمل لأحد الأئمة كشاهد على مشروعية عمله وصواب رأيه، دون أن يسلط الأضواء على الظروف والملابسات التي أحاطت بقول ذلك الإمام أو فعله.

ونتيجة كل ذلك هو التشتت والفوضى، وافتقاد الأصل الأخلاقي والاجتماعي الثابت. والويل لأمة لا يكون عندها أصول ثابتة وواحدة، بل يفكّر كل فرد منهم على هواه ويتصرف كيفما يحلو له، وهذا هو بالضبط مصداق المثل الذي يقول: إذا كثر الأطباء حول مريض ما، فإن الأمل بتحسنه وشفائه سوف ينعدم تماماً.

وعلى هذا يحقّ لنا أن نقول: إذا لم يبذل العلماء جهوداً مضنية في التحقيق والبحث بشأن هذه الطرق والأساليب المختلفة التي نلاحظها في سيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام، فإن تلك الآثار السيئة التي أشرنا إليها سوف تحصل، وسواءً كان لدينا عدد من الأئمة مختلفي الأسلوب والطريقة، أو كان الأئمة كلّهم على

طريقة واحدة ولكنّنا نرى اختلافاً ظاهرياً بينهم، أو حتى لو كان لنا إمام واحد، ولكنّه في المواطن المختلفة أصدر أحكاماً متفاوتة وقام بأعمال متباينة.. ولم نتمكّن من حلّ الاختلافات الظاهريّة بالاعتماد على أصل معيّن وثابت، فإن الهرج والمرج الذي ذكرناه سوف يسود في مجتمعنا ولا مفرّ من ذلك أبداً.

والآن أذكر ـ على سبيل المثال ـ أننا عندما نراجع سيرة الرسول صلى الله عليه وآله نرى أنه كان يعيش الزهد والفقر من الناحية الماديّة.. يأكل خبز الشعير، ويلبس الثياب الخشنة، ويسكن الدار المتواضعة، وأمير المؤمنين عليه السلام أيضاً كان كذلك، ونقرأ القرآن فنجده يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾... إذن فالمطلوب من المسلمين كلّهم أن يتّبعوا طريقة الرسول صلى الله عليه وآله ويفعلوا مثلما فعل!!.

ولكننا عندما نلتفت لنرى حياة الإمام الحسن المجتبى أو الإمام الصادق أو الإمام الرضا صلوات الله عليهم، نراهم على العكس من ذلك، لم يكونوا يعيشون حياة الزهد والفقر.. كانوا يأكلون جيّداً ويلبسون الثياب الحسنة، ويتّخذون المركب الفاخر.. وبكلمةٍ مختصرة: كانوا يستفيدون من طيبات الحياة بشكل جيد. وعندما يذهب الإمام الصادق عليه السلام لزيارة شخص، ويرى أن هذا الشخص يسكن داراً ضيّقة برغم أن وضعه الماديّ جيّد، يقول له: لماذا لا تهيِّىء لنفسك داراً أوسع؟ يقول: هذه الدار ورثتها من أبي، وكان يعيش فيها. فيقول له الإمام: لعلّ أباك كان أحمق! أفتريد أن تكون أحمق مثله؟ أتريد أن تظل طول عمرك تدفع ثمن حمق أبيك؟؟.

هذه هي الأمور التي تعتبر في الظاهر متعارضة، وهذا هو الشيء الذي يمكن أن يحتسب نقطة ضعف في التشيّع..

ولكن كلاّ، ليس الأمر في الواقع كذلك، وأنا هنا استفيد من نفس هذا المثال لأوضح بأن نقطة قوة هذا المذهب تكمن هنا بالذات.. وكمقدّمة لذلك أقول: إنه لو كان هناك إمام معصوم قدّر له أن يعيش بيننا عشرين عاماً ـ فقط ـ مثلاً، فإنّه حتماً لن يقع في هذه الفترة مقدار كافٍ من التطورات والتغيّرات والأحداث المعقدة والموضوعات المختلفة، بحيث يتاح لنا أن نلاحظ عمل

هذا المعصوم في الظروف المختلفة، وطريقة مواجهته للصور والأشكال المتنوّعة للموضوعات، ومن ثمّ يمكن لنا أن نكتسب القدرة والمهارة اللازمة بحيث يسهل علينا معرفة كيفية مواجهة الأمور في هذه الدنيا المتغيّرة باستمرار، وكيفية تطبيق الأصول الدّينية الكليّة على الموضوعات المختلفة، ذلك أنّ الدين له بيان نظري، وتطبيق عملي.. تماماً كالدروس النظرية والعملية في أيّ علم آخر.. حيث تكون الدروس العملية هي طريقة تطبيق النظريات على الموضوعات الجزئية والمختلفة.

وأمّا لو عاش الإمام المعصوم بيننا لمدة أطول.. (٢٥٠) عاماً مثلاً، وواجه أنواع وأصناف صور القضايا، وبيّن لنا طريقة حلّ كل قضيّة في ظروفها وملابساتها المختلفة، فإنّنا ـ حتماً ـ سوف نتعرّف بشكل أفضل على روح التعاليم الدينيّة، وبالتالي نتحرّر من الجمود الفكري وضيق الأفق، ونتخلّص ممّا يدعى بالاصطلاح المنطقي (أخذ ما ليس بعلة) أو (خلط ما بالعرض بما بالذات) والذي يعني أنه عندما يكون هناك شيئان متصاحبان، أحدهما له دخل في حدوث شيء ثالث، بينما الآخر ليس له دخل ولا تأثير بالمرّة، بل إن وجوده محض الاتفاق لا أكثر.. هنا قد نقع في الاشتباه والخطأ، ونتصوّر أن ذلك الشيء الآخر هو نفسه الذي استلزم حدوث الشيء الثالث، أو لا أقل اشترك مع الشيء الأوّل في التأثير والاستلزام..

وفي سيرة أئمة الدّين عليهم السلام لا يوجد شك في أن كلٌّ منهم كان يحيى في زمان معيّن، وأن زمان ومحيط كل واحد منهم كانت له اقتضاءات مختلفة. وحيث أن كلّ إنسان يتوجّب عليه بالضرورة أن يتّبع مقتضيات زمانه، فإن الدّين قد ترك الناس أحراراً من هذه النّاحية. وفي صورة تعدّد الأئمة المعصومين وتعاقبهم، أو طول عمر واحد منهم، فإنّ الإنسان يتمكن بشكل أفضل من تشخيص روح التعاليم الدينيّة وفرزها عمّا يكون ممتزجاً بها من مقتضيات الزمان.. فيأخذ الرّوح ويترك الأمور المختصة بتلك المقتضيات. تماماً كالمثال الذي ذكرته بشأن الحياة الزاهدة، حيث كان الرسول ﷺ يعيش الفقر بينما لم يكن الإمام الصادق ـ مثلاً ـ كذلك.

والآن أنقل لكم قصة توضّح جوانب هذا الموضوع:

في حديث معروف ورد في «الكافي» وكذلك في «تحف العقول» أن سفيان الثوري جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام «واعترض عليه بالنسبة إلى ما كان يرتديه من لباس لطيف فاخر، بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن يرتدي لباساً كهذا» فقال الإمام عليه السلام: هل تظن أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان كما تقول، فيلزم أن يكون الناس إلى الأبد كذلك؟ ألا تعلم أنّ هذا ليس جزءاً من الدين؟ ينبغي أن تكون عاقلاً، وتتدبّر في الأمر بحيث تجعل في حسابك زمان الرسول صلى الله عليه وآله.

ففي ذاك الزمان كانت المعيشة الوسط هي ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله. وبحكم أن النبيّ صلى الله عليه وآله كان القائد والزعيم، وكان الناس يضعون تحت تصرّفه أرواحهم وأموالهم، فإن كل ألوان المعيشة كانت متوفرة وميسورة بالنسبة له، ولكن الرسول بالنظر إلى ذاك المستوى من المعيشة العامة للناس.. لم يكن أبداً يعطي لنفسه أي امتياز خاص عليهم، إن وصيّة الإسلام، هي المساواة والمواساة، وإن منهجه العدل والإنصاف. فالإسلام يأمر بالرفق واللطف والسلوك الملائم في المجتمع، بحيث لا يؤدّي تصرّف الفرد إلى توليد عقد في أنفس الفقراء، ولا يتأذّى رفيقه أو جاره أو من ينظر إلى عمله من سلوكه.

ولو كان في زمان الرسول صلى الله عليه وآله هذا الخفض وسعة العيش لم يكن صلى الله عليه وآله ليتصرّف كما فعل آنذاك. إن الناس أحرار فيما يلبسون وكيف يلبسون.. الثياب الجديدة أم القديمة، هذا القماش أم ذاك، فالدّين لا يعطي أهميّة لهذه الأمور، إنما يعطي الأهمية الكاملة للأصول الثابتة والمبادىء المقرّرة والتي لا تختلف باختلاف الأزمنة.

ثم قال الإمام بعد ذلك: ولكنني أنا الذي تراني ألبس الثياب الثمينة هذه، ملتفت بدقّة إلى الحقوق الشرعية المتعلّقة بأموالي.. ولهذا لا يوجد بين طريقتي وطريقة النبيّ صلى الله عليه وآله أي اختلاف أصوليّ أو تعارض معنوي.

وفي حديثٍ آخر أنه حدث في زمان الإمام الصادق عليه السلام قحط، فقال الإمام لخازنه: اذهب وبع ما ادّخرناه من الحنطة في السوق، وسوف نشتري خبزنا بعد ذلك من السوق يوماً بيوم (خبز السوق كان يصنع من خليط القمح والشعير). يريد الإمام بعمله هذا أن يبيّن لنا كيف أن الإسلام بشكل أساسي

يفرض على المسلم أن يكون سلوكه بين الناس مقروناً بالإحسان وممزوجاً بالعدل والإنصاف، ولا يهم بعد ذلك أن يصنع خبزه في البيت أو يشتريه من السوق، أو يأكل خبز القمح أو الشعير أو يخلط القمح بالشعير.. إلخ.

وهكذا، فبملاحظة الاختلاف بين عمل رسول الله ﷺ وعمل الإمام الصادق عليه السلام، فإننا نتفهّم روح الإسلام بشكل أعمق. ولو أن الإمام الصادق لم يبيّن لنا هذا الأمر ولم يوضّحه، لكنّا اعتبرنا هذا الجانب من عمل رسول الله ﷺ، والمتعلّق بعصره الذي كان يعيش فيه، جزءاً من الدين الإسلامي. وبضمّ الآية (٢١) من سورة الأحزاب التي تأمرنا بالتأسّي بالرسول ﷺ، إلى هذا الأمر.

ولو شكّلنا من الموضوع قضيتين صغرى وكبرى، واستنتجنا وجوب اتباع حياة الفقر في كل الأحوال، لكبّلنا الناس بالقيود إلى يوم القيامة. ولكنّ بيان الإمام الصادق عليه السلام وتوضيحه واختلاف أسلوبه مع أسلوب النبي ﷺ كان درساً ذا مغزى أخرجنا من الجفاف والجمود والفكري، وعرّفنا على روح الدّين ومعنى تعاليمه. طبعاً يبيّن لنا الإمام الصادق عليه السلام هنا حقيقة الأمر، ولكن على فرض أنه لم يفعل ذلك، فإنّه ينبغي أن يكون لنا من التعقّل وقوّة الاجتهاد ما نتوصّل به إلى أنّ هذه الأمور ليست متناقضة ولا متعارضة. وهذا الجمود الفكري موجود بكثرة وخصوصاً بين «الأخباريّين» الذين يحرّمون حتى شرب الدخان.

وهكذا نجد أنّ إحدى الطرق التي يمكن اتّباعها لحلّ التعارضات الموجودة في السير المختلفة، هي ما يصطلح على تسميته بـ «الحل العرفي» أو «الجمع العرفي» الذي يتمّ عن طريق ملاحظة اختلاف مقتضيات الزمان، ويمكن استخدام هذه الطريقة حتى في حلّ التعارضات القولية، مع أنّ فقهاءنا لم يتوجّهوا إلى ذلك في السابق.

مثال آخر: قيل لعليّ عليه السلام في حديث «غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود» الذي كان عليه السلام يرويه ولكنّه لم يعمل به، أي لم يصبغ ولم يتخضب.. فقال عليّ عليه السلام: إنّ هذا الأمر خاص بزمان النبيّ ﷺ، وكان خدعة حربيّة لكي لا يظنّ الأعداء أن المسلمين آناك عبارة عن مجموعة من الشيوخ الطاعنين في

السنّ لا يقوون على الكرّ والفرّ، أمّا اليوم «فامرؤٌ وما اختار». ولو لم يكن هذا التوضيح من أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّا نفرض على الناس إلى يوم القيامة أن يتخضبوا ويصبغوا لحاهم. إذن هذا طريق من الطرق لحلّ التناقض، وهذا الأمر بالطبع يحتاج إلى مطالعات واسعة وعميقة.

هنا أتذكّر أن أحد العلماء المطّلعين ممن يتمتّع باستقلالية التفكير، كان يقول في معرض الكلام عن أخبار التفويض التي كثيراً ما تقرع السمع، والتي مفادها أن الله سبحانه يعطي للإنسان مجالاً للإختيار خارج الأصول الكليّة: «في بحثنا حول مسألة التفويض، يجب أن نتوجّه إلى هذه النقطة المهمّة، وهي أنَّ لدينا عدداً من المسائل تشكّل روح التعاليم الدينيّة، وهي الأوامر الإلهية الكليّة. وهذه المسائل غير قابلة بأيّ شكل من الأشكال للتغيير والتبديل، وهي ناظرة إلى المصالح الكليّة والسامية لعالم البشر.. وما دامت البشريّة فهذه المسائل والأوامر موجودة ومطروحة، وما دام الإنسان إنساناً، فعليه أن يطبق هذه الأوامر ويلتزم بها».

الفصل الأول

مشكلات الإمام عليّ (ع)

ومن كلام له عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجّة قد تنكّرت، واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم». (نهج البلاغة خطبة ٩٠).

نحن نعلم أن عليّاً عليه السلام لم يكن ليكفّ عن البيان والتصريح في كل المناسبات، وذلك في عهد خلافة الخلفاء، بأن الخلافة حقّ خالص له ولا ينبغي لأحد أن ينازعه فيه. ولكنّنا نرى أنه امتنع وكره قبول الخلافة (وذلك بعد مقتل عثمان على أثر تمرّدٍ دام عليه) حينما توجه الناس إلى بيته وأحاطوا به، وأصرّوا عليه بشدة أن يبايعوه لَيستلم هو بنفسه زمام الأمور.

والجمل التي ذكرتها في البداية، مقتبسة من كتاب نهج البلاغة... يقول عليه السلام: «دعوني والتمسوا غيري» أي اتركوني واختاروا غيري خليفة لكم. ثمّ يبيّن الإمام بعد ذلك علّة امتناعه، لئلا يتصور أحد أنه لا يعتبر نفسه لائقاً للخلافة، وأنه أكفأ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأقدرهم على تسيير دفّة الأمور.. ويوضح بأن الأوضاع مضطربة جداً، وأن مستقبلاً أشد اضطراباً يلوح في الأفق.. فيقول: «فأنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان» أي إن أمامنا أحداث خطيرة وغامضة، والمستقبل الذي ينتظرنا ليس مستقبلاً واضحاً مشرقاً بل هو مستقبل ينذر بتفجّر المشاكل والفتن.. «وأن الآفاق قد أغامت» أي أن الضباب

قد غطّى الآفاق وملأ الأجواء حتى لم يعد المرء يرى أمامه. «والمحجّة قد تنكّرت» أي أصبح الطريق الواضح المعروف، طريقاً غامضاً مجهول المعالم، حتى لم يعد الناس يعرفونه ويشخّصونه.

ولكنه عليه السلام يذكر في النهاية جملة بعنوان إتمام الحجة، فيقول: «واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم» أي إذا استلمت زمام الخلافة فإني سوف أقودكم وفق علمي واجتهادي، وليس وفق ما تريدونه أنتم.

وكان آخر ما قاله لهم في تلك الخطبة أن أتركوني وشأني فإني أبقى وزيراً لكم خير من أن أصبح أميراً عليكم.

هذه الكلمات التي صدرت من عليّ عليه السلام تبيّن أنه كان يتوقع مشاكل كثيرة تحدث في عهد خلافته، وهي من التعقيد والغموض بحيث علم بأنه سوف يصعب على الناس في كثير من الأحداث المقبلة أن يتقبلوا أوامر القيادة الشرعية ويتفهّموها، وكان هذا هو السّر في كراهته لقبول الخلافة. وقد حدث ما توقعه الإمام فيما بعد.

فإذا كانت تلك المشاكل التي واجهها عليه السلام؟.

أذكر فيما يلي بعضاً منها بصورة سريعة ومجملة، لكي أصل إلى مشكلة المشاكل وكبرى المعضلات التي واجهها علي: عليه السلام وهي مشكلة الخوارج فأفصّل الكلام فيها بعض الشيء:

١ ـ مشكلة مقتل عثمان (مشكلة النفاق):

إن أولى المشاكل التي وقعت والتي قال عليّ عليه السلام بشأنها أن هناك مستقبلاً مظلماً ينتظر المسلمين، هي ذيول حادثة مقتل عثمان. حيث استلم عليّ عليه السلام الخلافة في وضع غير عاديّ، فقد قتل الثوار الغاضبون الخليفة السابق ولم يسمحوا حتى بدفنه، ثم انضمّ نفس هؤلاء الثوّار إلى صف عليّ عليه السلام، فماذا كان رأي بقيّة المسلمين؟.

بالطبع لم يكن عامّة الناس يفكّرون كما يفكّر الثوّار.

كما أن عليّاً عليه السلام نفسه لم يكن تفكيره ينسجم لا مع الثوار ولا مع مخالفيهم، ولا مع عامّة الناس.

ونراجع ملفّ القضية فنرى من جانبٍ عثمان وحاشيته فنرى كل هذا الظلم والجور والإجحاف، وإعطاء الامتيازات للأقارب وأفراد العشيرة. . ومن جانب آخر نرى الطوائف الغاضبة والثائرة من الحجاز والمدينة والبصرة والكوفة ومصر. . . جاءوا من كل مكان معترضين ومنتقدين، وعثمان يرفض أن يلبي طلباتهم. ومن العجيب في الأمر أن عليّاً عليه السلام كان هو السفير بين الثوار والخليفة، وهو يخالف خطّ عثمان، ولكنه في نفس الوقت لا يريد أن يفسح المجال أمام الثوار لقتل الخليفة فيُفتح باب الفتنة أمام المسلمين، وهذا الموضوع له قصة مفصّلة[1].

وكان عليّ عليه السلام ينتقد موقف عثمان بشدة، ويحاول أن يصرفه عن الطريق الذي كان يسير فيه، لعلّ نار الثوار تهدأ، فتخمد بذلك الفتنة.

ولكن، لا عثمان، ولا من يقف في صفّه كانوا مستعدين للانصراف عن طريقتهم.

ولا الثوّار كانوا حاضرين لأن يكفّوا عن مطالبهم ويفكّوا الحصار الذي ضربوه حول بيت الخليفة.

فكانت النتيجة أن نفّذ الثوار تهديدهم دون أن يكون لعليّ عليه السلام يد في ذلك.

إن عليّاً عليه السلام كان يعلم أن مقتل عثمان سوف يصبح مسألة توجب إثارة الفتنة، خصوصاً عند الالتفات إلى نقطة مهمّة كشف عنها مؤخراً علماء الاجتماع والمؤرّخون المحقّقون الذين طالعوا تاريخ الإسلام بدقة وتمعّن، ونلاحظ أن (نهج البلاغة) ـ أيضاً ـ قد أشار إلى هذه المسألة، وهي أن بعض المؤيدين لعثمان كان لهم ـ أيضاً ـ يد في قتله، فكانوا يريدون أن يقتل عثمان لكي تقوم فتنة في عالم الإسلام فيصطادون صيدهم في المياه العكرة.

وكان لمعاوية على الخصوص يد قوية في قتل عثمان، فعمل في الخفاء على أن تستعر نار هذه الفتنة ليستفيد هو بالتالي من مقتل الخليفة في تحقيق أطماعه ومآربه.

---

(١) بحث عليّ عليه السلام موضوع مقتل عثمان في أربعة عشر موضعاً مختلفاً في نهج البلاغة.

وهنا أريد أن أركّز على نقطة هامّة في هذه المشكلة التي واجهها عليّ عليه السلام، وهي أنه هناك تفاوت واضح بين مخالفيه، ومخالفي النبيّ صلى الله عليه وآله في زمانه. فالنبيّ صلى الله عليه وآله كان يواجه مجموعة من الكفّار وعبدة الأوثان وكانوا يحاربونه تحت شعار الوثنية. فكانوا ينكرون الله والتوحيد علناً وكان أبو سفيان يصرّ على شعار (اعل هبل)، فسهل على الرسول صلى الله عليه وآله مواجهتهم ومقاومتهم بهذا الشعار الواضح (الله أعلى وأجلّ).

أمّا عليّ عليه السلام فكان يواجه طبقة من العلماء المنافقين، يتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لم يكونوا في الحقيقة مسلمين، فكانت شعاراتهم شعارات إسلامية، وأهدافهم ضد الإسلام.

وكان معاوية بن أبي سفيان مثل أبيه يملك نفس الروح السفيانية وذات الأهداف الشيطانية، ولكن تحت شعار الآية القرآنية: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ صحيح أن هذا الشعار شعار جميل، ولكن ألا يوجد من يسأل معاوية من هو وليّ الدم الشرعي بالنسبة لعثمان؟ إن نسب معاوية لا يتصل بنسب عثمان إلا بأربعة أظهر صاعدة، أي أنّهما يشتركان في الجدّ الرابع، في حين أن عثمان له أولاد وأرحام أقرب إليه من معاوية، فكيف يتخطاهم معاوية جميعاً وينصّب نفسه وليّاً للدم؟.

ثم ما هي علاقة علي عليه السلام بمقتل عثمان؟ ليس لعليّ عليه السلام أي يد في قتله ولكن شخصاً مخادعاً مخاتلاً مثل معاوية لا يهمّه كل ذلك، إنه يريد ـ فقط ـ أن يستغلّ الحادثة لصالحه بأي صورة كانت.

وكان معاوية قد أوعز في وقت سابق إلى عيونه وجواسيسه الذين بثّهم حول عثمان، بأن يرسلوا إليه فوراً ثوب الخليفة الملطخ بالدم عندما يسقط صريعاً. وفعلاً ما إن قتل عثمان حتى قاموا بتنفيذ الأمر قبل أن يجفّ دم القتيل وبعثوا بالثوب الملطخ مع أصابع امرأة[١] عثمان إلى معاوية على جناح السرعة.

---

(١) عندما اقتحم الثوار بيت عثمان يريدون قتله، ألقت امرأته بنفسها على بدنه، فأصاب أحد السيوف يدها وقطع بعض أصابعها.

وما أن استلم معاوية ثوب الخليفة والأصابع المقطوعة حتى بدأ يلعب لعبته... فأمر أن تعلق أصابع امرأة عثمان إلى جانب منبره وشرع في الصياح: (أيها الناس، لقد عمّ الظلم، لقد ذهب الإسلام، هذه هي أصابع امرأة الخليفة المقطوعة) ثم أمر بتعليق قميص عثمان على خشبة وجلس هناك إلى جانبه يصرخ ويبكي على الخليفة المظلوم.. وظل مدّة في الشام على هذا الحال يقرأ التعازي على روح عثمان ويستدّر دموع الناس عليه لكي يعبئهم للمطالبة بدمه.

فيا ترى ممّن يزمعون أن يطلبوا بدم عثمان؟!.

إن مؤامرة معاوية تقضي بأن يطلبوا دم عثمان من عليّ عليه السلام، لأنه بزعمهم شريك للقتلة في دم الخليفة والدليل على ذلك أن الثوار الذين هجموا على بيت عثمان وقتلوه يقفون الآن في صف عليّ ويؤلّفون قسماً من جيشه وعساكره!! هذه هي المشكلة المفتعلة التي اتّخذت من قبل أشخاص مغرضين ذريعة لإشعال نار حر بين عظيمتين.. الجمل، وصفّين.

٢ ـ التشدّد في إجراء العدالة:

وهناك مشكلة أخرى واجهها عليّ عليه السلام تتعلّق من جهة بأسلوبه في الحكم، ومن جهة أخرى بالتغيير الذي تعرّض له المجتمع الإسلامي إبّان خلافة «الثلاثة»، وهي أنه عليه السلام كان رجلاً صلباً لا يلين في تطبيق أحكام الإسلام.. فبعد النبيّ صلى الله عليه وآله ولسنوات عديدة تعوّد المسلمون شيئاً فشيئاً على مسألة إعطاء الامتيازات للأفراد المقرّبين من الخليفة والسلطة الحاكمة، ولكن عليّاً عليه السلام أبدى تصلّباً شديداً إزاء هذه المسائل وكان يقول: أنا لست ممّن يحيد عن العدالة قيد شعرة. حتى أن أصحابه جاءوا إليه يوماً وقالوا له: جُعلنا فداك يا مولانا.. ليكن منك شيء من اللين والمهادنة، فكان جوابه القاطع: «أتأمرونيّ أن أطلب النصر بالجور؟ والله ما أطور به ما سمر سمير». أي تطلبون منّي أن أسعى لتحقيق أهدافي بالظلم وغمط حقوق الناس؟ كلا لن يكون منّي هذا أبداً وإن طال الزمن.

٣ ـ الصراحة والصدق في السياسة:

والمشكلة الثالثة التي واجهها عليّ عليه السلام في عهد خلافته هي مسألته صدقه

وصراحته في مجال الحكم والسياسة. ولم يستحسن ذلك أيضاً بعض أصحابه وقالوا في ذلك: إن هذا غير معقول، لأن السياسة لا تتطلّب هذا القدر من الصراحة والعفوية، ولا بدّ أن يشوبها شيء من المراوغة والدهاء لأن ذلك بمثابة ملح السياسة. حتى أنّ بعضهم قالوا: إن علياً ليس عنده سياسة أصلاً، على العكس من معاوية الذي هو في نظرهم سياسيّ داهية. فكان علي عليه السلام يقول: «والله ما معاوية بأدهى منّي. ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجّرة، وكل فجْرة كفْرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة».

فالتقوى هي التي حالت بينه عليه السلام وبين أن يخوض مع الخائضين في المؤامرات والألاعيب السياسية الماكرة، ودفعته إلى الالتزام بالصدق والاستقامة في كل مجالات الحياة، حتى في السياسة والحكم. وقد يُفهم من العبارة الأخيرة «ولكل غادر لواء..» أن الإمام يقصد تحذير الناس من الانخداع والسير وراء الحاكم الغادر الفاجر، وإلا حشروا تحت لوائه يوم القيامة ويا له من مصير سيء.

٤ ـ الخوارج.. مشكلة عليّ عليه السلام الرئيسية:

قبل الدخول في هذا الموضوع لا بأس من عرض مقدمة سريعة له، وهي أنَّ المسألة الأساسية التي يستهدفها الإسلام ليست بالدرجة الأولى تعبئة المسلمين ـ أو المجموعة الطلائعية منهم ـ تحت راية الجهاد والثورة وخوض غمار الانتفاضات والحروب بهم، وإنما هي قبل كل ذلك تربية الطلائع تربية إسلامية واقعية بكل أبعادها كما هو مفاد الآية الكريمة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾ فقد علّم النبيّ صلى الله عليه وآله طبقة من المسلمين الأوائل وفقّههم في الدّين، وسار بهم خطوة خطوة، وبثّ في روحهم تدريجياً التعليم والتربية الإسلامية حتى صاروا يفهمون ما هو معنى الإسلام بشكل عميق وراسخ. وبقي صلى الله عليه وآله في مكّة ثلاثة عشر عاماً وتحمل خلالها أنواع الأذى والتعذيب من قريش، ولكنّه كان على الدوام يعطي الأمر بالصبر والتريث. وكم حدث أن طلب منه أصحابه أن يأذن لهم بالدفاع عن أنفسهم قائلين: يا

رسول الله، كم ينبغي أن نتحمّل الأذى؟ وإلى متى يستمر هؤلاء في ابتزازنا وإذلالنا؟ وإلى متى يظلّون يطرحوننا على رمال البطحاء الساخنة ويضعون على صدورنا كتل الصخر اللاهبة؟ وكم ينبغي لنا أن نسمح لهم بأن يلهبوا أجسادنا بسياطهم؟؟ ولكن الرسول ﷺ لم يكن ليعطي الأذن بالجهاد والدفاع، ولمّا استفحل أمر قريش أكثر، أعطى ﷺ الأذن بالهجرة ـ فقط ـ لمجموعة من المسلمين إلى الحبشة، وأجّل مسألة المواجهة المسلحة مع الكفار إلى إشعار آخر وإلى أن يبلغ المسلمون المستوى المطلوب للقتال والمواجهة العسكرية.

وهكذا كان النبيّ ﷺ مدة بقائه في مكّة يربي ويعلّم، وبعبارة أخرى: كان يعمل على إيجاد النواة الأساسية للإسلام، وحتى أولئك النفر الذين أرسلهم للهجرة وكانوا حوالي ألف رجل وامرأة، اختارهم بحيث يكون أكثرهم من الذين تربّوا تربية إسلامية كاملة، وأصبحوا من العارفين بروح الإسلام. فالشرط الأول لأية حركة أو نهضة هو إيجاد قاعدة تعليميّة وتربويّة تتكون من الأفراج الذين تلقوا التعليم والتربية اللازمين وأصبحوا مطّلعين على الأصول والأهداف والخطط العملية المطلوبة. ويمكن إيجاد هؤلاء بصورة نواة مركزيّة أولاً، ثم جعل من يلتحق بهم بعد ذلك من الأفراد تلاميذ لهم يكيفون أنفسهم وفقاً لطريقتهم ومنهجهم، وهذا هو سر النجاح في الإسلام.

وللأسف ففي عهد الخلفاء ـ وخصوصاً عهد عثمان ـ لم يتابع هؤلاء مسألة التعليم والتربية كما فعل النبيّ ﷺ، وحصل فتور وتراخٍ في هذا الأمر البالغ الأهمية في الوقت الذي ازدادت فيه الفتوحات الإسلاميّة. ومعلوم أن الفتوحات لوحدها لا تصنع شيئاً ذا بال، إذ ينبغي أولاً إعداد الأفراد اللائقين القادرين على حمل المسؤوليات الجسيمة. وإذا كان لا بدّ من القيام بالجهاد والفتوحات والتوسع الإقليمي، فينبغي أن يكون ذلك بالتناسب مع تعميق الفكر الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية، حتى تتمكّن الشعوب التي تدخل في الإسلام ـ أولئك أو تلك التي تنجذب إليه ـ أن تتفهّم الدين الإسلامي وتتعرّف على أصول وحقائق وأهداف الإسلام، وتحيط علماً بقشر الدين وبلبّه معاً.

ولكن على أثر الغفلة التي حصلت في زمان الخلفاء، كانت النتيجة أن

إحدى الظواهر الاجتماعية التي حدثت هي بروز طبقة من الناس بين المسلمين يحبّون الإسلام ويؤمنون به ولكنّهم لا يعلمون إلاّ ظاهر الإسلام وقشره فقط، ولا يعرفون شيئاً عن روح الإسلام وجوهره. وهذه الطبقة جلّ همّها العبادة والصلاة دون البحث عن المعرفة أو محاولة التعرّف على الأهداف الإسلامية.

وهي طبقة من الأفراد المتنسكين الزاهدين المتظاهرين بالقداسة، وهي قداسة فارغة من المحتوى والمضمون. ولمّا حدث أن تمرّدوا وأعلنوا العصيان على عليّ عليه السلام أرسل إليهم الإمام عبد الله بن عباس، وعندما رجع يخبرهم وصفهم هكذا: «لهم جباه قرحة لطول السجود، وأيدٍ كثفنات الإبل، عليهم قمص مرحّضة، وهم مشمّرون». يقول: كانت آثار الجروح بادية على جباههم لأنهم كانوا يطيلون السجود على رمال الأرض من شدة الخشوع، وكذلك ظهرت الأورام والدّمامل في أيديهم لذات السبب، وهم يلبسون ثياباً قديمة تحكي عن الزهد الشديد، وقيافتهم بشكل عام تدّ على التصميم والجدّ.

ويصف عليّ عليه السلام هذه الطبقة المتنسكة الجاهلة هكذا: «جفاة طغام عبيد أقزام، جمعوا من كل أوب وتُلقّطوا من كل شوب ممّن ينبغي أن يفقّه ويؤدّب، ويعلّم ويدرّب.. ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوّؤا الدار والإيمان». أي: هم طائفة من الناس غلاظ القلوب، أوغاد ذوو نفوس منحطّة، عبيد لأهوائهم ليس عندهم إرادة حرّة ولا فكر مستقل، إنّهم مجموعة من الأراذل والأوباش ليس لهم أصل ولا فصل، ولا يدري أحد من أين جاءوا ولا كيف ظهروا... كان ينبغي لهم أن يجلسوا كتلاميذ في الصفّ الأول لمدرسة الإسلام، ويتعلّموا دروس الدين من البداية.. إنّهم لا يدرون ما القرآن ولا يعرفون معناه، ولا يفهمون سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله.. ليسوا من المهاجرين والأنصار الذين تربّوا على يد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا من الذين التحقوا بهم وسلكوا سبيلهم.

وهكذا، استلم عليّ عليه السلام زمام الخلافة في ظروف ظهرت فيها طبقة كهذه بين المسلمين. وكانوا ينتشرون في كل أنحاء الدولة الإسلامية، وحتى بين صفوف عساكر عليّ عليه السلام كان لهم وجود أيضاً. وفي حرب صفّين عندما أحسّ

معاوية أن الهزيمة أصبحت منه قاب قوسين أو أدنى، استشار أصحابه، فأشار عليه عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنّة الرماح، ودعوة معسكر عليّ ﷺ إلى تحكيم القرآن لحسم الخلاف، وكان جوهر هذه الخطّة هو الاستفادة من هذه الطبقة بالذات وتحريكها بهذه الخدعة للتمرّد على القيادة الشرعية، وبالتالي يتعادل التوازن العسكري بين الطرفين أو ينقلب لصالح معسكر معاوية. وهكذا رفعوا المصاحف على الأسنّة وقالوا: أيها الناس.. هذا القرآن بيننا وبينكم، وكلّنا أهل القرآن وأهل القبلة، فلماذا تقاتلوننا؟ إذا أردتم ذلك ولا بدّ، فهلمّوا أولاً واضربوا هذه المصاحف الشريفة.

فكان أثر هذه الحيلة أن كفّت هذه الطبقة التي تكلّمنا عنها فوراً عن القتال، وقالوا: لا والله لا نحارب القرآن أبداً. ثم جاءوا إلى عليّ ﷺ بعد أن حُلّت القضية حسب زعمهم حيث دخل القرآن في وسط المتحاربين ولم يعد للحرب أيّ معنى! فقال لهم عليّ ﷺ: كلاّ، إن هؤلاء يكذبون، فقد عرضت عليهم منذ البداية كما تعلمون أن نحتكم إلى القرآن ليتبيّن أيّ الفريقين على حقّ، فلم أجد منهم أذناً صاغية، والآن بعد أن دارات عليهم الدائرة، فإنّهم يحاولون أن يجعلوا من جلد القرآن وقراطيسه درعاً يحميهم وينقذهم من الهزيمة. أيها الناس، لا تنخدعوا بكلام هؤلاء، فأنا إمامكم وأنا القرآن الناطق، وأنا آمركم بمواصلة الحرب والتقدّم إلى الأمام.

فقالوا: عجباً، كيف يمكن أن تقول مثل هذا الكلام؟ لقد كنّا حتى الساعة نعتقد بأنك إنسان طيّب، فإذا بك أنت أيضاً تطلب الجاه وتريد المكاسب لنفسك.. أتطلب منّا أن نذهب لمقاتلة القرآن؟! كلاّ لن نفعل ذلك.

فكان جواب الإمام ﷺ لهم: حسناً إذا لم تكونوا راغبين في القتال فتنحّوا جانباً ودعوا الآخرين يواصلوا الحرب.

ولكنّهم لم يرضوا حتى بذلك، وكان مالك الأشتر حينذاك يواصل التقدّم وينتقل من نصر إلى نصر، فطلبوا من عليّ ﷺ أن يأمر مالكاً بالرجوع لأن القتال مع القرآن غير جائز، وضغطوا كثيراً حتى اضطر عليّ ﷺ أن ينفّذ طلبهم، ولكنّ مالك الأشتر لم يرجع وأرسل إلى الإمام: جعلت فداك يا مولاي، لم يبق إلاّ

ساعة أو ساعتان وينهزم جيش معاوية الهزيمة النهائية، فائذن لي بمواصلة القتال. ولكن أولئك كانوا يصرّون على طلبهم ويواصلون الضغط قائلين: يا عليّ، إمّا أن ترجع مالكاً، وإلاّ قطّعناك بسيوفنا في هذا المكان إرباً إرباً، فإنك الآن تحارب القرآن ونحن لا نسمح بذلك أبداً. فأرسل عليّ عليه السلام: يا مالك، إذا كنت ترغب أن ترى إمامك على قيد الحياة فارجع فوراً.

ورجع مالك، وبرزت قضية الحكمين، فتحمس لها القوم وألحّوا على إجراء التحكيم. وكان معاوية قد عيّن عمرو بن العاص الماكر أحد الحكمين، فاقترح عليّ عليه السلام ابن عباس العالم النّابه، ولكنّهم رفضوا وقالوا: كلاّ، إن ابن عباس من عشيرتك وهو ابن عمّ لك، ونحن نريد شخصاً لا تربطه بك صلة قرابة. فقال لهم الإمام: ما تقولون في مالك الأشتر؟ قالوا لا نقبله، وهكذا كلّما اقترح الإمام أحداً رفضوه إلى أن قالوا نحن لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري.

من هو أبو موسى الأشعري هذا؟ وهل كان من أفراد جيش عليّ عليه السلام؟.

كلاّ، وإنّما كان قبل ذلك حاكماً على الكوفة، ولمّا تولّى عليّ عليه السلام الخلافة عزله من منصبه هذا، ولذا كان أبو موسى ـ في الواقع ـ إنساناً يحمل في قلبه الحقد والعداء لعليّ عليه السلام. وهكذا جاءوا بهذا الشخص واختاروه من طرفهم لإجراء التحكيم على الرغم من رفض الإمام الخليفة الشرعيّ لهذا الاختيار. وما إن بدأت عملية التحكيم التي كانت أشبه بالمهزلة منها الجدّ، حتى خرج أبو موسى الأشعري منهزماً أمام خدعة عمرو بن العاص المعروفة في التاريخ!.

وعند ذلك انتبه القوم إلى خطئهم، ولكن طريقة اعترافهم بهذا الخطأ كانت بحد ذاتها خطأً آخر أدهى وأمرّ. فلم يقولوا: أخطأنا يوم طلبنا إيقاف الحرب مع معاوية، إذ لم تكن محاربتنا لجنود معاوية وهم يرفعون المصاحف خدعةً، محاربة للقرآن. وكذلك لم يقرّوا بخطأهم في تعيين أبي موسى حكماً، في حين كان ينبغي لهم أن يقبلوا بتعيين ابن عباس أو مالك الأشتر، وإنّما قالوا: إن قبولنا بالتحكيم في دين الله كفر من الأساس، فالقرآن يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. وجاءوا إلى عليّ عليه السلام وقالوا له: لقد كفرت أنت أيضاً مثلنا بقبولك التحكيم، وعليك الآن أن تتوب وتستغفر الله كما فعلنا نحن!! وكان

جواب الإمام لهم: لقد التبس الأمر عليكم، فالتحكيم ليس بكفر، وقد أخطأتم في فهم القرآن إن آية ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تعنى أن القانون يوضح من قِبل الله تعالى، أو من قبل شخص أذن الله له في ذلك. والتحكيم لم يكن بمعنى الخضوع لغير حكم الله، فالحكمان كانا وظفيتهما الحكم طبقاً لنصوص القرآن لا أكثر ولا أقل.

ولمّا أصرّوا على موقفهم قال لهم الإمام: أنا لم ارتكب ذنباً أبداً حتى أقرّ بذلك، ولا أقول لما يقرّه الشرع بأنه خلاف للشرع، وكيف أكذب على الله ورسوله وأقول بأن تعيين الحَكَم في الاختلافات بين الناس كفر وشرك؟ كلا، لا يكون ذلك، وإن كنتم تصرّون على رأيكم فافعلوا ما تشاءون ولا شأن لي بكم.

تعامل أمير المؤمنين (ع) مع الخوارج

فكان ردّ فعلهم أن انفصلوا عن خطّ علي عليه السلام وخرجوا عليه، وأصبحوا فرقة تدعي بالخوارج. ثم إنهم عملوا ما في وسعهم لإيذاء الإمام والإساءة إليه. ولكن عليّاً عليه السلام استعمل أقصى حدّ ممكن من المداراة معهم ما دام أنّهم لم يشهروا السيف، حتى أنه لم يقطع حقوقهم من بيت المال، ولم يقيّد حرّياتهم. وكانوا يأتون إليه أمام الناس ويتجسرون بحضرته إلى حد توجيه الإهانات الوقحة، ولكنه عليه السلام كان يعتصم بالحلم ولا يردّ عليهم.

فمثلاً بينما كان الإمام عليه السلام يوماً على المنبر يخطب، كان أحد هؤلاء يصدر أصواتاً غير مهذّبة.

وفي يوم آخر سأله أحد الناس مسألة فأجابه بجواب بليغ أثار تعجّب الحاضرين واستحسانهم فارتفعت أصواتهم بالتكبير، ولكن خارجيّاً كان بينهم فقال: «قاتله الله ما أفقهه!» فأراد أصحاب عليّ عليه السلام أن ينقضوا عليه فقال لهم الإمام: رويدكم، ماذا تريدون منه؟ إنه سبّني، ولكم فقط أن تردوا عليه سبابه لا أكثر.. اتركوه وشأنه.

وفي يوم ثالث كان عليّ عليه السلام منشغلاً بالصلاة والناس يصلّون خلفه (طبعاً لم يكن الخوارج يقتدون به لأنهم سبق أن أفتوا بكفره). وبينما كان يقرأ الحمد والسورة جاء أحدهم ويدعى «ابن الكوّاء» وأخذ يقرأ هذه الآية بصوت عالٍ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فكان يريد أن يقول: يا عليّ نحن نقرّ بأنك أوّل من دخل في الإسلام، ونعترف بأن لك سوابق عظيمة وخدمات جليلة للدّين، وأنك من المجتهدين في

العبادة.. ولكن لأنك كفرت وجعلت لله شريكاً (إشارة إلى مسألة التحكيم) فقد حبط عملك وليس لك أجر عند الله!!.

فماذا كان من عليّ عليه السلام؟ إنّه ما إن بدأ الخارجيّ بتلاوة هذه الآية حتى توقف الإمام عن القراءة عملاً بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ ولما انتهى من التلاوة عاد الإمام إلى قراءته، وهكذا ظل الخارجيّ يكرّر الآية وفي كل مرّة كان الإمام يسكت وينصت ثم يعود ويواصل. وفي المرّة الرابعة واصل الإمام صلاته ولم يلتفت، وقرأ هذه الآية: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

أصول مذهب الخوارج

هل اقتنع الخوارج بهذا القدر من الإيذاء؟ كلا، ولو كانوا فعلوا لما كوّنوا مشكلة كبيرة بالنسبة إلى عليّ عليه السلام. ولكننا نراهم أخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً حول بعضهم، وشكلوا حزباً، بل فرقة إسلامية منشقة (عندما أقول إسلامية لا أعني أنّهم في الواقع جزء من المسلمين، فهم في نظرنا كفار خرجوا من الدّين)، وابتدعوا مذهباً جديداً في دنيا الإسلام. واصطنعوا لمذهبهم أصولاً وفروعاً.. وقالوا: ليس منّا إلا من يعتقد بالدرجة الأولى بأن كلاً من عثمان وعليّ ومعاوية، وكذلك كل من رضي بالتحكيم، جميعهم كفّار على السواء، ونحن أيضاً بدورنا كفرنا ولكنّنا تُبْنا، وكل من لا يتوب لا نعتبره مسلماً أبداً!.

وقالوا أيضاً: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسألة مطلقة لا تُقيّد بأي شرط، فيجب القيام ضد الإمام الجائر أيّاً كان وفي كل الظروف، ولو حصل اليقين بعدم جدوى هذا القيام! وهذه الفتوى صبغتهم بصبغة بالغة العنف والخشونة.

ووضعوا أصلاً آخر لمذهبهم يحكي عن جهالتهم وضيق نظرهم، فقالوا: إن العمل جزء من الإيمان، وليس لدينا إيمان منفكّ عن العمل، فالإنسان لا يصبح مسلماً بتلّفظ الشهادتين، بل ينبغي أن يضمّ إلى ذلك أداء فريضة الصلاة والصيام وكافة العبادات المفروضة، وكذلك أن لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار ولا يزني ولا يكذب وأن يجتنب الكبائر جميعها، لكي يصحّ إطلاق اسم المسلم عليه، وإذا كذب المسلم كذبة واحدة خرج أصلاً من الإسلام وأصبح

كافراً نجساً! وكذلك إذا اغتاب أو شرب الخمر ولو لمرّة واحدة، وهكذا فمرتكب الكبيرة عندهم خارج عن دين الإسلام.

واصطنعوا ـ أيضاً ـ سلسلة من الأصول الأخرى، التي يستفاد من مجموعها أنهم اعتبروا أنفسهم المسلمين الوحيدين على وجه الأرض وأخرجوا بقيّة الطوائف بذلك عن حظيرة الإسلام.

وحيث أن أحد أصول مذهب الخوارج هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلقاً دون أي قيد أو شرط، كما ذكرنا.. وحيث أنّهم اعتبروا علياً عليه السلام كافراً. إذن لم يبق أمامهم طريق إلا القيام ضده والثورة عليه. فنصبوا خيمة خارج معسكر عليّ عليه السلام، وأعلنوا التمرّد والعصيان رسمياً وبلا سابق إنذار. واتبعوا في تمرّدهم أساليب بالغة الغلظة والخشونة.. ولأنهم لم يكونوا يعتبرون الآخرين من المسلمين فقد قرّروا أن لا يزوّجوهم ولا يتزوّجوا منهم، وحرّموا أيضاً ذبائحهم، والأكثر من ذلك أنّهم أهدروا دمهم وجوّزوا قتل أطفالهم ونسائهم، وارتكبوا سلسلة من أعمال السلب والنّهب والقتل ضد المسلمين، وأصبحت أوضاعهم بذلك بالغة الغرابة حقّاً!!.

وكمثال واحد على أعمالهم الإجرامية.. أنّه كان أحد صحابة النبي صلى الله عليه وآله يمر بمنطقتهم بصحبة زوجه الحامل، فاعترضوا طريقه وطلبوا منه أن يتبرّأ من عليّ عليه السلام فلم يفعل. فما كان منهم إلا أن قتلوه أبشع قتلة، وبقروا بطن امرأته بالرماح لأنه بزعمهم كافر مهدور الدم. وبقدر ما كانوا يستبيحون حرمات الآخرين، كانوا يتشدّدون فوق الحد في المحافظة على حرمات اتباعهم، فمثلاً كان جماعة منهم يمرّون ببستان نخيل يتعلّق بأحد الموالين لهم، فمدّ واحد منهم يده واقتطف حبّة من التمر وضعها في فمه فما كان منهم إلا أن انهالوا عليه يهدّدونه ويتوعّدونه ويغلظون له القول، لأنه بنظرهم تعدّى على مال أخيه المسلم!.

مواجهته عليه السلام للخوارج

وأخذ أمرهم يستفحل أكثر فأكثر إلى أن وجد الإمام عليه السلام نفسه مضطراً إلى أن يضرب معسكراً في مقابلهم، وكان عددهم قد بلغ حوالي اثني عشر ألفاً، وأصبحوا يشكّلون خطراً جدّياً بحيث لا تجوز المهادنة معهم وإرخاء الحبل لهم أكثر من ذلك. وأرسل إليهم ابن عباس مندوباً عنه يناقشهم ويفاوضهم، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئاً معهم وعاد خالي الوفاض.

فذهب إليهم أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه، وكان حديثه معهم مؤثّراً بحيث أنّ كثيراً منهم ندموا على عملهم وطلبوا قبول توبتهم، فأمر عليّ عليه السلام بنصب راية أمام معسكره، وأعلن أن كل من يأوي من الخوارج إلى هذه الراية فهو في أمان. وكان الذين رجعوا وتجمّعوا تحت راية الأمان ثمانية آلاف رجل منهم، أمّا الأربعة الآلاف الباقون فأصرّوا على موقفهم وأعلنوا استحالة رجوعهم عن عقيدتهم. وعند ذاك شنّ عليهم الإمام بجيشه هجوماً عنيفاً وأعمل فيهم السيف برغم كونهم من العابدين الزاهدين. والمصلّين الخاشعين الذين كثرت الثفنات والقروح في أيديهم وجباههم من كثرة السجود!! وظلّ يضرب منهم الرقاب إلى أن أتى عليهم جميعاً، ولم ينجُ منهم إلا أقلّ من عشرة أشخاص بينهم عبد الرحمن بن ملجم.

وهنا لا بدّ لنا من وقفة نتأمّل فيها هذا الموقف الخطير الذي اتّخذه الإمام تجاه هذه الفرقة الضالّة، وهل أن اتّخاذ مثل هذا الموقف أمر ميسور لشخص آخر غير الإمام عليّ عليه السلام؟.

إن عامة المسلمين آنذاك وخصوصاً الذين كانوا يقاتلون تحت لواء

عليّ ﷺ كانوا ينظرون إلى أفراد هذه الفرقة على أنهم من المسلمين، وأن اختلافهم مع القيادة لا يخرجهم من حظيرة الإسلام، سيّما وأنهم أهل عبادة وزهادة وآثار القداسة بادية على محيّاهم، وهم يحرّمون على أنفسهم حتى الصغائر، ويتعصّبون للدين بشكل يصعب على أي أحد ليس عنده بصيرة حادة وبصر نافذ أن يحكم عليهم بالكفر ويجوّز قتلهم. وفي الواقع لا يمكن أن يتجرّأ أحد على قتل أفراد المسلمين متديّنين لا يفارق ذكر الله وقراءة القرآن شفاههم، إلاّ نوعان من الناس:

النوع الأول: أناس لا يعتقدون بالله واليوم الآخر ولا بالإسلام، مثل جماعة يزيد الذين قتلوا الحسين ﷺ وأصحابه.

النوع الثاني: أناس يملكون من العلم والبصيرة ما يتمكنون به من اختراق ستار القداسة والجلالة ليصلوا إلى الجوهر الخبيث الكافر. وهذا النوع ينحصر في فرد واحد وهو شخص الإمام علي ﷺ.

يقول أمير المؤمنين ﷺ في نهج البلاغة: «أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها واشتد كَلَبها»..

يقول ﷺ بافتخارٍ أنا الذي وجّهت ضربة قاصمة للخوارج، ولم يكن أحد غيري يملك الجرأة على تصفية أولئك المنشقّين وإخماد فتنتهم. وقد تمّ هذا الأمر كما يقول الإمام: «بعد أنا ماج غيهبها واشتدّ كلبها..».

والشق الأول من هذه العبارة يشير فيه إلى ظلمات الشبهات والشكوك التي كانت ترسل أمواجها بين المسلمين لتغمرهم، وتجعل هذا الأمر ملتبساً عليهم، بحيث لا يتمكنون أن يخرجوا من دائرة الحيرة والتردّد في أمر هؤلاء[1].

---

(١) كانت الأوضاع من الغموض والالتباس، بحيث أن رجلاً كابن عباس (ذلك العالم الكبير الذي ذهب لمقابلتهم والحديث معهم) وقع في الشك والتردّد أيضاً، وتحيّر في أمرهم! لقد كان الظلام والضباب مسيطراً على الأجواء، ولم يكن من السهل آنذاك على أي جندي مسلم يريد أن يقاتل باسم الإسلام، أن يكون مطمئناً إلى أن قتاله لهؤلاء هو لصالح الإسلام وهو يرى آثار العبادة بادية بوضوح على وجوههم. وإذا رفع سيفه في مقابلهم، فإن يده ترتجف بل ويرتجف قلبه ويقول في =

والشق الثاني يشير فيه إلى استعار هذه الفتنة وقابليتها الكبيرة للانتشار بين المسلمين باحتكاكهم مع هؤلاء، تماماً مثل انتشار مرض الكَلَب بين الذين يحتكّون مع الكلاب المسعورة. فكما أن كل من يرى كلباً مسعوراً يعطي لنفسه الحق بأن يقتله حتى لا يعض الآخرين ويسعرهم فإن الإمام عليه السلام يقول: لقد رأيت هؤلاء الكلاب المسعورة وأدركت خطرهم على الإسلام والمسلمين حالياً وعلى مرّ العصور والأجيال، ورأيت أن لا مفرّ من إعدامهم، وإلا فإنهم سرعان ما ينقلون مرضهم إلى غيرهم، ومن ثمّ يغرقون المجتمع الإسلامي في بحار الحماقة والجهل، والجمود والتحجّر الفكري.

= نفسه. كيف أرفع السيف في وجوه مثل هؤلاء؟؟ إن الحقيقة هي أنه لو لم يكن عليّ عليه السلام لما كان هناك أحد على قتال الخوارج أبداً، ولو لم يكن أولئك الذين في ركاب علي عليه السلام مطمئنين تماماً إلى بصيرة علي عليه السلام وكفاءته التامّة لكان من المستحيل أن يرفعوا السيف في وجوه أولئك القوم، ونحن نعطيهم الحق في ذلك فلو كنّا نحن في مكانهم لما امتدّت يدنا أبداً لقتل أناس يتلّبسون بالإسلام والديانة.

مميّزات الخوارج

كان للخوارج عدة مميّزات:

واحدة منها هي الشجاعة الفائقة وروح الفداء العظيمة التي كانوا يتحلّون بها، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تصرّفاتهم كانت تصدر عن عقيدة راسخة. ولهم قصص عجيبة مذكورة في التأريخ تبيّن مدى إقدامهم وتضحياتهم في الحرب.

والميزة الأخرى أنهم متنسّكين يجتهدون كثيراً في العبادة، وهذا ما أوقع سائر المسلمين في الشك والشبهة حيالهم، ولذلك لم يكن أحد غير عليّ عليه السلام يمتلك الجرأة على قتلهم.

والميزة الثالثة هي الجهل الزائد والحماقة العجيبة التي كانت تسيطر عليهم وتجعل أفكارهم جامدة متحجرة ولا يتنازلون عن قناعاتهم الباطلة أمام الدليل والبرهان.

والميزة الرابعة هي الدور الذي لعبوه ويلعبه اليوم أشباههم، وهم مع الأسف كثيرون في عالمنا الإسلامي. وهو الدور المتمثّل في مساعدة المنافقين والمغرضين في تمرير خططهم وتنفيذ أهدافهم المعادية للإسلام والمسلمين.

وكان مما خاطبهم به عليّ عليه السلام: «ثمّ أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه..» عجيب! كيف يخاطب الإمام أولئك العبّاد المقدّسين الذي نهكتهم العبادة والزهادة، بهذه العبارة العنيفة! في حين أن الآخرين عندما كانوا ينظرون إليهم كانوا لا يرون إلاّ أنهم أناس مسلمون جديرون بالاحترام، ولكنّ

تحليل الإمام لهم والذي استوجب مخاطبتهم بهذه الصفة، وهو أنهم بزعم مظهرهم الخارجي فإنهم ليسوا في الواقع إلاّ وسيلة فعّالة بيد الشيطان، فهم بمنزلة السهام التي يضعها في قوسه ويطلقها ليصيب بها أهدافه الخبيثة.

ولقد استفاد أفراد منافقون مثل عمرو بن العاص ومعاوية من هؤلاء المتديّنين القشريين كأدوات للوصول إلى ما يريدون. لقد كان ابن العاص ومعاوية وأشباههما يعرفون تماماً من هو عليّ عليه السلام لأنهم كانوا من العلماء والملمّين بحقائق الأشياء. فهذا معاوية كما يشهد التأريخ كان كلّما يأتي إليه أحد صحابة عليّ عليه السلام المقربين بعد استشهاده عليه السلام، كان يطلب منه أن يصف له عليّاً وعندما كان يسمع الوصف كانت دموعه تجري بغزارة ويقول: «هيهات أن يلد الدهر رجلاً مثل عليّ». ولمّا كان حبّ الدنيا قد غلبه، ولما كان يعلم أنه غير قادر على مواجهة هذه الشخصية العظيمة بالطرق الاعتيادية. فإنه لم يجد أمامه من يعينه لتحقيق أهدافه إلا هؤلاء الخوارج السريعي الإنخداع والذين كانوا مستعدّين لتكرار كلّ ما يلقّنه لهم المغرضون من اتهامات زائفة، حتى لو وصل الأمر إلى اتهام عليّ عليه السلام بالكفر والشرك!!.

وهذه المصيبة استمرّت عبر العصور وإلى يومنا هذا، فلم يسلم علماؤنا ورجالنا المخلصون على مرّ الزمن من توجيه أبشع التهم إليهم على هذا النسق الذي ذكرناه.. وأنقل لكم هنا هذه القصة، لكي يتنبّه المسلمون ولا يكونوا أمثال خوارج النهروان، ولا يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا سهاماً في جعبة الشيطان.

اتصل بي أحد الأصدقاء يوماً وقال: سيدي، لقد سمعت أمراً عجيباً، إن إقبال الباكستاني الذي أقمتم له حفلاً تأبينياً قبل فترة، هو نفسه الذي يقولون أنه وجّه في كتابه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام الإهانة والشتائم! فقلت: ما هذا الكلام؟ قال: انظر الصفحة الفلانية من الكتاب الفلاني. قلت: هل قرأت ذلك بنفسك؟ قال: كلا، ولكن الخبر نقله لي أحد أصدقائي الثقات. فانصعقت حينها، وقلت في نفسي متعجباً كيف أن بعض أصدقائي من أمثال السيد (سعيدي) والذين كانوا قد قرأوا ديوان إقبال من أوله إلى آخره لم يتنبهوا لشيء

من هذا القبيل! ثم إني اتصلت بالسيد (غلام رضا سعيدي) وطرحت عليه المسألة فتحيّر وقال: لا لم أقرأ شيئاً كهذا. فقلت: عجباً أيمكن لأحد أن يطلق كذبة كبيرة كهذه؟! وبعد قليل تذكّر شيئاً فجاء وقال: لقد أدركت السرّ.. فالقصة هي أن هناك شخصين أحدهما يدعى جعفر والآخر صادق، وعندما جاء الإنجليز واحتلّوا بلاد الهند ثار المسلمون ضدهم، فتواطأ هذان مع الأجانب ووجّها طعنه من الخلف إلى تلك النهضة الإسلامية وتسببا في القضاء عليها. فأخذ إقبال يذمّهما في كتابه، وأنا أظّن أن الاشتباه الذي وقع ناشىء من هنا، فقلت: سوف نرى بأنفسنا، فأحضرنا الكتاب وفتحنا الصفحة التي أشار إليها صاحب التلفون فإذا بإقبال يكتب هكذا: في أي مكان في الدنيا رأيت خراباً فاعلم أن وراءه جعفر أو صادق. وقبلها بصفحتين يقول أيضاً:

جعفر من «البنغال» وصادقاً من «دكن»

(كلاهما) عار الدين وعار الدنيا وعار الوطن

إنه يذكر جعفراً «البنغالي» وصادقاً «الدكني»، فهل الإمام جعفر الصادق عليه السلام من أهل «البنغال» أم أهل «دكن»؟!.

وبعد ذلك قمنا بتحقيق تاريخي فاتّضح لنا أن الإنجليز عندما احتلّوا الهند كان هناك زعيمان شيعيّان أحدهما يدعى سراج الدين والآخر «طيفو سلطان» (يظهر أن الأول كان في جنوب الهند والثاني في شمالها)، فثار هذان البطلان ضد الإنجليز (حيث مدحهما إقبال في كتابه غاية المدح)، وهنا قام الإنجليز باصطناع شخص لهم باسم جعفر في جبهة سراج الدين، وآخر باسم صادق في جبهة «طيفو سلطان» وكان هذان الشخصان من الخونة المتواطئين، فقاما بنقل الأخبار والأسرار للمستعمرين ممّا ساعدهم في سحق هاتين الانتفاضتين وبالتالي تمكنوا من بسط نفوذهم على بلاد الهند لمدّة ثلاثمائة سنة.

والآن وبعد مرور ثلاثة أشهر على إقامة ذلك الحفل التأبيني، فإنه يندر أن يمرّ يوم دون أن أواجه نفس السؤال، وأجد من يقول لي: يا سيدي، إن هذا الشاعر الذي تنشدون قصائده في مدح الحسين عليه السلام لماذا يتعرّض للإمام جعفر الصادق بالشتم؟.

والشيء المضحك الذي آلمني كثيراً، هو أن القضيّة انعكست في المحافل غير الإسلامية، فأصبحوا يقولون هناك بسخرية: إن إقبال الباكستاني هجا «جعفر البنغالي» و«صادق الدكني»، بينما المسلمون حيثما جلسوا كانوا يقولون: إن أقبالاً شتم الإمام الصادق وأهانه!!.

إننا في الواقع نشعر بالخجل أمام تلك المحافل عندما نرى مستوى تفكير المسلمين منخفضاً إلى هذا الحدّ.

هذا هو حال المسلمين اليوم وهو حالهم بالأمس أيضاً، فعندما كان رسول عليّ عليه السلام عند معاوية في الشام، وكان اليوم إذ ذاك يوم أربعاء، أمر معاوية أن يُؤذّن في الناس لصلاة الجمعة، وفعلاً اجتمع الناس وصلّى فيهم صلاة الجمعة! ولم يعترض عليه أحد! وبعد ذلك استدعى الرسول سرّاً وقال له: «اذهب إلى عليّ وقل له: إني قادم إليك بمائة ألف سيّاف مستعدّين أن يصلّوا خلفي صلاة الجمعة في يوم الأربعاء ولا يناقشون في ذلك، فاحسب حسابك واحزم أمرك».

واليوم نرى أن حسينية «إرشاد» أصبحت تتعرض للضغوط لأنها بحثت في يوم من الأيام قضية فلسطين، وطلبت من الناس أن يساعدوا الفلسطينيين. فانتقل هذا الخبر إلى إسرائيل عن طريق جواسيسها الموجودين في هذه المملكة (والذي يحزّ في النفس أن كثيراً من مسلمينا جواسيس لإسرائيل أيضاً) ولا يمرّ يوم إلا وتتعرض فيه حسينية «إرشاد» للحملات الإعلامية وبثّ الشائعات من قبل إسرائيل وعملائها في الداخل[١].

وأنا هنا لا أريد منكم شيئاً إلا أن أقول لكم: لتكن عيونكم مفتوحة. حققوا جيّداً ولا تنخدعوا بالإشاعات المغرضة. واعلموا أن عناصر اليهود في هذه المملكة وكل الممالك الإسلامية الأخرى كثيرون، وأن أياديهم وجواسيسهم وأموالهم تعمل بشكل مستمرّ لا يتوقّف. لا تكونوا من خوارج النهروان، فإلى متى نظلّ نشهر السيف على الإسلام باسم الإسلام.

(١) من البديهيّ أن محاضرة الاستاذ الشهيد هذه كانت قبل استقالته من الهيئة الإدارية لهذه المؤسسة.

وإذا لم نكن نتّعظ من هذه الدروس فممّ إذن نتّعظ؟ لماذا نجتمع كل عام ونقيم المجالس باسم عليّ عليه السلام؟ أليس لأن حياة عليّ عليه السلام تعطينا دروساً؟ وأليس من الدروس البارزة في حياة عليّ، مقاومة خط الخوارج ورفض القشرية والتحجّر في الدين، ومحاربة النفاق، ومكافحة الجهل والجهالة؟؟.

إن علياً عليه السلام لا يريد الشيعيّ الجاهل، ولا يحبّ الشيعة الذين ينخدعون بالشائعات التي يختلقها اليهود والمحتالون فيقولون مثلاً: إن أقبال الباكستاني سبّ إمامكم جعفر الصادق، وبعد ذلك وبسرعة البرق يقوم الشيعة أنفسهم بنشر هذا الخبر بين المسلمين دون أن يقرأوا كتاب إقبال أولاً، أو على الأقل يذهبون إلى السفارة الباكستانية أو إلى أيّ مكان آخر ويسألوا عن تاريخه ليتأكدوا بأنّه ليس ناصبياً وإنما هو من أشدّ الموالين والمخلصين لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

افتحوا عيونكم وآذانكم ولا تقولوا فوراً عندما تسمعون خبراً ما: «هم يقولون هكذا»، بل تحقّقوا في الأمر جيّداً وبعد ذلك قولوا قولكم فيما بينكم وبين الله.

وهاكم مثالاً آخر من التأريخ يحكي عن قصر النظر وضحالة التفكير العجيبين.. فهذا عبد الرحمن بن ملجم يقتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فيقوم بعض المسلمين يصفقون له وينشد أحدهم:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ثم يقول في بيت آخر ما مضمونه بأنه لو وضعت أعمال الخلق جميعاً في كفة ميزان يوم القيامة، ووضعت ضربة ابن ملجم في الكفة الأخرى، لرجحت كفة هذا اللعين!!.

هكذا يصنع الجهل والحمق في المسلمين ويجعل الإسلام بينهم مظلوماً.

استشهاد عليّ (ع)

كان عبد الرحمن بن ملجم أحد أولئك التسعة نفرِ القدّيسين الزهّاد الذين نجوا من القتل في معركة النهروان، حيث اجتمع هؤلاء، وذهبوا في يومٍ من الأيام إلى مكّة، وأبرموا بينهم عهداً عند الكعبة المشرفة بأن يغتالوا كلاً من عليّ عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، لأن هؤلاء الثلاثة ـ بزعمهم ـ هم سبب كل تلك الفتن التي عصفت بالعالم الإسلامي، وبقتلهم وإزالتهم من الساحة سوف تستتبّ أمور المسلمين. وانتخبوا من بينهم ابن ملجم لاغتيال عليّ عليه السلام. وكان قرارهم أن يكون التنفيذ ليلةَ التاسع عشر من شهر رمضان.

يقول ابن أبي الحديد في شرح سبب هذا التوقيت بالذات: «انظروا إلى حماقة هؤلاء! لقد اختاروا ليلة التاسع عشر من شهر رمضان لتنفيذ خطّتهم، لأنهم يعتقدون أن عملهم هذا بمثابة عبادة عظيمة، فلو تمّ في هذه الليلة وهي من ليالي القدر فسوف يكون ثوابه أعظم!!».

وجاء ابن ملجم إلى الكوفة وظلّ مدّة طويلة هناك ينتظر الليلة الموعودة، وفي هذه الأثناء تعرّف على فتاة تدعى (قطام) وكانت خارجيّة مثله، فعشقها وولِه بها. وربّما كان يريد إلى حدّ ما أن ينسى ما كان يجول في ذهنه من أفكار جهنّمية، فذهب إليها وعرض عليها الزواج، فقالت: إنّي موافقة، ولكنّ مهري ثقيل جداً. فقال: اطلبي ما تشائين، فقالت: عندي أربعة شروط.. الأول ثلاثة آلاف درهم. قال: حسناً، قالت: والثاني عبدٌ. قال: حسناً. قالت: والثالث قينةٌ. قال حسناً. قالت وأما الشرط الرابع فهو رأس عليّ بن أبي طالب. هنا

اضطرب ابن ملجم فقد كان يعتقد أنه بهذا الزواج إنّما يبعد نفسه عن التفكير في قتل عليّ عليه السلام فقال: كنّا نريد أن نتزوج لنعيش حياة سعيدة، ولكن قتل عليّ لا يدع مجالاً لحياة كهذه. قالت: هو ما أقول لك. فإذا كنت تريد وصالي يجب عليك أن تقتل عليّاً. فإذا بقيت حيّاً وصلت إليّ، وإذا قتلوك فأنت وشأنك. فظلّ عبد الرحمن أياماً يفكّر في أبعاد هذا الأمر وأنشد خلالها قصيدة منها هذان البيتان:

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ وقتلُ علي بالحُسام المسمّمِ
ولا مَهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتكَ إلاّ دون فتكِ ابن ملجمِ

وبعد تنفيذ الجريمة، وعندما كان عليّ عليه السلام على فراش الموت، كان ينظر إلى تيّارين من الأحداث يخلّفهما وراءه:

أحدهما تيار معاوية الذي كان على رأس القاسطين والمنافقين.

والآخر تيار القدّيسين المزيّفين وهم الخوارج المارقون.

وهذان التياران يضاد أحدهما الآخر.

فكيف يتصرّف أصحاب عليّ عليه السلام من بعده؟.

يقول علي عليه السلام في وصيّته: «لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه» يريد أن يقول: صحيح أن الخوارج قتلوني، ولكن لا تقتلوهم أنتم من بعدي لأن قتلهم بعد ذلك لن يكون لصالح الحق والحقيقة، وإنما سيكون لصالح معاوية وجماعته. فخطر معاوية خطر من نوع آخر، لأن هؤلاء أرادوا الحقّ ولكنهم بحمقهم وجهلهم لم يصلوا إليه، ولكن معاوية منذ البداية كان يريد الباطل على علم وقد وصل إلى هدفه. وهكذا نرى أن عليّاً عليه السلام لم يكن يحمل في قلبه حقداً شخصياً على أيّ أحد، وعندما كان يتكلّم فإن كلامه كان موزوناً وموضوعياً يهدف من ورائه المصلحة العامّة دون أن يكون للعواطف أيّ أثر فيه.

وعندما أسروا ابن ملجم وأحضروه إلى أمير المؤمنين وهو على فراش الموت، تحدّث معه الإمام بصوت خافت من أثر الضربة وقال له بعتاب: لِمَ

فعلت هكذا؟ هل كنت بئس الإمام لك؟ (لا أدري كم مرة تحدّث الإمام عليه السلام معه ولكن كل ما أنقله لكم مذكور في التاريخ). وفي إحدى المرّات، ويبدو أنه وقع تحت تأثير كلمات أمير المؤمنين عليه السلام البليغة، وأدرك مدى جرمه وخطيئته، قال: أفأنت تنقذ من في النّار؟ يريد أن يقول: لقد استحققت النار بعملي هذا، ولا اعتقد أن أحداً يستطيع أن يشفع لي غداً... وفي مرّة أخرى ردّ على أمير المؤمنين عليه السلام بخشونة وقال: يا عليّ، لقد كنت على الدوام أدعو ربّي أن يقتل بهذا السيف أشقى خلقه. فقال الإمام عليه السلام: اعلم، أن دعاءك هذا قد استجيب، لأنك سوف تقتل بنفس سيفك هذا.

وغادر عليّ عليه السلام هذه الدنيا بعد منتصف ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك. وكان ذلك في مدينة الكوفة العظيمة، وكان أهل الكوفة جميعهم ما عدا تلك الشرذمة الباقية من خوارج النهروان، يريدون أن يشاركوا في تشييع جنازة أمير المؤمنين عليه السلام. ولكن ما إن فاضت روحه الشريفة حتى قام أبناؤه الحسن والحسين ومحمّد بن الحنفية وأبو الفضل العبّاس، ونفر من خواصّ الشيعة ربّما كانوا لا يتجاوزون الستة أشخاص، بغسله وتكفينه سرّاً. ودفنوه ليلاً في مكان يبدو أنّه عليه السلام كان قد عيّنه لهم سابقاً، وهو نفس مدفنه الشريف الحالي، والذي تذكر الروايات أن عدداً من الأنبياء العظام ـ أيضاً ـ مدفونون في نفس تلك البقعة. ثمّ أخفوا مكان القبر ولم يطلعوا أحداً من الناس عليه.

وفي الصباح ـ فقد ـ علم الناس أن أمير المؤمنين عليه السلام دفن الليلة البارحة، ولكن أين؟ لا يدرون. وحتى أن بعض المؤرخين كتبوا أن الإمام الحسن عليه السلام أرسل جنازة وهميّة إلى المدينة لكي يظنّ الناس أن جثمان عليّ عليه السلام قد تمّ نقله ودفن هناك. وهذا التمويه كان يقصد منه أن لا يقوم من تبقّى من الخوارج بالتجاسر ونبش قبر أمير المؤمنين عليه السلام وإخراج الجثمان الشريف. وطالما كان للخوارج وجود ونفوذ بين المسلمين.

لم يكن أحد غير أولاد عليّ عليه السلام وأولاد أولاد (الأئمة الأطهار عليهم السلام) يعلم بمكان دفنه عليه السلام. وظل الحال كذلك إلى أن انقرض الخوارج بعد مائة

عام تقريباً وبعد أن انقضى عهد بني أميّة وجاء عهد بني العباس، وزال من يُخشى انتهاكه لحرمة القبر الشريف. وعندها قام الإمام الصادق عليه السلام ـ لأول مرّة ـ بإظهار محل قبر أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول (صفوان) الذي نشاهد اسمه في سند رواة دعاء علقمة الذي يُقرأ بعد زيارة عاشوراء: «كنت عند الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة، فجاء بنا إلى بقعة وقال: هنا قبر عليّ عليه السلام. وأمرنا أن ننصب عريشاً على القبر، ومنذ ذلك الوقت أصبح قبر أمير المؤمنين عليه السلام معروفاً للناس..».

السلام عليك يا أبا الحسن. السلام عليك يا أمير المؤمنين.

الفصل الثاني

صلح الإمام الحسن (ع)

القسم الأول

إنّ مسألة صلح الإمام الحسن عليه السلام كانت منذ القدم[١] وعلى مرّ الزمن مورد استفهام وتساؤل: وفي زماننا الحاضر تكثر الأسئلة والاستفسارات في هذا الباب، وخصوصاً عندما تجري المقارنة بين صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ومحاربة الإمام الحسين عليه السلام ليزيد ورفض التسليم له. وقد يتراءى ـ لأولئك الذين لا يتعمّقون في بحث هذه المسألة ـ أنّ هذين الأسلوبين متضادين في جوهرهما، ولهذا زعم بعضهم أن طبع الإمام الحسن عليه السلام وروحه يختلف أساساً عن طبع وروح الإمام الحسين عليه السلام. وعلى هذا فالإمام الحسن عليه السلام كان بطبيعته رجلاً مسالماً بينما كانت طبيعة الإمام الحسين عليه السلام هي التمرّد والثورة.

وبحثنا هنا هو: هل أن قبول الإمام الحسن عليه السلام بتوقيع معاهدة الصلح مع معاوية، ورفض الإمام الحسين عليه السلام كل أشكال التسوية والمهادنة مع يزيد، ناشىء عن روحيتين مختلفتين ومتضادتين. بحيث لو افترضنا أن الإمام الحسين عليه السلام كان في مكان الإمام الحسن عليه السلام لقاتل إلى آخر قطرة من دمه،

---

(١) في حياة الإمام الحسن عليه السلام اعترض بعض المسلمين عليه وناقشوا معه مسألة قبول الصلح، وظلت هذه المسألة في زمن الأئمة التالين مورداً للتساؤل من قبل بعض الناس.

وكذلك لو كان الإمام الحسن في كربلاء مكان الإمام الحسين عليه السلام لم تكن تقع الحرب أصلاً ولكانت النتائج في الحالتين تختلف عمّا حصل فعلاً؟.

أم أن هذا الأمر يرتبط فقط بالظروف المختلفة، حيث أوجبت ظروف الإمام الحسن عليه السلام شيئاً بينما أوجبت ظروف الإمام الحسين عليه السلام شيئاً آخر؟.

طبعاً، نحن نوافق من سبقنا من الباحثين على أن اختلاف الظروف والأحوال هو الذي تسبّب في اختلاف القرار سلماً أو حرباً، وأن الدافع في كل الأحوال كان توخّي المصلحة العامّة لا غير.

ولكن قبل أن نبحث في تلك الظروف المختلفة ينبغي أن نطرح مبحثاً أساسياً يرتبط بالموضوع الذي نحن بصدده، وهذا المبحث يتعلق بمسألة الجهاد في الإسلام، لأن كلا الموقفين المختلفين (موقف الإمام الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين عليه السلام) يرجعان بالتالي إلى هذه النقطة بالذات والتي بيّنتها التعاليم الإسلامية.

إذن سوف نقوم بعرض كلّيات الإسلام في باب الجهاد حيث لم نشاهد من الباحثين من تطرّق إلى هذا الموضوع في بحثه لمسألة صلح الإمام الحسن عليه السلام ثم بعض ذلك نستعرض حيثيّات صلح الإمام الحسن عليه السلام وحيثيّات حرب الإمام الحسين عليه السلام لكي نتوصّل إلى الأسس التي بُني عليها موقف كلّ من هذين الإمامين.

النبيّ (ص) والصلح

إن هذا الأمر في الواقع لا يختصّ بصلح الإمام الحسن عليه السلام بالذات، فالنبي صلى الله عليه وآله - أيضاً - كان منذ بدء الدعوة في مكّة وحتى إلى السنة الثانية من الهجرة في المدينة، كان يتّبع أسلوب السلم والمسالمة مع الأعداء، وقد كان يتحمّل كل ألوان الأذى من مشركي مكّة، وكان يرى تبرّم المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت أشد أنواع الاضطهاد، وكان بعضهم يموت تحت التعذيب، ولكنّه لم يُصدر الأمر بالجهاد. وكان أقصى ما فعله صلى الله عليه وآله أن أذن لهم بالهجرة من الحجاز إلى الحبشة. ولكن عندما هاجر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة واستتبّ له الأمر هناك نزلت الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. وعندها بدأ عصر الجهاد والقتال في الإسلام.

فهل الإسلام دين حرب أم دين سلام؟.

إذا كان دين سلام، إذن كان ينبغي أن يستمر على هذا المبدأ إلى النهاية بحيث يقال: إن الحرب ليست من الدّين، وإن وظيفة الدّين هي الدعوة وحسب، قبله الناس أم لم يقبلوه.

وإذا كان دين حرب، إذن فَلِمَ مكث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة عشر عاماً في مكّة ولم يحارب المشركين المعتدين ولم يأذن للمسلمين حتى بالدفاع عن أنفسهم؟.

أم أن الأمر ليس كذلك، وإنّما الإسلام دين سلام ودين حرب معاً. فهو يسالم في ظروف معيّنة ويقاتل في ظروف أخرى؟.

ننظر مرة أخرى إلى حياة رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، فنرى أنه كان في بعض الأحيان يحارب المشركين وكذلك اليهود والنصارى. وفي أحيان أخرى كان يبرم اتفاقيّات السلام مع الأعداء، كما حدث في صلح الحديبية حيث هادن مشركي مكّة وهم ألدّ الأعداء لله ولرسوله، ووقّع معاهدة الصلح معهم على الرغم من اعتراض معظم أصحابه، كما وقّع ﷺ في فترة معيّنة معاهدة عدم تعرّض مع يهود المدينة، فكيف كان كلّ ذلك؟.

علي (ع) والصلح

وكذلك نرى أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقاتل في مكان ويتجنّب القتال في مكان آخر. فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وعندما اغتصبت منه الخلافة وهي حقّه الشرعيّ، لم يرفع السيف وكان يقول: أنا مأمور بالقعود فلا ينبغي لي أن أقاتل. وكان يواجه العنف والخشونة باللّين والهدوء، إلى درجة أن الزهراء عليها السلام لم تتمالك مرّةً أن تساءلت قائلة: «مالك يابن أبي طالب! اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين». أي ما الذي جرى يا عليّ حتى انطويت على نفسك كما يفعل الجنين في بطن أمّه. وجلست في حجرتك منعزلاً كما يفعل المتّهم الذي يخجل من مواجهة الناس؟ لقد كنت ذلك الأسد الهصور الذي يهرب الشجعان بين يديه في ساحات الوغى. فكيف تسلطت اليوم عليك هذه الثعالب؟ فكان جواب الإمام لها بما مضمونه إن وظيفتي آنذاك كانت الحرب، واليوم وظيفتي هي القعود والسكوت.

ويمرّ خمسة وعشرون عاماً وعليّ عليه السلام ذلك الإنسان المسالم الذي يبدو أنه لا يبحث إلا عن الهدوء والاستقرار. وعندما يثور الناس على عثمان ـ تلك الثورة التي أدّت إلى مقتله ـ لا نرى عليّاً بين الثائرين ولا حتى بين المؤيّدين لهم. كان مجرد وسيط بين الثوار وعثمان يحاول جهده أن تصل القضايا إلى نتيجة تُلبّى فيها مطالب الثوار العادلة من جهة، ويسلم الخليفة من القتل من الجهة الأخرى.

وهذا المعنى نجده في «نهج البلاغة» كما يشهد عليه التأريخ بصورة قطيعة. . فكان يقول لعثمان إبّان تفاقم الأمور: إني إخشى أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، وإذا حدث ذلك، فإن باب القتل سوف يُفتح على هذه الأمّة وتقوم فتنة بين المسلمين لا تخمد أبداً.

وقبيل خلافة عثمان[١] وعندما جاء الناس إلى عليّ عليه السلام وقالوا له: ماذا ستفعل الآن وما هو موقفك تجاه هذه المؤامرة التي حِيكت ضدك؟ كان جوابه عليه السلام: «والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة..».

ولكن بعد انقضاء عهد عثمان، وبعد أن بايع المسلمون عليّاً عليه السلام بالخلافة، أخذ عليه السلام يسلك طريق الحرب والقوة، وخاض عدة حروب دامية مع أصحاب الجمل وأصحاب صفّين وأصحاب النهروان. إلاّ أنه بعد قضية تمرّد الخوارج، على أثر حيلة رفع المصاحف إشارة إلى رغبة معسكر معاوية في تحكيم القرآن بين الطرفين المتحاربين، ممّا أدّى إلى ظهور الانقسام في معسكر عليّ عليه السلام ولم يعد رأي أمير المؤمنين عليه السلام يجد له آذاناً صاغية، نجد أنه عليه السلام قَبِلَ التحكيم مكرهاً، وقرّر الانتقال من الحرب إلى المفاوضات السلمية التي كان من المحتمل أن تؤدي إلى إقرار السلام لولا أن الطرف المقابل واصل أسلوب المكر والخديعة، وتبيّن للناس أن طلب التحكيم ما هو إلا لعبة سياسية من أجل إزاحة عليّ عليه السلام من الساحة، بعد أن افتضح أمر عمرو بن العاص وشرع هو وخصمه يتبادلان الاتهامات والشتائم قبل أن ينزلا من منبر التحكيم.

وهكذا نلاحظ من دراستنا لسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة عليّ عليه السلام أنهما مرّا في حالات عديدة ومختلفة، فمرة كانا يختاران طريق القيام والحرب، ومرة طريق المهادنة والصلح.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله أو عليّ عليه السلام يلجآن أحياناً إلى المصالحة والمسالمة في حين أن أقصى ما كان يمكن أن يحدث لهما لو قاتلا في هذه المواضع أن يُقتلا، تماماً كما قُتل الإمام الحسين عليه السلام على أثر قيامه

(١) أي بعد أن وقعت قصة مجلس شورى الخلافة الذي عيّنه عمر قبل موته، والذي لم تجر فيه الأمور لصالح عليّ عليه السلام حيث قام عبد الرحمن بن عوف بمناورة مكشوفة لإيصال عثمان إلى مسند الخلافة، وهي تتلخص في أنه عرض على عليّ عليه السلام في المرحلة الأخيرة من التصفيات عرضاً يعلم علم اليقين كما يعلم كثير غيره أنه عليه السلام لا يمكن أن يقبله فقال له: هل تبايعني على أن تعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الشيخين؟ فقال عليّ عليه السلام: أُبايعك على أن أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله واجتهد رأيي. فالتفت إلى عثمان وكرر عليه نفس العرض فأجاب فوراً بالإيجاب ـ بالرغم من أنه لم ينفذ هذا الشرط بعد ذلك ـ وأصبح عثمان بذلك هو الخليفة المنتخب.

في كربلاء. وكذلك نلاحظ أن الأئمة الذين جاءوا بعد الإمام الحسين عليه السلام كان حالهم شبيهاً بحال الإمام الحسن عليه السلام في صلحه ومسالمته، فهل كانوا يخشون الموت أو يتهربون من الشهادة؟.

كلا وحاشاهم.. إذن فالمسألة ليست هي صلح الإمام الحسن عليه السلام وحرب الإمام الحسين عليه السلام بل هي مسألة ينبغي أن تبحث بصورة أكثر شمولاً. ولذلك أذكر فيما يلي فقرات من «كتاب الجهاد» في الفقه، لكي نتوصّل إلى مجموعة من الأصول الكلّية في هذا الباب، ومن ثمّ ندخل في بحث المصاديق والجزئيات.

موارد الجهاد[1] في فقه الشيعة:

نحن نعلم أن الدين الإسلامي يأمر بالجهاد. والجهاد في الإسلام على عدة أنواع:

النوع الأول: هو الجهاد الابتدائي والذي يعني جواز غزو المسلمين لبلاد الكفّار والمشركين ولو بدون سابق خصومة، وذلك بهدف إزالة الكفر والشرك ونشر الإسلام. وشرط هذا النوع من الجهاد أن يكون الفرد المجاهد بالغاً عاقلاً حرّاً، وينحصر الوجوب في الذكور دون الإناث، وكذلك يشترط فيه إذن الإمام المعصوم أو نائبه الخاص، وعلى هذا فإن هذا النوع من الجهاد من زاوية نظر فقه الشيعة ساقط عن المسلمين في زماننا الحاضر.

والنوع الآخر: هو الجهاد الدفاعيّ، وذلك في حالة تعرّض حوزة الإسلام لخطر الأعداء الذين يقصدون واحداً أو أكثر من الأمور التالية:

١ ـ الاستيلاء على الأراضي الإسلامية.

٢ ـ الاستيلاء على الأفراد بمعنى الهجوم على المسلمين وأخذ بعضهم أسرى.

---

(١) ما سوف يذكر من أحكام الجهاد منقول عن كتاب «الشرائع» للعلاّمة «المحقّق»، وكتاب «مسالك الأفهام» الذي هو عبارة عن شرح الشهيد الثاني لكتاب «الشرائع» الذي يحتوي على المتون المسلّم بها في فقه الشيعة، كما أن الشهيد الثاني (ره) يعتبر من علماء الدرجة الأولى للشيعة.

٣ ـ الغارات المقصود منها إبادة المسلمين.

٤ ـ الاستيلاء على أموال المسلمين، ومن ذلك السيطرة على المناجم وآبار البترول الخاصة بهم وأخذ الامتيازات بالقوة لاستغلالها.

٥ ـ انتهاك حرمات المسلمين ومقدساتهم والاعتداء على أعراضهم ونواميسهم.

ويمكن تلخيص ذلك بأنه إذا تعرض أيّ شأن من الشؤون المحترمة للمسلمين من دماء وأموال وأعراض، أو تعرضت أراضيهم لخطر من قبل العدوّ، فيجب هنا على عموم المسلمين من رجال ونساء، أحرار وغير أحرار، وربّما يجب حتّى على غير البالغين أن يشاركوا في الجهاد لدفع خطر العدوّ.

وفي هذا النوع من الجهاد لا يشترط إذن المعصوم ولا نائبه المعيّن من قبله شخصياً.

ومن موارد الجهاد الدفاعيّ في زماننا هذا، هو الوضع الذي أوجده الصهاينة باحتلال جزء من الأراضي الإسلامية وأقاموا في فلسطين دولة إسرائيل الغاصبة.. هنا يجب على كل المسلمين في الوطن الإسلامي الكبير ـ قريبين كانوا أم بعيدين ـ أن ينهضوا ويقاتلوا من أجل إخراج العدو الغاصب وإرجاع فلسطين إلى حوزة الإسلام.

تقول العبارة الفقهية في ذلك: «ولا يختص أي الجهاد الدفاعيّ» بمن قصدوه من المسلمين. بل يجب على من علم بالحال النهوض إذا لم يعلم قدرة المقصودين على المقاومة. أي أن المسلم إذا علم بوجود الحاجة إليه ـ سواءً كان قريباً من مكان الاعتداء أم بعيداً ـ فإن الجهاد يجب عليه، وكلّما كان أقرب كان الجهاد أوجب.

والنوع الثالث: هو ما يُصطلح عليه بالجهاد الخاص، وأجره مثل أجر الجهاد العام، سواء الابتدائي أم الدفاعيّ، والذي يُقتل فيه يعتبر شهيداً، ولكنه يختلف عنه في بعض أحكامه، فمثلاً في الجهاد العام لا يُغسّل الشهيد ولا يكفّن بل يدفن بدون غسل وبنفس ملابسه التي تضرّج بدمائه فيها.

ومن موارده أنه إذا كان هناك على سبيل المثال فرد مسلم يعيش في بلد

الكفّار ثمّ تعرض ذلك البلد إلى غزوة من قبل طائفة أخرى من الكفّار، بحيث يخشى ذلك الفرد على حياته من التلف، فوظيفته هنا أن يحفظ حياته بكلّ صورة ممكنة، وإذا توقف حفظ حياته على اشتراكه في القتال ضدّ الغزاة، وجب عليه ذلك، وإذا قُتل فهو شهيد.

ومن موارده الأخرى أنه إذا تعرّض الفرد المسلم لهجوم عدو أو سطو لصّ يستهدف حياته أو ماله أو عرضه وناموسه، فإنه يجب عليه أن يقاومه ولو كان العدو أو اللص مسلماً. وفي حالة الدفاع عن المال فللمعتدى عليه الحق في المقاومة ولو كان احتمال تعرضه للقتل ٥٠٪. أمّا في حالة الدفاع عن النفس والعرض فتجب المقاومة حتى لو كان احتمال التعرّض للقتل ١٠٠٪ ولا يجوز هنا الاستسلام بأي حال من الأحوال، وإلاّ اعتُبر المعتدى عليه شريكاً في الجريمة.

والنوع الرابع: هو ما يسمّى قتال أهل البغي، أي إذا نشبت بين المسلمين حرب داخلية وأرادت طائفة منهم أن يعتدي على طائفة أخرى، فوظيفة المسلمين هنا بالدرجة الأولى أن يتوسطوا لحل النزاع والمصالحة بين الطرفين، وإذا أعرضت إحدى الطائفتين عن الصلح وأصرّت على القتال، فيجب على المسلمين آنئذٍ أن يقاتلوا هذه الطائفة حتى تخضع وتنصاع لشروط الصلح، والقرآن الكريم يقول في ذلك: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟... ﴿٩﴾ ...فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا... ﴿٩﴾ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

ومن موارد هذا الجهاد أنه إذا خرج جماعة من المسلمين على الإمام العادل لزمانهم، فإنه يجب على المسلمين أن يقاتلوا هذه الجماعة، لأن الحق هو مع الإمام العادل بصورة قهريّة.

وهناك نوع آخر من الجهاد وفيه بعض الاختلاف بين الفقهاء، وهو القيام الدموي دفعة واحدة بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الصلح في فقه الشيعة

وهناك أيضاً مسألة أخرى مطروحة في «كتاب الجهاد» وهي مسألة الصلح، الذي يصطلح عليه بين الفقهاء بـ «الهدنة» أو (المهادنة). فالهدنة تعني الصلح، والمهادنة تعني المصالحة. والمقصود من كل ذلك هو عقد اتفاق لوقف الحرب، أو لعدم التعرّض أو ما يصطلح عليه اليوم باسم اتفاقية التعايش السلمي.

وهنا أذكر بعض عبارات (المحقق) في «الشرائع».. يقول: «المهادنة وهي المعاقدة على ترك الحرب مدّة معيّنة» فالإسلام يجيز هنا للمسلمين أن يعقدوا صلحاً أو هدنة مع الطرف المقابل ولو كان في حدّ ذاته قابلاً للقتال كأن يقول ذلك الطرف مشركاً. ولكن ليس لمدة مجهولة بل ينبغي تحديد المدة قصيرة كانت أم طويلة، وذلك كما فعل النبيّ ﷺ في الحديبية حيث وقع معاهدة صلح مع المشركين لمدة عشرة سنوات.

ويقول بعد ذلك: (وهي جايزة إذا تضمّنت مصلحة للمسلمين). فمثلاً إذا احتلّ العدوّ منطقة إسلامية، فيجب على المسلمين هنا أن يقاتلوا لتحرير هذه المنطقة، ولكن إذا اقتضت المصلحة أن يوقعوا هدنة مع نفس ذلك العدو المحتلّ، فيجوز لهم ذلك مع تحديد مدّة الهدنة، لأن احتلال العدوّ للأرض الإسلامية لمدّة غير محدودة لا يمكن أن يكون مصلحة للمسلمين.

ولكن كيف يكون الأمر بحيث تقتضي مصلحة المسلمين توقيع الصلح مع العدو؟ يقول: (إمّا لقلّتهم..) أي أن عددهم قليل لا يسمح لهم بمقاومة العدوّ.. (أو لما يحصل به الاستظهار). أي إذا كانت عندهم خطة للحصول

على القوة أو الحصول على الدعم والامداد من مكان آخر.. (أو لرجاء الدخول في الإسلام). أي أن يكون لديهم أمل بأن يدخل الطرف المقابل (إذا كان كافراً) في الإسلام عن طريق التأثير المعنوي لدين الإسلام وانهزام العدو نفسياً أمام قوة الحق وحجّته. كما حصل في صلح الحديبية.. (ومتى ارتفع ذلك وكان في المسلمين قوة لم يجز). فإذا زالت الموانع ورأى المسملون أنهم يملكون القوة والقدرة الكافية لدحر العدو، عندها لا يجوز لهم أن يستمروا في مهادنة العدو المحتلّ، بل يجب عليهم قتاله وإخراجه.

وهكذا رأينا كيف أن الصلح مع العدوّ جائز في بعض الحالات، وذلك من زاوية نظر الفقه الإسلامي. والصلح نوعان:

فقد يكون بمعنى إمضاء اتفاق أو معاهدة بين طرفين متحاربين، كما فعل النبيّ صلى الله عليه وآله في الحديبية مع المشركين، وكما فعل الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية.

وقد يكون بمعنى ترك الحرب وسلوك طريق المسالمة، وذلك كما حدث في صدر الإسلام حيث كان المسلمون الأوائل في مكّة قليلين عددياً، ولو أنهم لجأوا إلى القتال والمواجهة آنذاك لأبيدوا جميعهم ولقضي على الإسلام من جذوره ولم يبق له أيّ أثر. ففي هذه الحالة اقتضت المصلحة التريث وعدم اللجوء إلى استخدام القوّة، ففي مدة المهادنة والمسالمة كان يوجد احتمال زيادة عدد المسلمين ونموّ قوّتهم. وكذلك كان يوجد احتمال التأثير المعنوي على المشركين وهزيمتهم روحياً. وهنا أجد من اللازم أن أقوم بشرح لصلح الحديبية لأنه قائم على هذه الأسس، كما أنه يشكّل القاعدة التي استمدّ منها صلح الإمام الحسن عليه السلام أصوله ودوافعه.

صلح الحديبية

قام رسول الله ﷺ في زمانه بإبرام صلح مع مشركي قريش أثار حيرة كثير من أصحابه، بل واستياءهم أيضاً، ولكنهم بعد عامين من إبرام ذلك الصلح أدركوا أن ما عمله الرسول ﷺ كان صحيحاً تماماً. كان ذلك في السنة السادسة للهجرة، وبعد أن كانت قد وقعت بين المسلمين والمشركين عدة حروب دامية في بدر وأُحد وغيرها، ووصلت العداوة بين الطرفين إلى حدها الأقصى، وأصبح كل طرف يطلب الآخر بالثارات ويضمر له الحقد والضغينة. في تلك السنة رأى الرسول ﷺ في منامه رؤيا يبشره الله تعالى فيها بأنه سيدخل هو والمسلمون مكّة فاتحين منتصرين.

وفي شهر ذي القعدة من تلك السنة ـ وهو من الأشهر الحرم التي كان المشركون في زمان الجاهلية يحترمونها ويقدّسونها ويحرّمون فيها القتال ـ عزم رسول الله ﷺ على أن يذهب مع جمع من المسلمين إلى مكّة لأداء فريضة الحج، على أن يرجع بعد ذلك إلى المدينة، ولم يكن يقصد أي شيء غير هذا. أعلن ﷺ عزمه هذا فتجمع حوالي سبعمائة من الأصحاب (وعلى قولٍ ألف وأربعمائة)، وسار الرسول ﷺ بهم بعد أن أحرموا من خارج المدينة لأن حجهم كان «حجّ قِران» وساقوا أمامهم الهدي والقلائد.

وكان زيّ المسلمين وهيئتهم والقرابين التي تسير أمامهم، كل ذلك يدلّ على أنهم حجاج فقط ولم يكن عندهم أيّ نيّة للغزو والقتال. ومن حيث أن هذا التهيّؤ والمسير كان يجري بصورة علنية، فقد وصل الخبر سريعاً إلى قريش، التي خرجت على الفور رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً واعترضوا طريق

المسلمين في مكان يقال له الحديبية، وأقسموا بأن لا يسمحوا لمحمّد ﷺ وأصحابه أن يدخلوا مكّة ولو أدّى الأمر إلى القتال في الشهر الحرام، فخالفوا بذلك حتى القوانين الجاهلية المعتبرة عندهم. ولما رأى النبيّ ﷺ ذلك أمر أصحابه بالنزول وضرب الخيام.

وبدأ الرسل يتنقّلون بصورة منتظمة بين المعسكرين. وفي البداية جاء عدد من الرسل على التوالي من قبل قريش واستفسروا من الرسول ﷺ عن قصده وسبب مجيئه، فأخبرهم ﷺ بأنه جاء للحج فقط وسوف يعود إلى المدينة بعد إتمام المراسم. وكان كلّما يأتي رسول ويرى أوضاع المسلمين ويسمع منطقهم، يرجع إلى قريش ويطمئنهم أن النبيّ ﷺ لا يقصد الحرب مطلقاً وليست عند المسلمين أية نيّة للعدوان. ولكن المشركين أصرّوا على موقفهم.

فقرّر النبيّ ﷺ والمسلمون أن يدخلوا مكّة متحدّين بذلك منع قريش، وحدثت بيعة الرضوان حيث جدّد المسلمون البيعة مع النبيّ ﷺ وعاهدوه على الثبات والقتال معه إلى آخر قطرة من دمائهم.

ولمّا علمت قريش بتصميم المسلمين القاطع وبيعتهم الدموية، أرسلت رجلاً يدعى سهيل بن عمرو مندوباً من طرفها إلى النبيّ ﷺ يعرض عليه الصلح وإبرام اتفاقية بين الطرفين بهذا الصدد، فأعلن النبيّ ﷺ موافقته، وجرت مفاوضات بين المسلمين والمشركين كان نتيجتها توقيع معاهدة صلح تقضي بأن يرجع الرسول ﷺ في تلك السنة إلى المدينة، على أن يأتي في السنة التالية ويعطى حق البقاء في مكّة ثلاثة أيّام ـ فقط ـ يؤدّي فيها العمرة ثم يرجع. وكانت سائر البنود التي تضمّنتها وثيقة الصلح حسب الظاهر ليست لصالح المسلمين، ومن أبرزها هذا البند، وهو أنّ كل من التحق من المشركين بالمسلمين في المدينة فإن لقريش الحق في استرجاعه، بينما لا يحق للمسلمين بالمقابل أن يسترجعوا من التحق منهم بقريش. ولكنّ النبيّ ﷺ اشترط شرطاً واحداً في مقابل كل شروط قريش التعسفية، وهو أن تمنح قريش الحرّية للمسلمين في مكّة وترفع الضغوط والقيود عنهم، وكان ﷺ يؤكّد ويصرّ على هذا الشرط في المفاوضات.

استاء المسلمون كثيراً من هذا الصلح، وقالوا: يا رسول الله، لقد سرنا حتى وصلنا قريباً من مكّة، فهل من الصحيح أن نرجع دون أن نؤدّي المناسك؟ إن هذا عار، فلا بدّ أن نمضي قدماً. فقال لهم الرسول ﷺ: كلا، فالرأي هو الصلح وسوف نلتزم ببنود المعاهدة. ثم أمر ﷺ بذبح القرابين وحلق رأسه علامة الخروج من الإحرام. وفي البداية أبدى المسلمون تردّداً ولكنهم انصاعوا بعد ذلك مكرهين لأمر الرسول ﷺ فذبحوا أضحياتهم وحلقوا رؤوسهم.

وكان أكثرهم إظهاراً لاستيائه ومعارضته عمر بن الخطاب الذي جاء إلى أبي بكر وقال له: أليس هذا نبي الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا مسلمين في مقابل هؤلاء المشركين؟ قال: بلى. قال: إذن فكيف يحدث هذا؟؟ وجاء بعضهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: ألم تخبرنا يا رسول الله بأنك رأيت في المنام أننا ندخل مكّة؟ قال بلى. قالوا: فلماذا إذن لم تصدق رؤياك؟ قال: أنا لم أرَ في المنام بأننا ندخل مكّة في هذا العام بالذات، وإن الرؤيا صادقة وسوف ندخل مكّة حتما بإذن الله.

قالوا: إذن فما هذا البند الذي ينصّ على استرجاع المشركين لكل من يلتحق بنا منهم، في حين أن ليس لنا الحق باسترجاع من يلتحق بهم منّا؟؟ قال ﷺ: إذا أراد شخص منّا أن يلتحق بالمشركين فهو مسلم مرتدّ، ونحن لا حاجة لنا بالمرتدّين ولا يهمّنا استرجاعهم حتى بدون هذه المعاهدة. وإذا التحق شخص منهم بنا فإنّا نقول له: اذهب الآن وعش مع بقية المسلمين حالة الاستضعاف في مكّة وسوف يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً.

وكان لسهيل بن عمرو الذي مرّ ذكره ولد وكان في جيش المسلمين، وبعد التوقيع على المعاهدة فرّ ابنه الآخر (واسمه أبو جندل) من مكّة والتحق بالمسلمين في المدينة، فجاء سهيل وطالب النبيّ ﷺ بإرجاع ابنه بموجب الاتفاق الموقّع، وفعلاً أمر النبيّ ﷺ أبا جندل بالعودة إلى مكّة على الرغم من توسّله واستغاثته ومناشدة بعض المسلمين للرسول ﷺ أن يستثني هذا الشخص فقط، ولكنه ﷺ قال: حتى هذا يجب أن يرجع ويجب أن ننفّذ الاتفاق بدقّة.

وبعد توقيع صلح الحديبية زالت كثير من القيود التي كانت تكبّل المسلمين في مكّة، وأصبح بإمكانهم التبليغ للدين الإسلامي بحرّية، وفي خلال سنة واحدة أو أقلّ دخل من قريش في الإسلام عدد يفوق ما دخله منهم في العشرين سنة التي تلت البعثة. وبعد ذلك أخذت الأوضاع تتبلور بشكل سريع لصالح المسلمين بحيث أن قريشاً ما لبثت أن رأت أن بنود المعاهدة التي أرادت أن تقيّد بها خصومها قد بدأت تتميّع وتفقد محتواها بالنسبة لها. وأخذت مكّة تشهد نشاطاً واسعاً ماديّاً ومعنويّاً لصالح الإسلام.

وفي أطراف قضية صلح الحديبية تروى هذه القصة اللطيفة: كان هناك رجل من المسلمين في مكّة يدعى أبا بصير وكان رجلاً شجاعاً وقويّاً، وحدث أن فرّ أبو بصير هذا من مكّة بعد توقيع الصلح وجاء إلى جوار النبيّ صلى الله عليه وآله. وطبق الاتفاقية أرسلت قريش رجلين لاسترجاع هذا الشخص، فأمره النبيّ صلى الله عليه وآله بمرافقتهما والرجوع معهما وقال له: إن بيننا وبين قريش اتفاقاً وليس في ديننا أن نخالف الاتفاق وننقض العهد، وكلّما توسل أن لا يسلّموه إلى المشركين حتى لا يخرجوه من دينه كان الرسول يأمره بالامتثال ويطمئنه بأن الله تعالى سوف يدبّر الأمور بما فيه الصلاح. فامتثل للأمر وسار مقيّداً مع الرجلين وكانا مسلّحين. وفي الطريق وفي مكان يقال له «ذو الحليفة» تعب القوم من المسير فأووا إلى ظلّ شجرة ليستريحوا قليلاً، وفي أثناء ذلك غافلهما أبو بصير وفكّ قيده دون أن يشعرا، وكان أحدهما يمسك بسيفه قريباً منه فقال له: ما أجمل سيفك هذا، أعطنيه أتأمّله قليلاً. فما إن ناوله السيف حتى وثب عليه وضرب عنقه بصورة خاطفة، ولمّا رأى الآخر هذا المنظر فرّ هارباً بسرعة ونقل الخبر إلى جماعته.

ورأى أبو بصير أن لا فائدة من العودة إلى المدينة لأن الرسول صلى الله عليه وآله يستطيع أن يجير المسلمين الفارّين بسبب المعاهدة، فقرّر أن يذهب إلى مكان بجوار البحر الأحمر يقع على طريق القوافل التجارية، ويؤسس له قاعدة هناك يغير منها على قوافل قريش ويحصل من الغنائم على ما يدير به شؤونه. ولما علم مسلمو مكّة بهذه القصة، أخذ الواحد منهم تلو الآخر يفرّون من مكة ويلتحقون بأبي بصير،

حتى بلغوا حوالي سبعين رجلاً وشكّلوا قوة معتبرة، وأخذوا يهدّدون قوافل قريش بشكل جدي وخطير، حتى اضطرت قريش إلى أن تكتب كتاباً إلى رسول الله ﷺ وترجوه أن يطلب من أبي بصير وجماعته أن يذهبوا إلى المدينة، فقد صرفت قريش النظر كليّاً عن ذلك البند الخاص باسترجاع المسلمين.

وعلى أي حال، فقد هيّأ صلح الحديبية الأرضية المعنوية للمسلمين لكي يزيدوا من نشاطهم بعد أن حصلوا على الحرية في مكّة، وأخذ الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، وزالت بالتدريج تلك القيود التي كانت تكبّل المسلمين في الماضي.

والآن نأتي إلى ظروف زمان الإمام الحسن عليه السلام وظروف زمان الإمام الحسين عليه السلام ونتساءل: هل أنها كانت مختلفة؟.

ثم نتساءل: هل أن الإمام الحسن عليه السلام لو كان مكان الإمام الحسين عليه السلام. لكان يفعل مثل ما فعل الإمام الحسين عليه السلام، وبالعكس لو كان الإمام الحسين عليه السلام مكان الإمام الحسن عليه السلام هل كان يفعل مثل ما فعل الإمام الحسن عليه السلام؟.

الجواب المسلم به لكل هذه التساؤلات هو الإيجاب قطعاً.

وهنا أريد أن أركّز على نقطة سبق طرحها وهي أنه إذا سألنا أحد: هل أن الإسلام دين صلح أم دين حرب؟ فماذا نجيبه؟.

هنا نرجع إلى القرآن فنرى أن فيه أوامر بالحرب، كما أن فيه أوامر بالصلح.. فهناك آيات كثيرة تتعلّق بالحرب مع الكفار والمشركين منها: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾[1]. وفي باب الصلح يقوم القرآن الكريم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[2]. وفي مكان آخر يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[3].

(١) البقرة: آية ١٩٠.
(٢) الأنفال: آية ٦١.
(٣) النساء: آية ١٢٨.

فالإسلام لا يتقبّل الصلح كأصل ثابت بحيث ينبغي أن يكون الصلح وترك المخاصمة حاكماً في كل الأحوال.

وكذلك لا يتقبّل الحرب أصلاً ثابتاً فيأمر بالقتال في كل الظروف.

فقرار الصلح والحرب في كل زمان ومكان تابع للظروف السائدة. وبتعبير آخر: تابع للنتيجة التي يمكن الحصول عليها من جرّائه. فالمفروض على المسلمين ـ سواءاً كانوا في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله أو في زمان أمير المؤمنين عليه السلام أو في زمان الإمام الحسن عليه السلام أو الإمام الحسين عليه السلام أو في زمان الأئمة الآخرين عليهم السلام ـ أن يكون هدفهم الرئيسي في أي قرار يتخذونه هو المصلحة العليا للإسلام والمسلمين. وأن ينظروا في مجموع ظروفهم وأحوالهم المعاصرة، فإذا كانت الحرب هي الوسيلة الأفضل للوصول إلى الأهداف الحقّة فعليهم أن يسلكوا هذا السبيل، وإذا كان الصلح هو الطريق الأفضل فينبغي عليهم أن يصالحوا ويسالموا.

ومن الأساس فإن طرح مسألة: هل أن الإسلام دين حرب أم دين صلح؟ طرح غير سليم، فكل من الحرب والصلح مربوطان بظروفهما الخاصة وبالنتائج المتوخّاة من ورائهما.

سؤال وجواب

سؤال: ليس من الصحيح الاستناد إلى فقه الشيعة في بحث جواز صلح الإمام الحسن عليه السلام أو عدم جوازه، لأن أصول الفقه الشيعي ما هي إلاّ آراء الأئمة عليهم السلام ورؤتهم، ففي أيّ موضوع، توضع بعض القضايا بعنوان أصول ثمّ بعد ذلك يبنى عليها قضايا ومسائل أخرى، وفقه «المحقق» وسائر علماء الشيعة يبني بنيانه على أصول هي عبارة عن رؤية الأئمة عليهم السلام، فيكف يمكن الاستناد إليه في بحث هذه المسألة؟.

جواب: هذه ملاحظة جيدة جداً ومناسبة.. صحيح، ولكن لم يكن قصدنا أن نقول: إن الإمام الحسن عليه السلام هنا اتّبع فقه الشيعة، ولكنّنا قصدنا أن نبحث هل أن الكلّيات الفقهية التي ذكرناها منطبقة مع المنطق أم لا؟ (وذلك لأن الإنسان عندما يطرح مسألة بصورة كلّية فإنّ ذلك سوف يساعد على حلّ المسائل الجزئية الخاصة، ولم نكن نقصد الاستناد إلى مسائل تعبديّة بأي حال، ففي نظرنا أن المسائل التي نبحثها الآن في الفقه والتي تتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام إنّما هي مسائل منطقية سواء اقتبست من آراء الأئمة عليهم السلام أو من مكان آخر). فنرى مثلاً أن الفقهاء عندما يعتبرون الجهاد مشروعاً في بعض الموارد، فهل هنا مكان للاعتراض بأنه كيف يكون الجهاد في هذه الموارد مشروعاً؟ وكذلك عندما يعتبرون الصلح جائزاً في موارد أخرى فهل الصلح هنا منطقي أم هو خلاف العقل والمنطق؟.

لقد كنّا نريد أن نبيّن أن كلا الطائفتين من الموارد التي شرعوا فيها الحرب أو الصلح، منطبقة تماماً مع المنطق.

وبعد أن قبلنا هذا الأمر من الناحية المنطقية، عندها ننتقل لنرى هل أن موقف الإمام الحسن عليه السلام كان في المكان الذي ينبغي أن يجاهد فيه ومع ذلك صالح؟ أو أن عمل الإمام الحسين عليه السلام كان في المكان الذي يجب أن يصالح فيه ومع ذلك جاهد وقاتل؟ (ذلك لأن الإسلام يحتوي تلك الدعامتين.. دعامة الجهاد ودعامة الصلح). أم أن الأمر ليس كذلك، وإنّما صالح الإمام الحسن عليه السلام في المكان الذي ينبغي فيه الصلح، كما أن الإمام الحسين عليه السلام جاهد في المكان الذي ينبغي فيه الجهاد. وهكذا بالنسبة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

وفي حالة النبيّ صلى الله عليه وآله فإن الأمر قطعيّ لا يحتاج إلى البحث والنقاش لأنه صلى الله عليه وآله صالح في بعض الموارد وحارب في موارد أخرى.

سؤال: هل يوجد اختلاف بين فقه إخواننا أهل السنّة، وبين فقه الشيعة بالنسبة إلى أحكام الجهاد، وما هي موارد هذا الاختلاف إن وجدت؟.

والسؤال الآخر: ذكرتم بصفة عامّة أن من الظروف التي توجب الجهاد هو محاولة العدوّ التسلط على الأموال والأنفس، فهل أن التسلط الفكريّ مطروح هنا أم لا؟ وفي هذه الصورة ماذا يكون نوع الجهاد؟.

جواب: يجب أن أطالع فقه السنّة بشكل دقيق أولاً، ثم أجيب على سؤالكم بالتفصيل، ولكنّي أقول الآن وبصورة إجمالية: إنّه لا يوجد فرق يذكر بيننا وبينهم في باب أحكام الجهاد، وإذا كان هناك من فرقٍ، فهو في بعض القيود الموجودة لدينا دونهم، من ناحية أننا في بعض موارد الجهاد نشترط وجود الإمام المعصوم أو نائبه الخاص، بينما هم لا يشترطون ذلك.

والمسألة الأخرى التي سألتم عنها لم تطرح في الفقه في العصور السابقة، وذلك لأن ظاهرة التسلط الفكريّ أو الاستعمار الثقافي ظاهرة جديدة أصلاً، فينبغي التأمل فيها والبحث عن حكمها طبق الأصول الكليّة في الفقه. وهذا الأمر بالطبع من وظيفة الفقهاء المجتهدين.

القسم الثاني

أشرنا في القسم السابق إلى وجود اختلافات بين ظروف الإمام الحسن عليه السلام وظروف الإمام الحسين عليه السلام أدّت إلى اختلاف موقفهما من أحداث زمانهما، والآن نحاول أن نبحث هذه الاختلافات بشيء من التفصيل:

الاختلاف الأول: بويع الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة بعد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وورث بذلك نظام حكم كان يتّجه من الناحية الداخلية إلى الانقسام والضعف لأسباب تاريخية خاصة، ولم يكن يثق بأفراد جيشه وقادته بسبب ضعف ولاء الكثير من أصحابه وقلة طاعتهم، بينما كان نظام معاوية في الشام يقوى ويزداد تماسكاً يوماً بعد يوم، وكان جيشه على العكس من جيش الإمام الحسن عليه السلام تامّ الطاعة والولاء وعلى أتمّ الاستعداد لتنفيذ أوامر قيادته.

وعندما جلس الإمام الحسن عليه السلام على مسند الخلافة، كان معاوية يحتفظ بنفس صفته السابقة وهو كونه ذلك الوالي المتمرّد العاصي، والمعارض للخلافة الرسمية التي يرى أنها ليست على حق بسبب ما يزعم من أن يديها ملطّخة بدم الخليفة الأسبق عثمان.

ولم يكن معاوية حتى ذلك الوقت يدّعي الخلافة لنفسه أو يطالب بإمرة المؤمنين، بل كان هدفه المعلن ـ فقط ـ الثأر لدم عثمان.. وفعلاً وبعد ثمانية عشر يوماً فقط من وفاة أمير المؤمنين عليه السلام عبّأ جيشاً ضخماً مجهّزاً وبدأ تحركه العسكري من أجل غزو العراق وفتح عاصمة الخلافة القائمة.

هنا نلاحظ أن وضع الإمام الحسن عليه السلام وضع خاص، فهو الخليفة الرسمي للمسلمين من ناحية، ومن الناحية الأخرى هناك شخص معارض جاء على رأس جيش قويّ لمحاربته حرباً مصيرية، بينما هو عليه السلام يرى جبهته الداخلية وحالها المهلهل، فماذا يفعل مع وجود الاحتمال الكبير بهزيمة جيشه وقتله شخصياً؟.

إنه إذا أراد أن يصرّ على مواصلة القتال مع خصمه إلى النهاية، فإن مقاومته هنا لمعاوية سوف تكون نظير مقاومة عثمان للثوار المعارضين، وليس نظير مقاومة الحسين عليه السلام ليزيد. فقد كان وضع الإمام الحسين عليه السلام وضع

المعارض في مقابل حكومة موجودة[١]، وعندما عرّض نفسه للقتل، فإنه كان يعلم أن قتله سوف يكون مشرّفاً من جهة وذا آثار بالغة النفع للدين من جهة أخرى، لأنه نهض في وجه حاكم جائر أشاع الفساد في الدولة الإسلامية وحاول تقويض دعائم الإسلام. ولكن أن يقتل الإمام الحسن عليه السلام وهو على مسند الخلافة الإسلامية وعلى يدي المعارضة، فإن ذلك لن يكون مبعث افتخار شخصيّ له، ولن يكون ذا فائدة للإسلام، بل على العكس سوف يكون لطمة تسيء إلى الإسلام أبلغ الإساءة.

وقد كانت هذه الفكرة ذاتها عند أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً فقد كان عليه السلام لا يرغب أن يقتل خليفة المسلمين بغض النظر عن كونه عادلاً أو جائراً، وكان يبذل كل ما في وسعه لتجنيب عثمان مصير القتل لأن في ذلك كسراً لهيبة الدولة الإسلامية من جهة وفتح لباب الفتن من جهة أخرى، وكلا الأمرين يوجهان إلى الدين أبلغ الضرر.

ونجد هذا الأمر مذكوراً في نهج البلاغة، فقد بالغ أمير المؤمنين عليه السلام في الدفاع عن عثمان إلى درجة أنه قال في هذا الصّدد: «لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً». فلم يكن دفاعه عن عثمان عن تأييد له، بل لأنه كان لا يريده أن يقتل وهو يحتلّ منصب الخلافة وكان يقول له: أخشى أن تكون الخليفة المقتول لهذه الأمة. فمن العار على العالم الإسلامي أن يقتل خليفة المسلمين لأن ذلك يعدّ انتهاكاً صارخاً للخلافة الإسلامية التي هي عنوان الدين الإسلامي وعزّه. وكان يحاول إقناع عثمان بتلبية مطالب الثوار المشروعة لكي يفكّوا الحصار عنه ويرجعوا إلى بلادهم. ولكن عناد عثمان أدّى إلى مقتله على الرغم من كراهة عليّ عليه السلام لذلك، وفعلاً فقد حدث بالضبط ما توقّعه أمير المؤمنين عليه السلام من إضرار للإسلام وللحكومة الإسلامية نتجت عن مقتل الخليفة الرسمي.

---

(١) ينبغي التنبيه هنا إلى أننا نبحث الوضع من الناحية الاجتماعية فقط، بغض النظر عن أن الإمام الحسين عليه السلام كان محقّاً في وقوفه أمام يزيد الخليفة الجائر، وأن معاوية كان على الباطل في وقوفه أمام الإمام الحسن الخليفة العادل. فتوزيع المراكز هنا له دخل هام في الآثار الاجتماعية المترتبة عن المواقف المختلفة.

فإذن لو كان الإمام الحسن عليه السلام قاوم وحارب فإنّ النتيجة ـ كما تدلّ الشّواهد التأريخية ـ سوف تكون قتله وهو الإمام والخليفة الشرعي بما يستتبع ذلك من الأضرار التي ذكرناها، بينما كان قتل الإمام الحسين عليه السلام ـ بحسب الظاهر ـ قتل شخص معترض ثائر ليست له السمة الرسمية للخلافة. والإمام الحسين عليه السلام نفسه له موقف ملفت للنظر في ثورته، وهو يشبه موقف الإمام الحسن عليه السلام في جوهره، فهو وإن كان يعلم أنه مقتول في كل الأحوال، فإنه لم يشأ أن يبقى في المدينة، لأنه لو قتل فيها وهو ابن بنت النبيّ صلى الله عليه وآله ووصيّه الشرعي، فإن في ذلك هتك لحرمة النبيّ صلى الله عليه وآله، وكذلك لم يشأ أن يلجأ إلى جوار الكعبة الشريفة في مكّة، لأنه لو قتل هناك فإن في ذلك هتك لحرمة بيت الله تعالى، فكانت خطته أنه ما دام سوف يقتل لا محالة فليكن ذلك في مكان لا تتوجّه منه إهانة أو هتك لحرمة من حرمات الدين الحنيف.

الاختلاف الثاني: إن إحدى أعظم المصائب التي برزت في الكوفة كانت ظاهرة الخوارج. وقد أرجع أمير المؤمنين عليه السلام ظهور هذه الطائفة من المسلمين إلى تلك الفتوحات الإسلامية المتلاحقة التي لم تخضع لضوابط سليمة ولم تواكبها استراتيجية التعليم والتربية، ونشر وتعميق الثقافة الإسلامية، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، مما أدّى إلى ظهور فئة من المسلمين السطحيين الجهلة المغرورين الذين يتوهّمون أنهم مسلمون أكثر من غيرهم، وبالإضافة إلى هذه الفئة فقد ظهرت في الكوفة عدة فرق وأحزاب أخرى، مما هيّأ الأرضية المناسبة لمعاوية ـ الذي لم يكن ملتزماً بالدّين والتقوى، ولا متمسّكاً بالأصول الأخلاقية والإنسانية ـ أن يستفيد من هذه الأوضاع، فيؤسّس طابوراً خامساً في جبهة الإمام الحسن عليه السلام، وذلك بإرسال الجواسيس والعملاء المزوّدين بالأموال الطائلة لشراء الذمم والضمائر، وكذلك لبثّ الشائعات المغرضة بهدف تدمير الروح المعنوية للناس.

كل هذه العوامل أدّت قوى أهل الكوفة وتفرّق كلمتهم، وظهور الكثير من المنافقين والخونة، وأصبح وضع الكوفة مضطرباً إلى حدّ كبير. لكنّ ذلك لا يعني أن جيش الكوفة قد تبدّد كليّاً وزال من الوجود بحيث كان يستطيع معاوية أن يغزو العراق ويدخل الكوفة فاتحاً ببساطة ويسر وبدون قتال..

فمع كل هذه الواقعيات المؤلمة، فإن الإمام الحسن عليه السلام كان بإمكانه لو أراد المواجهة في مقابل معاوية أن يعد جيشاً كبيراً يمكن أن يصل تعداده حسب ما تذكره بعض التواريخ إلى مائة ألف مقاتل، وهو يكافىء إلى حدّ ما جيش معاوية الجرّار الذي كان يبلغ حوالي مائة وخمسين ألف جندي. فماذا كان يمكن أن تكون نتيجة مواجهة عسكرية كهذه وفي مثل هذه الظروف؟ لقد قاتل أمير المؤمنين عليه السلام معاوية في صفّين ثمانية عشر شهراً في ذاك الوقت الذي كانت فيه القوات العراقية أكثر عدداً وأفضل استعداداً، وبعد هذه المدّة من القتال، وبعد أن شارف جيش معاوية على الهزيمة النهائية، انقلب الميزان فجأة بسبب نفسية أهل الكوفة الانهزاميّة وعقليتهم المتحجرة التي تأثّرت بخدعة رفع المصاحف على الرماح وأبت الانصياع لأوامر القيادة.

فهل يمكن أن يكون الإمام الحسن عليه السلام أفضل حظّاً لو قاتل بأهل الكوفة بعد أن اشتدّت الفرقة وظهرت الخيانة بينهم، وبعد أن ضعفت شوكتهم عن ذي قبل؟ لو كان الإمام الحسن عليه السلام اتخذ قرار الحرب والمواجهة لنشبت حرب طاحنة بين فرقتين عظيمتين من المسلمين (أهل الشام وأهل العراق)، ولتلف من الجانبين عشرات الألوف من الأرواح، في حين كان احتمال الانتصار على معاوية معدوماً كما تدلّ عليه الشواهد التأريخية، بل إن الاحتمال الأرجح كان هزيمة جيش الإمام الحسن عليه السلام ومقتله شخصياً عليه السلام.

فما هو وجه الافتخار في أن يقتل الإمام الحسن عليه السلام وهو الخليفة الرسمي للمسلمين، مع تلك الخسائر الكبيرة في أرواح المسلمين، دون أن يعقب إراقة تلك الدماء نتيجة نهائية تكون لصالح الإسلام والمسلمين؟ بينما كان الافتخار الذي حصل عليه الإمام الحسين عليه السلام من جرّاء قيامه وثورته، هو تصميمه على إراقة دمه شخصياً من أجل حفظ الدين والحيلولة دون طمسه من قبل نظام يزيد (الخليفة الرسمي) وحتى أولئك النفر الذي كانوا معه عليه السلام والذين لم يتجاوزوا الاثنين والسبعين رجلاً. كانوا قد تطوعوا من تلقاء أنفسهم وصمّموا على الثبات معه حتى آخر قطرة من دمائهم، برغم أنه عليه السلام كان قد أعطاهم الإذن بالانصراف عنه وتركه وحيداً أمام القوم.

الاختلاف الثالث: من العوامل التي سبّبت إصرار الإمام الحسين عليه السلام

على القيام والخروج ضد النظام الحاكم، هو أنّ يزيد ما إن استلم الخلافة حتى بدأ بتنفيذ وصيّة أبيه معاوية التي تقضي بإجبار الإمام الحسين عليه السلام على إعطاء البيعة، وكتب إلى عامله في المدينة: «خذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة». وكانوا بذلك يقصدون إضفاء الشرعية على خلافتهم الجائرة، وكان موقف الحسين عليه السلام بالطبع هو رفض إعطاء البيعة ليزيد وكان مما قاله: «ومثلي لا يبايع مثله». لأن من يمثّل الإسلام لا يمكن أن يبايع من يريد محو الإسلام.

ولكنّنا عندما ننظر إلى حال الإمام الحسن عليه السلام نجد أن معاوية لم يطالبه بالبيعة أبداً، ولم يكن في بنود الصلح ما يشير إلى شيء من ذلك مطلقاً، وكذلك لم يدّع أحد من المؤرّخين أن الإمام الحسن عليه السلام أو أحداً من أهل بيته أو صحابته أعطى البيعة لمعاوية، ولو كان يُطلب من الإمام الحسن عليه السلام مثلما طُلب من الإمام الحسين عليه السلام لكان من غير المعقول أن يقبل بتوقيع اتفاقية الصلح مع معاوية.

الاختلاف الرابع: من العوامل الأخرى التي دعت إلى قيام الإمام الحسين عليه السلام هو دعوة أهل الكوفة له. فبعد أن ذاق هؤلاء لمدّة عشرين عاماً مرارة حكومة معاوية وعانوا من ظلمه وجوره. نفذ صبرهم، فكتبوا حوالي ثمانية عشر ألف كتاباً موقّعاً من قبل رؤسائهم وشخصياتهم، إلى الإمام الحسين عليه السلام في المدينة، أعربوا فيها عن أن الأرضية مهيّأة وأنّهم على أتم الاستعداد لمبايعته والقتال تحت لوائه ضد جيش يزيد ونظامه.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا لبّى الإمام الحسين عليه السلام دعوة أهل الكوفة وهو مطلع على أحوالهم جيداً ويعلم بخذلانهم لأبيه عليه السلام ويعلم بأن احتمال خذلانهم له أيضاً وارد جداً؟.

الجواب: من الناحية التأريخية، لو أن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يرتّب أثراً على كتب أهل الكوفة ورسائلهم، فمن المسلّم به أنه سوف يكون مداناً أمام التأريخ، وسوف يقول الناس: إن الإمام الحسين عليه السلام أضاع فرصة ثمينة بعد دعوة أهل العراق له واستعدادهم لنصرته. والأهم من ذلك فإنه يواجه من الناحية الشرعية مسألة إتمام الحجّة، لأن مبّرر قعود الإمام الشرعي هو انعدام وجود النّاصر، أما إذا ارتفع هذا العذر قد وجب عليه القيام لا محالة.

والآن نأتي إلى زمان الإمام الحسن عليه السلام، لنرى أن إتمام الحجّة كان على العكس من ذلك، فقد أظهر أهل الكوفة آنذاك عدم استعدادهم الفعلي للقتال، وكان الوضع الداخلي في الكوفة من التردّي بحيث أن الإمام الحسن عليه السلام كان يحترز من كثير من أهل الكوفة، وعندما كان يخرج إلى الصلاة في المسجد مثلاً، فإنه كان يرتدي تحت ملابسه درعاً، لأن عناصر الخوارج وعملاء معاوية كانوا كثيرين وكان احتمال تعرضه للاغتيال من قبلهم كبيراً، وفعلاً حدث في إحدى المرّات أن كان الإمام في حال الصلاة، فرماه أحدهم بسهم كاد يقتله حتماً لولا الدرع الذي كان يرتديه. وهكذا كانت الكوفة في زمان الإمام الحسن عليه السلام بلداً متفرقاً مشتتاً تتقاسمه صنوف التيّارات والعقائد المختلفة. وكان حالها قد بدأ في التردّي منذ الأيام الأخيرة لعهد أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان عليه السلام يشتكي بصفة مستمرة من أهل الكوفة إلى درجة أن قال فيهم: «اللهمّ أبدلني خيراً منهم وأبدلهم شرّاً منّي».

الاختلاف الخامس: عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أيضاً من العوامل الدخيلة في قيام الإمام الحسين عليه السلام فبغض النظر عن أنهم طلبوا البيعة من الإمام الحسين عليه السلام ولم يكن مستعداً لأن يبايع، وكذلك بغض النظر عن دعوة أهل الكوفة وإتمام الحجّة على الإمام الحسين عليه السلام بوجوب القيام، فإن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحدها كانت سبباً مستقلاً بذاته لنهضة الإمام الحسين عليه السلام وثورته الدامية. فمنذ اليوم الأول لوصول معاوية إلى الخلافة وعلى مدى العشرين سنة التي بقي فيها حاكماً على المسلمين، أخذ يعمل على خلاف الإسلام، ورأى المسلمون جميعاً جوره وجبروته وعدوانه بعد أن غيّر أحكام الإسلام ونهب بيت مال المسلمين وأراق الدماء المحترمة.. الخ، ولم يقنع بكل ذلك حتى قرّر أن يرتكب جرماً أعظم من كل ما ارتكبه وهو تعيين ابنه يزيد شارب الخمر ولاعب القمار وملاعب القردة والكلاب، وليّاً لعهده، واتّخاذ الإجراءات التعسفية لوصوله إلى الخلافة من بعده بالقوّة والإكراه.

وهكذا بعد أن جلس يزيد الفاسق الفاجر على كرسي الخلافة بغير حق، وأعلن برنامجه المضاد مائة بالمائة للإسلام، أصبح من الواجب حسب القوانين

الإسلامية القيام ضده، لأنه كما يقول الإمام الحسين عليه السلام رواية عن جدّه النبيّ صلى الله عليه وآله: «من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهده، مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله». ثمّ يقول الإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك مباشرة: «ألا وأن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن. . .» فيقرّر بذلك أنه قد آن الآوان لوضع هذا الحديث الشريف موضع التنفيذ.

كان هذا هو الوضع في زمان يزيد، أما في بداية زمان معاوية فقد كان الوضع يختلف بعض الشيء. فالإمام الحسن عليه السلام كان يعرف ماهيّة معاوية جيداً وجبلّته المعجونة بالمنكر، ولكنّ أقصى ما كان مطروحاً آنذاك، هو أنه عندما يأتي معاوية وجماعته إلى الحكم، فإنهم سوف يفعلون كذا وكذا من المنكرات، وهذا الأمر يختلف بالطبع عن كونهم حكموا بالفعل وارتكبوا تلك الأفعال المنكرة، وأصبح الطرف المقابل يمتلك السند والحجّة أو ما يعبّر عنه بصكّ الإدانة ضدّهم. فإلى ما قبل توقيع الصلح لم يكن المسلمون بعد قد رأوا بأمّ أعينهم من معاوية وجماعته أنواع الظلم والجور والانحراف، فكيف يمكن إقناعهم بحقيقة الأمر؟ وربّما كان معاوية معروفاً عند الناس بأنّه حاكم فاسد، ولكنّ فساد الحاكم شخصيّاً مسألة، وفساد نظامه وحكومته مسألة أخرى عند الناس.

وهكذا لم تكن أرضيّة القيام بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهيّأة بعد، وهذا ما يسمّى اصطلاحاً بانعدام وجود التكليف الفعلي. وتسليم الإمام الحسن عليه السلام في هذه الحالة لن يلحق الظلم إلا بشخصه فقط، وهذا الأمر للإمام لن يصبر عليه ويرضى باغتصاب الخلافة منه ما دام الغاصب يتعهّد بأن يدير أمور المسلمين بشكل طبيعي. وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام لمّا اغتصبت الخلافة منه: «والله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليّ خاصة». أي أن القيام لا يصبح فرضاً على الإمام إلا إذا خرجت الأمور عن مجراها الصحيح وأصبح الظلم والجور متوجّهاً إلى عامّة المسلمين بما يهدّد دينهم بالخطر. وبتعبير آخر لا تتحقّق الوظيفة الشرعية بالقيام ضد منكر محتمل لم يحصل بالفعل، مع العلم بأن هذا المنكر من النوع الذي يوجب القيام الدّمويّ.

لقد كان موقف معاوية في زمان الإمام عليّ عليه السلام موقف المعترض الذي لم يكن يهدف إلا المطالبة بدم عثمان، وظلّ موقفه بعد مجيء الإمام الحسن عليه السلام قائماً على نفس الأساس، وعندما كانت الترتيبات تجري في المعسكرين استعداداً للحرب، أرسل معاوية عبد الله بن عامر مندوباً عنه إلى الإمام الحسن عليه السلام وزوّده بورقة موقّعة على بياض، وقال له: اعرض الصلح على الحسن بن علي، ودعه يكتب ما يشاء من الشروط في هذه الورقة وأنا أقبلها كلها، وبعد أن كتب الإمام الحسن عليه السلام شروطه في وثيقة الصلح هذه، أقسم معاوية بكل الإيمان المغلظة، وأشهد الله ورسوله على أنه سوف ينفّذ كل الشروط بدقّة وأنه سوف يعمل بكتاب الله وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الراشدين، وأنه لن يعيّن خليفة من بعده بل ترجع الخلافة إلى الإمام الحسن عليه السلام ومن بعده إلى الإمام الحسين عليه السلام، وأنه لا يطلب من الإمام الحسن عليه السلام إلا تسليم الأمر له إلى أشعار محدّد (أي مدّة حياة معاوية).

وكانت الشروط التي كتبها الإمام الحسن عليه السلام في وثيقة الصلح التي وقّعها معاوية مسبقاً كما يلي:

١ ـ يُسلّم «الأمر» إلى معاوية بشرط أن يعمل بكتاب الله وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢ ـ ترجع الخلافة بعد معاوية إلى الحسن عليه السلام وإذا حدث له فإلى الحسين عليه السلام.

٣ ـ يوقف معاوية لعن أمير المؤمنين على المنابر، ويأمر أن لا يذكر عليّ عليه السلام بعد ذلك إلاّ بالخير.

٤ ـ لا يشمل «تسليم الأمر» بيت مال الكوفة الذي يبلغ موجوده خمسة ملايين درهم، وعلى معاوية أن يرسل إلى الإمام الحسن عليه السلام مليوني درهم كل عام، وأن يُقدّم بنو هاشم على بني أميّة في المنح والأعطيات، وأن يُقسّم مليون درهم بين ذوي الشهداء الذين قاتلوا إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام في حربي الجمل وصفّين. وكل ذلك يجب أن يؤدى من محلّ خراج «دار ابجرد» من أعمال شيراز.

٥ ـ أن يكون الناس في كل مكان من أرض الله سواء في الشام أو العراق أو اليمن أو الحجاز. . . في أمنٍ وأمانٍ يتمتّع بذلك الأسود والأحمر، وأن يُغضّ النظر عن أعمالهم السابقة، وأن لا يؤخذ أهل العراق بالعداوات والأحقاد السابقة، ويكون أصحاب عليّ عليه السلام في أمان أينما كانوا، وأن لا يتعرّض أحد من شيعة عليّ عليه السلام للأذى، وأن لا يخافوا على أرواحهم وأموالهم ونواميسهم، وأن لا يتعقّب رجال معاوية أحداً منهم ولا يصيبوه بمكروه. وأن يعطى كل ذي حقّ حقّه، وأن لا يسترجع من أصحاب عليّ عليه السلام شيء ممّا في أيديهم، وأن لا يعمل أحد في الجهر ولا في الخفاء عملاً من شأنه تهديد حياة الحسن بن علي أو أخيه الحسين ـ أو أيّ أحد من بيت رسول الله ـ بالخطر.

والآن لو عرض هذا الأمر على التأريخ ـ فقيل: إن معاوية بوضعه آنذاك جاء إلى الإمام الحسن عليه السلام وعرض عليه ذلك الصلح المشرّف. وأرسل إليه ورقة مصالحة موقّعة على بياض وتعهّد بتنفيذ شروطه كلّها، ومن الناحية الأخرى لم يطلب منه إعطاء البيعة ولم يطالبه أن يخاطبه بعبارة ـ يا أمير المؤمنين ـ فإذا يكون حكمه (أي التأريخ)؟ وماذا كان يريد الإمام الحسن عليه السلام من الخلافة أكثر من العمل بكتاب الله وسنّة رسوله؟ وهل كان يرضى بقيام حرب تدوم سنين ولا تعود إلا بإراقة دماء عشرات الألوف من المسلمين، وإحداث الخراب والدمار في البلاد الإسلامية، من أجل أن يصبح هو الخليفة فقط؟ هذا مع العلم بأن احتمال قتله عليه السلام شخصياً كان وارداً بشدّة.

لو لم يقبل الإمام الحسن عليه السلام في تلك الظروف بعرض الصلح هذا من قبل معاوية وبهذه الكيفية لكان التاريخ يلومه بل يدينه. فالنبيّ صلى الله عليه وآله وهو قدوة المسلمين وأسوتهم صالح في كثير من المواطن ولجأ إلى المسالمة، وكذلك فمن الناحية المنطقية والعقلية لا ينبغي للإنسان أن يستخدم لغة الحرب والدم في كل الظروف والأحوال ولا يجعل في قاموسه مكاناً للمسالمة والمهادنة. . هذه فائدة.

وأما الفائدة الأخرى التي حصل عليها الإمام الحسن عليه السلام من توقيع معاهدة الصلح مع معاوية والتي خطّط لها بوعي ودقّة تامّين، فهي فضح معاوية

وخطّ معاوية بشكل صارخ أمام الأمّة الإسلامية، وإثبات زيف كل ادعاءاته، بل وكشف الهويّة الإجرامية والانحراف المتأصّل في طبيعته. فقد كان الإمام الحسن عليه السلام يعرف طبيعة معاوية، واستعجاله للأمور واستعداده لقبول أي شرط يملى عليه في مقابل حصوله السريع على السلطة. ولذلك أملى عليه السلام شروطاً يعلم يقيناً أن معاوية لن يتلزم بتنفيذها.

وفعلاً ما إن استتبّ له الأمر ودخل العراق منتصراً، حتى أعلن أن جميع الشروط التي اشترطها على نفسه قد وضعها تحت قدميه، وأثبت بذلك أنه لا يزيد عن كونه مجرد سياسي غادر ماكر لا عهد له ولا ميثاق وليس عنده قيم يلتزم بها، وكلّ ما يملك عليه فكره ووجوده هو تعطشه للحكم والكرسيّ. وقد خاطب أهل الكوفة بصراحة قائلاً: «والله ما قاتلتكم لكي تصلّوا وتصوموا وتحجّوا وتؤدوا الزكاة، وإني لأعلم أنكم تفعلون ذلك، ولكن قاتلتكم لأتأمّر عليكم». أي أنه يريد أن يخبر الناس بأنه لا يهمّه شيء من أمر الدين والإسلام ولا تعنيه مصلحة المسلمين، وكل ما يريده هو التسلط على رقاب الناس وإشباع شهوة الحكم في نفسه الضعيفة.

لقد كان كل شرط من الشروط التي كتبها الإمام الحسن عليه السلام في ورقة الصلح جرساً مدويّاً يقرع الآذان ويقول: يا مسلمون.. استيقظوا من غفلتكم، وافهموا جيداً من هو معاوية ومن هم الذين يمثّلهم معاوية؟! فقد خالف هذا كل الشروط التي وقّع عليها وأشهد الله والرسول والمسلمين على نفسه، وأقسم بكل الإيمان المغلظة أن يلتزم بها.. فلم يعمل لا بكتاب الله ولا بسنّة الرسول صلى الله عليه وآله ولا بسيرة الخلفاء الراشدين.

وبعد أن كان قد وافق على رجوع الخلافة من بعده إلى أصحابها الشرعيين، أخذ يطرح بعد بضع سنين من حكمه مسألة ولاية العهد لإبنه يزيد. ثمّ إنه مارس أبشع الأعمال العدوانية بحق شيعة أمير المؤمنين عليه السلام برغم تعهّده بأن لا يصيبهم بأيّ مكروه.

ترى ما هو الفرق بين معاوية وعثمان؟ لا يوجد فرق، إذ أن الاثنين أعطيا على نفسيهما ذات التعهد، ولكنهما لم يلتزما بعهدهما، إلا أن عثمان استطاع

أن يحتفظ بمكانته بين عامة المسلمين بعنوان أحد الخلفاء الراشدين، ولكن بالطبع مع الاعتراف بارتكابه لبعض الزلاّت، بينما عرف معاوية منذ اليوم الأوّل بأنه مجرد سياسي ماكر، فخرج بذلك هو والذين جاءوا من بعده ـ من زاوية نظر علماء وفقهاء المسلمين عموماً ـ من قائمة الخلفاء الراشدين الذين جلسوا في مكان رسول الله ﷺ ليطبّقوا الإسلام، ودخلوا في قائمة السلاطين والملوك الدنيويين بعد أن أصبحت الخلافة عندهم ملكاً عضوضاً.

وكان معاوية قد اتّجه في السابق إلى التبليغ الإعلامي ضدّ عليّ عليه السلام ولعنه على المنابر بزعم أنه رجل خرج من دين الإسلام، ولكنه عندما وقّع في وثيقة الصلح على شرط التوقف عن اللعن، فقد أدان بذلك نفسه وأقام الحجّة عليه، إذ لو كان عليّ عليه السلام يستحق اللعن كما كان يدّعي فلماذا يتعهّد هنا بأن لا يذكره إلا بالخير؟ وإذا لم يكن مستحقاً للعن فِلمَ كان معاوية يفعل هذا الفعل القبيح؟ وقد خالف معاوية أيضاً هذا الشرط، واستمرّ اللعن مدى تسعين عاماً!!.

وعندما نتأمّل قليلاً في بنود الصلح، نلاحظ أن جميع تلك البنود (وخصوصاً البند الثالث والخامس) ترجع بالتالي في جوهرها إلى البند الأوّل فهي متضمنّة فيه ولكن بصورة مستترة، ولكن لأن الإمام الحسن عليه السلام يعلم أن لمعاوية توجّهاً خاصاً إلى هذه المسائل، وأنّ انحرافه وإجرامه يتمركز هنا، فقد أفردها عليه السلام في بنود خاصّة حتى لا يبقى مجال للّف والدّوران والتأويل الخاطىء فيما بعد، وكذلك لكي يشير عليه السلام بالأصابع إلى النقاط الرئيسية التي تفضح معاوية وتبيّن ماهيّته، لأن الإمام حرص على أن يكون كلّ شرط من شروطه سند إدانة ضدّ معاوية.

وقد يتساءل أحد: كيف يترك الإمام الحسن عليه السلام الساحة خالية أمام معاوية، وهو يعلم مسبقاً بما سوف يفعله معاوية ممّا يعود بأبلغ الضرر على الإسلام والمسلمين؟.

الجواب: إن الإمام الحسن عليه السلام لم يعتزل معترك السياسة نهائياً، ولم ينسحب كليّاً من الميدان، والبند الثاني لوثيقة الصلح يبيّن هذه الحقيقة، وذلك

بأن أعطى الإمام الحسن عليه السلام مهلة محدّدة لخصمه، فقد اشترط عليه السلام أن ترجع الخلافة إليه بعد معاوية، ولا يحق لمعاوية أن يعيّن خليفة من بعده. والهدف من هذه المهلة هو إعطاء فرصة للمسلمين لكي يشاهدوا عياناً التطبيق العملي لسياسة معاوية بكلّ ما فيها من عدوان وظلم وجور. وقد كان عليه السلام يهيّء الأرضية للقيام بعد انقضاء عهد معاوية، وبتعبير آخر: كان يعدّ العدّة لثورة الإمام الحسين عليه السلام.

فبعد أن أعلن معاوية أن كل الشروط تحت قدميه، جاء بعض وجوه الشيعة إلى الإمام الحسن عليه السلام وقالوا: يابن رسول الله، لقد أصبح اتفاق الصلح هذا كأنّه لم يكن بعد أن نقضه معاوية، فما تقولون الآن في القيام؟ فقال عليه السلام: كلاّن القيام ليس الآن ولكن بعد معاوية. ومعنى هذه الجملة هو أن الإمام الحسن عليه السلام لو كان بقي حيّاً بعد معاوية وكان في مكان الإمام الحسين عليه السلام لكان قيامه حتميّاً.

وعلى هذا، يبدو جليّاً لنا أن صلح الإمام الحسن عليه السلام في زمانه ذاك وفي ظروفه تلك، شيء منطقّي جداً، وأنه لا وجه للمقارنة بين صلح الإمام الحسن عليه السلام وهو على مسند الخلافة، وبين قيام الإمام الحسين عليه السلام بعنوان فرد معترض على نظام قائم مع سائر الاختلافات الأخرى المشار إليها. أي أنه لو لم يكن الإمام الحسن عليه السلام في وقتها وأن الإمام الحسين عليه السلام أصبح هو الخليفة بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام لكان يوقّع الصلح مع معاوية، ولو أن الإمام الحسن عليه السلام بقي حيّاً بعد معاوية لثار مثل ما ثار الإمام الحسين عليه السلام على يزيد، والسبب هو اختلاف الظروف لا أكثر والذي يؤدي بصورة منطقيّة وعقليّة إلى اختلاف المواقف.

سؤال وجواب

سؤال: لو كان أمير المؤمنين عليه السلام في مكان الإمام الحسن عليه السلام، هل كان يصالح أم لا؟ لقد كان الإمام عليّ عليه السلام يقول: لست حاضراً لأن أتحمّل حكومة معاوية يوماً واحداً، فكيف رضي الإمام الحسن عليه السلام بحكومة معاوية؟.

جواب: لو كانت ظروف الإمام عليّ عليه السلام مثل ظروف الإمام الحسن عليه السلام، وكان يخشى أن يقتل وهو على مسند الخلافة لكان صالح، ولكنّنا نعلم أن ظروف أمير المؤمنين عليه السلام كانت تختلف عن ظروف الإمام الحسن عليه السلام، أي أن تلك الاضطرابات ظهرت فقط في أواخر عهد أمير المؤمنين عليه السلام ولهذا فإن حرب صفّين أيضاً كانت في حالة تقدّم وانتصار، ولو لم ينشق الخوارج من الداخل لكان من المسلّم به أن يكون الانتصار النهائي من نصيب أمير المؤمنين عليه السلام. فليس هناك مجال للبحث من هذه الناحية.

وأما قولكم: لماذا لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً لأن يتحمل حكومة معاوية يوماً واحداً، بينما كان الإمام الحسن عليه السلام حاضراً لمثل ذلك؟ فهذا خلط بين الأمرين.. لأن أمير المؤمنين عليه السلام أعلن عدم استعداده لقبول معاوية حاكماً من طرفه والياً على الشام من قبله ولو ليوم واحد، بينما الإمام الحسن عليه السلام لم يكن يريد أن يعيّن معاوية نائباً له وحاكماً من طرفه، كان عليه السلام يعتزم التنحيّ ـ فقط ـ ولم يلزم نفسه بشيء في اتفاقية الصلح التي لم يرد فيها ذكر عن لزوم إعطاء البيعة لمعاوية أو مخاطبته بلقب أمير المؤمنين عليه السلام، وما أشبه. قرّر عليه السلام أن يتنحّى بشرط أن يتعهّد الطرف المقابل بإدارة الأمور على وجهها الصحيح، وهنا لا يمكن لأحد أن يدّعي أن معاوية كان محسوباً على

الإمام الحسن عليه السلام وتماماً مثل ما فعل أمير المؤمنين عليه السلام فإن الإمام الحسن عليه السلام أيضاً لا يتحمّل أن يحسب معاوية عليه وشروط الصلح لا تتضمّن شيئاً كهذا.

سؤال: هل كانت لأمير المؤمنين عليه السلام وصيّة إلى الإمام الحسن عليه السلام فيما يتعلّق بكيفية المواجهة مع معاوية؟.

جواب: لا أتذكّر إلى الآن أني قد رأيت في وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ما يشير إلى هذا الموضوع، ولكن يبدو أن الوضع كان واضحاً لا غموض فيه، حتى لو لم ينقل لنا التأريخ وصيّة كهذه. فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يرى الحرب مع معاوية إلى النهاية، وحتى في أواخر أيّامه يحث اضطربت الأوضاع كان الشيء الذي يقلق باله هو وضع معاوية، وكان يعتقد بوجوب مواجهته والقضاء عليه. ولكنّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام منعت من شنّ حرب جديدة على معاوية.

والإمام الحسن عليه السلام بدوره كان مصمماً على القتال ضد معاوية في البداية وكان يخطب في الناس ويحمّسهم ويدعوهم للتجمع والاستعداد للخروج إلى النخيلة لملاقاة جيش معاوية، ولكنّ ما ظهر من أصحابه من تخاذل واختلاف وخيانة جعله ينصرف عن الحرب إلى الصالح، لأن حربه بهؤلاء القوم المهزوزين، وفي تلك الظروف المعاكسة، لا تعدو كونها مهزلة لا تنتهي إلا بالفضيحة لجانب الإمام الحسن عليه السلام مع قتله شخصياً وتوجيه إهانة بالغة إلى الخلافة الإسلامية.

سؤال: لا يبدو صحيحاً ما ذكرتموه من أن الإمام الحسن عليه السلام لو لم يكن يقبل المصالحة مع معاوية لكان التأريخ يلومه ويقول له: كان بإمكانك أن تملي كلّ شروطك على خصمك في ورقة الصلح الموقّعة على بياض فلماذا لم تقبل عرضه بالصلح.. ذلك لأن الناس آنذاك كانوا سوف يتلقّون مسألة إرسال ورقة موقعه على بياض على أنها مجرد حيلة، لأن معناها هو أن معاوية لم يكن ينوي منذ البداية أن يعير أي اهتمام لكل ما سوف يكتبه الإمام الحسن عليه السلام فيها، والناس قد عرفوا معاوية جيداً في زمان أمير المؤمنين عليه السلام بأنه إنسان مخادع مخاتل لا يمكن أن يلتزم بقول أو أن يفي بوعد.. فماذا تقولون؟.

جواب: القلّة الواعية فقط من الناس كانوا يعرفون معاوية على حقيقته، وكانوا ـ حتماً ـ سوف يتلقّون عرض معاوية هذا بأنه خدعة وحيلة لا غير، ولكن عامة الناس كانوا ينظرون إلى معاوية على أنه وإن كان إنساناً رديئاً إلاّ أنّه حاكم جيّد وسياسيّ قدير، ويستدلّون على ذلك من تصرّفه مع رعيته من أهل الشام، وإدارته لهم بشكل جعلهم يعلنون رضاهم عنه، خصوصاً أن معاوية كان معروفاً بالحلم وسعة الصدر، وكان بحمله هذا يستوعب كل خصومه ومعارضيه السياسيين (وقد عاب عليه المؤرّخون أنه لم يستطع أن يظهر حلمه السياسيّ مع أهل الكوفة، ولو أنه فعل لكان انتصر من الناحية المعنوية أيضاً).

على أيّ حال توقّع أهل الكوفة أن يسير معهم معاوية بسيرته مع أهل الشام وكان هذا هو أحد أسباب ارتخائهم وتخاذلهم عن النهوض لقتاله. فتوجّهوا إلى الإمام الحسن عليه السلام بعد إرسال ورقة الصلح وطلبوا من الإمام أن يعلن رأيه ويقول كلمته في مقابل عرض معاوية، هل يريد الحسن بن عليّ فقط أن يكون هو الحاكم والخليفة، أم عنده كلام آخر، وإذا كان عنده كلام أخر، فهذا الرجل (معاوية) عنده الكفاءة والقدرة لأن يحكم المسلمين ويقودهم إلى شاطىء السعادة! فلماذا لا يفسح له المجال؟.

ولمّا رأى الإمام الحسن عليه السلام موقف أهل الكوفة هذا، اتّخذ قراره بتوقيع الصلح، وكأنّه أراد أن يقول لهم: حسناً ليستلم صاحبكم الحكم، ولتروا بأمّ أعينكم هل صحيح أنه كما تتوقعون سوف يدير أموركم بما يرضيكم أم لا؟.

خلاصة المسألة أن الناس قبل توقيع الصلح لم يكونوا ينظرون إلى معاوية على أنه حاكم جائر، بل كانوا ينظرون إليه على أنه رجل طالب للجاه والسلطة لا أكثر، والذي كشف معاوية على حقيقته للناس هو صلح الإمام الحسن عليه السلام وشروط الإمام الحسن عليه السلام.

سؤال: هل وقع الحسين عليه السلام ورقة الصلح أيضاً؟ وهل كان له اعتراض على صلح الإمام الحسن عليه السلام أم لا؟.

جواب: لم أقرأ في مكانٍ أن الإمام الحسين عليه السلام وقّع وثيقة الصلح، والسبب أنه لم تكن هناك ضرورة لذلك، لأنه كان آنذاك تابعاً للإمام

الحسن عليه السلام، وكان يقبل بكل ما يفعله الإمام الحسن عليه السلام ويلتزم به. حتى أن بعض المخالفين لمّا جاءوا إلى الإمام الحسين عليه السلام وأعربوا عن رفضهم للصلح مع معاوية وعرضوا عليه أن يبايعوه لمواصلة الحرب.. ردّهم عليه السلام وأخبرهم بأنه تابع لكلّ ما يأمر به الإمام الحسن عليه السلام. ومن الناحية التأريخية(١)، لم يُسجّل على الإمام الحسين عليه السلام أنه اعترض في البداية على أخيه الإمام الحسن عليه السلام ثمّ بعد ذلك رضخ للأمر بعدما رأى تصميم الإمام الحسن عليه السلام على الصلح.

(١) الكلام من الناحية التأريخية، وإلا فمن ناحية مسألة الإمامة فلا يمكننا التفكيك لاستحالة التعارض والتضادّ بين أئمّتنا عليهم السلام.

الفصل الثالث

كلمة حول الإمام زين العابدين (ع)

إنّ فلسفة الوجود المقدّس لشخص مثل الإمام زين العابدين عليه السلام، هي تجسيد حقيقة الإسلام عملياً، وهذا من الألطاف الإلهية الكبيرة بالنسبة للبشر. إذ كيف يمكن للناس أن يفهموا الأبعاد المعنوية لهذا الدين العظيم لو لم يجعل الله تعالى له حملة تشرّب الإيمان به في نفوسهم وخالط لحمهم ودمهم، فأصبح الإسلام ينطق بألسنتهم ويعمل بأيديهم ويسعى بأقدامهم. إن رسول الله صلى الله عليه وآله كرّس القسم الأعظم من جهوده في فترة دعوته المباركة من أجل أن لا يغادر هذه الحياة إلا وقد ربّى وأعّد من يكون على مستوى حمل الرسالة من بعده، وهكذا نرى كيف أنه صلى الله عليه وآله كان يعكف على تربية عليّ بن أبي طالب عليه السلام بيده ويضعه على عينه، ويزقّه العلم والإيمان زقّاً، وكان هذا ـ أيضاً ـ هو شأن سائر أوصياء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في إعداد من يأتي بعدهم..

عبادة الإمام

إن الله سبحانه وتعالى شرع دين الإسلام لكي يبقى خالداً إلى يوم القيامة، ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلا إذا توالى على حمله وصيانته رجال استثنائيون كالإمام زين العابدين عليه السلام مثلاً، والذي كان عندما يقف للصلاة فإنه لا يتوجه ببدنه فقط إلى الكعبة بينما يتجول فكره في مكان آخر. بل كان يتوجّه بكل كيانه ووجوده، ويكون وقوفه للصلاة، استعداداً للطيران في عالم الملكوت والتحليق باتجاه الله سبحانه.. وعندما كان لسانه يتمتم بالذكر فقد كان الله هو الذي ينطق ويتكلم عبر لسانه. وعندما كان الإنسان يرى علي بن الحسين عليه السلام في صلاته فكأنما كان يرى النبيّ ﷺ في محراب عبادته في الثلث الأخير من الليل، أو في جوف غار حراء..

كان الإمام زين العابدين عليه السلام ذات ليلة مشغولاً بالصلاة والعبادة، فسقط في أثناء ذلك أحد أطفاله على مقربة منه، وأصيب بكسر في عظام يده. فلما لاحظ أهل الدّار عدم وجود ردّ فعل للإمام بالنسبة لما حدث، ذهبوا وأحضروا مجبّراً داوى يد الطفل وربطها، وكان الطفل في خلال كل ذلك يصرخ صراخاً شديداً، وبعد أن أنهى الطبيب عمله ارتاح الطفل ونام، وفي الصباح رأى الإمام يد طفله المجبّرة، فسأل: ما الخبر، فقصوا عليه ما حدث، وتبيّن أنه عليه السلام كان يمرّ في صلاته بحالة جذبة إلهية، وكانت روحه معلقة بعزّ القدس الرّباني، بحيث أن صوت صراخ طفله وضجيج أهل داره لم يصل إلى أذنيه أصلاً فلم ينتبه لما كان يجري من حوله!.

رسول الرحمة والمحبّة

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يلعب في المجتمع دور رسول الرحمة والمحبّة، فكان يمشي في طرقات المدينة، وعندما يرى أنساناً وحيداً لا ظهير له أو غريباً منقطعاً عن أهله ووطنه، أو فقيراً محتاجاً أو مسكيناً معدماً ـ ومن أشبه من أولئك الضعفاء الحال في المجتمع والذين لم يكن الآخرون يكترثون لهم ولا يلقون إليهم بالاً ـ كان يلاطفه ويواسيه ويأخذه إلى بيته. ومرّ عليه السلام ذات يوم بجماعة من المصابين بمرض الجذام وكان الناس يفرّون منهم خشية العدوى، فدعاهم إلى بيته وهناك أخذ يقوم على خدمتهم وتمريضهم والتخفيف من آلامهم لأنه مهما يكن من أمر فهم عباد الله وليس من الصحيح إهمالهم. لقد كان بيت الإمام زين العابدين عليه السلام في الواقع بيت اليتامى والمساكين والملهوفين.

خدمة قوافل الحجاج

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يترصّد قوافل الحجيج القادمة من أماكن بعيدة مارّة بالمدينة، ويلتحق بإحداها بعنوان غريب يريد أن يعمل خادماً للحجّاج، وكانت الرحلة على ظهور الخيل والجمال آنذاك تستغرق عشرة أيّام أو أكثر يظل الإمام عليه السلام فيها عاكفاً على خدمة الحجّاج والمسافرين وتلبية طلباتهم وأوامرهم. وربّما اصطدمت بعض القوافل التي كان يرافقها الإمام في الطريق بمن يعرف شخصه فيذهل من هول ما يرى ويسأل أهل القافلة: من هذا الذي جلبتموه معكم ليخدمكم في الطريق؟ فيقولون: لا نعرفه، وإنما هو شاب طيّب صادفناه في المدينة وعرض علينا الخدمة فقبلنا. فيقول: لو كنتم تعرفون من هذا لما اتخذتموه خادماً توجهون إليه الأوامر والنواهي.. إنّه عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، إنّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. وعندها كان يهرع أهل القافلة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام فينكبّون يقبّلون يديه ورجليه. ويقولون: يابن رسول الله ادع لنا الله أن لا يعذبنا يوم القيامة على جسارتنا وسوء أدبنا بحقّك، فنحن الذين يجب أن نقوم بخدمتك وإطاعة أوامرك. فيقول عليه السلام: لقد جرّبت ذلك سابقاً، فكلّما سافرت مع قافلة يعرفونني فإنهم لا يدعونني أقوم بخدمتهم. ولذا فأنا أرغب دائماً أن أسافر مع قافلة لا يعرفني أحد منهم حتى أتمكّن أن أحصل على سعادة خدمة المسلمين ورفقاء الطريق.

دعاء الإمام وبكاؤه

لم تسنح لعلي بن الحسين عليه السلام فرصة نظير ما سنحت لوالده أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي جاهد في سبيل الله بالسيف وفاز بالشهادة المصطبغة بالدّم الأحمر. . وكذلك لم تسنح له فرصة نظير ما سنحت لحفيده الإمام الصادق عليه السلام الذي وجد الأجواء المناسبة للقيام بالجهاد العلمي، فأسس المدارس والحوزات العلمية ونشر العلوم الدينية وأحيا الفكر الإسلامي. . إلاّ أن الذي يريد أن يجاهد بصدق ويخدم الإسلام بجدّ، فإن كل الظروف فرصة بالنسبة له، وغاية ما في الأمر أن شكل الفرص يتفاوت من ظرف إلى ظرف.

لقد كانت الظروف السياسية في زمان الإمام زين العابدين عليه السلام محكومة بالكبت والإرهاب، وكان النظام الأموي آنذاك متشدّداً غاية التشدّد مع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم حتى أنهم فرضوا على الإمام ـ في فترة ـ الإقامة الجبريّة في بيته، وهكذا لم يجد الإمام زين العابدين عليه السلام أي فرصة للتحرّك والاتصال بشيعته وأنصاره. ولكنّه لم يقعد عن الجهاد ولم يتخلّ عن مسؤوليته تجاه الدين كما تصوّر البعض ذلك، بل اختار طريقاً للجهاد يتلاءم مع ظروف عهده، فاتّخذ من الدعاء والبكاء وسيلة لخدمة الإسلام ومقاومة الظالمين.

وكانت أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام ـ بالإضافة إلى ما فيها من جنبة المناجاة مع الخالق والتضرع إليه ـ مدرسة تحوي المعارف والعقائد الإسلامية وفلسفة الحياة والفضائل الأخلاقية، وما إلى ذلك من المواضيع التي حاول الأمويّون بثّ ما يضادّها في المجتمع الإسلامي. وكان عليه السلام يضمّن أدعيته

رسائل خفيّة موجهة إلى شيعته لا يفهمها جهاز مراقبة النظام الحاكم ـ وهي ما يشابه نظام الشيفرة في زماننا الحاضر ـ يدعو فيها شيعته إلى مقاومة الظالمين وعدم السكوت على ظلمهم.

وكان عليه السلام يتّخذ من كل مناسبة ـ أو مسألة تذكّر بواقعة الطفّ بكربلاء ـ فرصة للبكاء، وكان يكثر من البكاء حتى أنه عليه السلام كان لا يشرب الماء عندما يؤتى به حتى تسيل دموعه الشريفة على لحيته وتتساقط في إناء الشرب الموضوع أمامه. وكان من خلال بكائه ونواحه يعمل على إحياء ذكرى ثورة والده أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وكان دائماً يذكر الناس بأسباب ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه من جهة، ومن هم الذين حاربوه وقتلوه من جهة أخرى. لقد كان النظام الأموي يسعى جاهداً لتغطية أخبار ثورة الطفّ ووقائعها ورشّ رماد النسيان فوقها، لأنهم كانوا يخافون أشد الخوف من ظاهرة حب الشهادة التي بذرها الإمام الحسين عليه السلام في نفوس المؤمنين. ولكن الإمام زين العابدين عليه السلام استطاع بسلاح الدموع أن ينتصر على كل أسلحتهم.. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وفي إحدى المرّات ظلّ الإمام عليه السلام يبكي ويبكي حتى خشي عليه أصحابه أن يحدث له مكروه فقال له أحدهم: يابن رسول الله، ألم يأن لك أن تتوقّف عن البكاء؟ فقال عليه السلام: ماذا تقول يا هذا.. إن يعقوب عليه السلام لم يكن عنده إلا يوسف واحد، والقرآن يقول: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ لفقده، وأنا فقدت في يوم واحد ثمانية عشر يوسفاً كانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر مضرجين بدمائهم يوم الطفّ.

الفصل الرابع

الإمام الصادق (ع) ومسألة الخلافة..

القسم الأول

هناك أربعة ـ فقط ـ من أئمّتنا عليهم السلام اصطدموا بشكل من الأشكال بمسألة الخلافة كقضية سياسية في زمانهم، وهم أمير المؤمنين عليه السلام، الإمام الحسن، الإمام الحسين، الإمام الصادق عليهم السلام، وأمّا بقيّة الأئمة عليهم السلام فلم تكن هذه المسألة مطروحة بالنسبة لشخصهم في مواجهة الأنظمة الحاكمة.

وبحثنا في هذا الفصل يتعلّق بالإمام الصادق عليه السلام حيث تطرح في هذا الباب عدّة تساؤلات، من أهمّها هو أنه قد سنحت في زمان الإمام الصادق عليه السلام الذي كان يعاصر آخر عهد بني أميّة وأول عهد بني العباس، فرصة سياسية مؤاتية استغلها بنو العباس للفوز بكرسيّ الخلافة، فما هو السبب الذي جعل الإمام الصادق عليه السلام يعرض عن الاستفادة من فرصة كهذه؟.

وهذه الفرصة وجدت عن طريق ازدياد معارضي بني أميّة تدريجيّاً سواء بين العرب أو بين العجم (الإيرانيين)، وسواء لأسباب دينيّة أو أسباب دنيويّة..

فالأسباب الدينيّة هي أعمال الفسق والفجور التي كان يرتكبها خلفاء بني أميّة بصورة علنيّة، إضافة إلى الجنايات العظمى التي ارتكبوها بحق أئمّة الدين ورجال الإسلام المخلصين، وقد أخذ حسّ النفور والكراهية يتنامى تدريجيّاً بين المسلمين المتديّنين ضد بني أميّة، وخصوصاً بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام

على يد جلاوزتهم، وبعد الثورات التي أعقبت ثورة الإمام الحسين عليه السلام مثل ثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وبعدها ثورة ابنه زيد بن يحيى. وفي النهاية انكشف القناع عن وجه الأمويين وزالت الصبغة الدينيّة عن حكمهم كليّاً.

وأمّا الأسباب الدنيويّة فهي مبالغة ولاتهم في ممارسة الظلم والجور بحق الناس، خصوصاً وأن بعض هؤلاء الولاة مثل الحجاج بن يوسف في العراق ـ وآخرين من مثله في خراسان ـ وصلوا إلى الذروة في أعمال التعسّف والإجرام. وظهر بين الإيرانيّين وخصوصاً أهل خراسان، (بمفهومها الواسع قديماً) نشاط كبير وحركة جدّية ضدّ خلفاء بني أميّة الذين أوجدوا تفكيكاً بين مسألة الدين ومسألة الحكم والسياسة، وهذا في نظر الإسلام بدعة وضلالة. ولقد تركت بعض ثورات العلويّين في خراسان آثاراً إعلامية كبيرة جداً بالرغم من أن الثوار أنفسهم قتلوا ولم يحققوا نصراً عسكرياً.

فقد ثار زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام في أطراف الكوفة، بعد أن بايعه أهل الكوفة وعاهدوه على النّصرة، ولكن لم يف بعهده إلا القليل منهم، وقُتل زيد بشكل مفجع ومثّل به أعداؤه أبشع تمثيل، فبالرغم من أن أنصاره قاموا بقطع أحد الأنهر ليلاً، وحفروا له قبراً في قاع ذلك النهر، ودفنوه ثم أجروا عليه الماء ثانية، وذلك كي لا يعرف أحد بمكان قبره، إلاّ أنّ الحفّار وشى للسلطات، وبعد عدة أيام جاء رجال بني أميّة وأخرجوا جثمانه من قاع النهر وصلبوه في مكان عام مدّة طويلة إلى أن تيّبس الجثمان، وقيل أنه بقي معلّقاً على خشبة الصلب مدّة أربع سنوات!.

وكان لزيد ولد اسمه يحيى ثار هو الآخر ولحقت به الهزيمة، ففرّ إلى خراسان وترك هناك آثاراً عميقة، ووجد بين الخراسانيين محبوبيّة كبيرة ولكنّه قتل في النهاية في معركة مع القوّات الأمويّة.

وهكذا شاهد أهل خراسان عياناً ـ وحسب الظاهر للمرّة الأولى ـ كيف أن أولاد النبيّ صلى الله عليه وآله يعارضون الخلافة القائمة ويثورون ضدها مضحّين بأنفسهم، وهذا يعني بالنسبة لهم سحب بساط القدسية من تحت أقدم الحكام الأمويّين المتلبّسين برداء الخلافة الإسلامية، ففي ذلك الزمان لم تكن أخبار الحوادث

والوقائع تنتقل بسرعة كما هو اليوم، وكان يحيى في الواقع هو الذي استطاع أن يوضّح لأهل خراسان قضيّة الإمام الحسين عليه السلام وقضيّة زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام وسائر القضايا، بحيث ذكر بعض المؤرخين أن الخراسانيين عندما عزموا القيام بالثورة على بني أميّة بعد ذلك، أقاموا العزاء على يحيى بن زيد سبعين يوماً (أي أنهم اتخذوه رمزاً لثورتهم، وهذا يدل على أن بعض الثورات التي لا تنجح في بدايتها يمكن أن تعطي ثمارها فيما بعد وبصورة تدريجية).

وعلى أي حال فقد تهيّأت في خراسان الأرضية المناسبة للنهوض والثورة، ولكنّها بالطبع ليست ثورة موجّهة بالكامل وتحت قيادة محدّدة، بل كانت بشكل عام ثورة ناشئة عن سخط شديد تنامى بين جماهير الناس هناك ضد الحكم الأموي الجائر.

استغلال بني العبّاس لسخط الجماهير

استفاد بنو العباس من هذه الأحداث أقصى استفادة، وكان على رأسهم آنذاك ثلاثة أخوة أحدهم إبراهيم الإمام، والآخر أبو العباس السفّاح، والثالث أبو جعفر المنصور، وهم أبناء عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله. وكان هؤلاء الثلاثة في الواقع من الرجال النّوابغ، فقاموا بتأليف التشكيلات السريّة، وكانوا يديرونها من أماكن اختبائهم في الحجاز والعراق والشام، واتّخذوا مندوبين لهم وأرسلوا المبلّغين والدعاة إلى سائر الأطراف والإكناف، وركّزوا جلّ اهتمامهم على أهل خراسان، حيث أخذوا يدعون الخراسانييّن إلى التمرّد والثورة على النظام الأموي، ولكنهم لم يعيّنوا في دعوتهم شخصاً معيّناً يقود الثورة، وإنّما كانوا يدعون إلى (الرضيّ من آل محمد) أو (الرضا من آل محمد) أيّ إلى شخص من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله يكون مقبولاً عند الناس.

ومن هنا يتبيّن أن الأرضيّة الشعبيّة كانت أرضيّة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله أي أرضيّة الإسلام. وهؤلاء الذين يريدون اليوم أن يضفوا على ثورات أهل خراسان الصبغة الإيرانية ويدّعون أنهم قاموا بهذه الأعمال بدافع العصبيّة القومية والإقليمية، مخطئون تماماً، فهناك مئات الشواهد والدلائل على كذب هذا الإدّعاء ولا أريد الآن أن أدخل في بحث هذه المسألة.

بالطبع كان الناس غير راضين عن النظام الحاكم ولكن الشيء الذي فكّروا فيه من أجل خلاصهم من جور بني أميّة هو الالتجاء إلى الإسلام وليس إلى أيّ شيء آخر. فكانت كل شعاراتهم إسلامية. ولم تكن هناك قوة تجبرهم آنذاك على أن يرفعوا الشعارات الإسلامية لا الإيرانية. ولو كان أخل خراسان

في ذاك الزمان يريدون أن ينفضوا أيديهم من مسألة الخلافة وحتى من مسألة الإسلام، لكان أسهل عليهم من شرب الماء، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل جاهدوا ضد نظام الخلافة المنحرفة باسم الإسلام ولأجل الإسلام منذ اليوم الأول الذي أعلنوا فيه قيامهم وكان ذلك في سنة ١٢٩هـ في «مرو» وفي قرية تدعى «سفيدنج» واختاروا أن يكون ذلك اليوم عيد فطر ـ كان الشعار الذي كتبوه على راياتهم هو أوّل آية قرآنية نزلت بشأن الجهاد وهي: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن بني أميّة قد رجعوا إلى زمان الجاهلية الأولى، وأن التأريخ أخذ يعيد نفسه، فأصبح حال المسلمين اليوم كحالهم في زمان رسول الله ﷺ في مقابل مشركي قريش.

والآية الأخرى التي جعلوها شعاراً لهم هي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وذلك إشارة إلى أن الأمويين ـ خلافاً لمبادىء الإسلام ـ أثاروا نعرة القوميّة العربية، وادعوا امتياز العرب على العجز، وهذا بنصّ الآية الكريمة خلاف الأصل المسلّم به في القرآن، فهم (أي أهل خراسان) بهذا الشعار إنّما يدعون العرب الذين نسوا الآيات القرآنية والتعاليم الإسلامية إلى الإسلام مرّة أخرى!!.

وبهذه المناسبة هناك حديث نقله في كتاب «الخدمات المتقابلة بين الإسلام وإيران» يقول: «إن أحد أصحاب النبيّ ﷺ ذكر في حضرته أنه رأى في المنام أغناماً بيضاء دخلت في أغنام سوداء واختلطت معها وتزاوجت فخرج منها ذرّيّة.. ففسّر النبيّ ﷺ ذلك بأن العجم سوف يشاركونكم (أيّ العرب) في الإسلام ويختلطون معكم، رجالكم يتزوجون نساءهم ورجالهم يتزوّجون نساءكم... إلى أن قال ﷺ: وإنّي لأرى ذلك اليوم الذي يقاتلكم فيه العجم على الإسلام كما تقاتلونهم أنتم على الإسلام». ومصداق هذا الحديث في شقّه الأول هو قيام العجم من أهل خراسان ضد العرب بقيادة آل أميّة كما أشرنا إلى ذلك.

وكان بنو العباس بتشكيلاتهم السريّة يقودون ثوارت أهل خراسان ويديرونها بدقّة بالغة وتنظيم محكم، وكانوا هم الذين أرسلوا أبا مسلم الخراساني فيمن أرسلوا من الدعاة إلى الخراسان. وأبو مسلم هذا غير معروف

الأصل والنسب، وإلى اليوم لم يستطع التأريخ أن يثبت أنه إيرانّي الأصل أم عربيّ، وإذا كان إيرانياً فمن أهل خراسان أم من أهل أصفهان، لقد كان غلاماً شاباً يبلغ من العمر عشرين عاماً ونيّف، التقى به إبراهيم الإمام، فوجد فيه لياقة عالية وأنه يصلح للعمل الذي يريده، فأرسله إلى خراسان، وعلى أثر كفاءته واستعداده استطاع أن يغطّي على سائر المبلّغين والدعاة هناك، ومن ثمّ يستفرد بزعامة النهضة التي كانت تتنامى بين أهل خراسان.

أبو مسلم هذا زعيم كفؤ بالمفهوم السياسي، ولكنه من الناحية الأخلاقية إنسان شرّير جدّاً يخلو من كل معاني الإنسانية، وهو في ذلك يشبه الحجّاج بن يوسف الثقفي الذي كان أيضاً شخصاً ذكيّاً نابهاً، ذا كفاءة عالية في الإدارة والسياسة، بحيث استحوذ على إعجاب عبد الملك بن مروان وثقته، ولكنه كان يخلو من كل فضيلة أخلاقية أو صفة إنسانيّة، فقتل في مدّة ولايته على العراق مائة وعشرون ألفاً من الأبرياء، وكذلك فعل أبو مسلم فقد قيل أن عدد من قتلهم ظلماً بلغ ما يقارب الستمائة ألف إنسان. وكان يقتل حتى أقرب المقرّبين إليه ولأتفه الأسباب، ولم يكن يفرّق في ذلك بين العربي وغير العربي حتى يمكن أن نقول: إنه كان يتمتّع بالتعصّب القوميّ أو العرقيّ.

وفي خضم هذه الأحداث، لا نلاحظ أنه كان للإمام الصادق عليه السلام دخل في نشاطات الدعوة والتنظيم، ولكن بني العباس على العكس من ذلك كان لهم دخل كامل في هذه المسألة وكانوا مندفعين إلى حدّ التضحية وكثيراً ما كانوا يصرّحون بأنه: إمّا أن نقتل جميعاً ونمحى من الوجود، وإمّا أن نأخذ الخلافة من هؤلاء (أي بني أميّة).

والمسألة التي ينبغي أن نضيفها هنا هي أن بني العبّاس كان لهم اثنان من الدّعاة الذين كانوا يقودون نهضتهم المضادة للحكم الأموي، أحدهم في الكوفة ويدعى (أبا سلمة الخلاّل) وكان مختفياً أيضاً، والآخر أبو مسلم الخراساني الذي ذكرنا أنهم أرسلوه إلى خراسان ونجح في دعوته هناك بشكل باهر. وكان أبو سلمة في الدرجة الأولى من حيث الأهمية بالنسبة للعباسيّين، بينما كان أبو مسلم يحتلّ الدرجة الثانية، ولذلك كانوا يلقّبون الأول بـ (وزير آل محمد) والثاني بـ (أمير آل محمّد).

وكان أبو سلمة رجلاً مدبّراً وسياسيّاً قديراً ملمّاً بالأمور، وكان ـ أيضاً ـ عالماً ومحدّثاً جيّداً. وكانت إحدى خصال أبي مسلم الرديئة أنه كان يضمر في قلبه الحسد تجاه أبي سلمة وكان يراه منافساً خطيراً ينبغي إزاحته، فأخذ من موقعه في خراسان يحوك المؤامرات ضدّه للإطاحة به، وأخذ يكتب إلى أبي العباس السفّاح بأن أبا سلمة هذا رجل خطر عليكم فلا تتوانَ في القضاء عليه بأسرع وقت، كما كتب أيضاً بهذا الشأن إلى أعمام السفاح وأقربائه، ولكن السفاح لم يستحب لطلبه وإلحاحه في هذا الأمر وكان يقول: كيف أقتل شخصاً قدّم إليّ كل هذه الخدمات وضحى من أجلي كل هذه التضحيات؟ فكتب أبو مسلم يقول له: أنا على يقين أن في قرارة قلبه نوايا سيئة، فهو يريد أن يأخذ الخلافة من آل العباس ويعطيها لآل أبي طالب. فكان جواب السفاح: لم يثبت عندي شيء من ذلك، وإذا كان هذا صحيحاً، فهو شيء خطر في قلبه والبشر ليس بمأمن من هكذا خواطر.

وهكذا فشل أبو مسلم في حمل السفّاح على قتل أبي سلمة، ولكنّه علم فيما بعد أن أبا سلمة قد تنبّه إلى مؤمراته تلك، ففكّر أن يقوم شخصيّاً بالمبادرة في القضاء عليه. وكان أبو سلمة يذهب في كثير من الليالي لمقابلة السفّاح والحديث معه ثمّ يعود آخر الليل إلى منزله. فأرسل أبو مسلم عدداً من رجاله فترصّدوا لأبي سلمة في طريق عودته وقتلوه. ولأن بعض رجال السفّاح ـ أيضاً ـ كانوا يرافقون القتلة، فقد أصبح دم أبي سلمة لوثاً وتخلّص أبو مسلم من تحمّل العبء الكامل في هذه القضية. وقد حدثت كل هذه الأمور في السنين الأولى لخلافة السفّاح، وهنا قصّة تُذكر بشأن أبي سلمة تدور حولها بعض التساؤت وهي كما يلي:

رسالة أبي سلمة إلى الإمام الصادق عليه السلام وإلى عبد الله المحض:

كان أبو سلمة كما يذكر المسعودي في (مروج الذهب) يعمل لصالح آل العبّاس طوال المدّة التي كانوا يدعون فيها للثورة على بني أميّة، وإلى سنة ١٣٢هـ حيث ظهر بنو العبّاس علناً في العراق وكان الفتح والظفر من نصيبهم. وكان إبراهيم الإمام قبل ذلك يمارس نشاطه في حدود الشام بصورة سريّة. كان هو الأخ الأكبر وكانوا يريدون أن ينصّبوه خليفة. ولكن إبراهيم أحيط به من

قبل رجال مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة، وأحسّ أنهم علموا بمكان اختباءه وأنه عمّا قريب سيقع في قبضتهم، فكتب وصيته وأرسلها بيد أحد أعوانه إلى (الحميمة) قرب الكوفة حيث كان إخوانه هناك.

وبيّن في هذه الوصيّة الخطوط الرئيسية لسياسة المستقبل وعيّن فيها خليفته من بعده وقال: إنهم سوف يقتلوني لا محالة، فإذا قتلت فإن أخي السفّاح هو الخليفة من بعدي (وكان السفّاح أصغر سنّاً من المنصور)، وأخبرهم بأنه قد آن الآوان للخروج من (الحميمة) وأمرهم بالذهاب إلى الكوفة والاختفاء هناك وبشّرهم بأن وقت الظهور قريب.

وقتل إبراهيم ووصلت رسالته بيد إخوانه، فذهبوا متسترين إلى الكوفة واختبأوا هناك. وكان أبو سلمة أيضاً مختبأ في الكوفة يدير شؤون النهضة. ولم يمض شهر أو شهران على مقتل إبراهيم حتى ظهر العباسيّون رسميّاً وقاتلوا وانتصروا على القوات الأمويّة.

يقول المسعودي: بعد أن قتل إبراهيم الإمام، وآل الأمر إلى السفّاح وجماعته، ندم أبو سلمة وفكّر في أن يرجع الخلافة من آل العباس إلى آل أبي طالب، فكتب رسالتين متماثلتين وأرسلهما سراً بيد شخص إلى المدينة، واحدة إلى الإمام الصادق عليه السلام والأخرى إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[١]، وأمر الرسول أن يسلّم الرسالتين إلى هذين الشخصين دون أن يطلع أحدهما على رسالة الآخر.

---

(١) كان للإمام الحسن عليه السلام ولد يدعى أيضاً الحسن فكان يلقّب بالحسن المثنّى، وكان الحسن المثنّى هذا في كربلاء في ركاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولكنّه لم يستشهد بل كان ضمن المجروحين الذين سقطوا في المعركة، وبعد أن جاء رجال زياد لتفقّد الجرحى أخذه معه شخص منهم تربطه به قرابة من جهة الأم، وتشفّع له عند عبيد الله بن زياد حتى لا يقتله، وبعد ذلك عُولج الحسن المثنّى وشُفي من جراحه. ثم إنّه تزوّج بفاطمة بنت الحسين عليه السلام التي حضرت كربلاء أيضاً وكانت صغيرة السنّ وينقل بأنها: كانت جارية وضيئة (أي بالغة الحسن) (وفاطمة هذه هي التي كانت في مجلس يزيد مع السبايا، فطلب أحدهم منه أن يهبها له فسكت يزيد. فأعاد الطلب ثانية، وهنا تصدّت له زينب الكبرى عليها السلام وأغلظت له القول وعاتبت يزيد عتاباً شديداً، مما جعله يلتفت إلى ذلك الرجل مغتاظاً ويشتمه ويقول له: لِمَ تكلمت معي بهذا الكلام؟) وتولّد من زواج هذين أبناء أحدهم هو عبد الله المحض هذا، فهو من طرف الأمّ حفيد الإمام الحسين سيد الشهداء عليه السلام ومن طرف الأب حفيد الإمام =

وكان خلاصة ما كتبه في رسالته المزدوجة هذه هو أن أمر الخلافة أصبح في قبضته، فزمام خراسان وزمام الكوفة بيده، وأنه هو الذي أجرى الأمور إلى الآن لصالح بني العبّاس، وإذا كانا يوافقان فهو مستعد لأن يرجع الأوضاع آل أبي طالب.

الحسن عليه السلام وكان يفتخر بهذا ويقول: أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن فاطمة الزهراء عليها السلام من طريقين ولهذا لقب المحض أي الخالص من جهة النسب. وكان عبد الله هذا كبير بني الحسن عليه السلام في زمان الإمام الصادق عليه السلام، كما كان الإمام الصادق عليه السلام كبير أولاد بني الحسين عليه السلام.

ردّ فعل الإمام الصادق (ع) وعبد الله المحض

سلّم الرسول الرسالة أولاً إلى الإمام الصادق عليه السلام (وكان ذلك ليلاً)، وبعد ذلك سلّم رسالة عبد الله المحض. وكان ردّ فعل كلّ من هذه الشخصين مختلفاً تماماً. فعندما سلم رسالة الإمام الصادق عليه السلام قال: أحضرت لكم هذه الرسالة من طرف أبي سلمة شيعتكم. فقال الإمام: أبو سلمة ليس من شيعتي. قال: على أي حال، هي رسالة تطلب الجواب. فأمر عليه السلام بإحضار سراج وبدون أن يفضّ الرسالة وضعها فوق النّار وأحرقها قائلاً: قل لصاحبك هذا هو الجواب! ثم قرأ هذا البيت من الشعر:

أيـا مـوقـداً نـاراً لـغـيـرك ضـوءهـا

ويـا حـاطـباً فـي غـيـر حـبلـك تـحـطـب

وكأنما كان الإمام يقصد بذلك أن يقول: يا لشقائك يا أبا سلمة، إنك تبذل كل هذه الجهود وفي النهاية تكون الفائدة لغيرك، ولن يعود عليك منها شيء سوى الحسرة. أو أن يكون المعنى متوجّهاً إلى شخصه عليه السلام في حالة قبوله لعرض أبي سلمة، وهو أنه سوف يخوض عبثاً في أمر تكون نتيجته النهائية من نصيب الآخرين (المقصود بنو العباس) ـ فنهض الرسول من عند الإمام عليه السلام وذهب من فوره إلى عبد الله المحض، ولما سلّمه رسالة أبي سلمة ابتهج لذلك وسرّ سروراً بالغاً، وكما يذكر المسعودي، ركب عبد الله دابّته في الصباح الباكر وتوجّه إلى بيت الإمام الصادق عليه السلام، فاستقبله الإمام بحفاوة بالغة، وكان الإمام يعلم بسبب مجيئه فقال: كأن عندك خبراً جديداً! قال: نعم هو أجلّ من أن يُوصف، فقد كتب إليّ أبو سلمة بأن جميع الشيعة في خراسان

مستعدّون لإرجاع أمر الولاية والخلافة إلينا، وطلب منّي أن أوافق على هذا الأمر.

ويواصل المسعودي[١] روايته بأن الإمام الصادق عليه السلام قال له: ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ أنت قلت لأهل خراسان أن يلبسوا السّواد ويتّخذوه شعاراً لهم[٢]؟ وهل هؤلاء الذين جاءوا من خراسان، أنت جلبتهم إلى العراق[٣]، وهل تعرف شخصاً واحداً منهم؟.

فاستاء عبد الله كثيراً من هذا الكلام وأخذ في المباحثة مع الإمام عليه السلام فقال: ماذا تقول؟ إنّما يريد القوم أن يبايعوا ابني محمّداً لأنه مهديّ هذه الأمّة. فقال الإمام عليه السلام: والله إنه ليس مهديّ الأمّة. وإذا خرج ابنك محمد فإنه سوف يُقتل لا محالة فازداد استياء عبد الله، وقال له متجاسراً: إنك تقول هذا حسداً من عندك.

فقال الصادق عليه السلام: أقسم بالله أني لا أريد لك إلاّ الخير، فليس هذا الأمر في مصلحتك، وسوف لن تحصل على أيّ نتيجة من ورائه، ثم قال له: والله لقد أرسل لي أبو سلمة عين الرسالة التي أرسلها لك، ولكنّي حرّقتها قبل أن أفضّها. فقام عبد الله من عند الإمام مغتاظاً.

وكانت هذه القضايا مقارنة للتطورات التي كانت تجري في العراق، والتي كانت تنبىء بوقت ظهور بني العبّاس. وكان أبو مسلم يقوم بنشاط محموم من أجل القضاء على أبي سلمة، وكان أعمام السفّاح يؤيدونه ويدعمونه في ذلك، وكان هذا هو ما حصل، فقبل أن يصل رسول أبي سلمة إلى الكوفة عائداً من المدينة، كانوا قد أجهزوا على أبي سلمة وقضوا عليه، ولهذا فإن الجواب الذي كتبه عبد الله المحض لم يصل إلى يد أبي سلمة أصلاً.

---

(١) المسعوديّ مؤرّخ، وفي أنه شيعيّ أوسنّي بمفهوم التشيّع الذي نعرفه اليوم فهو سنّي قطعاً، لأن ملاك التشيع بالقدر المسلّم به عندنا هو الاعتقاد في مسألة الخلافة بأن أبا بكر وعمر وجماعتهم غاصبون، بينما المسعوديّ يولي احتراماً فائقاً للخلفاء الثلاثة، ولكنه في نفس الوقت يحترم الأئمّة عليهم السلام كثيراً، وينسب إليه أيضاً كتاب باسم «إثبات الوصيّة». فالظاهر أنه سنّي ولكنه على أي حال من مؤرخي الدرجة الأولى في الإسلام.

(٢) مسألة اللباس الأسود، اتّخذت ـ كما ذكر في التأريخ ـ كرسم في عزاء يحيى بن زيد.

(٣) جاء عدد من الخراسانيّين آنذاك إلى العراق، وكانوا هم الذين ساعدوا بني العباس وشاركوا في الثورة مع غيرهم من العرب.

بحث: يبدو لي ـ مع الوصف الذي ذكره المسعوديّ ولم يذكر غيره شيئاً خلافه ـ أن قضيّة أبي سلمة واضحة جدّاً، فهو رجل سياسيّ وليس شيعياً ولا مؤيّداً للإمام الصادق عليه السلام (كما قرّر ذلك الإمام نفسه) ولأسباب لا تخفى علينا، غيّر فجأة سياسته التي كانت موجّهة لصالح بني العبّاس، ولمّا لم يكن هناك مجال لطرح أيّ كان لمسألة الخلافة، إذ أن الناس لم يكونوا يرضون أن تخرج الخلافة من حدود آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله، فإنه عندما صرف نظره عن بني العبّاس لم يجد أمامه غير آل أبي طالب والذي برز منهم في المقدّمة شخصان، وهما كما ذكرنا الإمام الصادق عليه السلام، وعبد الله المحض. وبأسلوب سياسيّ حاذق أرسل لكليهما نفس الرسالة بحيث أن أي السهمين أصاب فيها ونعمت.

وعلى هذا، لم تكن قضيّة الدّين والولاء مطروحة بالنسبة لأبي سلمة، الذي كان يبحث عن شخص يتّخذه أداة لتمرير سياسته ـ فقط ـ، وإضافة إلى عدم توفّر الإخلاص في عرضه هذا، فإن عمله أيضاً كان محكوماً بالفشل، والدليل على ذلك أنه قتل قبل أن يصل جواب رسالته بيده، ونامت القضيّة بصورة تامّة.

وأنا هنا أتعجب غاية العجب عندما أسمع بعض الذين يدّعون معرفة التأريخ يقولون: لماذا لم يقبل الإمام الصادق عليه السلام بعرض أبي سلمة الخلاّل؟ في حين أن الظروف لم تكن أبداً مهيّأة لعمل مثل هذا، لا من الجوانب المعنويّة فيكون الذين قدّموا هذا العرض أفراداً موالين ذوي نوايا خالصة، ولا من الجوانب الماديّة حيث لم تكن الوسائل والإمكانات متوفّرة. وحيث أننا أوردنا اسم عبد الله المحض، وقلنا أن الإمام الصادق عليه السلام لم يتعاون مع العباسيّين ولم يقبل العروض المضادة للعباسيّين، فنحن نرى هنا أنه من اللازم أن ننقل واقعة أخرى تبيّن موقف الإمام عليه السلام من النهضات المضادة لبني أميّة.

وهنا أستقي المعلومات من كتاب أبي الفرج الأصفهاني، لأني لم أجد في بحثي عن المراجع أفضل وأكثر تفصيلاً من هذا الكتاب، وأبو الفرج هذا مؤرخ أمويّ سنّي وكانوا يلقبونه بالأصفهاني لأنه كان يقيم في أصفهان وليس بأصفهان الأصل، ومع أنه أمويّ سنّي فهو مؤرخ محايد. والشيخ المفيد في كتاب (الإرشاد) ينقل عن أبي الفرج هذا لا عن روايات الشيعة.

الاجتماع السرّي لرؤساء بني هاشم

عندما كانت النهضة ضد الأمويّين في أوائل مراحلها، اجتمع رؤساء بني هاشم في (الأبواء)[١] وهو منزل بين مكّة والمدينة، وعقدوا بينهم اجتماعاً سريّاً حضره أولاد الإمام الحسن عليه السلام: عبد الله المحض وابناه محمّد وإبراهيم. وكذلك حضره بنو العباس أي إبراهيم الإمام، وأبو العباس السفّاح، وأبو جعفر المنصور وعدد من أعمامهم. وهناك التفت عبد الله المحض إلى المجتمعين وقال: يا بني هاشم، أنتم الذين تتطلّع إليكم العيون وتشرئّب الأعناق، وها قد هيّأ الله لكم الوسيلة أن تجتمعوا هنا، فهلّموا جميعنا نبايع هذا الشاب (يقصد ابنه محمّداً) ونجلعه زعيماً لنا كي نقاتل ضد بني أميّة. وقد حدث هذا الاجتماع قبل قضيّة أبي سلمة بمدّة طويلة أي ما يقرب من اثني عشر عاماً قبل قضايا ثورة الخراسانيّين، وكان هو البادرة الأولى لمسائل القيام والثورة على النظام القائم.

---

(١) نشاهد هذا الاسم كثيراً في تاريخ الإسلام. «والأبواء» هو المكان الذي توفّيت فيه السيّدة آمنة أم النبيّ صلى الله عليه وآله، فعندما بلغ محمد صلى الله عليه وآله الخامسة من عمره، اصطحبته معها إلى المدينة حيث كان قومها وعشيرتها يعيشون هناك، فكان للرسول صلى الله عليه وآله من جهة أمّه صلة وانتساب مع أهل المدينة. وفي طريق العودة مرضت آمنة وتوفيت في منطقة الأبواء هذه حيث دفنت هناك، فبقي محمد صلى الله عليه وآله مع جارية أمّه «أم أيمن» ورجعا مع القافلة إلى مكّة، وهكذا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله بعينيه موت أمّه في الغربة وفي أحد منازل الطريق. ويذكر أنه صلى الله عليه وآله بعد الهجرة إلى المدينة، في إحدى تنقّلاته مرّ «بالأبواء» فنزل ورآه أصحابه يسير منفرداً باتجاه نقطة معينة، وما إن وصل إلى هدفه وقف قليلاً ثم جلس وأخذ في الدعاء، ثم رأوا دموعه تجري فتعجّبوا وسألوا ما القضيّة، فقال لهم: «هذا قبر أمي» ولم يكن قد مرّ بهذا المكان بعد وفاة أمّه طوال خمسين عاماً، ولكن برغم طول المدة لم ينس حقّ أمّه، فذهب «عندما سنحت له الفرصة» لزيارة قبرها وبكى هناك ودعا لها.

البيعة لـ (محمد النفس الزكيّة)

لم تكن الأرضيّة آنذاك مهيّأة بالنسبة لبني العبّاس، ففكّروا أن لا بأس في البداية من طرح واحد من آل عليّ عليه السلام ممّن له مكانة ووجاهة بين الناس، وبعد ذلك يتدبّرون أمر إزاحته ليستفردوا بالأمر، فاختاروا (محمّداً النفس الزكيّة) لهذا الهدف، وهو ابن عبد الله المحض الذي يتصل نسبه برسول الله صلى الله عليه وآله كما ذكرنا عن طريق الأم والأب، وكان في الواقع رجلاً مؤمناً متقيّاً، جميل الصورة نوراني المحيّا وكان له خال في كتفه. وبسبب أن الروايات الإسلامية أكّدت أنه عندما يزداد الظلم والجور في الدنيا فإن أحد أولاد النبيّ صلى الله عليه وآله من فاطمة الزهراء عليها السلام يظهر ويكون اسمه اسم النبيّ صلى الله عليه وآله وله خال في كتفه، فقد اعتقد قسم من الناس وخصوصاً أولاد الإمام الحسن عليه السلام أن محمد بن عبد الله المحض هو مهديّ هذه الأمّة الذي يجب أن يظهر ويخلّص الناس من الظلم، وأن هذا الزمان هو زمان الظهور الموعود. وسايرهم بنو العباس في ذلك فكانوا يتظاهرون بهذه العقيدة مخادعة ومكراً.

وعلى أيّ حال، كما يذكر أبو الفرج نهض عبد الله المحض وبدأ في الخطابة فدعا الحاضرين لمبايعة واحد منهم يختارونه زعيماً لهم، ويعاهد بعضهم بعضاً على القتال، ويدعون الله لعلّهم ينتصرون على بني أميّة. ثم قال: (أيها الناس، كلكم تعلمون أن ابني هذا هو المهديّ الموعود فهلمّوا جميعكم فبايعوه). فقال المنصور: ليس هو مهديّ الأمّة فقط، بل إني اعتقد أنه الشخص الأكثر مقبولية بين الناس، نعم لقد صدق فتعالوا نبايعه. فوافقوا جميعهم وبايعوا محمداً.

وبعد ذلك أرسلوا يطلبون حضور الإمام الصادق عليه السلام[١]. وعندما جاء الإمام عليه السلام نهض عبد الله المحض من مجلسه ـ وكان هو الذي يدير ذلك الاجتماع ـ وأجلس الإمام إلى جانبه وكرّر عليه ما قاله له سابقاً من أن الأوضاع كذا وكذا، وأن ابني هذا هو مهديّ الأمّة، وأن الناس قد بايعوه فهلّم أنت ـ أيضاً ـ فبايع. فقال جعفر عليه السلام: (لا تفعلوا، فإن هذا الأمر لم يأت بعد، وإن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهديّ فليس به ولا هذا أوانه، وإن كنت إنّما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنّا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك في الأمر).

ولكن القوم أصّروا وقالوا: إنّ هذا هو مهدّي الأمّة وإن هذا الأمر واضح لا يحتاج إلى نقاش، فقال الإمام عليه السلام: لا أبايع. فظهر الضيق في وجه عبد الله، وعندها قال له الإمام عليه السلام: إن ابنك ليس مهديّ هذه الأمّة، وليس هذا فحسب، وإنّما عندنا نحن أهل البيت أسرار، فنحن نعلم من يكون خليفة ومن لا يكون، وابنك لن يكون خليفة وسوف يقتل.

هنا يذكر أبو الفرج الأصفهاني أن عبد الله استاء كثيراً وقال: كلا، أنت تقول خلاف ما تعتقد. أنت أيضاً تعلم أن ابني هو مهديّ الأمّة، ولكنك تقول ما تقول حسداً. فقال عليه السلام: والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناءهم دونكم (وضرب بيده على ظهر أبي العبّاس) ثمّ وضع يده على كتف عبد الله بن الحسن المثنى وقال: إيهٍ، ما هي إليك ولا إلى ابنيك. (كان عليه السلام يعلم أن عبد الله كان يتطلّع إلى الخلافة وليس إلى أي شيء آخر).

ثمّ نهض الإمام عليه السلام وبينما كان يتكيء على يد عبد العزيز بن عمران الزهريّ همس في أذنه قائلاً: أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟ (يقصد أبا جعفر المنصور)، قال نعم، قال: أقسم أنّا نجد أنه يقتل ابني هذا (أي ابني عبد الله). فتعجب عبد العزيز (لأنه كان حاضراً عندما بايع المنصور فيمن

(١) يقول أبو الفرج: إن بعض الرواة يذكرون هنا أن عبد الله قال: لا ترسلوا وراء جعفر، لأنه إن جاء فلن يوافق على ما جرى بل سوف يفسد علينا هذا الأمر، ولكن الآخرين أصرّوا على حضور الإمام الصادق عليه السلام. ولكن رواة آخرين قالوا: إن عبد الله لم يقل شيئاً من هذا.

بايع محمّداً) وقال: هذا يقتله؟ قال: نعم، يقول عبد العزيز: فقلت في نفسي لعلّه يقول ذلك حسداً.

ثمّ يقول بعد ذلك: أقسم بالله أني لم أفارق الدنيا حتى رأيت أبا جعفر المنصور يقتل محمداً وأخاه.

وكان الإمام الصادق عليه السلام مع كل هذا يحبّ محمّداً كثيراً، ولذا يذكر أبو الفرج: كان جعفر بن محمد إذا رأى محمد بن عبد الله بن الحسن تغرغرت عيناه ويقول: (بنفسي هو، إن الناس ليقولون فيه وإنه لمقتول. ليس هذا في كتاب عليّ من خلفاء هذه الأمّة).

ومن هنا يتبيّن أن هذه النهضة كانت منذ مراحلها الأولى قد بدأت باسم المهدويّة وكان الإمام الصادق عليه السلام يعارض ذلك أشدّ المعارضة، وكان حاضراً لأن يشترك معهم بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس بعنوان المهدويّة. أمّا بنو العبّاس فكان حسابهم حساباً آخر وكان هدفهم الملك والسياسة والرياسة لا أكثر.

خصائص زمان الإمام الصادق (ع)

أرى من اللازم هنا أن أنوّه بأن زمان الإمام الصادق عليه السلام زمان لا نظير له بالنسبة إلى غيره من العهود والأزمنة، فقد طغت فيه النهضات والحركات الفكرية على النهضات والحركات السياسية في العالم الإسلامي، واستمرّ هذا العهد من العقد الثاني للقرن الثاني من الهجرة ـ أي منذ سنة ١١٤هـ حيث استلم عليه السلام الإمامة بعد وفاة والده الإمام الباقر عليه السلام ـ إلى العقد الخامس من نفس هذا القرن أي إلى سنة ١٤٨هـ حيث يكون قد مرّ حوالي قرن ونصف من الزمان على ظهور الإسلام، وحوالي قرن واحد على الفتوحات الإسلامية الكبيرة.

ودخل في هذه الفترة جيلان أو ثلاثة أجيال من المسلمين الجدد إلى العالم الإسلامي، وبدأ نشاط ترجمة الكتب منذ عهد بني أميّة، ودخلت في دنيا الإسلام شعوب ذات أفكار وثقافات عريقة، وكان الكثير منها يهدّد الإسلام بالخطر. وظهر الزنادقة في هذا الزمان وهم الذين كانوا ينكرون الله والدين والنبيّ صلى الله عليه وآله.. إلخ، وقد أعطاهم بنو العبّاس مقداراً من الحريّة لأهداف معيّنة، وظهرت مسألة التصوّف بشكل جديد. وظهر كذلك فقهاء ابتدعوا مذاهب فقهية تقوم على أسس جديدة (الرأي والقياس وغيره). وبرز صراع فكريّ في دنيا الإسلام لم يكن له نظير من قبل، ولم يظهر نظير له فيما بعد!.

وعلى هذا، فزمان الإمام الصادق عليه السلام يختلف كل الاختلاف عن زمان الإمام الحسين عليه السلام، حيث كان زمان الإمام الحسين عليه السلام عهداً من الكبت المظلم والإرهاب الشديد، ولهذا لم يتجاوز ما نقل عن الإمام الحسين عليه السلام من

الأحاديث في تمام مدّة إمامته، خمس أو ست جمل لا أكثر. وعلى العكس من ذلك، فقد تهيأت الأرضيّة في زمان الإمام الصادق عليه السلام على أثر الصراعات السياسية والنهضات الثقافية، بحيث وجد عليه السلام المناخ مناسباً جداً ليفجّر الثورة العلمية الإسلامية الصحيحة، ويقوم بحركة نشطة لتأسيس المدارس والحوزات العلمية ونشر الأحاديث والسنن النبويّة، وكل ذلك لإحياء الإسلام والمحافظة على الدين المحمديّ في مواجهة الموجات الفكرية الإلحادية وحركات التضليل الإعلامي. وقد سجّل التأريخ أسماء أربعة آلاف شيخ تتلمذوا على يد الإمام الصادق عليه السلام ونهلوا من منبع العلوم الصافي الرقراق، ونقلوا تلك العلوم إلى الآخرين، وهكذا تشكلت من ذلك أرضيّة صلبة للإسلام في مواجهة كل التيارات التي كانت تهدف إلى تقويض صرح الدين الإسلامي.

ونخلص من ذلك إلى القول بأننا لو تصوّرنا ـ على سبيل الافتراض ـ أن ظروف الإمام الصادق عليه السلام كانت تسمح له بالقيام والاستشهاد كما حصل للإمام الحسين عليه السلام، فإننا نرى أن الطريقة التي اتّبعها الإمام الصادق عليه السلام واختارها سبيلاً للجهاد في سبيل الله وأداء الرسالة الملقاة على عاتقه، أجدى وأنفع للإسلام من خروجه بالسيف وسقوطه شهيداً ـ وإن كان في ذلك فوائد لا تنكر ـ فقاعدة عدم ترك الأولى التي يلتزم بها جميع الأئمة عليهم السلام هي التي جعلت الإمام الصادق عليه السلام يختار الثورة العلمية ويضرب صفحاً عن الثورة الدموية.

القسم الثاني

اتّضح لنا ممّا سبق أن الإمام الصادق عليه السلام اعتزل أمر الحكومة والخلافة، ولم يقم بأي عمل ينمّ عن تطلّعه إلى الإمساك بزمام السلطة والزعامة، برغم الفرص التي لاحت أمامه وبرغم أنّ السّاحة السياسية كانت تعجّ بالأحداث والتطوّرات التي يمكن استغلالها والاستفادة منها بصورة من الصوّر. وبالطبع لم يكن من الناحية الأخرى يعارض النهضات والحركات المضادّة للأنظمة الحاكمة الجائرة، بل كان يعطيها الدعم ـ ولكن في الخفاء ـ وذلك لكي يتمكّن من أن يحتفظ بموقعيّة تساعده على أداء المهمّة التي كان ينوي القيام بها.

وأشرنا في معرض المقارنة بين موقف الإمام الصادق عليه السلام وموقف الإمام

الحسين عليه السلام الذي يفصل بينهما ما يقارب القرن من الزمان، إلى أن عهد الإمام الحسين عليه السلام كان يسيطر عليه الاختناق والتكتيم الإعلامي، ولم يكن مطروحاً في ذلك الوقت إلا مسألة واحدة وهي مسألة الحكومة والخلافة. وكان نظام الخلافة يتحكّم بصورة تامّة في سائر العوامل الأخرى، فكانت الخلافة تعني كلّ شيء وكان كل شيء يعني الخلافة، وذلك لأن البساطة كانت ما تزال حاكمة على المجتمع الإسلامي آنذاك.

ولم يكن يجري في تلك الأيام بحث ولا نقاش إلا حول موضوع واحد وهو: من يكون صاحب الأمر. فكان نظام الخلافة يسيطر على جميع شؤون الحكم وجميع نشاطات المجتمع. وقد وفّرت هذه الحالة لشخص مثل معاوية أن يفرض ديكتاتورية عجيبة على المسلمين عندما استلم زمام الخلافة. بحيث لم يكن لأحد الحقّ أن يتنفّس في تلك الأجواء الخانقة، ولم يكن مسموحاً للناس بأيّ شكل من الأشكال أن يتناقلوا بينهم أحاديث وأخباراً تحمل رائحة المخالفة والمعارضة لسياسة الحكومة.

ويروى أن الشخص ـ في ذلك العهد الأسود ـ كان إذا أراد أن ينقل حديثاً في فضيلة عليّ عليه السلام مثلاً فإنه كان يحرص على التوثّق التام بأن الطرف المقابل لن يفشي هذا الأمر وإلا كانت العواقب وخيمة فإمّا السجن وإمّا الإعدام، وكان الشيعة يتشدّدون في الاحتياط بحيث أنهم كانوا أحياناً يدخلون في غرف معزولة في زوايا بيوتهم للمباحثة والحديث في هذه المسائل، وذلك كي لا يسمع أحد كلامهم ولا ينتبه لأمرهم. وكان أمير المؤمنين عليه السلام كما هو المرسوم، يُلعن على المنابر وفي صلوات الجمعة وحتى في حضور الحسن والحسين عليهما السلام.

ولهذا نلاحظ أن تاريخ الإمام الحسين عليه السلام في عهد حكومة معاوية تأريخ مجهول بالكامل، فلم يكن أحد يستطيع أن يشير أدنى إشارة إلى سيد الشهداء عليه السلام أو أن ينقل عنه خبراً أو حديثاً أو خطبة أو يتكلّم عن لقاء من لقاءاته أو حركة من حركاته. لقد عمل النّاصبون كل ما في وسعهم لدفع الأئمة من أهل بيت محمّد صلوات الله عليهم إلى زوايا الإهمال والنسيان، وتحجيم

نشاطهم وحركتهم إلى أدنى حدٍّ ممكن. وعلى هذا فلو قُدِّر للإمام الحسين عليه السلام أن يعيش في تلك الظروف خمسين سنة أخرى ـ مثلاً ـ فإن الحال كان سيستمرّ على ما هو عليه، ولن ينقل عنه من العلم والحديث أكثر من بضع عبارات قليلة.

وكان هذا الوضع أحد الأسباب الهامّة لثورة الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده إذ لم يكن هناك طريق آخر لخدمة الإسلام والحفاظ على الدّين، وإلا كان يضطر للجلوس في بيته يأكل ويشرب ويعيش حياة الدهماء من الناس دون أن يعود من ذلك أي نفع لا للإسلام ولا للمسلمين.

أمّا في زمان الإمام الصادق عليه السلام (أواخر عهد بني أميّة وأوائل عهد بني العبّاس) فقد تغيّرت الأوضاع كليّاً، وأدّت التطورات إلى ظهور حالة من الانفتاح والحريّة على صعيد الفكر والعقيدة. وكذلك ظهر نشاط وحماس علميّ قلّ أن يوجد له نظير في تاريخ البشر، فتوجّهت الأمّة الإسلامية باندفاع شديد نحو مختلف العلوم، سواء تلك المرتبطة مباشرة بالإسلام مثل علم القراءة وعلم التفسير، وعلم الحديث والرجال، والفقه وعلم الكلام، والعلوم الأدبية بكل أنواعها. أو العلوم البشرية والمادّية مثل الطبّ والفلسفة والفلك والرياضيات والكيمياء وما أشبه ذلك. وهكذا ظهرت في العالم الإسلامي ـ فجأة وكما هو مدوّن في التأريخ ـ حركة علمية هائلة، وتوفر مناخ واسع من الحريّة، بحيث انفتح الطريق أمام كل من عنده متاع فكري أو بضعة علميّة، أو اتجاه معيّن في بابا العقائد، أن يتقدّم فيعرض ما عنده على الناس ويقول كلمته دون أن يخشى بطش السلطة أو يخاف من أحد.

طبعاً لا نريد هنا أن نقول: إن بني العبّاس كانوا يتمتّعون بطبيعة تحرّرية، وإنهم هم الذين كانوا وراء فسح المجال للنهضة العلمية وإعطاء الحريّة الفكرية والعقائدية للنّاس، بل كان الأمر طبيعيّاً بحيث لو أنهم أرادوا أن يحولوا دون ذلك لما استطاعوا إذ كانت الظروف والتطورات أقوى منهم، فقد دخلت دنيا الإسلام عناصر جديدة إلى جانب العنصر العربي، وكان أكثر تلك العناصر حماساً وفوراناً هم الإيرانيون، بينما كان الأكثر علماً والأقوى فكراً هم أهل

بلاد ما بين النهرين وأهل سوريا، لأن هاتين المنطقتين كانتا آنذاك من المراكز الهامّة للحضارة والتمدّن. وكان المصريون أيضاً من العناصر الداخلة.

وكان اختلاف هذه الشعوب والملل من جهة الأفكار والثقافات والعقائد السابقة عاملاً مساعداً بحد ذاته على إيجاد أرضيّة التبادل الفكري والثقافي وتحطيم جدران الكبت العقائدي. ومن الطبيعي أن هذا الأمر كما أن له إيجابيّات كثيرة فله أيضاً سلبيّات خطيرة يمكن أن تهدّد الإسلام.

فماذا يمكن أن يكون موقف الإمام الصادق عليه السلام تجاه هذه الأحداث والمجريات؟.

إنه من ناحية يرى المجال قد انفتح على مصراعيه أمامه لكي يؤدّي رسالته في تجديد نشر الإسلام، وإعادة تعريف الناس بأحكام دينهم التي نسوها تقريباً وعفّى عليها الزمن، والمحافظة على الدّين المحمّدي من الاندراس، ومن ناحية أخرى يرى أنواع الأفكار الانحرافية والتيارات الإلحاديّة والعقائد الباطلة والبدع المضلّة، التي أخذت تهدّد الإسلام بالخطر وتعمل على هدمه من الأساس.

وهذا الخطر ليس مساوياً لإرهاب السلطات وكبتها وتكتيمها الإعلامي في السابق ـ فقط ـ بل هو أشد من ذلك بمراحل. فهل من المنطق هنا أن يسلك الإمام الصادق عليه السلام سبيل القيام والثورة والاستشهاد لتبقى الساحة الإسلامية خالية من الخط الدفاعي أمام هجوم الأخطار المختلفة، أم يفضّل التنازل عن حقّه الشرعي في الخلافة من أجل أن يتفرّغ لمهام أشدّ جسامه وجهاد أكثر نفعاً للإسلام والمسلمين.

إن التأريخ يجيب على هذا التساؤل بوضوح تامّ، فالإمام الصادق عليه السلام يقف اليوم شامخ القامة مشرق الوجه أمام العالم الإسلامي شيعة وسنّة، وأمام جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أدّاه من خدمات جليلة للدين الإسلامي.

ويمكن القول كذلك أنه لولا موقف الإمام الصادق عليه السلام هذا لم يبق لثورة الإمام الحسين عليه السلام أثر بذكر في التأريخ، فهو الذي حافظ على هذه الثورة العظيمة وأعطاها الاستمرار التاريخيّ المطلوب.

وكذلك يمكننا القول بثقة تامّة أن الإمام الحسين عليه السلام لو كان في مكان الإمام الصادق عليه السلام لفعل مثل ما فعل بالضبط، لأن ملاك عمل الأئمة عليهم السلام جميعهم بلا استثناء هو المحافظة على دين الله العظيم، بكل الصور الممكنة سواء كان بإراقة الدماء الزكيّة، أو بالمقاومة السلبية. أو بالجهاد العلمي والثورة الفكرية، أو بغير ذلك من الوسائل التي تختلف بحسب اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية.

والآن نعود إلى استعراض خصائص زمان الإمام الصادق عليه السلام بشيء من التفصيل، فنقول: إن كثيراً من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية كانوا يتلهّفون من أجل معرفة ماهيّة هذا الدين وخصوصيّاته. ولذلك كان اهتمامهم في البحث حول القرآن والمسائل المربوطة به لا حدود له، وكانوا يفكرون بدقّة بالغة في آيات القرآن ومعانيها ومدلولاتها، ويحسبون حساباً لكل كلمة من كلماته، على العكس من العرب في السابق الذين لم يكونوا يتدبّرون كثيراً في القرآن، بل كانوا يتعبّدون بقراءته وتلاوته دون أن يتعبوا أنفسهم كثيراً في البحوث والدراسات والمسائل الفكرية المتعلقة به.

حرب العقائد والأفكار

في هذا الزمان نلاحظ أن الحرب الفكرية والعقيدية قد حمي سوقها فجأة، فمثلاً على صعيد قراءة القرآن بدأت بحوث عديدة، وظهرت طبقة باسم (القرّاء). فلم يكن القرآن مطبوعاً ومضبوطاً كما هو اليوم، بل كان هناك حفاظ للقرآن توارثوا ما نقله وسجّله أسلافهم، وكان أغلبهم ينتهي سند قراءته إلى أمير المؤمنين عليه السلام. فكان هؤلاء الأساتذة يجلسون في المساجد ويتجمّع حولهم أناس كثيرون على صورة حلقات (وكان أغلبهم من غير العرب) ليتعلّموا منهم الطريقة الصحيحة لقراءة القرآن، وكان في بعض الأحيان يظهر بين هؤلاء القرّاء اختلافات، وبالتالي تدور بينهم مباحثات ومناقشات كلّ يريد أن يثبت أن قراءته هي الصحيحة، ويعرض سلسلة السند التي يعتمد عليها.

وعلى صعيد تفسير القرآن وبيان معاني آياته، حمي أيضاً مجال المباحثة والجدال وكثرت مذاهب التفسير.

وكذلك في مجال الحديث والروايات عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وكان رواة الأحاديث يفتخرون بأن يكون سند نقلهم ينتهي إلى الرسول صلى الله عليه وآله، ويدقّقون في توثيق الأحاديث وصحة عباراتها.

وظهرت كذلك المذاهب الفقهية، وبرزت طبقة باسم (الفقهاء) وكانوا يتواجدون في مراكز مختلفة، وكانت وظيفتهم الإجابة على أسئلة الناس، وتبين مسائل الحلال والحرام، والطهارة والنجاسة والمعاملات الصحيحة والباطلة، وكان من أهم تلك المراكز المدينة، والكوفة حيث كان أبو حنيفة، والبصرة، وكذلك أسست مراكز جديدة في بلاد الأندلس بعد فتحها في زمان الإمام الصادق عليه السلام.

وكانت في الواقع كل مدينة في الدولة الإسلامية مركزاً يحوي العلماء والفقهاء من مختلف المذاهب وكان في كثير من الأحيان يظهر بين هؤلاء الفقهاء اختلافات، وبالتالي سجل التأريخ الإسلامي حرباً عقائدية على صعيد المسائل الفقهية والتشريعية.

وكانت سوق البحوث الكلامية أكثر سخونة، إذ ظهرت في القرن الأول للإسلام طبقة باسم (المتكلّمين) (كان الإمام الصادق عليه السلام يستعمل هذه اللفظة فكان يقول لتلاميذه: قولوا لهؤلاء المتكلّمين يأتون..). وكان المتكلّمون يبحثون في قضايا العقائد والمسائل الأصولية: فكانوا يتكلمون حول الله وصفاته، وحول الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الله، وهل أن الصفة الفلانية هي عين ذات الله أم لا؟ وهل القرآن حادث أم قديم؟.

وكانوا يبحثون أيضاً حول ا لنبوّة وحقيقة الوحي، وحول طبيعة الشيطان، وحول التوحيد والتثنية، وحول هل أن العمل ركن الإيمان بحيث إذا لم يكن عمل لم يكن إيمان، أم أن العمل ليس له دخل في الإيمان؟.

وكانوا يبحثون حول القضاء والقدر وحول الجبر والاختيار، وكان الصراع يدور على أشدّه في هذا المجال.

والأخطر من كل ذلك هو ظهور طبقة تدعى «الزنادقة». وكان هؤلاء من الأساس يكفرون بالله وبكل الأديان، والعجيب أنهم كانوا يتمتعون بالحرية التامّة بين المسلمين (ولعل ذلك لأهداف معيّنة من قبل النظام الحاكم) وكانوا يتواجدون حتى في مكّة والمدينة، ويعرضون ما عندهم من أفكار إلحادية تحت ستار الشّبهات[١]. وكان الزنادقة الطبقة المتحررة والمثقفة لذلك العصر، وكانوا يلمّون باللغات الحيّة لزمانهم، فكانوا يعرفون اللغة السريانية التي كانت اللغة

(١) لأبي العوجاء في هذا الباب تعبير لطيف، فقد جاء يوماً إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال: يابن رسول الله، أنت رئيس هذا الأمر، أنت كذا وكذا، وجدّك هو الذي جاء بهذا الدّين. ولكن لا تؤاخذني فإن الإنسان إذا اعتراه السعال فلا بد أن يسعل ليخرج الأخلاط التي تسد بلعومه، وكذلك إذا عرضت له شبهة من فكره فلا بد أن يقولها ليخرجها ويرتاح، وأنا عندي الآن سعال فكري فائذنوا لي أن أقول ما عندي من شبهات فكرية. فقال له الإمام: قل ما عندك.

العلمية آنذاك، وكان كثير منهم يعرفون اللغة اليونانية، وكان بعضهم إيرانيّين يعرفون اللغة الفارسية، كما أن بعضهم كان يعرف اللغة الهندية، ويبدو أنهم هم الذين جلبوا الزندقة من الهند إلى العالم الإسلامي، ولكن الأكثرية يعتقدون أن فكرة الزندقة اقتبست من المانويّين.

ومن التيارات الأخرى المربوطة بهذا الزمان (وكانت معظم التيارات إما إفراطية أو تفريطية) هو تيّار الإغراق في التصوّف. حيث ظهرت المتصوّفة في زمان الإمام الصادق عليه السلام على نطاق واسع وكوّنوا طبقة خاصة بهم واستقطبوا حولهم الكثير من المؤيّدين، وكانوا يقولون كلامهم ويطرحون أفكارهم بكامل الحريّة، وقد انفرز هؤلاء أيضاً من الإسلام بسبب ما يمكن التعبير عنه بالنزعة التقدسيّة أو التطلّع إلى المثالية البعيدة عن الواقع، أي الزهد المفرط والتوجه التام إلى القضايا الروحانية، فهم لم يطرحوا أنفسهم كنحلة في مقابل الإسلام، منتهى الأمر أنهم كانوا يدّعون أن ما يقولونه ويعتقدون به هو الإسلام الحقيقي.

وكان الخوارج والمرجئة والقدريون والمجبرة - أيضاً - من الفرق التي ظهرت في هذا الزمان، وكان لهم دور كبير في الصراع العقائدي الدائر في السّاحة.

مواجهة الإمام الصادق (ع) للتيّارات الفكرية المختلفة

لقد واجه الإمام الصادق عليه السلام جميع التيّارات الانحرافية التي ظهرت في زمانه، وكان له موقف تجاه كل منها بحيث أنه لم يترك ثغرة يتمكن فكر ضال أو عقيدة باطلة أو تيّار إلحادي أن ينفذ منها ليهدد أُسس الإسلام المحمدي بالخطر، وكان يتبع في ذلك طريقتين:

الطريقة المباشرة: وهي أن يتصدّى نفسه ليحاور الأطراف المقابلة، ويخرجهم من الساحة بقوّة حجّته وغزارة عمله..

والطريقة الغير المباشرة: وهي تأسيس حوزة علمية من أجل تربية جيل من التلاميذ وتغذيتهم بالعلوم والمعارف الإسلامية ليصبحوا شيوخاً وعلماء يدخلون ساحة الصراع الفكري، ليواجهوا أنواع الضلالات والانحرافات الفكرية. ويبيّنوا للناس فكر الإسلام القويم وأحكام الإسلام الصحيحة.

وكانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام أقوى المدارس الفقهية الموجودة، بحيث كان حتى غير الشيعة يعترفون به ويتقبّلونه، بل إن كل أئمة أهل السنّة كانوا إما بلا واسطة، أو مع الواسطة، قد تتلمذوا على يدي الإمام الصادق عليه السلام، وكان على رأسهم أبو حنيفة الذي حضر حلقة دروس الإمام الصادق عليه السلام طوال سنتين من الزمان، واستنفاد من ذلك فوائد جمّة، بحيث أننا نقرأ هذه العبارة في كتب أهل السنّة أنفسهم، حيث ينقلون عن أبي حنيفة عن

أنه كان يقول: لولا السنتان لهلك النّعمان (كان اسم أبي حنيفة: النّعمان بن ثابت بن الزوطيّ بن المرزبان، وكان أجداده إيرانيّين).

وكان أنس بن مالك هوالآخر من أئمة أهل السنّة وكان يحضر دروس الإمام الصادق عليه السلام ويفتخر بأنه تلميذه.

وجاء الشافعيّ فيما بعد، ولكنّه تتلمذ على يد كلّ من مالك بن أنس وتلاميذ أبي حنيفة.

وأحمد بن حنبل كذلك تنتهي سلسلة تلمذته من أحد أطرافها إلى الإمام الصادق عليه السلام.

وهناك كثير آخرون غير من ذكرناهم استفادوا من علم الإمام الصادق عليه السلام وتوجيهاته السديدة.

وكانت حوزة درس الإمام الصادق عليه السلام الأكثر جاذبيّة ورونقاً من بين حوزات دروس سائر الفقهاء، وهنا لا بأس أن نذكر شهادة بعض علماء أهل السنّة في حق الإمام الصادق عليه السلام مما يلقي بعض الأضواء على الدور العظيم الذي أدّاه عليه السلام في عهد إمامته..

شهادة مالك بن أنس

كان مالك بن أنس في المدينة، وكان إنساناً طيّب النَّفس إلى حدًّ ما، يقول: كنت أتردّد على جعفر بن محمّد، وكان كثير التبسّم بشوش الوجه، وكان من آدابه أنه عندما يذكر اسم النبيّ صلى الله عليه وآله في حضوره كان يتغيّر لونه (لعلّ ذلك تعبير عن التأثر الشديد للتغيير السلبي الذي حدث بين المسلمين، فنسي معظمهم رسالة هذا النبيّ العظيم وأحاديثه الشريفة وسننه القويمة، وحلّت ظلمات البدع محل أنوار الوحي). ثم يتحدث مالك عن كثرة عبادة الإمام وعن كمال تقواه.

ومالك هذا هو راوي هذه القصة المعروفة (التي نقلها المرحوم الشيخ عباس القمي وآخرون في كتبهم) حيث قال: ذهبنا في سفرة مع الإمام الصادق عليه السلام قاصدين مكّة المكرمة، فلمّا خرجنا من المدينة وصلنا إلى مسجد الشجرة، ارتدينا ملابس الإحرام وشرعنا في التّلبية. ثمّ نظرت فرأيت الإمام يحاول أن يتلفظ بعبارة «لبّيك اللهم لبّيك». ولكنّ لونه شحب، وأخذ يرتجف حتى كان أن يسقط من فوق بعيره إلى الأرض. فاقتربت منه وقلت: يابن رسول الله، لا مفرّ من ذلك، ولا بدّ من ذكر التّلبية. فقال: لمن أقول «لبّيك»؟ وإذا جاءني الجواب «لا لّبيك» فماذا أفعل عند ذلك؟ (موقف الإمام هذا يذكر بالعبارة المأثورة عنهم عليهم السلام: ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج، فكم من قائل منهم لبّيك يملأ بها الأجواء صخباً وضجيجاً وهو لا يدري ما يقول ومن يخاطب).

ويقول مالك في حق الإمام الصادق عليه السلام: ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمّد.

محمد الشهرستاني

من الفلاسفة والمتكلّمين المتفوّقين ومن العلماء البارزين للقرن الخامس الهجري، وهو صاحب كتاب «الملل والنحل» الذي يبحث فيه حول جميع المذاهب الدينيّة والفلسفية في العالم، وعندما يصل إلى ذكر الإمام الصادق عليه السلام يقول عنه: «هو ذو علم غزير، وأدب كامل في الحكمة، وزهد في الدنيا، وورع تامّ عن الشهوات، وكان يقيم في المدينة، ويفيض على الموالي له أسرار العلوم. ثم دخل العراق».

ثم يشير إلى اعتزال الإمام للسياسة فيقول: «ولا نازع في الخلافة أحداً» وهو يؤوّل هذا الاعتزال هكذا: «ومن غرق في بحر المعرفة لم يقع في شطّ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حطّ». (طبعاً أنا لا أريد أن أصحح هذا التأويل وإنما أقصد الإشارة إلى إقراره بسعة علم الإمام وسموّ فضائله، بحيث أصبح في نظره فوق مستوى البحث عن كرسيّ حكم أو سلطة زائلة).

والشهرستاني هذا الذي يتكلم هذا الكلام بشأن الإمام الصادق عليه السلام إنّما هو في الواقع عدو شرس من أعداء الشيعة، فهو يتهجّم على الشيعة في كتابه «الملل والنحل» بما لا حدود له، ولكننا مع ذلك نراه يذكر الإمام الصادق عليه السلام بهذا المقدار من الاحترام، وهذا يدلّ على أن شخصية الإمام الصادق عليه السلام من القوة ونفوذ التأثير بما لا يدع مجالاً حتى للعدوّ أن يطعن فيه أو يمسك نفسه عن مدحه والثّناء عليه.

واليوم أيضاً نرى كثيراً من العلماء في هذا العالم يضادون الشيعة ومذهب التشيّع إلا أنهم يجلّون الإمام الصادق عليه السلام الذي ينتسب إليه هذا المذهب، ولعلّهم يعتقدون في أنفسهم بأن هذه الأمور التي تخالف رأيهم في مذهب التشيّع ليس لها علاقة بالإمام الصادق عليه السلام.

رأي أحمد أمين

أحمد أمين من الكتاب المعاصرين، وهو صاحب سلسلة من الكتب باسم «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام» و«يوم الإسلام» وهي من الكتب الاجتماعية التي تتمتع بأهميّة كبيرة في هذا القرن الأخير. وهذا الكاتب مصاب بعقدة معاداة التشيّع، برغم أنه كما يبدو يفتقر إلى أي معلومات فيما يختصّ بهذا المذهب. ولكنه برغم مقته للشيعة فإنه يُظهر للإمام الصادق عليه السلام نوعاً من الاحترام. وقد قرآت جميع كتبه فلم ألاحظ أنه يولي مثل هذا الاحترام لأيّ إمام من أئمة أهل السنّة، وهو ينقل كلمات في الحكمة عن الإمام الصادق عليه السلام لم أرَ من علماء الشيعة من نقلها وأثبتها في مؤلفاته.

اعتراف الجاحظ

في رأيي أن اعتراف الجاحظ بمنزلة الإمام الصادق عليه السلام هو فوق كلّ ما سبق ذكره في هذا الباب. كان الجاحظ طالب علم بكل معنى الكلمة، وقد عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، وهو أديب جليل القدر، بل يمكن القول أنه عالم في الشؤون الاجتماعية لعصره، وهو مؤرخ أيضاً. وقد ألف كتاباً باسم «الحيوان» يبحث حول طبائع الكائنات الحيّة، وهو اليوم مورد توجّه العلماء الأوروبيّين وقد اكتشفوا في هذا الكتاب نظريات لم يكن لها وجود من قبل في دنيا ذلك العصر (اليونان وغير اليونان) ولم تكن علوم أهل اليونان قد دخلت العالم الإسلامي حتى ذلك الوقت. والجاحظ شخص سنّي متعصّب وله مباحثات مع بعض الشيعة أدّت إلى اعتبار بعضهم لهم بأنه ناصبيّ (بالطبع أنا لا أستطيع أن أجزم بأنه ناصبيّ فعلاً استناداً إلى تلك العبارات التي ذكرها في مباحثاته).

وقد أدرك أواخر زمان الإمام الصادق عليه السلام حيث كان آنذاك طفلاً صغيراً، أو أنه جاء في الفترة اللاحقة لزمان الإمام مباشرة. وعلى أي التقديرين فزمانه قريب جداً من زمان الإمام الصادق عليه السلام. وله تعبير يتعلّق بهذا الإمام العظيم حيث يقول: «جعفر بن محمّد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال أن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري». (أبو حنيفة هو أحد أئمّة أهل السنة، وسفيان الثوري أحد كبار الفقهاء والمتصوّفة في عصره).

رأي مير علي الهندي

مير علي الهندي من الكتاب المعاصرين وهو سنّي. وله رأي يبديه بشأن الإمام الصادق عليه السلام فيقول: «لا مشاحّة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامّة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي».

ثم يقول: «ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعّم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب عليه السلام المسمّى بالإمام الصادق عليه السلام، وهو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملمّ كل إلمام بعلوم عصره.

ويقول أيضاً: ويعتبر في الواقع أول من أسّس المدارس الفلسفية[١] المشهورة في الإسلام. ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاّب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء الواسعة».

---

(١) المقصود من كلمة الفلسفية هي الفكرية والتعقّلية وذلك في مقابل كلمة النقلية أي منهج المحدثين الذي ينحصر بحثهم في نقل نصوص الأحاديث.

كلمة لأحمد زكي صالح

ينقل السيد المظفر في كتاب «الإمام الصادق عليه السلام» عن مقال كتبه أحمد زكي صالح (وهو من الكتّاب المصريين المعاصرين) في مجلة «الرسالة المصريّة» أنه يقول: إن النشاط العلمي للشيعة كان أكثر من نشاط جميع الفرق الأخرى. إن هذه مسألة بالغة الأهمية والدلالة، والإيرانيون يرون أن هذه الإشارة متوجهة إليهم خاصة في حين أن ذلك النشاط كان متعلّقاً بعموم الشيعة الذين كان أكثريتهم آنذاك من غير الإيرانيّين ولا نريد أن ندخل في هذا البحث الآن.

يقول هذا الكاتب المصري أيضاً: ومن الجليّ الواضح لكل من درس علم الكلام أن فرق الشيعة كانت أنشط الفرق الإسلامية حركة، وكانت أول من أسس المذاهب الدينيّة على أسس فلسفية، حتى أن البعض ينسب الفلسفة خاصة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام (والإمام الصادق عليه السلام هو وارث علم جدّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو الذي نشره وأظهره للعالم).

اهتمام الشيعة بالمسائل العقلية

إن من أوضح الدلائل على أن العلوم العقلية قد بلغت مرحلة النضوج في زمان الإمام الصادق عليه السلام هو أن تمام كتب الحديث لأهل السنّة، من صحيح البخاري إلى صحيح مسلم إلى جامع الترمذيّ إلى سنن أبي داود، إلى صحيح النسائي، لا تتضمّن إلا المسائل الفرعية للإسلام، مثل أحكام الوضوء والصلاة والصيام والحج وما أشبه، أو مسائل السيرة المختصّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكننا عندما نتصفّح كتب الشيعة فإن أول مبحث يصادفنا فيها هو كتاب «العقل والجهل» وهو من القضايا غير المطروحة أصلاً في كتب السنّة (بالطبع لا أريد أن أقول إن منشأ كل ذلك هو الإمام الصادق عليه السلام فقط، فقبله كان أمير المؤمنين عليه السلام، وقبلهما كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، ولكن الإمام الصادق عليه السلام واصل هذا الطريق ووجد الفرصة المؤاتية في زمانه لنشر مواريث أجداده).

وبعد «كتاب العقل والجهل» نجد «كتاب التوحيد» ونرى في مئات ـ بل ألوف البحوث ـ في باب التوحيد، وصفات الله، والمسائل المربوطة بالشؤون الإلهية، والقضاء والقدر والجبر والاختيار، وسائر المسائل العقلية المطروحة في كتب الحديث لأهل التشيّع، والتي تخلو منها كتب أهل التسنّن. وهذا هو السبب الذي جعل البعض يقولون: إن أول شخص أسّس المدارس الفلسفية (أي العقلية) هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

جابر بن حيّان

ويقال له أحياناً «جابر بن حيّان الصوفي». يذكره ابن النّديم في «الفهرست»[١] وينسب إليه حوالي (١٥٠ كتاباً) معظمها في العلوم العقلية، أي في الكيمياء والصناعة وخواص الأشياء وطبائع المواد وما أشبه. واليوم يسميه الغربيون «أبو الكيمياء في العالم».

يقول ابن النّديم: وهو من تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

والقاضي ابن خلّكان الذي عاش في القرن السادس الهجري يذكر جابر ابن حيّان أيضاً ويقول: كيمياويّ، وتلميذ الإمام الصادق عليه السلام.

وهناك آخرون أيضاً تكلّموا عن هذا الشخص بنفس الكيفية.

ولم يكن لهذه العلوم التي تطرّق إليها جابر سابقة في دنيا الإسلام، حيث كتب كثيراً من الرسائل العلمية في الموضوعات المختلفة التي يكتسب كثير منها اليوم أهمية عملية. وكان جابر كثيراً ما يشير في مقدّمة كل بحث علميّ إلى استاذه فيقول: حدّثني مولاي جعفر بن محمد عليه السلام.. كذا وكذا.

---

(١) كتاب الفهرست لابن النّديم يعتبر فريداً في فنّه، وهو في باب تصنيف الكتب ينافذ غيره في العمق والدقّة. فهو يحقّق في الكتب الموجودة في زمانه ويستقصيها استقصاءً (جميع كتب العهد الإسلامي وبعض كتب العهود الأخرى)، وكان ابن النديم يعيش في القرن الرابع الهجري، وكان ورّاقاً وبائعاً للكتب، ولكنه كان ـ في الواقع ـ نابغة وعالماً فاضلاً، ولا يملك من يقرأ كتابه إلا أن ينبهر ويتحيّر. لقد قرأت هذه الكتاب من أوله لآخره فرأيته يستعرض أنواع الخطوط التي كانت رائجة في زمانه، وكذلك أنواع اللغات، ومنشأ كل واحدة منها.

وقد أكبّ المستشرقون المعاصرون على دراسة آثاره، وبالطبع، بقيت إلى الآن جوانب كثيرة بالنسبة لهذا العالم الكيمياوي مجهولة لم تكتشف بعد، والعجيب في الأمر أنه لم يرد ذكر لجابر بن حيّان في كتب الفقهاء والمحدثين من علماء الشيعة (إلا أن يكون ابن النّديم شيعيّاً، والله العالم).

هاشم بن الحكم

وهو في الواقع أعجوبة زمانه في النبوغ، وقد تفوّق بشهادة أهل السنّة أنفسهم على سائر المتكلّمين في زمانه وانتصر عليهم.

يذكر «شبلي النعمان» في «تأريخ الكلام» أن شخصاً يدعى «أبا الهذيل العلاّف» وكان متكلّماً إيرانياً قوياً جدّاً، ولم يكن أحد يستطيع أن يواجهه في المباحثة، ولكن الشخص الوحيد الذي كان يخشاه أبو الهذيل هو هشام بن الحكم. و«النظّام» الذي يعتبر من نوابغ الدهر، وله نظريات علمية تتطابق مع النظريات الجديدة لعصرنا الحاضر، كان تلميذاً لهشام، وذكروا أنه أخذ كثيراً من هذه النظريات من هشام بن الحكم الذي هو بدوره تلميذ من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

تحليل

نستخلص من كل ما سبق أنه قد توفرت للإمام الصادق عليه السلام أرضيّة ملائمة جداً من الناحية الفكرية استفاد منها الإمام عليه السلام أفضل استفادة، ولم تتوفر مثل هذه الأرضيّة لأي إمام قبله، ولا لمن جاء بعده بهذه الكيفية وعلى هذا المستوى. نعم توفّرت حالة مشابهة ولكن بصورة محدودة للإمام الرضا عليه السلام. وفي زمن الإمام موسى الكاظم عليه السلام عادت الأوضاع إلى التردّي وظهرت مسألة السجون والمطامير والسلاسل الحديديّة الثقيلة.

والأئمة الذين جاءوا بعد الإمام الرضا عليه السلام كانوا يغادرون الدنيا في سنّي شبابهم الأولى، لأن السلطات الجائرة كانت تدسّ لهم السم ولا تسمح لهم أن يبقوا على قيد الحياة، وإلا فقد كانت الظروف المحيطة في زمانهم مساعدة إلى حدّ ما.

أما بالنسبة للإمام الصادق عليه السلام فقد توفّر له الأمران، فأولاً امتد به العمر فعاش حوالي سبعين عاماً. وثانياً ساعده الزمان وأعانته الظروف السياسية والاجتماعية.

والآن لنتساءل: إلى أي حدّ يثبت هذا الأمر اختلاف زمان الإمام الصادق عليه السلام مع زمان الإمام الحسين عليه السلام؟.

لقد كان أمام سيّد الشهداء أحد أمرين: فإمّا أن يجلس في بيته ويبقى في حكم المسجون لا علاقة له بأمر الإسلام والمسلمين، وإمّا أن يخرج بالسيف ليسقط شهيداً ويؤدّي بذلك خدمة جليلة للدّين الذي كان يتعرض لخطر المحو والانقراض آنذاك.

ولكن بالنسبة للإمام الصادق عليه السلام لم يكن الأمر كذلك، بل كان أمامه إما أن يخرج ويقتل، وإمّا أن يستفيد أقصى استفادة من الظروف المحيطة به لصالح الإسلام.

نحن في الواقع لا نستطيع أن ندرك قيمة وأهمية ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ولكن الأئمة الذين جاءوا من بعده بيّنوا أبعاد هذه الثورة العظيمة، والفائدة التي عادت على الإسلام من جرّاء إراقة تلك الدماء الزكية الطاهرة للإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الخلّص. ولو لم يكن الإمام الصادق عليه السلام لاندثرت قضية الإمام الحسين عليه السلام وكذلك لو لم يكن الإمام الحسين عليه السلام ونهضته المباركة لم يكن الإمام الصادق عليه السلام يستطيع أن يؤدي رسالته في نشر الإسلام والمحافظة على التعاليم المحمّدية.

وفي ذات الوقت الذي لم يتعرّض فيه الإمام الصادق عليه السلام إلى أمر الحكومة والخلافة، فإنه لم يضع نفسه في صف الخلفاء الحاكمين. لقد كان يمارس الجهاد ضدّهم ولكن بصورة سرية، وكان بينه وبينهم أشبه ما يكون بما نسمّيه اليوم بـ «الحرب الباردة» أو «الحرب النفسية». فقد كان الإمام الصادق عليه السلام ـ دون غيره ـ هو الذي يقف وراء نشر معايب ومثالب ومظالم الخلفاء، وبيانها لعامّة المسلمين. ولهذا نقرأ للمنصور[1] تعبيراً بشأن الإمام الصادق عليه السلام حيث كان يقول: «هذا الشجى (أي جعفر بن محمد عليه السلام المعترض في الحلق لا أستطيع أن ألفظه ولا أستطيع أن ابتلعه». يقصد أنه لا يتمكّن أن يحصل بيده على مستمسك يدينه وبالتالي يقتله ويرتاح منه، ولا يستطيع أن يتحمّل بقاءه، لأنه يعلم أن هذا السلوك المحايد الذي اختاره الإمام الصادق عليه السلام هو ضدّ نظام الخلافة القائمة، بدليل أن الذين كانوا يتخرجون من هذه المدرسة كلّهم كانوا ضد الحكم العباسي وألباً عليه.

---

(١) كان تصرف المنصور مع الإمام الصادق عليه السلام يثير الاستغراب، ويعود السبب في ذلك إلى الإمام نفسه (لأنه في الوقت الذي كان يعمل فيه ضد المنصور إلا أنه بذكائه وحكمته لم يكن يتصرّف أي تصرّف من شأنه أن يقيم الحجّة عليه أمام خصمه). ولذلك كان المنصور أحياناً يتشدّد معه وأحياناً يلاينه ويلاطفه. وهو حسب الظاهر لم يقدم على سجن الإمام أبداً، ولكنه في كثير من الأحيان كان يضعه تحت المراقبة، وفي إحدى المرات وضعه لمدة سنتين تحت الإقامة الجبريّة في الكوفة، وكان يرسل رجاله بين وقت وآخر إلى بيت الإمام لضبط الأوضاع ومعرفة ما يجري هناك. وقد أرسل جلاوزته عدة مرّات فأحضروا الإمام مقيّداً وقام بشتمه وتهديده بضرب عنقه بتهمة أنه يؤلّب الناس عليه ويفعل كذا وكذا، ولكن الإمام كان يرد عليه باللين والحلم.

العوامل المؤثرة في النشاط العلمي في زمان الإمام الصادق (ع)

ظهر ـ كما ذكرنا ـ في زمان الإمام الصادق عليه السلام نشاط علمي خارق للعادة، وكان من نتائجه أن استعرت نار حرب عقائدية بين الطوائف المختلفة للعلماء والمتفكّرين، ممّا كان يحتّم على كل مسلم أصيل غيور أن يدخل هذه المعمعة دفاعاً عن الإسلام الحنيف.

لم يكن الإمام الصادق عليه السلام ليتقاعس عن خوض عمار هذا النوع من الجهاد الذي كان يكتسب صفة الأولوية في زمانه عليه السلام.

وكانت هناك في الواقع أربعة عوامل مختلفة كان لها الأثر في إيجاد هذا النشاط العلمي في العالم الإسلامي آنذاك..

العامل الأول: هو أن المحيط العام كان محيطاً إسلامياً ودينيّاً إلى حدّ كبير، وكان الناس متأثرين بالأفكار والنوازع الدينيّة. ولذلك كان تأكيد الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في الحث على العلم والتعلّم، وعلى التفكّر والتعقّل، عاملاً أساسياً في هذه النهضة العلمية وهذا الحماس الفكري.

والعامل الثاني: هو دخول القوميّات المختلفة من الشعوب في الإسلام، والتي كانت ـ بالطبع ـ تتمتّع بسوابق فكرية، ولديها تراث علمي وحضاري خاصّ بها.

والعامل الثالث: هو تطبيق نظرية الوطن الإسلامي الكبير عملياً،

وذلك بعد أن نجح الإسلام في القضاء على فكرة العصبيات العرقيّة والقومية، وبذلك أصبح المسلمون جميعاً على اختلاف أجناسهم يتعايشون مع بعضهم في جو من الأخوة والمحبّة والتواضع، بحيث كنت تجد غلاماً بربرياً مثل عكرمة مولى عبد الله بن عباس يدخل المسجد ويحتل مكانه في صدر حلقة دراسية، فيحيط به العراقي والسوري والمصري والحجازي والإيراني والهندي فيجلسون بين يديه، ويصغون إلى ما يفيضه عليهم من العلم، دون أن يشعروا بأدنى غضاضة. وهذا العامل لا يخفى أثره في ازدهار العلم ونموّ الفكر، كما تصرح بذلك الكثير من الروايات الإسلامية.

والعامل الرابع: والذي يتمتّع بأهمية خاصّة هو مسألة (التسامح والتساهل الديني) ويقصد من ذلك التعايش مع غير المسلمين ـ وخصوصاً أهل الكتاب ـ دون أن يرى المسلمون في هذا الأمر مخالفة لأصول دينهم. وكان أهل الكتاب في ذلك الزمان أهل علم، فأخذ المسلمون من علومهم في العصر الأول، وأصبحوا في العصر الثاني يحتلون المرتبة الأولى في الأوساط العلمية. وهذا التسامح الديني له جذور في الأحاديث الشريفة وهي كثيرة في هذا المجال.. وينقل المرحوم المجلسي في «بحار الأنوار» أن النبيّ ﷺ قال: (خذوا الحكمة ولو من مشرك). (والحكمة تعني الكلام العلمي الصحيح). وهناك حديث شريف آخر يقول: (الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أينما وجدها). أي أن المؤمن هو المالك الأصلي للعلم والحكمة، وقد يضيع شيء من ذلك منه، فإذا وجد ضائعته وضالّته في يد الكافر أو المشرك فعليه أن يسترجعها منه دون تحفّظ أو تردّد. والقرآن أيضاً يقول في بيان أهمية الحكمة والعلم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقد أرجع البعض مسألة التسامح والتساهل مع أهل الكتاب إلى سياسة خلفاء الدولة الإسلامية، ومن هؤلاء (جرجي زيدان) فهو ينقل قصة السيد الرضيّ (جامع كتاب نهج البلاغة ومن مراجع عصره)، وذلك عندما

توفيّ (أبو إسحاق الصابي)[١] العالم المعاصر له، حيث نظم قصيدة[٢] في رثائه مطلعها:

أرأيت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياء النّادي

فجاء بعض أصحابه وعابوا عليه، وهو سيّد من أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله، وعالم إسلامي كبير، أن يمدح رجلاً كافراً بهذه الصورة! فكان جوابه لهم: (إنّما رثيت علمه).

وبعد أن ينقل هذه القصة يقول (زيدان): انظروا إلى سعة الصدر فهذا السيد الرضيّ وهو من أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع ما يتمتّع به من عظمة روحية ونبوغ علمي، فإنه لا يجد غضاضة في أن يمدح إنساناً كافراً.

ثم يقول: وكل ذلك تعود جذوره إلى بلاط الخلفاء الذين كانوا يتمتعون بسعة الصّدر ممّا أدّى إلى أن يتجمّع في بلاطهم المسلمون والمسيحيّون واليهود والمجوس وغيرهم، ويظهروا علومهم ويتبادلون الأفكار فيما بينهم.

ولكن هذا الرأي لا يطابق الحقيقة، فالسيد الرضيّ تلميذ علي بن أبي طالب عليه السلام وتلميذ جدّه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله الذين خلّفا كثيراً من التوجيهات والأحاديث بشأن طلب العلم وتكريم العلماء.

كانت هذه هي العوامل التي أوجدت ذلك الحماس، والنشاط العلمي الهائل، وهيأت للإمام الصادق عليه السلام الأرضية الملائمة لأداء رسالته التّبليغيّة. إذن فخلاصة بحثنا هي أن الإمام الصادق عليه السلام وإن لم تتهيّأ له فرصة الحصول على السلطة والزعامة، ولو كانت تهيّأت فمن المسلّم به أنها كانت أفضل من

(١) «أبو إسحاق الصابي» كان صابئياً (واليوم تجري بحوث كثيرة حول جذور المذهب الصابئي ويدّعي بعضهم أن له جذوراً تعود إلى الدين المجوسي. ولكن الأظهر أنه نحلة من النحل المسيحيّة) وكان عالماً كبيراً ورجلاً مؤدّباً، ولذلك كان يعشق آداب القرآن بصورة عجيبة وكان كثيراً ما يستشهد بالآيات القرآنية في أحاديثه. ولم يكن يتناول طعاماً في نهار شهر رمضان، ولما كان يقال له: لِمَ لا تأكل وأنت لست مسلماً ولا يجب عليك الصيام؟ كان يجيب: إن الأدب يقتضي أن أراعي مشاعر الصائمين حولي من المسلمين.

(٢) نقلت هذه القصيدة في كتابي «قصص الأبرار» (الجزء الثاني صفحة ٢٣٧).

غيرها، لأن تواجد الإمام المعصوم على رأس السلطة في العالم الإسلامي يعني الخير كلّ الخير للمسلمين. ولكن على أي حال تهيأت له فرصة أخرى استفاد منها بحيث يمكن القول بكل ثقة بأن الحركات الإسلامية في دنيا المسلمين ـ سواء كانت شيعية أم سنيّة ـ يعود الفضل في نشوئها وانبثاقها إلى الإمام الصادق عليه السلام..

أما الحركات والمدارس الشيعية فلا نقاش حولها من هذه الناحية.

وأما المدارس السنيّة فهي أيضاً وليدة توجيهات الإمام الصادق عليه السلام والجهود التي بذلها في ظل الظروف المساعدة لزمانه.

وهنا يطرح موضوع بهذه الصورة وهي: هل كان الأفضل للإمام الصادق عليه السلام أن يصرف النظر عن تلك الأرضية الملائمة للثورة العلمية، فيذهب للقتال ويقتل في سبيل مقاومة الظلم، أم الأفضل أن يستفيد من هذه الأرضية الممتازة لصالح الإسلام؟ فالإسلام ليس ـ فقط ـ حرباً ضد الظلم بل يشتمل على مواضيع أخرى أيضاً. وعلى هذا فقد طرحت هذا البحث لبيان التفاوت بين عصر الإمام الصادق عليه السلام وبين العصور الأخرى، بحيث أن الإمام الصادق عليه السلام لو لم يستفد من تلك الفرصة التي سنحت له فسيكون هناك مجال للتساؤل بأنه لماذا يريد الأئمة عليهم السلام الحكومة والخلافة؟ أليس لنشر الإسلام؟ فلماذ إذن لم يستفيدوا من تلك الفرص وفضلوا أن يقدّموا أنفسهم للقتل في سبيل الحصول على كرسي الحكم؟.

وجواب ذلك هو أنه في الوقت الذي تتهيّأ فيه الأرضيّة المساعدة لنشر الإسلام فإنهم لا يدعون هذه الفرصة تفلت من أيديهم. وقد لاحت للإمام الرضا عليه السلام فرصة مشابهة ولكن على نطاق أضيق، وذلك عندما سنحت له الفرصة للوصول إلى مجلس المأمون، ومن هناك استطاع أن يرفع صوته بكلمة الحق. وربّما لم يبق الإمام الرضا عليه السلام عند المأمون أكثر من سنتين من الزمان، ولكن مقدار ما نقل عنه عليه السلام في هذه الفترة من الحديث لم ينقل عنه في تمام مدة عمره الشريف.

سؤال وجواب

سؤال: هل أخذ جابر بن حيّان علمه من الإمام الصادق (ع)؟:

جواب: لقد ذكرت أن هناك جوانب من حياة هذا العالم الكيمياوي ما زالت من مجهولات التأريخ. وبالطبع هناك أفراد لا يعتمدون عليه ويقولون: إن عهده متأخّر عن عهد الإمام الصادق عليه السلام بعض الشيء، ولكن حتى هؤلاء لا يستطيعون إنكار أنه تلميذ من تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام. وأما أولئك الذين يعتمدون على هذه المسألة، فقد ذكروا أنه تلقّى دروسه من الإمام مباشرة.

والشيء الأساسي في هذا الأمر أنه لم يكن لهذه العلوم وجود من قبل. وهذا يدلّ على أن الإمام عليه السلام كان له تلاميذ في مختلف أقسام العلوم، إذ أنّ طلبة العلم لا يمتلك جميعهم ذات الاستعداد الفكري والروحي. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن: (إن ها هنا ـ يضع يده على صدره الشريف ـ لعلماً جمّاً لو أصبت له حملة، ولكن قصم ظهري نوعان من الناس.. عالم متهتّك أو جاهل متنسّك). يريد عليه السلام أن يقول: بحثت عن أناس أعطيهم من علمي الغزير، فلم أجد إلا إنساناً ذكياً عنده استعداد علمي عالٍ، ولكنه منافق يطلب الدّنيا ويتخذ الدين وسيلة لبلوغ أهدافه المنحرفة. أو إنساناً متديّناً ولكنه أحمق فاقد لكل استعداد علمي ولم أجد إنساناً يمتلك الاستعداد العلمي والأخلاقي معاً (يقصد عليه السلام أغلبية الناس بالطبع).

الفصل الخامس

أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم (ع)

إن جميع أئمتنا الأطهار، باستثناء الحجّة (عج) الذي ما يزال على قيد الحياة، فارقوا هذه الدنيا بعد أن نالوا شرف الشهادة، فلم يتوفّ واحد منهم وفاة طبيعيّة أو بسبب المرض أو من جرّاء حادثة عارضة، وهذه واحدة من مفاخرهم العظيمة، وكانوا كلّهم في حياتهم يتمنّون الشهادة، تشهد بذلك أدعيتهم وزياراتهم التي خلّفوها لنا من قبيل هذه العبارة: (اللّهم إني أسئلك أن تجعل وفاتي قتلاً في سبيلك) وكذلك هذه العبارة في الزيارة الجامعة الكبيرة: (أنتم الصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء). وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (إن أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله).

والشائع بين الناس أن لقب الشهيد هو لقب خاص بالإمام الحسين عليه السلام وترد لفظة (الحسين الشهيد) كثيراً في الزيارات. وذلك كما يلقّب الإمام جعفر بـ (الصادق) والإمام موسى بـ (الكاظم)، ولكن هذا لا يعني أن الإمام الحسين عليه السلام هو الشهيد الوحيد من بين الأئمة عليهم السلام فكما أن لقب (الكاظم) (أي الذي يملك نفسه عند الغضب) للإمام موسى بن جعفر، لا يعني أن بقيّة الأئمة لم يكونوا يتمتعون بهذه الصفة. وكذلك لقب (الرضا) للإمام علي بن موسى، لا يعني أن غيره من الأئمة ليسوا

مصداقاً لكلمة (الرضا)، أو عندما يطلق لقب (الصادق) على الإمام جعفر بن محمد، فلا يعني ذلك أن البقيّة لم يكونوا (صادقين) والعياذ بالله، وهكذا بالنسبة إلى ألقاب سائر الأئمة عليهم السلام ولكن ظروف كل إمام أوجبت أن يتفرّد بلقب خاص وصفة خاصة، سلطت عليها الأضواء في زمانه فتميّز بها عند الناس وأصبحوا يشيرون إليه بها.

تأثير مقتضيات الزمان في شكل المقاومة

كثيراً ما يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل، وهو: لماذا استشهد غير الإمام الحسين عليه السلام من الأئمة عليهم السلام برغم أن التأريخ لا يذكر أنهم سلّو السيوف في وجه الأنظمة الجائرة لزمانهم، فظاهر سيرتهم تدلّ على أن طريقتهم تختلف عن طريقة الإمام الحسين عليه السلام، فإذا كان الإمام الحسين عليه السلام استشهد لأنه خرج بالسيف في مقابل نظام يزيد المنحرف، فلماذا إذن يستشهد الإمام السجاد والإمام الباقر والإمام الصادق والإمام موسى الكاظم عليهم السلام، وكذلك سائر الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين (كان الحكام الظالمون يدسون لهم السمّ ويقتلونهم بهذه الطريقة)؟؟.

الجواب: هو أننا نخطىء كثيراً عندما نتصوّر أن طريقة الأئمة عليهم السلام تختلف عن طريقة الإمام الحسين عليه السلام من هذه الناحية، وذلك كما يدّعي البعض أن الإمام الحسين عليه السلام هو الوحيد من بين الأئمة الذي بنى على المقاومة والمواجهة مع نظام زمانه الجائر، بينما توجّه سائر الأئمة إلى القعود والسكوت وتركوا حبل الأمور على غاربه. ولكنّ التأريخ يكذّب هذا الادعاء وكل الدلائل والقرائن قائمة على خلافه.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى فإننا نرى أن الدّين الإسلامي لا يجيز ـ ليس فقط للإمام المعصوم بمقامه الشامخ ومسؤوليته العظمى، بل حتى للمؤمن الصادق الإيمان ـ أن يتوافق مع نظام الظلم والجور القائم، ويكيّف نفسه بحيث يخنع ويرضى بذلك الواقع الفاسد، بل يجب عليه ـ مطلقاً ـ أن يقاوم.

نعم، التفاوت يقع في شكل المقاومة، فمرّة تكون علنيّة وبالسيف والدم والنار. ومرّة تكون وفيها ما فيها من ضرب الطرف المقابل على أمّ رأسه وتمريغ أنفه في التراب، وصرف الناس من حواليه، وسوق قوى المجتمع ضدّه، ولكن بصورة خفيّة ومستترة (منهج التقيّة) وبدون سلّ السيوف وإراقة الدماء.

وهذا هو ما قلناه ـ مراراً ـ من أن مقتضيات الزمان لها تأثير في بلورة شكل المقاومة، ولكن يجب الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن مقتضيات الزمان لا يمكن أن يكون لها من التأثير بحيث أنها تمنع التوافق مع الظلم في زمانٍ، وتجيزه في زمانٍ آخر. كلا، فإن التوافق مع الظلم لا يجوز في أيّ زمان وأيّ مكان وبأيّ صورة من الصور. وتأريخ الأئمة عموماً يحكي عن حالة المقاومة المستمرة التي كانوا يعيشونها.

وعندما تذكر المقاومة في جوّ (التقيّة) فليس المقصود منها السكون وانعدام التحرك والاكتفاء بالمعارضة القلبية، فالتقيّة مثل كلمة التقوى كلاهما مشتقتان من مادة (وقى) ولكن التقوى هي تجنب العقاب الإلهي عن طريق الابتعاد عن المعاصي، بينما التقيّة هي تجنّب بطش السلطات الظالمة، وذلك عن طريق المقاومة الخفيّة والدفاع المستتر عن النفس. وبتعبير آخر: التقيّة اتخاذ درع واقية من أجل توجيه أشد الضربات إلى العدوّ وتلقي أقل ما يمكن من ضرباته، وليست التقيّة رفع اليد عن المقاومة، حاشا وكلاّ.

وعلى هذا، فنحن نرى الأئمة الأطهار يفتخرون بأنهم لم يصالحوا أي خليفة في زمانهم، بل جعلوها حسرة في قلوبهم أن يقولوا كلمة واحدة لصالحهم، واليوم نرى خلفاء الجور من بني أميّة، كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وكذلك خلفاء بني العباس من أمثال المنصور الدوانيقي وأبي العباس السفاح وهارون الرشيد والمأمون والمتوكّل... قد سقطوا أمام التأريخ في أوحال الفضيحة والعار، وهذا الأمر واضح بيننا نحن الشيعة، وحتى بين كثير من أهل السنّة فإن الأمر كذلك.

ولكن السؤال من الذي أسقط أولئك في الأوحال ومرّغ أنوفهم في التراب؟:

لو لم تكن مقاومة الأئمة الأطهار في مواجهتهم، وإعلانهم ـ لفسقهم وانحرافهم وغاصبيتهم وعدم لياقتهم ـ للناس، لكنّا اليوم نعتبر المأمون على الأخص في عداد القدّيسين، ولو أن الأئمة لم يكشفوا عن باطن المأمون مثلاً ولم يبينوا حقيقته، فمن المسلم به أن يكون اليوم عند المسلمين أحد أبطال العلم والدين في العالم.

وبحثنا هنا في أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام. أولاً وقبل كل شيء ينبغي أن نشير إلى أن استشهاد هذا الإمام المظلوم من مسلمات التأريخ، ولا يمكن لأحد أن ينكر ذلك. وبناءً على أكثر الروايات شهرة واعتباراً، فإنّ موسى بن جعفر عليه السلام قضى أربع سنوات من عمره الشريف في زوايا الزنزانات في السراديب المظلمة، وفارق الدنيا مسموماً وهو في السجن، وكانوا قبل ذلك يحاولون المرّة تلو المرّة أن يستخلصوا منه اعترافاً أو اعتذاراً ولو شكليّاً لصالح هارون الرشيد، ولكن الإمام لم يكن أبداً ليلبّي لهم مثل هذا الطلب.

الإمام في سجن البصرة

لم يمكث الإمام عليه السلام في سجن واحد وإنّما تنقّل بين سجون عديدة، والسرّ في اضطرارهم إلى نقله من سجن لآخر هو أنّهم كلّما وضعوه في سجن، يصبح مدير ذلك السجن بعد فترة من الزمن مريداً ومتعاطفاً معه عليه السلام. وقد وضعوا الإمام أولاً في سجن البصرة. وسلّموه بيد عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور والي البصرة وهو حفيد للمنصور الدوانيقي، وكان شخصاً ماجناً معاقراً للخمر ومن عشّاق الرقص والغناء.

يقول أحد اتباع هذا السجّان المتهتّك، متعجّباً: لقد جاءوا بهذا الشخص العارف العابد إلى مكان سمع فيه للمرّة الأولى أشياء لم تكن تصل إلى سمعه من قبل طيلة عمره (يقصد أصوات الموسيقى والغناء وسائر أقسام اللغو).

وقد احضروا الإمام إلى سجن البصرة في شهر ذي الحجة من عام ١٧٨هـ وكانت تلك الأيام بالنسبة لهم أيام احتفالات ومسرّات لقرب حلول عيد الأضحى المبارك، ممّا أدّى إلى أن يعيش الإمام تلك الفترة في وضع سيّء جداً من الناحية الروحية، وهو يرى كل هذه المنكرات ترتكب أمامه.

وبقي عليه السلام مدّة في ذلك السجن، فأخذ عيسى بن جعفر يميل إليه شيئاً فشيئاً حتى أصبح محبّاً ومريداً له، وكان هذا السجّان يعتقد سابقاً بأنه لعلّ موسى بن جعفر هو في الواقع كما تبثّ أبواق النظام الإعلامية، رجل متمرّد فنّه الوحيد هو ادعاء الأحقية في الخلافة، أي إن عشق السلطة والرياسة قد ملأ عليه وجوده، ولكنّه رأى العكس تماماً، فالرجل الذي أمامه رجل معنويّات وتوجّهات روحية خالصة، وإذا كانت مسألة الخلافة مطروحة بالنسبة له، فمن

جهة التكليف الشرعي ـ فقط ـ لا من جهة طلب الجاه وحبّ الدنيا. ولذلك رأى نفسه مضطراً لإصدار أمر بتحسين وضع الإمام، ووضع داراً حسنة التأثيث تحت تصرفه عليه السلام وأخذ يعامله بالتجليل والتكريم وبصورة رسمية وعلنية.

ثمّ إن هارون أرسل بعد فترة رسالة سريّة إلى عيسى بن جعفر يأمره فيها باتّخاذ الإجراءات للقضاء على حياة الإمام عليه السلام، فأرسل الجواب بأنّه غير مستعدّ لارتكاب مثل هذه الجريمة، وبعد ردّ وبدل بين هارون وعيسى، أرسل الأخير إلى الخليفة أن يأمر باسترجاع هذا السجين منه، وإلاّ فإنه سوف يبادر إلى إطلاق سراحه، لأنه لا يتمكّن أن يحتفظ برجل مثل الإمام سجيناً عنده، ولأنّ عيسى كان ابن عمّ الخليفة وحفيد المنصور فقد تمتّ الاستجابة لطلبه..

الإمام (ع) في السجون المختلفة

وأخذوا الإمام إلى بغداد بأمر هارون، فسلّموه بيد الفضل بن ربيع، (والرّبيع هذا هو الحاجب المعروف للعباسيين)[١] ولكن الفضل بعد مدّة من الزمن أصبح من محبّي الإمام، فغيّر أوضاعه وأخرجه من السجن والسلاسل وأمر أن يعامل معاملة حسنة ويوضع في مكان لائق. فأرسل جواسيس هارون بأن موسى بن جعفر يعيش في سجن الفضل بن ربيع حياة هانئة وهو بمثابة ضيفٍ عنده.

فأمر هارون باستلام السجين منه وتسليمه إلى الفضل بن يحيى البرمكي، الذي تصرّف مع الإمام بطريقة أثارت غضب هارون وسخطه الشديد، عندما نُقلت إليه أخبار المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها الإمام عليه السلام، فأرسل جواسيسه وحققوا في الأمر، فوجدوا أن هذه الأخبار صحيحة، فأمر هارون باستلام السجين منه وأصبح الفضل بن يحيى من المغضوب عليهم عند الخليفة.

ثمّ أن أباه يحيى البرمكي، ذلك الوزير الإيراني الناصبيّ، قام بمحاولة للحيلولة دون سقوط أولاده في نظر هارون من جرّاء عدم تنفيذ أوامره وإظهار الطاعة العمياء له، فذهب إلى مجلس هارون، حيث كان هذا جالساً وحوله حاشيته، فاقترب منه واستدار من وراء ظهره ووضع فمه في أذن هارون قائلاً:

---

(١) كان للخلفاء العباسيين حاجب باسم «الربيع» حيث كان في البداية حاجباً للمنصور، وبقي في هذا المنصب بعد المنصور في نظام الحكم، ومن بعده احتل ولده «الفضل» مكانه في عهد هارون، وكان الأب والابن هذان من أخصّ خواص بلاط الخلفاء العباسيين ومورد ثقتهم واعتمادهم.

إن كان ولدي قد قصّر بحقكم، فأنا مستعد بنفسي أن أنفّذ أيّ أمر تأمروني به. . وقد تاب ولدي من ذنبه هذا، إن ولدي كذا وكذا. . الخ، وظل يتملّق على هذا المنوال إلى أن نجح في إقناع هارون حيث خوّله أن يستلم الإمام ويتصرف معه بما يرى.

فأخذ يحيى البرمكي السجين وسلّمه إلى سجّان آخر، وهو السنّدي بن شاهك الذي يقال: إنه لم يكن مسلماً أصلاً، وقد مرّت أشد الظروف وأصعبها على الإمام في سجن هذا الجلاّد، حيث لم يذق الإمام عليه السلام بعد ذلك طعم الراحة أبداً.

طلب هارون من الإمام

ارسل هارون وزيره يحيى البرمكي لمقابلة الإمام في سجنه، وذلك في الأيام الأخيرة لحياة الإمام عليه السلام، وقال له: أبلغ سلامي إلى ابن عمّي وتكلّم معه بكلام ليّن، وقل له بأنه قد ثبت لدينا بأنك بريء ولم ترتكب خطأً، ولكن للأسف فإني سبق أن أقسمت بأنك ما لم تعترف بذنبك اعترافاً صورياً، وتطلب مني أن أعفو عنك، فلن أطلق سراحك أبداً. وليس من الضروري أن يعرف أحد بهذا الأمر، كما أنه لا يلزم أن يتمّ بحضوري، بل يكفي أن تقرّ وتعترف أمام رسولي يحيى البرمكي، وذلك من أجل أن أبرّ بقسمي ولا أحنث به، وبعد ذلك أقدم عليّ وسوف أريك ما يسرّك ويقرّ عينك.

فكان جواب الإمام عليه السلام ليحيى البرمكي هذه العبارة: (قل لهارون: لم يبق من عمري شيء) وهذا الجواب على إيجازه يحمل أمرين مهمّين:

الأول: هو روح الصمود والمقاومة، والثبات على العقيدة التي لا يجيز مسايرة الظالم والخنوع أمامه ولو بمقدار يسير.

والثاني: هو فضح هارون وكشف كذبه ونفاقه، لأنه كان ينوي التخلص من وجود الإمام الذي يرى فيه منافساً خطيراً له وهو في ظُلَم السجون وسلاسل الحديد، منتهى الأمر أنه كان يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، وذلك بأن يسقط شخصية الإمام معنوياً باستخلاص الاعتذار وطلب العفو منه، ثم بعد ذلك يقوم بتصفيته جسدياً، ولما فشل في الأمر الأول قام بعد أسبوع واحد من هذه المقابلة بدس السمّ للإمام عليه السلام فغادر هذه الدنيا يحمل على صدره وسام الشهادة.

سبب اعتقال الإمام (ع)

كان هارون الرشيد يحسد الإمام الكاظم عليه السلام على مكانته الاجتماعية ومحبوبيّته بين الناس، وكان يحسّ بالخطر من ناحيته مع أن الإمام لم يكن ـ أبداً ـ بصدد القيام والثورة، ولم يقم بأي خطوة في اتّجاه تشكيل حركة أو تنظيم مضادّ يهدد السلطة القائمة، ولكنّ هارون أدرك أن الإمام وإن لم يقم بثورة مادّية مسلّحة، إلا أنه فجّر ثورة معنويّة وعقائدية تركت صداها الكبير بين أوساط الجماهير، وجعلت هارون الرشيد يشعر بأنه يجلس على كرسي مهزوز، فوضع الإمام يحكي بوضوح عن غاصبيّة هارون للخلافة.

وعندما فكّر هارون بتثبيت ولاية العهد لأولاده الأمين ثمّ المأمون ثمّ المؤتمن، دعا الناس وخصوصاً العلماء وكبار الشخصيات للحضور إلى مكّة في إحدى السنوات، وأعلمهم بأنه يزمع أن يعقد مؤتمراً عظيماً هناك لأخذ البيعة من الناس، ولكنه فكّر أن موسى بن جعفر سيفسد عليه هذا الأمر ويمنعه من تحقيق مرامه، لأن المسلمين المجتمعين هناك عندما يرونه فسوف يرون فيه الشخص الوحيد اللائق للخلافة، وبالتالي قد يمتنعون عن إعطاء البيعة لأولاد هارون.

وعندما وصل هارون الرشيد إلى المدينة في طريقه إلى مكّة، عزم على اعتقال الإمام وأبعاده عن الساحة. يقول يحيى البرمكي في حديث مع أحد أصدقائه: أظنّ أن الخليفة سيأمر اليوم أو غداً بتوقيف موسى بن جعفر، فسأله عن السبب فقال: لقد كتب مرافقاً للخليفة حيث ذهبنا لزيارة

قبر رسول الله ﷺ في المسجد النبوي[١]، وعندما أراد أن يسلّم على النبيّ ﷺ سمعته يقول: السلام عليك يابن العمّ، إنّي التمس منك العذر لأني مضطر إلى توقيف ولدك موسى بن جعفر! وفعلاً أرسل هارون جلاوزته في اليوم التالي إلى بيت الإمام لإلقاء القبض عليه، ولكنهم لم يجدوه في بيته، فذهبوا إلى مسجد النبيّ ﷺ فألفوه يصلّي، فلم يعطوه مهلة لاتمام صلاته، بل أخذوا يجرّونه وهو في حال الصلاة وأخرجوه من المسجد، فنظر الإمام عليه السلام إلى قبر الرسول ﷺ وقال: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا جدّاه. انظر إلى أمّتك كيف يتصرّفون مع أبنائك.

(١) هؤلاء الأشقياء كان عندهم في الواقع اعتقاد بالنبيّ ﷺ وبأهل بيته الأطهار عليهم السلام، ومع ذلك كانوا يتصرّفون على خلاف اعتقادهم ممّا زاد في درجة شقائهم أضعافاً مضاعفة، وهم في ذلك مثل قتلة الإمام الحسين عليه السلام وذلك عندما سأل سيد الشهداء عليه السلام عن أهل الكوفة وهو في الطريق إليهم، فأجابه الفرزدق وآخرون معه قائلين: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك». فالمطامع الماديّة وحبّ الدّنيا يجعل ضعفاء العقيدة والإيمان يحابون ضدّ عقيدتهم وضدّ إيمانهم وبالتالي يزدادون شقاءً وعذاباً عند الله تعالى عن أولئك الذين لا يعتقدون أساساً بالإسلام ولا بالنبيّ ﷺ ولا بأوصيائه الأطهار.

كلام للمأمون

كانت تصدر من المأمون كلمات دفعت الكثير من المؤرّخين إلى أن يعتبروه شيعياً، وبناءً على اعتقادي الشخصي (في أنه لا يوجد أيّ مانع في أن يعتقد المرء بشيء ولكنّه يتصرّف عمليّاً ضد هذا الاعتقاد) فهو ليس شيعيّاً فقط، بل من علماء الشيعة.

وقد كتب قاضٍ سنّيّ تركي، قبل بضع سنوات كتاباً ترجم إلى الفارسية وهو بعنوان «تحليل ومحاكمات حول آل محمد ﷺ» وفيه نجد مباحثة للمأمون مع علماء السنّة حول أحقيّة الإمام عليّ عليه السلام بالخلافة بعد الرسول مباشرة، وهي مباحثة علميّة شيّقة إلى درجة أنّه من النادر أن نرى عالماً من علماء الشيعة يغوص هكذا في البحث العلمي!.

وقد سجّل التأريخ أن المأمون سأل بعض أصحابه يوماً: هلاّ قلتم لي من الذي علّمني التشيع؟ قالوا: ومن هو؟ قال: أبي هارون، لقد تعلّمت درس التشيّع منه. قالوا: وكيف يكون ذلك، وأبوك هارون أعدى أعداء الشيعة وأئمّة الشيعة؟ قال: هو كما أقول لكم. فقد كنّا نرافق أبانا في إحدى سفراته للحجّ، وكنت صغير السنّ آنذاك، وعندما وصلنا إلى مكّة أمر أبي جميع المشايخ والعلماء والكبراء أن يحضروا إلى مجلسه، وكان الرسم أن يعرّف كل من يريد الدخول على الخليفة نفسه أولاً، أي أن يذكر اسمه واسم أبيه وهكذا إلى الجدّ الأعلى. لكي يعرف الخليفة أنه من قريش أم من غير قريش، وإذا كان من الأنصار فمن الأوس أم من الخزرج. وكان الحاجب يذكر للخليفة أولاً اسم الزائر ثمّ بعد ذلك يؤذن له بالدّخول.

وفي يومٍ جاء الحاجب وقال: هناك شخص جاء لزيارة الخليفة يقول: إن اسمه موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وما إن سمع الخليفة هذا الاسم حتّى قفز من مجلسه قائلاً: قل له يتفضل بالدخول، ثم قال: ليدخل هكذا راكباً ولا يترجّل، وأمرنا أن نهرع لا ستقباله، وفعلاً ذهبنا فرأينا رجلاً عليه آثار العبادة وسيماء التقوى بكلّ وضوح وجلاء، وعندما رآه أبي من بعيد صاح قائلاً: أقسم عليك إلاّ ما أتيت إلى جواري راكباً، وبناء على إصرار أبي فقد تقدّم الرّجل راكباً ومشى مسافة فوق السّجاد المفروش، وركضنا بأمر أبينا وأخذنا بركابه وأنزلناه من فوق دابّته، فعانقه هارون، وأجلسه إلى جانبه بكل تجليل واحترام، ثم أخذ يسأله بكل أدب عن عدد أفراد عائلته وعن وضعه المعيشي وعن موارده، فأجابه الإمام على كل ذلك، ولما أراد الانصراف أمرنا أبونا بالسير في ركابه إلى الباب، وعندما كنت وأخوتي في وداعه مال عليَّ وهمس في أذني بهذه العبارة: سوف تصبح خليفة، ولي عندك وصيّة واحدة، وهي أن لا تسيء معاملة أولادي وذرّيتي. ولم نكن نعلم من يكون هذا الشخص.

وبعد أن رجعنا وكنت أنا أكثر جرأة من سائر إخوتي، فقلت لأبي بعد أن انفض الناس من حوله: من يكون هذا الذي احترمته وكرّمته بما لم تفعل مع الآخرين؟ فضحك وقال: إذا كنت تريد الحقيقة، فإن هذا المسند الذي نجلس عليه الآن هو لهذا الرجل وأهل بيته، وهم أولى به منّا. فقلت: هل تعتقد بكلامك هذا؟ قال: أجل. قلت: فإذن لِمَ لا تسلّم هذا الأمر إليه؟ فقال: ألا تعلم يا بنيّ أن الملك عقيم؟ ولو تناهى إليَّ في يوم من الأيام أنه خطر في قلبك أن تنازعني هذا الأمر وأنت ولدي، لفصلت الذي فيه عيناك عن جسدك!!.

ومرّت هذه القضيّة وكان هارون يصل الناس ويرسل الأموال الطائلة لهذا وذاك مثلاً خمسة آلاف دينار ذهباً أحمراً أو أكثر أو أقل، فقلنا في أنفسنا: لا بدّ أن الأموال التي يرسلها لهذا الرجل (موسى بن جعفر) أكثر من ذلك بسبب كل ها التقدير والاحترام الذي رأيناه يوليه له. ولكنّنا

وجدنا العكس فقد كانت المبالغ التي يرسلها إليه لا تتجاوز المائتي دينار على كثرة أفراد عائلته.

فذهبت إلى أبي ثانية وسألته عن السبب فقال لي: ألا تعلم أن هؤلاء منافسون لنا؟ إن السياسة تملي علينا أن نجعلهم دائماً في حالة احتياج وضيق ذات يد، وإلا فعندما تزداد إمكانياتهم المالية، فمن الممكن أن ترى فجأة مائة ألف سيف قد رفعت في وجه أبيك.

النفوذ المعنويّ للإمام (ع)

لقد كان النفوذ المعنويّ للأئمّة عليهم السلام كبيراً، نعم، لم يكونوا في كثير من الأحوال يمتلكون قوة السيف أو قوة الدعاية والإعلام، ولكنهم في كل الأحوال كانوا يمتلكون القلوب. فالحق له قوة جاذبة للقلوب لا يمكن إغفالها، ولذلك يحدثنا التأريخ عن أفراد كانوا يحتلون مناصب عالية في نظام حكم هارون، ومع ذلك كان ولاؤهم لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا يخفون تشيّعهم، ومن هؤلاء عليّ بن يقطين وزير هارون والرجل الثاني في الدولة. وكان في الواقع يقوم بخدمة أهداف إمامه موسى بن جعفر عليه السلام برغم أن ظاهره كان مع هارون. وقد وشى به بعضهم إلى هارون عدّة مرّات، ولكنّ الإمام الكاظم عليه السلام ببصيرته وعلمه الربّاني كان في كل مرّة يصدر تعليمات خاصة لابن يقطين، كان ينجو بتنفيذها من إقامة البيّنة عليه لدى الخليفة الجائر.

وكان هناك العديد من بين حاشية هارون ينجذبون إلى شخصية الإمام الكاظم عليه السلام ويحبّونه، ولكن أحداً لم يمتلك الجرأة أن يذهب لملاقاة الإمام والحديث معه، وذلك بسبب الإرهاب الشديد والعقوبات الصارمة التي كان النّظام يفرضها على كل من يحاول الاتصال بالإمام عليه السلام. والقصة التالية تلقي بعض الأضواء على أوضاع محبّي الإمام في تلك الظروف الحرجة.

يقول أحد الإيرانيّين من أهل الأهواز وكان شيعيّاً: كانت قد شملتني ضرائب ثقيلة عليّ أن أودّيها إلى الوالي، ولو قدّر لي أن أدفع تلك الضرائب الباهظة التي لفّقوها عليّ لأفلست تماماً وعجزت عن إدارة شؤون حياتي.

واتّفق أن والي الأهواز عُزل وجاء مكانه والٍ آخر، وبقيت قلقاً خوفاً من أن يطالبني الوالي الجديد بما هو مثبت في السجلات السابقة. ولكنّ بعض أصدقائي أخبروني بأن الوالي الجديد شيعيّ فاذهب إليه لعلّه يساعدك، ولكنّي لم أصدّق ذلك وبالتالي لم أجد الجرأة اللازمة لأن أذهب إليه وأقول له بأنني شيعيّ. فقلت في نفسي: أذهب أولاً إلى المدينة وأقابل الإمام موسى الكاظم عليه السلام (لم يكن في السجن آنذاك) فإذا أكّد لي هذا الأمر فإني آخذ توصية منه إلى ذلك الوالي. وفعلاً ذهبت وكتب لي الإمام رسالة موجزة من ضمنها هذه العبارة: «قضاء حاجة المؤمن لها عند الله من الأجر كذا وكذا... والسلام» فأخفيت الرسالة في ثيابي وأخذتها معي إلى الأهواز.

ثمّ إني ذهبت ليلاً إلى بيت ذلك الوالي وطرق الباب فخرج إليّ حاجبه، فقلت له: أخبر سيّدك أن شخصاً من طرف موسى بن جعفر عند رسالة لك، وقبل أن أتّم كلامي خرج إليَّ الوالي نفسه وسلّم عليّ وقال: ماذا تقول؟ فأعدت عليه الكلام، فأخذ الرسالة منّي وعرف التوقيع، فقبّل الرسالة ثم قبّل وجهي وعينّي، وأدخلني إلى منزله وجلس بين يديّ كالغلام الصغير وسألني: حقّاً كنت بنفسك في خدمة الإمام؟ قلت: أجل. قال: وجلست بين يدي ورأيت بعينيك جماله النوراني؟ قلت: أجل. فقال: هنيئاً لك. فما هي مشكلتك إذن؟ فذكرت له قصتي، فأمر في نفس تلك الليلة بإحضار دفاتر الضرائب، وقام بإصلاحها، وشطب كل تلك الضرائب الثقيلة التي كانوا قد حمّلوها فوق كاهلي. ولأجل أن الإمام ذكر في إحدى عبارات رسالته أنه من أدخل السرور على قلب المؤمن في الدنيا، أدخل الله تعالى السرور في قلبه يوم القيامة... فقد قال لي أيضاً: أتأذن لي أن أقدم لك خدمة أخرى؟ قلت: تفضّل. قال: أريد أن أشاطرك الليلة كل ما أملك من أموال نقدية وغير نقدية، فخرجت من عنده وقد زال عني كابوس الضرائب بالإضافة إلى ما أعطاني من مالٍ كثير. ثم ذهبت إلى حضرة الإمام عندما سنحت لي سفرة إلى المدينة، وحدّثته بكلّ ما جرى، فتبسّم عليه السلام وظهر السرور على وجهه.

وهكذا كان هارون الخليفة المتجبّر، عندما يخاف من شخص مثل

موسى بن جعفر عليه السلام، فإنه كان في الواقع يخاف من جاذبية الحقيقة وتأثيرها على الناس، فقد كان عليه السلام مصداقاً للحديث الشريف: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم). فالتبليغ ليس كله كلاماً، بل إن أثر التبليغ اللساني في الواقع قليل، بينما التأثير الأعظم هو للتبليغ العملي والسلوكي، ومن كان يشاهد موسى بن جعفر أو آباءه الكرام أو أولاده الطاهرين، ويعاشرهم فترة من الزمن، فإنّه كان يشاهد الحقيقة مجسّدة في وجودهم المقدّس، وكان يتبيّن له أنهم بالفعل يعرفون الله حقّ المعرفة، ويعشقونه بكل جوارحهم، وأن كل ما كانوا يقولونه ويعملونه كان خالصاً لله وللحقيقة.

سنّتان من سنن الأئمة (ع)

من بين السنن الكثيرة التي عرف بها أئمّتنا ، هناك سنّتان تتميّزان بوضوح تام.

الأولى: هي العقيدة الصادقة، والخوف الشديد من الله سبحانه، ذلك الخوف الذي تظهر آثاره على الحواس والأعضاء، بحيث كانوا يرتجفون عندما كانوا يقفون للصلاة بين يدي مولاهم العظيم، وكانوا يكثرون من العبادة ويجتهدون فيها، بحيث لا يستطيع الإنسان العاديّ أن يلحق بهم في هذا المضمار، ونقرأ هذه العبارة اللطيفة في حق موسى بن جعفر : «حليف السجدة الطويلة والدموع الغزيرة». لقد كانوا يعبدون الله كأنهم يرونه: وكأنهم يشاهدون الآخرة في يوم تشخص فيه الأبصار.

والسنّة الأخرى التي كانوا يولونها اهتماماً خاصّاً هي مسألة مواساة الضعفاء والمحرومين، والتعاطف مع اليتامى والمساكين من أبناء المجتمع، وبالأساس فإن (الإنسان) عندهم له قيمة عالية بما هو إنسان، وعندما نطالع تأريخ أيّ من أئمّتنا الأطهار فإننا نلاحظ أن الفقرة الأولى في برنامجهم اليومي، هي تفقد أحوال الضعفاء والفقراء والعاجزين، والمهم في الأمر أنهم كانوا يقومون بذلك بأنفسهم، فلا يأمرون أحداً أن ينوب عنهم في هذا العمل، وطبيعيّ أن النّاس كانوا يرونهم يفعلون ذلك ويدركون أنهم مصداق للآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

مؤامرة فاشلة لهارون الرشيد

عندما كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام في السجن، فكر هارون وأعوانه في خطة ماكرة، الهدف منها إسقاط شخصيّة الإمام أمام الناس، فأرسلوا إليه جارية شابّة حسناء، وأمروها أن تقيم مع الإمام في سجنه بعنوان خادمة تقدّم له الطعام وتلبّي طلباته. طبعاً، كانوا يعرفون تقوى الإمام وورعه، ولكن تفكيرهم الشيطاني أوحى لهم بأنه لعل تلك الظروف الحرجة التي كان يعاني منها الإمام عليه السلام من الوحدة والحرمان، تدفعه إلى أن ينزلق ويميل إلى هذه المرأة الحسناء الماجنة، وإذا قاوم في البداية فلعلّه بمرور الزمن يفقد مقاومته فيرتكب الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ وبالتالي يصلون إلى هدفهم الخبيث ويعلنون على الملأ، أن انظروا إلى هذا الذي تجلّونه وتقدّسونه وتمنحونه حبّكم وولاءكم.. لقد فعل كذا وكذا، وبالتالي فهو إنسان عاديّ لا يستحقّ كل هذا التقديس والولاء. ولكن.. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، فلقد رأت هه الفتاة ـ التي لم يكن أحد من قبل يستطيع الصمود أمام إغرائها ـ أن الإمام بقى منشغلاً بعبادته وصلاته، ولم يلتفت إليها، وكلّما حاولت إغراءه والتودّد إليه ـ كما أمروها ـ لم تجد أدنى استجابة.

ومع مرور الأيّام بدأت أحوالها تتغيّر لما رأت من عظمة هذه الشخصية ونزاهتها، وبدل أن يؤثر إغراؤها في الإمام، أثّرت عبادته وخشوعه فيها، ولمّا جاءوا بعد فترة من الزمن ليروا نتيجة هذه الخطّة، ذهلوا وصعقوا للمنظر، فقد رأوا تلك المرأة المتبرجة التي كانت ترتدي

الملابس الفاضحة، وقد تحجّبت وسترت بدنها وفرشت لها سجادة خلف الإمام وأخذت تصلّي وراءه بكل خشوع. ولما أحضروها بين يدي الخليفة لاحظ أن أحوالها قد انقلبت بصورة عجيبة، فكانت تنظر أحياناً إلى السماء، وأحياناً أخرى إلى الأرض بنظرات غريبة، فسألها هارون: ما الذي جرى؟ فقالت: عندما رأيت هذا الرجل وأحواله رجعت إلى نفسي فأدركت أني قد ارتكبت ذنوباً كثيرة في حياتي، والآن لا أفكر إلا أن أعيش حالة التوبة لعل الله تعالى يغفر لي ما سلف من خطاياي. وبقيت على هذا الحال إلى أن وافاها الأجل.

قصّة بشر الحافي والإمام الكاظم (ع)

في أحد الأيام كان الإمام يسير في بعض طرقات بغداد، فمرّ بمنزل تتصاعد منه أصوات الموسيقى والطبول والعربدة، وكان أهله يرقصون ويدبكون ويصفّقون وصادف أن خرجت خادمة من ذلك المنزل بيدها سلّة مهملات تريد أت تضعها خارجاً وترجع. فسألها الإمام عليه السلام: صاحب هذا المنزل حرّ أم عبد؟ فتعجبت الخادمة من هذا السؤال وقالت: ألا ترى من هيئة هذا المنزل الفخم أن صاحبه حرّ؟ إنّه منزل بشر، وهو أحد الأشراف والأعيان المشهورين هنا. فقال عليه السلام: بلى، إنّه حرّ، ولو كان عبداً لما ارتفعت هذه الأصوات الصاخبة الماجنة من بيته، وتكلّم الإمام عليه السلام معها مدّة ثمّ تركها ومضى.

ولما رجعت سألها سيّدها: لِمَ تأخرت كلّ هذه المدّة؟ فقالت: رجل تحدّث معي في الخارج. فسألها: وماذا قال لك؟ فقصت عليه القصّة، فسألها عن علامات ذلك الرجل فوصفته له، فعرف أنّه موسى بن جعفر عليه السلام. فقال: وفي أيّ اتجاه ذهب؟ فأشارت له بيدها، فهرول إلى خارج المنزل ولم يعط لنفسه الفرصة أن يلبس حذاءه، وظل يركض حافياً إلى أن أدرك الإمام فوقع على يديه يقبّلهما، وقال: هل من توبة يابن رسول الله فقال: نعم، إذا أقلعت عما أنت عليه الآن. فقال: أعاهد الله من الآن أن أكون عبداً له، وصدق في قوله، فطهّر منذ ذلك اليوم بيته من الخمور والغناء والموسيقى والمجون، وتفرّغ لعبادة ربّه بقية حياته.

وكانت أخبار مثل هذه القصص تصل إلى أسماع هارون، فكان يحسّ

بالخطر، ولمّا كان يوجّه التّهم إلى الإمام في بعض محاوراته له، كان الإمام يقول له: وماذا فعلت أنا؟ أيّ إجراء مضاد اتخذته، وأيّ تنظيم شكّلته، وأيّ ثورة قمت بها ضدّك؟ فلم يكن هارون يحير جواباً ولكنّه كان يقول بلسان الحال: «وجودك ذنب» أي أن وجودك لوحده خطر عليّ، لأنّك تبيّن الحقائق للناس، ولا تتوانى في نشر فضائح النظام، وبالتالي فإن عرش الخلافة يهتزّ من تحتي بسببك!!.

صفوان الجمّال وهارون

كان صفوان الجمّال يمتلك قافلة من الجمال ولوازم النقل يكريها للناس لسفرهم ونقل أمتعتهم. وكان من عادة هارون الرشيد أن يكتري جمال هذا الرجل عندما ينوي هو وحاشيته السفر إلى مكّة، وفي أحد الأعوام أرسل أعوانه فوقّعوا عقداً مع صفوان وحجزوا بذلك جماله هذا العام لسفر الخليفة. وقبل أن يأتوا لاستلام الجمال صادف أن تشرّف صفوان بخدمة الإمام موسى الكاظم عليه السلام فأخبره بما صنع مع هارون. فقال له الإمام عليه السلام: لِمَ أكريت جمالك لهذا الرجل الظالم؟ فقال صفوان: فعلت ذلك لأن سفره ليس سفر معصية، وإنّما ينوي السفر إلى مكّة للحج هذا العام. فقال عليه السلام: ألا تدعو الله في قرارة نفسك أن يطيل الله عمر هارون حتى يعود من سفره ويردّ عليك جمالك ويعطيك أجرتك؟ قال: بلى. قال: إذن أنت بهذا المقدار راضٍ ببقاء الظالم، وهذا عند الله ذنب عظيم.

فذهب صفوان من فوره وباع جماله وكل وسائله، ثمّ أخبر الطرف المقابل بأنه فسخ العقد من جانبه، لأنّه قرّر أن يترك هذا العمل نهائياً. فأمر الخليفة بإحضاره وسأله عن السبب فقال: لقد أصبحت شيخاً كبيراً، ولم يعد لي قدرة على مثل هذا العمل، وأريد أن أستريح بعض الوقت، وحتى لو قرّرت أن أعمل فسوف أختار عملاً آخر أقلّ مشقة. فقال هارون: قل الحقيقة، لماذا بعت جمالك؟ قال: هو ما قلت للخليفة. قال: كلا، فقد تناهى إليَّ أن موسى بن جعفر علم بأنك أكريت جمالك لي فقال لك: إن هذا العمل خلاف الشرع وقسماً بالله لو لم يكن لنا فيما سبق تعامل معك ومع آبائك لأمرت الساعة بضرب عنقك.

الفضل بن الربيع مرة أخرى مع الإمام موسى الكاظم (ع)

سبق أن ذكرنا قصة يحيى البرمكي وزيارته للإمام في السجن، ومحاولته استخلاص اعتراف أو اعتذار منه لصالح الخليفة، وفشله الذريع في مهمّته تلك. وقد حصلت قصة متشابهة للفضل بن الربيع، نذكرها ـ أيضاً ـ لأنها بالإضافة إلى غيرها من القصص والحوادث، كانت السبب في مؤامرة هارون وجهازه الحاكم للتخلص من الإمام موسى الكاظم عليه السلام.

أرسل هارون الرشيد أحد كبار أعوانه، وهو الفضل بن الربيع، وكان ضابطاً عالي الرتبة في الجهاز الحاكم، (وقد ذكرنا أن الإمام كان سجيناً عنده فترة من الزمن)، وأوصاه أن يتكلم مع موسى بن جعفر بلسان طيب، وأن لا يذكر هارون أمامه بلقب (أمير المؤمنين) كما هي العادة، ويقول له: إنّ ابن عمّك يقرؤك السلام، ويقول لك: معذرة فإن المصلحة هي التي أوجبت الاحتفاظ بك في مكان آمن قريباً منّا، وعدم السماح لك بالذهاب إلى المدينة إلى أن يحين الوقت المناسب، وإلا فإن الخليفة يحبّك ولا يريد لك إلا الخير، وهو يقرّ بأنك لم ترتكب ذنباً ولم تفعل منكراً، وقد أمر بإرسال طباخ خاصّ لكي يهيّ لك ما تشتهي من الأطعمة فلعل طعام السجن لا يروقك... الخ.

فذهب الفضل وقد ارتدى ملابسه العسكرية الرسميّة، وربط حمائل سيفه، ودخل السجن بهذه الهيئة المهيبة، فوجد الإمام يصلّي، فانتظر هنيهة ريثما يتمّ الإمام صلاته، ولكنّه قبل أن يبدأ الكلام معه نهض عليه السلام وشرع في صلاته

جديدة. فانتظر الفضل مرة أخرى، ولكن الإمام ظل على هذا الحال ما إن يسلّم حتى يقوم ويكبر لصلاة أخرى.. إلى أن فهم الفضل أن هذا الأمر مقصود وأن الإمام يتعمّد تجاهله، ولا يريد أن يقيم لحضوره وزناً. ولكنّه كان مأموراً ولا بدّ له من أداء مأموريّته، فتربّص للإمام، وما إن بدأ التسليم في إحدى صلواته حتى شرع الفضل في الكلام، وأخذ يبلّغ رسالة الخليفة والإمام يصغي إليه حتى وصل إلى مسألة الطباخ الخاص والغذاء وما أشبه، عندها قال الإمام عليه السلام: «لا حاضرٌ لي مال فينفعني، وما خُلِقتُ سؤالاً». ثمّ نهض وقال (الله أكبر) وعاد إلى صلاته. فقام الفضل يجرجر أذيال الخيبة ورجع إلى هارون بخفيّ حنين!!.

إذن فمجموع هذه الحوادث والوقائع، أدّت إلى تخطيط النظام الحاكم للقضاء على حياة الإمام، ويمكن تلخيص أسباب استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام بهذه النقاط:

أولاً: كان هارون يرى في وجود الإمام الكاظم منافساً قويّاً له في مسألة الخلافة، ويحس بالخطر الشديد من ناحيته.

ثانياً: التبليغ الذي كان يقوم به الإمام ضد النظام، وإصراره على توضيح القضايا للناس وفضح مساوىء الحكام أمامهم كلّما سنحت فرصة لذلك، منتهى الأمر أنه عليه السلام كان يمارس التقيّة في هذا العمل.

و(التقيّة) كما سبق أن ذكرنا هي العمل لإسقاط الحاكم الظالم مع المراعاة قدر الإمكان أن لا يقع بيد الخصم ـ مالك القوة والسلطة ـ أي سند أو دليل يكون ذريعة للقضاء على المجاهدين قبل أن يؤدوا دورهم المرسوم. ولا تعني (التقية) بأي حال ترك العمل الجهادي والنوم على فراش الأحلام الحريري.

ثالثاً: روح المقاومة العظيمة، والصمود العجيب الذي كان يتمتع به الإمام، ورفضه الاستجابة والخضوع لإرادة الخليفة الجائر برغم تلك العروض المغرية التي كان يلوّح بها له.

وهكذا رأى هارون أنه فشل بكل محاولاته في التأثير على شخصية الإمام والقضاء على الروح الرسالية فيه، ووجد فيه خصماً لا يمكن أن يستسلم أو يلين أمامه. ولذلك فكر بأن الحلّ النهائي لهذه المشكلة هو قتل الإمام، مع علمه اليقينيّ بأن هذا العمل يعدّ جريمة عظمى نتيجتها الحتميّة هي سخط الله وعقابه الشديد، ولكن السياسة الطاغوتية التي كان هارون يصرّ على اتباعها، فرضت عليه أن يسلك هذا الطريق للتخلّص من حياة هذا الخصم العنيد مهما كانت النتائج، لأن شهوة الملك لا تترك عند صاحبها مجالاً للتفكير السليم.

كيف استشهاد الإمام الكاظم (ع)

ذكرنا أن آخر سجن أقام فيه الإمام عليه السلام هو سجن السندي بن شاهك، وكان هذا الجلاّد يتميز بأنه ينفّذ كلّ ما يؤمر به بشدة بالغة وقساوة عجيبة، فقام بوضع الإمام في زنزانة في سرداب مظلم وقيّده بالسلاسلا الحديدية الثقيلة، وبدأ التخطيط لمحاولة الاغتيال، وبدأت بالتزامن معها جهود إعلامية من أجل إقناع الناس بأن الإمام فارق الدنيا مع انتهاء أجله الطبيعي.

وقد ذكرنا أن يحيى البرمكي، من أجل أن يتوصّل إلى حفظ مكانة أولاده في نظر هارون، فقد أخذ على عاتقه أمام الخليفة أن يقوم بنفسه بتنفيذ كل ما يأمره به، ففوض إليه هارون تدبير الأمر، فذهب يحيى إلى السندي بن شاهك وأعطاه سمّاً فتّاكاً كان قد هيّأه، وأمره أن يدسه في طعام الإمام، وأعطاه بقية التوجيهات والتعليمات اللازمة. فقام هذا الشقيّ بتعبية هذا السمّ في حبّات التّمر بشكل خاص، وقدّمه فأكل منه الإمام.

وقام السندي على الفور باستدعاء العلماء والقضاة وعدول المؤمنين وكل من هم مورد ثقة عند النّاس، وجمعهم في مكان، ثم أخرج الإمام إليهم وقال: أيّها الناس، انظروا إلى الشيعة كيف يروّجون الإشاعات بأننا نعامل الإمام معاملة سيئة في السجن ونعرضه لمختلف أنواع التعذيب. وهذا موسى بن جعفر أمامكم سالماً تماماً ولم يحدث له أي مكروه.

وما إن أتمّ كلامه حتى قال الإمام عليه السلام أمام الجميع: إنه كذّاب، فأنا الآن مسموم، ولم يبق من عمري سوى يومين أو ثلاثة. فأفشل الإمام بهذا الكلام خطّتهم، ولكنّهم استمرّوا في مكرهم، فحملوا جنازة الإمام ووضعوها

بجانب جسر بغداد، وكشفوا التابوت لكي يشاهد المارّة جثمان الإمام وأنه لا يوجد عضو من أعضائه مقطوع أو مكسور، وأن رقبته ليست مزرقّة أو مسودة (علامة عدم الخنق أو الشنق)، إذن فموسى بن جعفر لم يقتل وإنما مات موتاً طبيعيّاً!! وبقيت الجنازة هكذا مدّة ثلاثة أيام قبل أن يدفن الجثمان الشريف.

وتذكر في المجال هذه القصة المؤلمة. فقد كان بضعة نفر من شيعة الإمام موسى الكاظم عليه السلام، قد قدموا من إيران على بعد المسافة، ومشقة السفر على الدواب، وقد عانوا الصعوبات الكثيرة من أجل أن يحققوا أمنيّتهم في ملاقاة الإمام عليه السلام ولو في سجنه. ولكنّهم لم يسمحوا لهم بذلك، فمكثوا عدة أيام يكرّرون الرجاء والتوسّل، إلى أن وافقوا أخيراً على طلبهم وقالوا لهم: حسناً، اليوم نرتّب لكم الأمور لزيارة إمامكم، فانتظروا هنا. وفعلاً انتظر هؤلاء المساكين، واثقين بأنهم سوف يتشرفون برؤية إمامهم ثم يرجعون بعد ذلك إلى بلادهم ويخبرون أهليهم بأنهم وفقوا لزيارة الإمام عليه السلام وسألوه المسائل الفلانية وأجابهم بكذا وبكذا، وظلّوا على هذا الحال من الانتظار والتمنيّ. وإذا بأربعة من الحمّالين يمرّون بهم وقد حملوا جنازة على أكتافهم، وعند ذلك قال لهم مأمور السجن: هذا هو إمامكم فدونكم إيّاه!!.

الفصل السادس

ولاية عهد الإمام الرضا (ع)

القسم الأول

بحثنا في هذا الفصل بحث تاريخي يرتبط بمسألة فرعية من مسائل الإمامة والخلافة، وهي ما يدعي اصطلاحاً بـ (ولاية العهد) حيث أحضر المأمون الإمام الرض عليه السلام من المدينة إلى «مرو» (خراسان القديمة) ونصّبه وليّاً لعهده.

ولم يكن للفظة (وليّ العهد) وجود في صدر الإسلام. كما أنه لم يكن لموضوعها أيضاً وجود. ولقد ظهرت هذه المسألة أول ما ظهرت، في زمان معاوية حيث نصّب ابنه يزيد خليفة من بعده، وأخذ له البيعة من الناس في حياته، ولكن لم يطلق على يزيد آنذاك لقب وليّ العهد. إلا أننا نجد أن هذا اللقب قد استخدم بكثرة في العهود التالية وخصوصاً في زمان الإمام الرضا عليه السلام.

وهنا أيضاً تعرض لبعض الناس شبهة نظير ما عرضت لهم في قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام بالرغم من أن صلح الإمام الحسن عليه السلام وولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام يبدوان عملين متضادين... ذلك أن الإمام الحسن عليه السلام (سلّم) الأمر إلى خصمه واعتزل، بينما (استلم) الإمام الرضا عليه السلام أمراً من خصمه. ورأي أصحاب مثل هذه الشبهات أنّ هناك قاسماً مشتركاً بين الحادثتين، وهو المداهنة مع السلطات الحاكمة الظالمة، فالإمام الحسن عليه السلام سلّم الخلافة

لشخص لا يستحقها من الناحية الشرعية. والإمام الرضا عليه السلام استلم ولاية العهد في شخص لا يملك الصلاحية الشرعية لإعطاء مثل هذا المنصب. فكما اعترضوا على الإمام الحسن عليه السلام بأنه كان ينبغي أن يقاتل بدل أن يصالح، ولو أنجرّ الأمر إلى استشهاده. كذلك هنا يستشكلون على الإمام الرضا عليه السلام قبوله لولاية العهد من طرف المأمون وأنه كان أجدر به أن يرضى بالقتل والشهادة ولا يرضخ لتهديد هذا الخليفة الظالم.

ونحن نحاول الآن أن نبحث مسألة ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام ـ هذه ـ التي تعتبر مسألة تأريخية هامّة، لكي تتّضح أبعادها وتزول الشبهات من حولها، بعد أن كنّا قد بحثنا سابقاً مسألة صلح الإمام الحسن عليه السلام وأزلنا ما كان يحيط بها من شبهات واستشكالات.

وفي البداية ينبغي أن ندرس هذه الحادثة من خلال الظروف التأريخية التي أحاطت بها، ثم بعد ذلك نتطرّق إلى بحث الأسباب التي أدّت إلى قبول الإمام الرضا عليه السلام لولاية عهد المأمون وكيفيّة قبوله لهذا الأمر وغير ذلك من المسائل...

سلوك العباسيّين تجاه العلويّين

ورث المأمون الخلافة العباسيّة، وكان على رأس برنامج العباسيّين، ومنذ اليوم الأول لاستلامهم زمام الحكم، محاربة العلويّين، ومطاردتهم أينما كانوا، والإمعان في قتلهم والتنكيل بهم، ولا يقل حجم الجنايات التي ارتكبها بنو العباس في حق العلويّين بسبب النزاع على مسألة الخلافة، عن حجم جنايات الأمويّين، إن لم يزد أضعافاً، غاية الأمر أن الأمويّين قد تلطّخت أيديهم بدماء الإمام الحسين عليه السلام في فاجعة كربلاء، وإلاّ فبغض النظر عن مسألة قتل سيّد الشهداء عليه السلام فإن جرائم العباسيّن أكثر بكثير من جرائم الأمويّين.

وقد كان المنصور، وهو ثاني الخلفاء العباسيّين، شديد الوطأة على آل أبي طالب وخصوصاً مع أولاد الإمام الحسن عليه السلام والذين كان قد أعطاهم البيعة في وقت سابق، وارتكب في حقهم أنواع الفظائع التي تقشعرّ منها الأبدان. وكان يضع العلويّين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله في سجون مظلمة تحت الأرض، ويمنع عنهم الطعام والشراب. ولا يسمح لهم بالخروج حتى للتخلّي، ويظلّون على هذا الحال مدّة طويلة من الزمن، فإمّا أن يموتوا صبراً وإمّا أن يأمر بهدم سقف السجن فوق رؤوسهم ليدفنوا أحياءً.

وسار الخلفاء الذين تلوا المنصور على نفس سياسته.

وفي زمان المأمون قام خمسة أو ستّة من العلويّين بثورات مضادّة، وفي زمان أبيه هارون أيضاً حدثت عدة ثورات علويّة (وذلك كما يذكر المسعودي في «مروج الذهب»، وابن الأثير في «الكامل») وكانت هذه الثورات تقمع بكل قسوة وعنف.

إذن فالعداوة بين العباسيّين والعلويّين ليست مسألة بسيطة، خصوصاً وأن العباسيّين لم يكونوا يرحمون أحداً في سبيل وصولهم إلى كرسيّ الخلافة، حتى لو كان المنافس عباسيّاً مثلهم أو من اتباعهم وأنصارهم، فقد قتلوا أبا مسلم الخراساني مع عظم الخدمات التي أدّاها لهم، وقام هارون بتصفية البرامكة جميعهم، برغم التعاون والمحبّة والعشرة الطويلة التي كانت بينهم وبين الخليفة، وكان ذلك لسبب سياسي تافه. واصطدام المأمون مع أخيه الأمين وجرت بينهما حروب عنيفة وبعد أن انتصر عليه، قتله ومثّل به بشكل فظيع!.

وفي ظلّ مثل تلك الظروف والأحداث الدّامية، حدثت واحدة من عجائب التأريخ، وهي أن يأمر مثل هذا الخليفة ـ القاتل المتعطش للحكم ـ بإحضار الإمام الرضا عليه السلام من المدينة، ثمّ يعرض عليه قبول الخلافة[1] لكي يعتزل هو جانباً، وبعد أن يرفض الإمام هذا العرض، يطلب منه أن يقبل على الأقلّ بولاية العهد، ويصرّ على طلبه هذا حتى يصل إلى درجة التهديد بالقتل. فماذا كان حافزه من وراء هذا العرض، وماذا كانت حقيقة الأمر؟.

إن دراسة وتحليل هذه القضيّة من الناحية التأريخية ليس أمراً سهلاً. ولجرجي زيدان في الجزء الرابع من «تاريخ التمدّن» بحث في هذه القضيّة وله رأي خاصّ فيها سنذكره لاحقاً، ولكنّه يؤكّد على جانب معيّن وهو أن بني العباس اتّبعوا أسلوب الكتمان الشديد في سياستهم، حتى عن أقرب المقرّبين إليهم، ولهذا بقيت أسرار سياستهم مجهولة. مثلاً إلى الآن لم تتّضح الأسباب التي كانت وراء إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا عليه السلام ومن الذي كان وراء هذه القضيّة.

---

(١) طبعاً هذه المسألة ليست قطعيّة، ولكن كثيراً من التواريخ يؤيّد ذلك.

مسألة ولاية عهد الإمام الرضا (ع) والنقل التأريخيّ

ولكن الأسرار لا تبقى مخفيّة تماماً كما يريد لها أصحابها، فقد توضّحت لنا ـ نحن الشيعة ـ الكثير من أسرار وجوانب هذه القضيّة، وذلك من زاوية النقل التأريخيّ الذي وصل إلينا عن طريق علماء الشيعة (وليس من زاوية الحديث المرويّ عن الأئمّة عليهم السلام)، مثل ما هو وارد في كتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد، وكتاب «عيون أخبار الرضا» للشيخ الصدوق الذي يحتوي على معلومات كثيرة فيما يتعلّق بولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام.

وبالإضافة إلى هذه التواريخ الشيعية، فقد استندت أيضاً في بحثي هذا على بعض المراجع التأريخية السنّية، مثل كتاب «مقاتل الطالبيّين» لأبي الفرج الأصفهاني الذي هو من أكابر مؤرخي العهد الإسلامي، وكما ذكرنا سابقاً فهو سنّي من نسل بني أميّة ولقّب بالأصفهاني لأنه كان يقيم في أصفهان. وهذا الرجل ليس شيعياً كي يقال أنه ألّف كتابه على أساس الميول الشيعيّة، وأيضاً فهو ليس إنساناً تقياً إلى الدرجة التي تجعلنا نقول أنه وقع تحت تأثير الحق والحقيقة في كتاباته. فهو صاحب كتاب «الأغاني» الذي هو بالأساس بحث في تأريخ الغناء والموسيقى في العالم الإسلامي. ولكنّه من خلال هذه البحوث البعيدة عن روح الدّين، كان يذكر الكثير من الأحداث والحقائق التأريخية الهامّة في كتابه الذي يبلغ حوالي ثمانية عشر مجلّداً.

ويقال: إن الصّاحب بن عبّاد العالم الشيعيّ المعاصر له، كان من عادته أن يصطحب معه في سفره رزمة أو عدة رزم من الكتب. وعندما وصل كتاب

أبي الفرج هذا بيده قال: لقد استغنيت به بعد الآن عن كل تلك الأحمال من الكتب!.

وهذا الكتاب بالرغم من أن مؤلّفه (أبو الفرج)! وموضوعه تأريخ الموسيقى والموسيقيّين! إلاّ أن كبار محدّثي الشيعة من قبيل المرحوم المجلسي والمرحوم الشيخ عبّاس القمي، طالما نقلوا الأخبار والوقائع التأريخيّة منه.

ولأبي الفرج كتاب آخر هو «مقاتل الطالبيّين» ويعد من الكتب المعتبرة في التأريخ الإسلامي، حيث يجمع فيه المؤلّف أخبار ثورات العلويّين واستشهادهم ومتقل أولاد أبي طالب سواء من العلويّين وهم الأغلبيّة أو من غير العلويّين وفي هذا الكتاب عشر صفحات خصّصت للإمام الرضا عليه السلام وقصة ولاية العهد. والملاحظ أن هذا الكتاب ينطبق كثيراً مع تواريخ الشيعة وعلى الأخص مع ما ورد في إرشاد المفيد وكأنما كانت مصادر نقل الكتابين واحدة.

والآن ندخل في بحث الحوافز التي دفعت المأمون إلى طرح مسألة ولاية العهد بالنسبة للإمام الرضا عليه السلام.. هل فكّر المأمون حقّاً في أن يستلم الإمام الرضا عليه السلام زمام الأمور من بعده إن مات أو قتل، أي أن تنتقل الخلافة من البيت العبّاسي إلى البيت العلويّ؟.

وإذا كانت عنده فكرة كهذه، فهل بقي على فكرته حتى النهاية، حيث لا ينبغي في هذه الحالة أن نقبل مقولة أن المأمون قام بدّس السمّ للإمام الرضا عليه السلام، بل نؤيّد قول الذين يعتقدون أن الإمام الرضا عليه السلام انتقل عن دار الدنيا بالوفاة الطبيعية؟.

من زاوية نظر علماء الشيعة، فإنّ وجود حسن النيّة عند المأمون واستمرارها للنهاية أمر غير مقبول، بينما يعتقد كثير من الغربيّين أن المأمون كان شيعياً في الواقع، وكان يعتقد حقّاً بآل عليّ ويحبّهم بإخلاص.

المأمون والتشيّع

يعتبر المأمون أكثر الخلفاء (الزمنيّين)، وربّما أكثر سلاطين العالم علماً وثقافة، وكان يحب العلم، ويعشق المباحثات العلمية. ولا يوجد تردّد في أنّ المأمون كان لديه ميل روحيّ وفكري باتجاه التشيّع، لأنه لم يكن يتحدّث عن التشيّع في الجلسات التي كان يشترك فيها الإمام الرضا عليه السلام والشخصيات الشيعية فقط، بل كان يفعل ذلك في الجلسات الخاصة مع علماء السنّة.

ينقل ابن عبد البرّ ـ وهو أحد علماء السنّة المشهورين ـ هذه القصة المذكورة في كتب الشيعة، وهي أن المأمون دعا في يوم من الأيام أربعين من أكابر علماء السنّة في بغداد وأمرهم بالحضور إلى مجلسه في الصباح الباكر من اليوم التالي، ولما حضروا أخبرهم بأنّه يريد أن يباحثهم في ما يتعلّق بمسألة الخلافة.

وينقل محمد تقي شريعتي في كتابه «الخلافة والولاية» جانباً ممّا دار في تلك الجلسة.

وكان المأمون في المباحثة والاستدلال من القوة والتسلّط بحيث استطاع أن يحجّهم جميعاً وينتصر عليهم. وقد مضت في فصل سابق قصة المأمون التي يروي فيها بنفسه كيف تعلّم التشيّع من أبيه هارون، لما رأى من تصرفه وكلامه مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام، حيث ينقل هذه القصة المرحوم الشيخ عبّاس القمّي في كتاب «منتهى الآمال» بالإضافة إلى روايات الشيعة في كتبهم الأخرى.

إذن فلا يوجد شك في وجود ميل إلى مذهب التشيّع عند المأمون، غاية

ما في الأمر أنه كان كما يقال عنه «شيعيّ قاتل للأئمّة عليهم السلام». وهذه المسألة ليست غريبة، فأهل الكوفة أيضاً كان عندهم ميل للإمام الحسين عليه السلام وعقيدة في التشيّع لأهل البيت عليهم السلام ومع ذلك قتلوا سيّد الشهداء عليه السلام. كذلك لا يوجد شك في أن المأمون كان رجلاً عالماً ومحبّاً للمسائل العلمية. ولهذا يعتقد كثير من الغربيين أن المأمون سلّم ولاية العهد للإمام الرضا عن عقيدة وحسن نيّة، ولكنّ حوادث الزمان منعت من تحقيق هدف المأمون، لأن الإمام الرضا فارق الدنيا بأجله الطبيعيّ وانتفى بذلك هذا الموضوع.

ولكنّ هذه المسألة لا تبدو صحيحة من وجهة نظر علماء الشيعة، ذلك أن الدّلائل والقرائن قائمة على خلافها. ولو كان هذا الأمر قد تمّ حقّاً في جوّ من الإخلاص والجدّيّة، لما كان موقف الإمام الرضا عليه السلام سلبيّاً تجاه قبول ولاية العهد هذه، فهو عليه السلام لم يتلقّ هذه المسألة بصورة جدّية أبداً.

رأي الشيخ المفيد والشيخ الصدّوق

والفرض الآخر ـ والذي لا يبدو بعيداً جداً، لأن أمثال الشيخ المفيد والشيخ الصدوق قبلوه وتبنّوه ـ هو أنّ المأمون كان مخلصاً في البداية تجاه الإمام الرضا عليه السلام، ولكنّه ندم فيما بعد وغيّر نواياه. فينقل هذان الشيخان (وهو نفس ما ينقله أبو الفرج الأصفهاني) ما مفاده أن المأمون كان يتحدّث مع شخص فقال: عندما كان أخي الأمين خليفة، أمر بإحضاري (كان هارون قد وضع قسماً من المملكة تحت تصرّف المأمون بعنوان ولي العهد لأخيه الأمين) فلم امتثل لأمره. فأرسل جيشاً لمحاربتي والقبض عليّ وإحضاري مقيّداً. ومن ناحية أخرى قامت عدّة ثورات في نواحي خراسان، فأرسلت جيشاً لقمعها ولكن هذا الجيش مُني بالهزيمة، وتتابعت عليّ الهزائم إلى أن رأيت أن الروح المعنويّة لقادة جيشي قد ضعفت كثيراً، فأصبح مصيري واضحاً، لأنّي فقدت قدرة المقاومة أمام أخي، وأوشك جيشه أن يقبض عليَّ ويرسلني إليه مكتوف اليدين حيث يُنكّل بي أخي أشدّ التنكيل. فنويت أن ألجأ إلى الله سبحانه وأن أتوب إليه من ذنوبي.

ثمّ أشار لمحدّثه إلى غرفة وقال: وفي هذا المكان أمرت أن يحضروا لي ماءً، فاغتسلت وتطهّرت، ثمّ لبست ملابساً بيضاء طاهرة، وجلست هناك أقرأ كل ما كنت أحفظه من القرآن، وصلّيت أربع ركعات، ثمّ نذرت لله على نفسي نذراً بأنه إذا حفظني ونصرني على أخي فسوف أقوم بتسليم الخلافة إلى أصحابها الشرعيّين. وبعد ذلك بدأت الأمور تتغيّر لصالحي

فلم أُمْنَ بعدها بأيّة هزيمة. وأرسلت قوّات إلى جبهة سيستان، فكان النصر حليفها، ثمّ أرسلت طاهر بن الحسين لقتال أخي، فانتصر على جيشه، وظلّت الانتصارات تتوالى إلى أن استتبّ الأمر لي بصورة كاملة. والآن بعد أن استجاب الله دعائي وحقّق رجائي، فإنّي أريد أن أفي بنذري وأسلّم الخلافة إلى عليّ بن موسى فهو صاحبها الشرعي.

الاحتمال الآخر

وهناك احتمال آخر لأصل القضيّة، وهو أن المأمون أساساً لم يكن له اختيار في هذه المسألة، بل كانت من ابتكار الفضل بن سهل ذي الرياستين[١] وزير المأمون حيث جاء يوماً وقال للمأمون: إن آباءك قد أساءوا التصرّف مع آل عليّ، وارتكبوا الجرائم الكثيرة ضدّهم، فعليك الآن أن تختار أفضل آل عليّ وهو اليوم علي بن موسى، وتسلّم إليه ولاية العهد. فاضطرّ المأمون مكرهاً إلى النزول عند رغبة وزيره الذي يمتلك السلطات الحقيقية بيده.

وفي هذه الحالة يبرز سؤال وهو: لماذا طرح الفضل هذه المسألة؟ وهل كان شيعيّاً معتقداً بالإمام الرضا عليه السلام؟ أم أنه بقي على عقيدته المجوسية السابقة، وأراد بهذه الطريقة أن يسحب الخلافة مؤقّتاً من

---

(١) كان للمأمون وزير باسم الفضل بن سهل، وكان له أخ أيضاً في جهاز الحكم اسمه الحسن بن سهل. وكان هذان الأخوان مجوسيّين ومن أصل إيرانيّ خالص. وكان الفضل شخصاً ذكيّاً ومثقّفاً وكان له اطّلاع في علم النجوم، فجاء في عهد البرامكة، وكانوا يشكّلون الجهاز الحاكم في عهد هارون ـ وأسلم على يديهم هو وأخوه (البعض قالوا: إن أباهم كان قد أسلم من قبل ولكن البعض الآخر نفوا ذلك). ثمّ أخذ الفضل بن سهل يترقّى شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح وزير المأمون (كان الوزير آنذاك يعادل رئيس الوزراء في هذا الزمان) ثمّ استلم منصباً هامّاً آخر وهو القيادة العامّة للجيش، ولذلك سمّي بذي الرياستين. وكان معظم جيش المأمون من الإيرانيّين. فكانت حرب الأمين والمأمون من ناحية حرباً بين العرب والإيرانيّين، وكان المأمون من طرف الأمّ إيرانيّاً، فيذكر المسعودي في «مروج الذهب» في «التنبيه والإشراف» ـ كما يذكر غيره أيضاً ـ أن أم المأمون كانت امرأة «قيسية». على أيّ حال وصل الأمر بالفضل بن سهل إلى أن يتسلّط على كلّ أمور الدولة ويحوّل المأمون إلى مجرّد آلة بيده.

العباسيّين؟ أو أنه كان يريد في الواقع أن يتلاعب بأساس الخلافة الإسلاميّة؟.

وعلى هذا الفرض لو كان قدّر لخطّة الفضل أن تنجح، لكان خطرها على الإسلام أشدّ من خطر خلافة المأمون، لأن الأخير مهما يكن من أمر فهو خليفة مسلم، ولكنّ الفضل بن سهل وجماعته ربّما كانوا يريدون أن يقتطعوا إيران من دنيا الإسلام ليعيدوها إلى عهد المجوسيّة.

رأي جرجي زيدان

جرجي زيدان من الذين يعتقدون أن هذه المسألة كانت من ابتكار الفضل بن سهل، وأنّه كان شيعيّاً مؤيّداً للإمام الرضا عليه السلام. ولكنّ هذا الرأي لا يتّفق مع التواريخ الموثوقة. ولو كان الفضل مخلصاً حقّاً، وكان يريد للتشيّع أن ينتصر ويحكم، لم يكن ردّ فعل الإمام الرضا عليه السلام بتلك الصورة السلبية، بل إن كثيراً من الروايات والتواريخ الشيعية تؤكّد أن الإمام الرضا كان يخالف الفضل بن سهل بأشدّ مما كان يخالف المأمون نفسه، وكان عليه السلام يعتبره خطراً كبيراً على الإسلام وقد حذّر المأمون منه ومن أخيه، كما تؤكد هذه التواريخ أن الفضل بن سهل كان كثير السعاية ضدّ الإمام الرضا عليه السلام.

الاحتمال الثالث

وهو أن المسألة كانت من ابتكار المأمون، ولكن لا على أساس العقيدة وخلوص النّية، بل لأسباب سياسيّة بحتة نذكرها فيما يلي:

أ ـ لفت نظر الإيرانيّين: وذلك أن الإيرانيّين عموماً، كانت لهم ميول باتّجاه التشيع وموالاة أهل بيت علي ﷺ، وكانت ثوارتهم ضد الأمويّين منذ البداية تحت شعار «الرضا من آل محمّد». ولهذا فإن المأمون هو الذي أعطى لقب «الرضا» لعليّ بن موسى ﷺ بعد أن نصّبه لولاية العهد، وكان يقصد بذلك إحياء ذكرى حبيبة عند الإيرانيين الذين كانوا يقاتلون قبل حوالي تسعين عاماً تحت راية الرضا من آل محمّد، وبذلك يلفت انتباههم ويكسبهم إلى جانبه أولاً، ثمّ بعد ذلك يقوم بإزاحة الإمام الرضا ﷺ من طريقه، أن ينتظر عامل الزمن ليسوّي هذه المسألة، فقد كان الإمام يكبره بحوالي عشرين عاماً، فربّما كان المأمون يقول في نفسه: إنّ ولاية العهد لهذا الرجل لا تشكّل خطراً عليّ، ولا شكّ أنه سوف يموت قبلي.

ب ـ إخماد ثورات العلويّين: يذكر البعض علّة أخرى لهذه السياسة، وهي أن المأمون قد رأى أن العلويّين أصبحوا يشكلّون خطراً جدّياً ضدّ نظام حكمه، لأنّ ثوراتهم كثرت واشتدّ نشاطهم في عهده. ولهذا فإن دافع المأمون في إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ﷺ هو محاولة إرضاء للعلويّين وتهدئتهم، وسحب مبررات الثورة والتمرّد من أيديهم. وتأييداً لهذه النظرية فإنّه قام فعلاً بإصدار العفو العام عن جميع العلويّين ومن جملتهم (زيد النّار) أخو الإمام الرضا ﷺ، رغم أنهم ارتكبوا في نظره جرائم لا تغتفر.

ج ـ تجريد الإمام الرضا عليه السلام من سلاحه: وهذا المعنى وارد في رواياتنا، ذلك أن الإمام الرضا عليه السلام قال يوماً للمأمون ما مضمونه: هذا هو هدفك، فأنت تريد بذلك أن تفسد عليّ أمري. وهذا شيء طبيعي فإن النظام الحاكم عندما يرى معارضاً خطراً له، فإن إحدى الطرق لتجريده من سلاحه هو إعطاؤه منصباً في هذا النظام. وكان المأمون يهدف ـ أيضاً ـ إلى تشويه سمعة الإمام الرضا عليه السلام أمام أولئك الذين يعتقدون أن الخلافة حقّ لآل عليّ عليهم السلام، وأنهم إذا استلموا الخلافة فإن الدّنيا سوف تصبح جنّة وتسود العدالة في العالم. فعندما يقوم بهذه الخطّة (تسليم سلطة صورية تصبح جنّة وتسود العدالة في العالم. فعندما يقوم بهذه الخطّة (تسليم سلطة صورية للإمام) فإن الناس سوف يشعرون بخيبة الأمل عندما يرون أن الأوضاع لم تتغيّر ولم تتحسّن. وأكثر من ذلك يستطيع أن يتّهم آل عليّ بأنهم عندما يكونون خارج السلطة، فإنهم يتكلّمون عن الحق والعدل وما أشبه ذلك، ولكنهم عندما يصلون إلى السلطة فإنهم يرضون بالواقع الفاسد وينسون كلامهم السابق.

والواقع أن الباحث، يصعب عليه من الناحية التأريخية أن يصل إلى نتيجة قاطعة بالنسبة إلى المأمون في هذه المسألة.. هل كانت من ابتكاره؟.

أم من ابتكار الفضل بن سهل؟.

وإذا كانت من ابتكار المأمون، فهل كان عنده حسن نيّة أم لا؟.

وإذا كانت نيّته حسنة فهل استمرّ عليها إلى النهاية أم رجع عنها؟.

وإذا لم يكن عنده إخلاص وحسن نيّة فماذا كانت أهدافه السياسية؟.

كل تلك الأمور تعتريها الشبهات من الوجهة التأريخية. طبعاً معظم الآراء المطروحة لها أدلّة ولكنّها ليست قطعيّة. وربما تكون عقيدة الشيخ الصّدوق وأمثاله صحيحة لأنها تتلاءم مع منطق الطبيعة البشرية. حيث أن كل إنسان عندما يمرّ بكرب عظيم وييأس من كل شيء في الحياة فإنه يلجأ إلى الله سبحانه ويتّخذ قرار التوبة والرجوع عن الغيّ. ولكنّه عندما يجد الخلاص والنّجاة فإنه ينسى قراره وعهده مع الله. والقرآن يقرّر هذا المعنى

فيقول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ... ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾. فالمأمون مرّ بهذه التجربة وصلحت سريرته في بداية الأمر، ولكنّه بعد أن تخلّص من مشاكله نسي ما عاهد الله عليه ورجع إلى طريقته المنحرفة.

وإني أرى من الأفضل أن نبحث هذه المسألة من وجهة الإمام الرضا عليه السلام، ونضع نصب أعيننا المسلّمات التأريخية الثابتة، لأنه بذلك ـ حسب رأيي ـ تنحلّ كثير من المسائل المربوطة بالمأمون أيضاً.

مسلّمات تأريخيّة

١ ـ إحضار الإمام من المدينة إلى مرو: وقد تمّ هذا الأمر بدون التشاور المسبق ولا بأخذ موافقة الإمام عليه السلام على ذلك. فلم يسجل أحد أنه حصلت مفاوضات أو مكاتبات مع الإمام الرضا عليه السلام ـ عندما كان في المدينة ـ حول أسباب دعوة المأمون له. ولم يأمر المأمون بإحضار الإمام وحده، بل ومعه عدد كبير من آل أبي طالب أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك فقد حدّد لرجاله مسيراً خاصّاً بحيث لا يصادف مرور الإمام الرضا عليه السلام على المناطق التي تقطنها أكثريّة شيعيّة، خصوصاً الكوفة، لأنه كان يخاف من ردّة فعل الشيعة تجاه اعتقال الإمام وإحضاره بالإجبار وبهذه الصورة. وأمرهم أن يسلكوا طريق البصرة ـ خوزستان ـ فارس ـ نيشابور. كما أن الأفراد الذين اختارهم لهذه المهمّة كانوا من الذين يحملون الحقد والعداء الشديد للإمام الرضا عليه السلام، وكان رئيسهم يدعى (الجلوديّ)[1] وهو عربيّ بحسب الظاهر وكان وفيّاً للمأمون وعدوّاً لدوداً للإمام الرضا عليه السلام.

---

(١) كان للجلوديّ موقف سيّء جدّاً تجاه الإمام الرضا عليه السلام، وهو أنه بعد فشل ثورة لأحد العلويّين في المدينة، أمر هارون الجلوديّ أن يذهب إلى المدينة وينهب جميع أموال آل أبي طالب، حتى النساء يسلب كل ما عليهنّ من حلّي ويأخذ جميع ثيابهنّ ولا يترك لأيّ امرأة منهنّ إلا ثوباً واحداً فقط يتسر بدنها. ولمّا وصل الدور إلى بيت الإمام الرضا عليه السلام، أراد أن يدخله، فاعترضه الإمام عند الباب، ولم يسمح له بالدخول، فحصلت مشادّة بينهما وقال الجلوديّ: أنا مأمور أن أدخل وأخلع ثياب النساء بنفسي. فقال الإمام: أنا مستعدّ أن أعطيك كل ما تريد ولكن لا يمكن أن أسمح لك بالدخول. وأخيراً وبعد طول جدال قال الإمام لنسائه: أجمعن كل ما عندكن من حليّ وثياب فجمعنها فأعطاها للرجل وصرفه.

وعندما أتّم هو وأفراده هذه المهمّة ووصلوا بالمعتقلين إلى مرو، وبعد أن طرح المأمون مسألة ولاية العهد بالنسبة للإمام الرضا عليه السلام، خالف الجلوديّ واثنان آخران من جماعته وأعلنوا معارضتهم الشديدة لهذا الأمر، لما يحملون في صدورهم من كراهية للإمام الرضا عليه السلام، وأخيراً اضطرّ المأمون إلى حبسهم نتيجة إصرارهم على مخالفة أمره.

وفي يوم، أمر المأمون بإحضار هؤلاء الثلاثة إلى مجلسه وكان الإمام الرضا عليه السلام وعدد آخر من جملتهم الفضل بن سهل ذو الرياستين حاضرين فطلب المأمون رأيهم مجدّداً فأعلنوا ولاءهم الكامل له ومخالفتهم الشديدة للإمام الرضا عليه السلام مهما تكن النتائج وتكلّموا بكلمات حادّة، فأمر بضرب أعناقهم، ولمّا وصل دور (الجلوديّ) كان الإمام جالساً بجانب المأمون فهمس في أذنه قائلاً: اصرف النظر عن هذا الرجل. فقال الجلوديّ مبادراً: استحلفك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تسمع كلامه فيّ. فقال المأمون: قسمك محفوظ، فلن أسمع كلامه فيك أبداً، وأمر بضرب عنقه.

على أيّ حال فقد أحضروا الإمام عليه السلام إلى مرو بهذه الكيفية، ووضعوه في مكان منفرد، بينما وضعوا جميع مرافقيه من آل أبي طالب في مكان آخر، وكان الجميع تحت التحفّظ والحراسة، وهناك فقط طرح المأمون فكرته على الإمام الرضا عليه السلام.

٢ ـ امتناع الإمام الرضا عليه السلام: يذكر أبو الفرج في «مقاتل الطالبيّين» أن المأمون أرسل في البداية الفضل بن سهل وأخاه الحسن بن سهل، إلى الإمام الرضا عليه السلام وطرحا عليه هذان الاثنان موضوع ولاية العهد، فامتنع الإمام عن قبول هذا العرض، فقالا بلهجة تهديديّة: إن هذه القضيّة ليست اختياريّة، فنحن مأموران من قبل الخليفة أن نضرب عنقك في حال امتناعك. فأصرّ الإمام على رفضه، فرجعا إلى المأمون وأخبراه الخبر، فأمر بإحضار الإمام إلى مجلسه، وأعاد عليه العرض والتهديد، وكان ممّا استدلّ به في كلامه أن قال: ولماذا لا تقبل هذا الأمر؟ ألم يشترك جدّك علي بن أبي طالب عليه السلام في شورى الخلافة؟ يريد بذلك أن يقول: بأنّ هذا الأمر لا يتنافى مع سنّة أهل بيتك، لأن عليّاً عليه السلام عندما قبل الاشتراك في مجلس شورى انتخاب الخليفة، فقد كان هذا يعني أنه

صرف النّظر مؤقّتاً عن حقّه الشرعي من قبل الله سبحانه، وسلّم أمام الأوضاع ليرى ماذا يكون موقف الآخرين.. هل يسلّمون أمر الخلافة إليه أم لا؟ فإذن، لو أن مجلس الشورى سلّم الخلافة إلى جدّك عليّ لكان قبل بذلك حتماً، وعلى هذا يتحتّم عليك الآن بالمثل أن تقبل ما نعرضه عليك. وأخيراً وبعد التهديد بالقتل من جانب المأمون وافق الإمام الرضا عليه السلام، ولكن بشرط..

٣ ـ شرط الإمام الرضا عليه السلام: اشترط الإمام الرضا عليه السلام في مقابل موافقته على قبول منصب ولاية العهد، أن لا يُطلب منه التدخّل في أي شأن من شؤون الحكم والإدارة، وأن لا تناط به أيّة مسؤولية في الدّولة. وكان هدف الإمام من وراء هذا الشرط أن يحتفظ بصبغة المعارضة تجاه النظام الحاكم، وأن يُفهم الناس وخصوصاً شيعته أنّه لا يمكن أن يتعاون عمليّاً مع هؤلاء الظلمة. ولهذا لم يشارك الإمام الرضا عليه السلام حتى في صلاته العيد، إلى أن حدثت القصة المعروفة، وهي أن المأمون طلب في أحد الأعياد من الإمام أن يصلّي بالناس لأن هؤلاء قد كثر كلامهم وكثرت اتهاماتهم للخليفة ونظام حكمه. فقال الإمام: حسناً أقبل، ولكن على شرط أن أؤدّي مراسم هذه الصلاة كما كان يفعل جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله لا كما هو المرسوم عندكم، فوافق المأمون على ذلك.

وبدأ الإمام مسيرته من بيته إلى مكان الصلاة، ولكن ما إن وصل إلى منتصف الطريق، حتى شعر المأمون ووزيره الفضل بن سهل بالخطر، وأصدر الأوامر بإرجاع الإمام لأنه كان أن يُحدث بسلوكه وتصرّفه ثورة بين جماهير المسلمين ضدّ المأمون ونظامه المنحرف عن الإسلام.

٤ ـ طريقة تصرف الإمام عليه السلام بعد قبول ولاية العهد: يروي علماء الشيعة في كتبهم، وحتى علماء السنّة ومنهم أبو الفرج، جانباً من أقوال الإمام وتصرفاته بعد تنصيبه وليّاً لعهد المأمون. يقول أبو الفرج: عيّن المأمون يوماً، وأمر الناس أن يحضروا لمبايعة الإمام الرضا عليه السلام وتهنئته على منصبه الجديد. وأجلس الإمام الرضا إلى جانبه وكان أوّل من أمره أن يبايع هو ولده العبّاس، وكان الشخص الثاني واحداً من السادة العلويّين، وهكذا وبأمر الخليفة كان يأتي عباسيّ فيبايع ثم يتبعه علويّ وهكذا، وكان كل من يبايع يأخذ جائزته ويرجع إلى مكانه. وكان الإمام الرضا عليه السلام يمدّ يده للبيعة وهي مقبوضة. وكان

الطرف المقابل يضع يده فوقها. فقال له المأمون: أبسط يدك حتى يبايعك الناس. فقال الإمام الرضا ﵇: كلاّ، فقد كان جدّي رسول الله ﷺ يفعل هكذا (ربّما كانت هذه الطريقة التي اتّبعها الإمام تعني أن هذه البيعة باطلة من الناحية الشرعيّة ولا يترتّب عليها أي أثر).

وبعد ذلك قام الشعراء والخطباء الموالون للنّظام وبدأوا بإلقاء خطب الثناء وقصائد المدح في حق المأمون وفي حق الإمام الرضا ﵇. ثمّ التفت المأمون إلى الإمام الرضا ﵇ وقال له: قم فاخطب الناس وتكلّم فيهم. وكان المأمون يتوقع من الإمام أن يقدّم إليه آيات الشكر والتقدير وأن يمدحه ويمدح نظامه، ولكن الإمام الرضا ﵇ قام فألقى خطبة موجزة لم تتجاوز السطر ونصف السطر ثم جلس. ولم يكن في كلامه أي إشارة إلى ما كان يريده المأمون، فكان في ذلك خيبة أمل له وفضح مبطّن لخطته وتدبيره من بداية هذا الأمر.

القسم الثاني

كان موضوع بحثنا يدور حول مسألة ولاية عهد الإمام الرضا ﵇ بالنسبة للمأمون. وقلنا: إن في هذه القصة سلسلة من المسائل القطعيّة والمسلّم بها من الناحية التأريخيّة، وسلسلة أخرى من المسائل المشتبهة والغامضة والتي دفعت بعض المؤرّخين مثل (جرجي زيدان) إلى الاعتراف بأن سياسة بني العبّاس كانت تقوم على الكتمان الشديد، وكانوا نادراً ما يسمحون بتسرب الأسرار السياسية ومنها الأسرار المحيطة بمسألة ولاية عهد الإمام الرضا ﵇.

والشيء الذي يمكن القطع به هو أن مسألة ولاية العهد لم تكن مبادرة من الإمام الرضا ﵇، كما أنها لم تتمّ بالمشاورة والاتفاق معه ﵇ وهو في المدينة. بل إن المأمون ـ الخليفة العبّاسيّ ـ أرسل بصورة سرّية عدداً من رجاله من مقرّ حكمه في خراسان القديمة ـ مرو، وبلاد ما وراء النهر، وغيرها ممّا يعتبر اليوم جزءاً من الأراضي الرّوسيّة ـ إلى المدينة ليعتقلوا عدداً من بني هاشم، وعلى رأسهم الإمام الرضا ﵇، ويحضروهم بالإجبار إلى (مرو). وحدّد خطّ سيرهم بحيث لا يتّفق مرور الإمام الرضا ﵇ على المدن والمناطق الشيعية وعندما وصلوا إلى «مرو» أنزلوا الإمام في مكانٍ وأنزلوا أصحابه في

مكان آخر. وهناك عرض المأمون على الإمام الرضا عليه السلام قبول ولاية العهد. وربّما يكون قد عرض الخلافة على الإمام أولاً (على حسب بعض الآراء).

وسواء كان هذا أو ذاك، فإن الإمام الرضا عليه السلام واجه عرض المأمون وطلبه بالرفض الشديد. فماذا كان منطق الإمام في رفضه، ولماذا امتنع عن الموافقة؟.

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بصورة قاطعة طبعاً، ولكنّ الروايات التي ينقلها علماء الشيعة (كما هو وارد في «عيون أخبار الرضا»)، تفيد بأن الإمام الرضا عليه السلام قال في معرض الجواب على كلام المأمون (لقد رأيت أن اعتزل الخلافة على أن أنصّبك في مكاني وأبايعك): «إمّا أن تكون صاحب حق في هذه الخلافة، وإمّا أن لا تكون.. فإذا كانت هذه الخلافة التي أنت متلبّس بها شرعيّة، فليس من حقك أن تخلع رداءً ألبسك الله أياه. وإذا لم تكن صاحب حقّ فيها، فكيف تمنح لغيرك شيئاً لا تملكه؟» وكأنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يريد أن يقول للمأمون: إذا كنت تعترف بأنك لست أهلاً للخلافة. فينبغي عليك أن تفعل مثل ما فعل معاوية بن يزيد بن معاوية (الذي أعلن عدم أهليّته للخلافة، واعترف بخطأه وخطأ آبائه، ثمّ اعتزل الأمر ومضى لشأنه)، لا أن تقوم بتفويض الأمر وتسليم الخلافة إلى شخص تعّينه أنت.

وعند ذلك اضطّر المأمون إلى استخدام لغة التهديد، ومزج تهديده بالاستدلال التأريخيّ فقال: لقد شارك جدّك علي بن أبي طالب عليه السلام في شورى الخلافة، وقد هدّد خليفة الوقت ـ عمر بن الخطاب ـ بأنه إن لم يتوصّل أهل الشورى في خلال ثلاثة أيام إلى قرار، أو تمرّد بعضهم على قرار الأكثريّة، فإن (أبا طلحة الأنصاري) يكون مأموراً بضرب أعناقهم. فأنت الآن في موقف علي بن أبي طالب عليه السلام، وعليك أن تتّبع جدّك وتشارك في هذا الأمر، وأنا اليوم خليفة المسلمين وفي موقف عمر، فإن اتّخذت قراراً صارماً بحقك ـ في حال رفضك ـ فإني لن أكون ملاماً أمام المسلمين، لأن عمر رأى المصلحة في تعيين مجلس لشورى الخلافة، وأنا أرى اليوم أن مصلحة المسلمين هي في إسناد ولاية العهد إليك، فإمّا أن توافق وإمّا أن آمر بضرب عنقك.

إذن فواحدة من مسلّمات التأريخ هي أن الإمام الرضا عليه السلام امتنع عن قبول ولاية العهد ولكنّه اضطر في النهاية إلى القبول بعد تهديد المأمون له بالقتل.

والمسألة الأخرى التي يمكن القطع بها هي أن الإمام الرضا عليه السلام اشترط على المأمون منذ البداية أن لا يُطلب منه التدخّل في شؤون الحكم، ولا في القضاء، ولا في العزل والنّصب، أو أيّ أمر آخر من أمور الدولة. وكأنّما أراد الإمام عليه السلام أن يُفهم الناس بذلك أن هذا المنصب الذي أُسند إليه إنما هو منصب صوريّ لا أكثر، وأنه لم ولن يضع يده في يد المأمون ونظامه. وأكّد عليه السلام هذا المعنى في قوله وسلوكه وذلك في المهرجان العظيم الذي أقامه المأمون لأخذ البيعة من الناس للإمام الرضا عليه السلام، والذي دعا فيه جميع الشخصيّات البارزة في الدولة من الوزراء وقادة الجيش والقضاة والعلماء وغيرهم، وحضر الجميع وكانوا يرتدون الثياب الخضراء[1] التي كانت شعاراً رسميّاً مقرراً آنذاك. وكان أول من أمره المأمون بإعطاء البيعة هو ولده العبّاس الذي كان في السابق مرشحاً لولاية العهد. وجاء الآخرون واحداً بعد الآخر وبايعوا.

ثمّ قاموا الإمام عليه السلام وألقى خطبة موجزة جدّاً، تحمل كلماتها معنى الاعتراض على عمل المأمون والإعراض عنه وعن نظامه، فقال عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه: «لنا عليكم حقّ برسول الله صلى الله عليه وآله، ولكم علينا حقّ به، فإذا أنتم أدّيتم إلينا ذلك، وجب علينا الحقّ لكم». لقد كان المأمون يريد من الإمام أن يتكلّم في اتجاه معيّن كأن يشكره ويؤيد أعماله، ولكن كلام الإمام كان في اتّجاه آخر تماماً.

واستمر موقف الإمام الرضا عليه السلام هكذا سلبياً تجاه النظام الحاكم. وبعد فترة من الزمن، لاحظ المأمون أثر موقف الإمام هذا على الناس الذين بدأوا يتكلمون ضد الخليفة ونظامه، فطلب من الإمام أن يشارك على الأقل في صلاة العيد من أجل تهدئة الأوضاع، فامتنع عليه السلام وذكّر المأمون بالاتفّاق والشرط، ولكن بعد الإصرار الشديد من المأمون قال الإمام: إذا كان لا بدّ من ذلك فعلى شرط أن أعمل كما عمل جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله لا كما هو المعمول به عندكم، فوافق المأمون. وما إن خرج الإمام من بيته لأداء مراسم صلاة العيد،

---

(١) يقول البعض: إن فرض اللّباس الأخضر كشعار كان من تدبير الفضل بن سهل، لأن شعار العباسيّين كان اللّباس الأسود بينما اللّباس الأخضر كان شعار المجوس. ولهذا فإن هذا التدبير يعطي إيحاءً بمحاولة إحياء الروح الزرادشتيّة. ولكني لا أدري كم لهذا القول نصيب من الصحّة (المؤلف).

حتى قامت ضجّة بين الناس، وأخذ الهياج بين جماهير المسلمين يتصاعد بينما كان الإمام يمشي إلى مكان الصلاة بهيئة تنمّ عن الاحتجاج الصارخ على الأوضاع، ممّا اضطر السلطة إلى إرجاع الإمام بعد أن وصل إلى منتصف الطريق تخوّفاً من أن يؤدي الأمر إلى حدوث ثورة جماهيرية عارمة ضد المأمون ونظامه.

وعلى هذا فالمقدار الواضح والمسلّم به من هذه القضية هو أنهم أحضروا الإمام الرضا عليه السلام إلى (مرو) بالإجبار، وفرضوا عليه قبول ولاية عهد المأمون وهدّدوه بالقتل في حالة الرفض. وبعد التهديد قبل الإمام بهذا المنصب ولكن بشرط أن لا يتدخّل عمليّاً في أمور الدولة. ونفّذ الإمام شرطه هذا وأثبت للنّاس ولشيعته وللتأريخ بأنه لا يمكن لحجّة الله، ووصيّ رسول الله الشرعيّ أن يتعاون مع غاصبي الخلافة والمتسلّطين على رقاب المسلمين بلا حقّ.

المسائل الغامضة

ولكنّ هناك مسائل كثيرة فيما يتعلّق بهذه القضيّة ما زالت غامضة ومجهولة، حيث يختلف اجتهاد علماء التأريخ بشأنها:

فماذا كان أصل هذه القضية:

وكيف خطر للمأمون أن يُحضر الإمام الرضا عليه السلام من المدينة إلى عاصمة حكمه ليسلّم إليه ولاية العهد، فتخرج الخلافة بذلك من البيت العباسيّ إلى البيت العلويّ؟ وهل كان هذا الأمر من ابتكار المأمون أم الفضل بن سهل السرخسيّ الذي كان وزيراً متنفّذاً، وكانت عساكر المأمون التي يتألف أغلبيتها الساحقة من الإيرانيّين تحت إمرته، وكان يتمكّن بذلك أن يفرض على الخليفة رأيه ورغبته، وإذا كان صحيحاً أن الفضل بن سهل هو الذي كان وراء طرح مسألة ولاية العهد على الإمام الرضا عليه السلام. فماذا كانت دوافعه ونواياه؟.

يقول البعض (من أمثال «جرجي زيدان» و«إدوارد براون»): إن الفضل بن سهل كان شيعياً مخلصاً، وكانت عنده رغبة جادّة في أن ينقل الخلافة إلى البيت العلوي. فلو كان هذا الكلام صحيحاً، إذن لكان على الإمام الرضا عليه السلام أن يتعاون معه من أجل خلع المأمون، لأن الوسيلة ـ بناء على هذا الافتراض ـ كانت مهيّأة لانتقال الخلافة إلى العلويّين أصحابها الشرعيّين، ولم يكن له عليه السلام أن لا يقبل بولاية العهد إلا بعد أن يُهدّد بالقتل، أضف إلى ذلك أنه اشترط أن يكون هذا المنصب صوريّاً، وأن لا يطلب منه التدخّل في أيّ أمر من أمور الدولة.

ولكن هذا الافتراض غير صحيح، أي أنه لا يمكن القبول بأن الفضل بن سهل ذا الرياستين كان شيعيّاً حقّاً، وأنه تصرّف مع الإمام الرضا عليه السلام بروح من الإخلاص والمحبّة. وإذا سلّمنا جدلاً بصحة هذا الافتراض، وأنه كان يمكن خلع المأمون بالتعاون بين الإمام الرضا عليه السلام والفضل بن سهل، فإن أوضاع الدولة الإسلامية بشكل عام لم تكن لتساعد على استتباب أمر الخلافة للإمام الرضا عليه السلام بعد ذلك، لأن خراسان آنذاك، لم تكن تهوى جزء من الدولة الإسلامية، تنتهي حدودها من جانب عند منطقة الريّ، حيث تقابلها من الجانب الآخر ـ العراق التي كانت دار الخلافة سابقاً ـ، وتأتي بعدها الحجاز واليمن ومصر وسوريا، وهي مناطق لم تكن تابعه لميول الإيرانيّين وأهل خراسان، بل كانت لها ميول وتوجّهات أخرى.

فإذا افترضنا أن الإمام الرضا عليه السلام أصبح بالتعاون مع ذي الرياستين خليفة في خراسان، فإن بغداد كانت ستقف في وجهه بصلابة، كما حدثت بوادر ذلك بالفعل فما إن وصل خبر ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام إلى بغداد، وعلم العباسيّون بذلك، حتى قاموا على الفور بعزل والي المأمون، وبايعوا رجلاً من بني العباس يدعى (إبراهيم بن شكلة) الذي لم يكن يمتلك أيّ كفاءة تذكر، وأعلنوا التمرّد والعصيان، وقالوا: هيهات أن نخضع لسلطة العلويّين.. فلقد جاهد أجدادنا سنين طويلة وضحّوا بأرواحهم، فكيف نسلّم اليوم الخلافة إلى هؤلاء؟.

إذن كانت بغداد ستثور في وجه الإمام الرضا عليه السلام وتتبعها في ذلك مناطق أخرى.

ومن خلال هذا التحليل يتبيّن أحد أسباب رفض الإمام الرضا عليه السلام لمسألة ولاية العهد هذه.

ثمّ إن كون هذه المسألة من ابتكار الفضل بن سهل محل تشكيك وتردّد، وبفرض أنه صاحب هذا الابتكار، فمن المشكوك فيه ـ جداً ـ أنه كان يمتلك عواطف وميولاً تشيّعيّة. والاحتمال الأكبر بالنسبة للفضل بن سهل أنه ـ أساساً ـ لم يكن صادقاً في إسلامه، وكان يريد بهذه الخطّة أن يُرجع إيران إلى عهد ما

قبل الإسلام[١]، فقد كان يعلم جيّداً أن الإيرانيّين يعتقدون بالإسلام، ويعارضون أيّة محاولة مكشوفة تستهدف خليفتهم الذي هو كما يفترض رمز دينهم، ففكّر في أن ينفّذ خطّته على مرحلتين:

المرحلة الأولى: أن يأتي برجل محبوب ومقدّر عند الإيرانيّين كالإمام الرضا عليه السلام، فينصّبه وليّاً للعهد، وبذلك يزيح المأمون تدريجيّاً عن السلطة.

ثمّ بعد ذلك يتفرّغ للحاكم الجديد، فيسلّط عليه الصعوبات من الخارج عن طريق معارضة بني العبّاس في بغداد، ومن الداخل عن طريق إثارة الاضطرابات والقلاقل، فتتهيّأ بذلك الأرضيّة من أجل إخراج إيران من دائرة الخلافة الإسلاميّة وإرجاعها إلى عهد الزرادشتيّة.

وإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً، إذن كان على الإمام الرضا عليه السلام أن يتعاون مع المأمون من أجل مواجهة خطر أعظم، وهو خطر الفضل بن سهل الذي يعتبر أدهى على الإسلام من خطر المأمون، ذلك أنَّ الأخير مهما يكن من أمر فهو خليفة مسلم وليست عنده نيّة لمحو الإسلام والقضاء عليه.

وهناك نقطة أخرى يجب أن أُلفت النظر إليها، وهي أننا لا ينبغي أن نتصوّر أن جميع الخلفاء الذين ناهضوا الأئمة عليهم السلام وقتلوهم، كانوا على السواء، وعلى هذا فلا وجه للقول: ما هو الفرق بين المأمون وبين يزيد بن معاوية؟ كلا. فالفرق كبير جدّاً. إذ أن المأمون في طبقته كان من أفضل الخلفاء والسلاطين، سواءً من الناحية العلمية، أو من ناحية الكفاءة الإدارية والسياسية، وكان على أيّ حال رجلاً ذا سعة نظر وذكاء خارق ومفيداً بالنسبة لرعيته، فهذا التمدن الحضاري العظيم ـ الذي نفتخر به اليوم ـ في تأريخنا الإسلامي، حدث على يد خلفاء من أمثال المأمون وأبيه هارون.

ومسألة (الملك العقيم) التي طغت على المأمون ودفعته إلى دس السم للإمام الذي يحبه ويعتقد به شيء، وسائر المسائل شيء آخر، والأنصاف

---

(١) ذكرنا بأن أيّاً من هذه المسائل لا يتمتّع بصفة القطيعة، بل أنها كلّها من قبيل الشبهات التأريخية ولكن بعض الروايات تفيد هذا المعنى.

يقتضي عدم الخلط بين الأشياء، ولا يجيز لنا أن نضع يزيد الخليفة الجاهل الأخرق - مثلاً - في منزلة واحدة مع خليفة عالم ذكي كالمأمون، وإن كان للأخير أخطاؤه الجسيمة بحق أئمة الدين عليهم السلام.

والروايات الشيعية تؤكد بأن الإمام الرضا عليه السلام كان يكره الفضل بن سهل أكثر ممّا كان يكره المأمون، وكان عليه السلام يأخذ جانب المأمون في الموارد التي يحصل فيها خلاف بينه وبين الفضل بن سهل. ففي رواية أن الفضل بن سهل ورجلاً آخر يدعى (هشام بن إبراهيم) جاءا إلى الإمام الرضا عليه السلام يوماً وقالا له: إن الخلافة هي حقّك الشرعي، والمأمون خليفة غاصب، فإذا كنت توافقنا، فإننا سوف نقتل المأمون، ونبايعك بالخلافة من بعده. ولكنّ الإمام عليه السلام لم يسمع لكلامهما وطردهما من حضرته شرّ طردة. فعلما أنهما ارتكبا خطأً عاقبته سيئة جداً، فذهبا من فورهما إلى المأمون وقالا: كنّا الساعة عند عليّ بن موسى، وأردنا أن نمتحنه، فعرضنا عليه أن يتعاون معنا لقتلك وليكون هو الخليفة من بعدك، لكي نرى ماذا يكون منه. فرأينا أن نيّته تجاهك حسنة لأنّه طردنا ولم يتجاوب معنا. ولكن الإمام الرضا عليه السلام قام بإطلاع المأمون على حقيقة الأمر بعد ذلك في جلسة خاصة بينهما (وكان المأمون يفكّر نفس التفكير) وقال له: إن هذين الرجلين يكذبان عليك، فلم يكن قصدهما امتحاني، وإنّما كانا جادّين تماماً في عرضهما، فكن على حذر منهما.

وهناك افتراض آخر، وهو أن هذه المسألة كانت من ابتكار المأمون نفسه، والسؤال هنا: لماذا فعل المأمون ذلك؟ وهل كانت نيّته حسنة أم سيئة؟ وإذا كانت نيّته حسنة فهل بقي على نيّته تلك إلى النهاية، أم أنه غيّر موقفه بعد ذلك؟.

بالطبع، إن مقولة أن المأمون بقي على حسن نيّته إلى النهاية غير مقبولة أبداً، وأقصى ما يمكن قبوله هو أن نيّته كانت حسنة في البداية فقط، وعلى هذا المعنى تقوم عقيدة الشيخ الصدوق حيث يذكر في كتاب «عيون أخبار الرضا» (ويؤيّده في ذلك الشيخ المفيد): أن المأمون عندما وقع في شدّة بسبب إطباق جيش أخيه الأمين عليه، نذر نذراً بأنه إن نصره الله على أخيه فإنه سوف

يقوم بإرجاع الخلافة إلى أهلها الشرعيين. ويكون سبب امتناع الإمام الرضا عليه السلام عن قبول ولاية العهد في هذه الحالة، هو علمه عليه السلام بأن المأمون كان واقعاً تحت تأثير عواطف آنيّة ومؤقتة، وأنه ـ حتما ـ سوف يغيّر موقفه بعد ذلك بسبب طبيعة حب السلطة المتأصل فيه.

ولا يوافق كثير من العلماء على رأي الشيخ الصدوق هذا، بل يعتقدون أن المأمون لم يكن عنده حسن نيّة منذ البداية، وإنّما كان وراء عمله أهداف سياسية ونوايا مغرضة. فماذا كانت هذه الأهداف والنوايا؟ وهل كان يريد بهذه الوسيلة أن يخمد ثورات العلويّين؟ أم كان يريد أن يشوه سمعة الإمام الرضا عليه السلام كما يفعل أهل السياسة غالباً، حيث أنهم عندما يريدون أن يهدموا شخصية معارض قوي له مكانة في الأمة، فإنّهم يسندون إليه منصباً في نظام الحكم، ثمّ يقومون بعد ذلك بالتشويش على أعماله، بحيث يضطر من كان يعتقد به ويؤيّده، إلى أن يسيء الظن به ويسحب تأييده عنه.

ونجد هذا المعنى في رواياتنا حيث قال الإمام الرضا عليه السلام مرة في حديث له مع المأمون: أنا أعلم أنك تريد بهذه الوسيلة أن تفسد عليّ أمري. فاهتاج المأمون لسماع ذلك وقال غاضباً: ما هذا الكلام، لماذا تنسب هذه الأشياء إليّ؟.

دراسة للافتراضات المختلفة

في أحد هذه الافتراضات، وهو أن الفضل بن سهل كان شيعياً مخلصاً، كانت وظيفة الإمام الرضا عليه السلام هي التعاون الإيجابي وعلى هذا فليس هناك اعتراض على قبوله لولاية العهد، وإذا كان هناك ثمّة اعتراض فهو: لماذا لم يقبل ذلك بصورة جدّيّة؟.

ويمكننا هنا أن نقول (من زاوية محايدة لا من زاوية مذهبية): إما أن يكون الإمام الرضا عليه السلام رجل دين أو أن يكون رجل دنيا.. فإن كان رجل دين فإنه كان ينبغي عليه أن يتعاون مع الفضل بن سهل، لأن الأرضية كانت مهيّأة لرجوع الخلافة الإسلامية إلى أصحابها الشرعيّين. وإن كان رجل دنيا، فإنه ـ أيضاً ـ كان ينبغي أن يتعاون مع هذا الرجل لأنها كانت فرصة للقفز فوق كرسي الحكم والسلطة. إذن، فطرد الإمام للفضل بن سهل، وعدم قبوله واستعداده للتعاون معه يدلّ على أن هذا الافتراض كان خطأ من الأساس.

ولكن إذا كان الافتراض بأن المسألة كانت من ابتكار ذي الرياستين، وكان هذا يقصد بذلك التآمر ضدّ الإسلام، فإن عمل الإمام الرضا عليه السلام كان صحيحاً مائة بالمائة، حيث قارن عليه السلام بين هذين الشرين (شر الفضل وشر المأمون) فاختار أهونهما وهو التعاون مع المأمون مع ملاحظة أنه اكتفى بالحد الأدنى من هذا التعاون.

والإشكال الأكبر الذي يواجهنا في هذه القضية، هو افتراض أن هذا الابتكار كان من قبل المأمون نفسه. فهنا ربّما يعترض البعض ويقولون: إن المأمون عندما دعا الإمام الرضا عليه السلام للتعاون معه وكان يبيّت سوء النيّة، فقد

كان على الإمام الرضا عليه السلام أن يقاوم أمام التهديد، وأن يفضّل القتل على القبول حتى بالولاية الصوريّة لعهد المأمون.

وهنا ينبغي علينا أن نسأل عن الحكم الشرعي في مثل هذه المسألة؟.

إن الشرع يجيز للإنسان في بعض الأحيان أن يعمل عملاً يؤدي إلى قتله، ولكن بشرط أن يكون التأثير المترتب على قتله أعظم نفعاً مما هو مترتّب على بقائه حياً. وذلك مثل ما فعل سيّد الشهداء عليه السلام، حيث فضّل أن يُقتل على أن يعطي البيعة ليزيد، لأنه كان يعلم أن في قتله فائدتين عظيمتين لم تكونا لتتحقّقان لو أنه فضّل البقاء حيّاً.

الفائدة الأولى: هي عدم إعطاء الشرعية لحكومة يزيد الذي كان ينوي محو الإسلام من الأساس.

والفائدة الثانية: هي إحداث هزّة عنيفة في عقول وضمائر المسلمين الذين كانوا يعيشون حالة من سبات العقل وتخدير الشعور وسلب الإرادة. وقد حدثت بالفعل صحوة كبيرة بين المسلمين بعد أن رأوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يريق دماءه الزكية تطبيقاً لمسألة هامّة في الدّين الإسلامي، وهي وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أمام الحاكم الظالم، وعدم الخنوع له والسكوت على ظلمه.

ولكن هل كانت ظروف الإمام الرضا عليه السلام مشابهة لظروف الإمام الحسين عليه السلام؟ أي هل كان الإمام الرضا عليه السلام يقف على مفترق طريقين كما وقف جدّه الإمام الحسين عليه السلام، بحيث كان يتوجّب عليه أن يسلم نفسه إلى القتل باختياره وبإرادته؟.

طبعاً، لا وجه للقول هنا بأنه ماذا كانت الفائدة من مهادنة الإمام الرضا عليه السلام للمأمون؟ ألم يقم المأمون بعد فترة من الزمن بدسّ السمّ[1] له وإزهاق روحه؟ فلماذا لم يفضّل الإمام منذ البداية أن يُقتل بالسيف؟.

---

(١) مسألة دسّ للإمام الرضا عليه السلام بأمر المأمون، أمر ثابت وقطعيّ من ناحية الروايات الشيعيّة، ولكنها ليست كذلك في اعتقاد الجميع، فكثير من المؤرخين ومنهم المسعوديّ الذي يعتبره البعض شيعياً يرون أن الإمام الرضا عليه السلام فارق الدنيا بأجله الطبيعي ولم يقتل.

ولردّ مثل هذه التساؤلات أضرب المثل التالي: إذا كنت على يقين بأنني سوف أموت اليوم عند الغروب. ولكنني مخيّر الآن بين أمرين.. إمّا أن أُقتل وإمّا أن أعمل العمل الفلاني. هنا لا يجوز لي أن أقول بأنه لا قيمة لبضع ساعات بقيت من عمري. كلاّ، بل يجب أن أفكر بأنه في هذا المقدار المتبقّي من عمري، هل يتطلّب الأمر أن أُضحّي بحياتي وبكامل إرادتي أم لا؟ إنّ الإمام الرضا عليه السلام كان مخيّراً بين أمرين: إما أن يقبل ولاية عهد المأمون الصوريّة، وإمّا أن يقتل بالسيف. ولما رأى عليه السلام أن قتله لن يعود بفائدة هامّة على الإسلام، فضّل الخيار الآخر والذي كان له بالفعل آثار أكثر أهميّة ونفعاً. والدّين الإسلامي لا يعتبر التعاون مع الظالم ذنباً في كل الاحالات، بل إن هناك بعض الاستثناءات التي تلاحظ الظروف المختلفة وتلاحظ ـ أيضاً ـ نوع التعاون وأهدافه.

التعاون مع خلفاء الجور في رأي الأئمة (ع)

مع كل تلك المخالفة الشديدة التي كان يتمتع بها أئمتنا الأطهار عليهم السلام تجاه الخلفاء الزمنيّين، وكانوا يمنعون شيعتهم من التعاون معهم، وقصة صفوان الجمّال التي مرّ ذكرها في فصل سابق، مثال واحد على ذلك، فقد كانوا في موارد خاصة يشجعون بعض الأفراد على التعاون مع الحكام الظالمين من أجل الوصول إلى بعض الأهداف المشروعة. وهكذا فإن فقهنا بالإستناد إلى سيرة الأئمة عليهم السلام ـ وإلى القرآن أيضاً ـ يجيز للإنسان المؤمن بل يوجب عليه أحياناً، إذا اجتمعت فيه شرائط معيّنة، أن يشغل منصباً في الجهاز الحاكم الظالم، وذلك بهدف التقليل من المظالم والمفاسد، أو تقديم خدمات للمؤمنين.

استدلال الإمام الرضا (ع)

احتجّ البعض على الإمام الرضا عليه السلام في زمانه وقالوا له (بعد أن أصبح وليّاً لعهد المأمون): لماذا يرد اسمك مع اسماء هؤلاء؟ فقال عليه السلام: أيّهما أعلى.. مقام الأنبياء، أم مقام الأوصياء؟ قالوا: مقام الأنبياء، فقال: أيهما أسوأ الملك المشرك الكافر، أم الملك المسلم الفاسق؟ قالوا: الملك المشرك الكافر. فقال: أيّهما أشدّ مؤاخذة.. من يطلب التعاون بنفسه مع الحاكم الظالم، أم من يفرض عليه ذلك فرضاً؟ قالوا: من يطلب التعاون بنفسه. فقال يوسف الصدّيق كان نبيّاً، وأنا وصيّ نبيّ. وعزيز مصر كان ملكاً مشركاً كافراً، والمأمون ملك مسلم فاسق. ولقد طلب يوسف عليه السلام بنفسه من الملك فقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾. وأنا أُجبرت على قبول ولاية عهد المأمون.

وهكذا أثبت لهم الإمام الرضا عليه السلام بأن التعاون مع الحاكم الظالم، لا ينبغي أن يُحكم عليه من خلال النّظرة السطحيّة.

والإمام موسى الكاظم عليه السلام الذي منع صفوان الجمّال من إكراه جماله لهارون الرشيد، هو نفسه الذي شجّع (علي بن يقطين) على البقاء في جهاز حكم هارون وكتمان تشيّعه، واستعمال التقيّة مع القوم فيتوضّأ كما يتوضؤون ويصلّي كما يصلّون، وطمأنه بأن وضوءه وصلاته وساتر عباداته التي يؤدّيها بهذه الصورة صحيحة، وفعلاً استطاع ابن يقطين أن يقدّم بهذه الطريقة خدمات كثيرة لإمامه، وللمسلمين، دون أن يشعر الخليفة وأعوانه بذلك.

وهذا هو الشيء الذي يُجيزه العقل والمنطق. وتجيزه جميع المذاهب

أيضاً، فوجود الإنسان ضمن نظام ظالم بحيث تكون قواه في خدمة ذلك النظام شيء، ووجوده بحيث يستفيد من قوى ذلك النظام لكي يصل إلى أهدافه المشروعة شيء آخر. ورفض هذا المنطق لا يعتبر إلا نوعاً من أنواع الجمود والتعصّب الذي لا مبّرر له. وأئمّتنا عليهم السلام كانوا يمنعون ذلك النوع من التعاون الذي يقوّي سلطة الحاكم الظالم فقط. ولم يكونوا يعطون العذر لأيّ أحد من شيعتهم عندما كان يراجعهم ويقول لهم: إذا لم أعمل مع هؤلاء ولم أقدّم لهم الخدمات، فإنّ غيري سوف يقوم بذلك. وكانوا يقولون له: يجب أن يمتنع الجميع عن التعاون معهم، لكي تشلّ أمورهم وتتوقّف أعمالهم. ولكنّ الأئمة عليهم السلام من جهة أخرى كانوا يشجّعون الأفراد الملتزمين الذين كانوا يستغلون مناصبهم ضمن الأنظمة الجائرة استغلالاً نافعاً للمسلمين. فالروايات التي لدينا عن الأئمة الأطهار عليهم السلام والتي ينقلها الشيخ الأنصاري في باب ولاية الجائر من كتاب «المكاسب» في مدح أشخاص مثل (علي بن يقطين)، و(إسماعيل بن بزيع)، تحيّر الإنسان حقّاً، فهي ترفع أمثال هؤلاء إلى مرتبة أولياء الله المقرّبين، برغم أنهم كانوا يحتلّون مناصب حسّاسة في أنظمة الخلفاء الجائرين.

ولاية الجَائر

لدينا مسألة في الفقه بعنوان (ولاية الجائر) أي قبول منصب من طرف الحاكم الظالم. وقد قرّر الفقهاء بأن هذا العمل الذي هو حرام بحدّ ذاته، مستحب في بعض الموارد، بل يكتسب صفة الوجوب في موارد أخرى. فقالوا: إذا توقّف التمكّن من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر على قبول منصب من طرف الحاكم الظالم، فإنَّ قبول هذا المنصب واجب، وهذا هو المنطق السليم، لأن الإنسان في هذه الحالة إذا تقبل مثل هذا المنصب فإنه يستطيع أن يعمل ليقوّي نفسه وجماعته في مقابل إضعاف أعدائه وعرقلة أعمالهم. وأنا لا أتصور أن أهل المسالك الأخرى من مادّيين وشيوعيّين وغيرهم، ينكرون هذا الشيء، فيأمرون اتباعهم برفض كلّ منصب يقدّم إليهم من طرف عدوّهم، بل يقولون لهم: اقبلوا ذلك، ولكن اعملوا على طريقتكم ومن أجل أهدافكم.

ونحن نرى أن الإمام الرضا عليه السلام عندما قَبِل منصب ولاية العهد، فإنّه لم يحصل بذلك أيّ نفع للخليفة المأمون ولا لنظامه، بل كانت المصلحة في جانب الإمام الرضا نفسه، فبالإضافة إلى أن هذا العمل أدّى إلى تشخيص العدوّ من الصّديق بصورة أوضح، فقد استطاع الإمام بصورة غير مباشرة أن يثبت شخصيّته العلمية من خلال هذا المنصب. ولم يكن ذلك ممكناً في أي وقت آخر من عمر الإمام.

فمن بين جميع أئمّتنا الأطهار عليهم السلام لم تثبت الشخصيّة العلمية لأحد منهم بقدر ما ثبتت لأمير المؤمنين والإمام الصادق، والإمام الرضا عليه السلام. فأمير

المؤمنين عليه السلام استطاع أن يظهر علمه في خلال الأربع سنوات التي أمضاها في الخلافة، بواسطة تلك الخطب والاحتجاجات التي بقيت في التأريخ. والإمام الصادق عليه السلام استطاع أن ينشر علمه من خلال تلك الفرصة التي سنحت بسبب الحروب التي حدثت بين بني العباس وبين الأمويّين، حيث قام عليه السلام بإنشاء حوزة علميّة ضمّت أكثر من أربعة آلاف طالب علم. والإمام الرضا عليه السلام استطاع أن يؤكّد شخصيّته العلمية من خلال تلك الفترة القصيرة التي بقيها في ولاية العهد، وساعده في ذلك حبّ المأمون للعلم والمباحثات العلميّة. فكان هذا الخليفة يقوم بعقد تلك الجلسات العجيبة (المثبتة في كتب الاحتجاجات)، والتي كان يجمع فيها كل أصناف العلماء والمفكّرين، من مادّيين ومسيحيّين ويهود ومجوس وصابئة وبوذيّين وغيرهم، ثم يدعو الإمام الرضا عليه السلام ليتباحث معهم في حضوره. فكانت هذه الجلسات فرصة ذهبية استغلّها الإمام ليعرض من خلالها الفكر الإسلامي وينشر العلم الصحيح، وكذلك ليدحض جميع الأفكار الباطلة ويثبت خواء جميع التيّارات المخالفة للإسلام.

سؤال وجواب

سؤال: عندما عيّن معاوية ابنه يزيد وليّاً لعهده، خالفه في ذلك جميع المسلمين، لا لأن يزيد كان شخصاً فاسداً، بل لأنهم كانوا يخالفون مسألة ولاية العهد من الأساس. فكيف أصبحت ولاية العهد في زمان المأمون مسألة مقبولة عند المسلمين؟.

جواب: لم يخالف جميع المسلمين معاوية في عمله هذا، ذلك أن معظمهم كانوا غافلين أو متغافلين عن الأخطار المترتّبة على مثل هذا العمل. والذّين عارضوا ذلك كانوا قلة من المسلمين الذين أعلنوا أن هذا العمل إنما هو بدعة تُبتدع لأول مرة في دنيا الإسلام. وكانت هذه هي العلة في ردّة الفعل الشديدة للإمام الحسين عليه السلام الذي أراد أن يبين حرمة هذا العمل وعدم مشروعيته.

وأما في العهود التالية، فإن هذا الأمر فقد صبغته الدينيّة وعاد إلى شكله الأول قبل الإسلام. وهذا هو أيضاً سبب امتناع الإمام الرضا عليه السلام عن قبول ولاية عهد المأمون. ومن خلال كلمة الإمام الرضا عليه السلام حينما قال للمأمون: «وإذا لم تكن الخلافة ملكاً لك، فكيف تعطي لغيرك شيئاً لا تملكه؟»، نفهم أن عنوان (ولاية العهد) في هذه القضيّة خطأ من الأساس، لأن معنى ذلك أن المأمون كان يمتلك الحقّ في الخلافة، وهو يريد أن ينتخب زيداً من الناس ليخلفه في هذا المنصب، في حين أن الأمر لم يكن كذلك.

سؤال: ورد في حديثكم افتراض بأنه في حالة كون الفضل بن سهل شيعيّاً حقاً، فقد كان على الإمام الرضا عليه السلام أن يتعاون معه من أجل خلع المأمون

عن الخلافة، وهنا يرد إشكال بأنه في هذه الصورة كان يلزم الإمام أن يقرّ أعمال المأمون مدّة من الزمن، في حين أن علياً عليه السلام لم يكن يجيز إقرار عمل الظالم ولو ليوم واحد. فما هو حلّ هذا الإشكال؟.

جواب: يبدو لي أن هذا الإشكال لا محلّ له، فهناك اختلاف كبير بين وضع الإمام الرضا عليه السلام بالنسبة للمأمون، ووضع أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة لمعاوية. فإقرار أمير المؤمنين عليه السلام يكون بجعل معاوية الظالم حاكماً منصوباً من قبله على الشام، ولذلك لم يكن عليه السلام مستعدّاً لهذا العمل مهما كلّف الأمر. ولكنّ إقرار الإمام الرضا عليه السلام في حالة قبوله ولاية العهد يكون بالسكوت فترة من الزمن في مقابل المأمون وعدم الاعتراض على أعماله.

وعلى العموم، فهناك من الناحية الشرعيّة فرق بين أن يكون لإنسان تأثير مباشر في أحداث مفسدة، وبين كونه يريد أن يزيل مفسدة موجودة بالفعل، ولكل من هاتين الحالتين حكم شرعيّ مختلف. فتنصيب أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية حاكماً من قبله يعتبر إحداثاً لمفسدة، ولذلك امتنع عليه السلام عن تنصيب معاوية حاكماً على الشام من قبله ولو ليوم واحد. أمّا في الفرض الذي ذكرتموه، فقد كان الإمام الرضا عليه السلام أمام مفسدة موجودة بالفعل وهي كون الخلافة بيد من لا يستحقها، وفي هذه الحالة، فإن الصبر والسكوت مدة من الزمن جائز من أجل مصلحة أكبر وهي إزالة هذا الخليفة الجائر. إذن لا محلّ للقياس بين عمل أمير المؤمنين عليه السلام وعمل الإمام الرضا عليه السلام.

سؤال: ذكرتم في بياناتكم أنه لم يثبت من الناحية التأريخيّة أن الإمام الرضا عليه السلام قتل مسموماً على يد المأمون. ولكن هناك عدّة إثباتات على ذلك:

الأول: هو أن المأمون كان يرى بأن عامل الزمن ليس في صالحه، إذ أنه كلّما كان يمرّ الوقت، كلّما كان يتبيّن للناس أكثر فأكثر بأن المأمون على خطأ وأن الحقّ مع الإمام الرضا عليه السلام، ولذلك اضطّر إلى دسّ السمّ له وقتله لكي يحتفظ بالخلافة لنفسه.

والثاني: هو أنه من المستبعد أن يموت الإمام الرضا عليه السلام في الثانية

والخمسين من عمره ـ على أحد الأقوال ـ موتاً طبيعيّاً، لأنه كان يراعي الأصول الصحيحة والصحيّة، ولم يكن عنده إفراط أو تفريط مثلنا.

والثالث: هو هذا الحديث المعروف: «ما منّا إلا مسموم أو مقتول» وهو يشمل الإمام الرضا عليه السلام وينفي عنه بذلك الوفاة الطبيعية.

وتصريح المسعوديّ صاحب «مروج الذهب» الذي ذكر بأن الإمام الرضا عليه السلام مات بالأجل الطبيعيّ ليس دليلاً، فأكثر المؤرّخين الشيعة يذكرون أن الإمام الرضا عليه السلام قتل مسموماً، فماذا تقولون؟.

جواب: أنا لم أقل: إن الإمام الرضا عليه السلام لم يقتل مسموماً. وأنا أؤيّد رأيكم وذلك من خلال مجموع القرائن التي تؤكّد بأن المأمون دسّ السمّ للإمام الرضا عليه السلام. وكان أحد الأسباب الرئيسيّة لذلك هو ثورة بني العباس في بغداد ضد المأمون واعتراضهم على تنصيب الإمام الرضا عليه السلام وليّاً لعهده. فتوجّه المأمون من مقرّه في خراسان إلى بغداد ليضع حلاً لهذه المشكلة، وكانت تنقل إليه بصفة مستمرّة تقارير عن أوضاع بغداد وأخبار العباسيّين هناك، ففهم من ذلك بأن هذه المشكلة لا يمكن أن تحلّ إلا بسحب منصب ولاية العهد من الإمام الرضا عليه السلام ولكنّه لم يكن يستطيع أن يعزل الإمام عن هذا المنصب لسبب ما، إذن لم يبق إلا طريقة واحدة للتخلص من الإمام وهي قتله.

كما أنه رأى أيضاً أن في وجود الفضل بن سهل خطراً كبيراً عليه لأنه كان يزداد قدرة ونفوذاً يوماً بعد يوم، ولذلك فإنه عندما وصل إلى (سرخس) في خط سيره، أرسل أفراداً من رجاله ليقتلوا الفضل بن سهل، فدخلوا عليه وكان في الحمّام فقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً، ثمّ واصل سيره، وعندما وصل إلى (طوس)، أوعز بدس السمّ للإمام الرضا عليه السلام لكي يُرضي بذلك أهل بغداد ويُعلمهم بأن هذا الأمر الذي أثار سخطهم قد تمّت تسويته فلا داعي للثورة والتمرّد بعد ذلك.

ولا يوجد شك من خلال روايات الشيعة بأن المأمون دسّ السمّ للإمام الرضا عليه السلام وقتله. ولكن بعض المؤرخين من غير الشيعة لا يعتقدون بذلك، ومنهم المؤرخون الأوروبيون الذين يطالعون الوثائق التأريخية، فيرون أن أغلب

المؤرخين من أهل السنّة يؤكّدون في رواياتهم أن الإمام الرضا عليه السلام بعد أن وصل إلى (طوس) مرض هناك ثم مات على أثر مرضه، وإذا استدرك أحدهم فإنه يقول في روايته: (وقيل) أنه مات مسموماً. فأردت أن أتكلّم في هذا المجال بمنطق غير منطق الشيعة توسيعاً لأفق البحث، وإلا فكل الدّلائل والقرائن تؤكّد بأن الإمام الرضا عليه السلام مات مسموماً.

الفصل السابع

كلمة حول الإمام الحسن العسكري (ع)

الإمام الحسن العسكري عليه السلام من الأئمة الذين عاشوا في ظل ظروف صعبة وخانقة جدّاً. إذ كلّما كان الوقت يقترب من عهد إمامة صاحب الزمان وخاتم الأئمة (عج) كلّما كان حكام الجور وخلفاء الباطل يشدّدون من ضغوطهم على الأئمّة المعصومين ويحكمون الحصار عليهم. وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يعيش حالة الإقامة الجبريّة في (سامرّاء) التي أصبحت مركز الخلافة في ذلك الوقت.

ففي زمان الخليفة العباسيّ (المعتصم) اشتكى أهل بغداد كثيراً من تسلط جنوده وضبّاطه وجورهم، فلم يصغ هذه الخليفة في بادىء الأمر لشكاوى الناس وضجيجهم، ولكنّه استجاب لضغوطهم في النّهاية، فانتقل بعساكره إلى (سامرّاء) فترة من الزمن لعل الأوضاع تهدأ، ثمّ عاد إلى بغداد، ولكن المشكلة بقيت قائمة، فقرّر نقل مركز الخلافة إلى (سامرّاء) بصورة نهائية.

ولقد عاش الإمام العسكري عليه السلام كما عاش والده الإمام الهادي عليه السلام في (سامرّاء) في مكان يقال له (العسكر) أو (العسكري) وكان عبارة عن ثكنة عسكرية يتّخذها عساكر الخليفة مقرّاً لهم، أي أنهم اختاروا مكاناً لهذين الإمامين يقيمان فيه بحيث يكونان دائماً تحت المراقبة والحراسة،

وتحت نظر الخليفة مباشرة. وقد فارق الإمام الحسن العسكري عليه السلام الحياة في سنّ الثامنة والعشرين من عمره، وكانت مدّة إمامته ست سنوات فقط قضاها كلّها ـ طبقاً للنصوص التأريخيّة ـ إما في السجون، وإمّا معزولاً عن الناس في بيته حيث لم يكن يسمح لأحد بزيارته والتحدّث معه. وعندما كان يصادف أحياناً أن ينتقل من مكان لآخر، أو عندما كانوا يستدعونه إلى قصر الخلافة، فإنّهم كانوا يضعونه تحت الحراسة المشدّدة ويمنعون كل أحد من الاتّصال به.

ولمّا كانت تظهر لكل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام صفة يُعرف بها بين الناس ـ حيث يصف (الخواجة نصير الدين) في بنوده الاثني عشر كل إمام بصفة كانت تظهر فيه بوضوح أكثر من غيرها ـ فقد كانت الصّفة التي اشتهر بها الإمام الحسن العسكري عليه السلام وعُرف بها هي صفة الهيبة والجلالة والرواء (أي حسن المنظر) وكان كل من يلقاه يقع تحت تأثير هيبته وجمال محيّاه، قبل أن يسمع منه شيئاً أو يستفيد منه علماً. أمّا إذا أخذ هذا البحر الزّاخر بالعلم والحكمة بالكلام وعذب المنطق فللإنسان أن يتصوّر ماذا يكون من الطرف المقابل، وهناك في هذا المجال العديد من الحكايات والروايات التي تفيد بأنه حتى أولئك الذين كانوا مكلّفين بحراسة هذا الإمام في تنقلاته أو في سجنه، كانوا لا يتمالكون أنفسهم من احترام الإمام وتجليله، والخضوع أمام هيبته وعظمته المعنوية.

والسبب الرئيسيّ الذي كان يدفع السلطات الحاكمة إلى التشدّد الكبير على الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وهو شيوع الخبر بأن مهديّ هذه الأمّة يخرج من صلب هذا الإمام. وهو نفس السبب الذي دعا «فرعون» ـ لمّا سمع بأن مولوداً ذكراً سوف يولد في بني إسرائيل ويكون زوال ملكه على يديه ـ إلى القيام بقتل كل المواليد الذكور في بني إسرائيل وترك الإناث فقط. وكان يأمر نساءً من قبله بتفتيش بيوت بني إسرائيل ووضع كل النساء الحوامل تحت المراقبة إلى أن يلدن. ولم يفكّر هذا الأحمق المتجبّر بأنه إذا كان هذا الخبر صحيحاً، فهل يتمكن أن يحول دون تنفيذ أمر الله؟.

وما أحسن ما أنشد «مولوي» حيث أشار إلى موقف المعتصم المشابه لموقف فرعون بهذا البيت:

هل انطلقت بجنودك (أيها الأحمق) إلى بوابّة الغيب

لكي تسدّ الطريق أمام قدوم رجال الغيب؟؟

وكان المعتصم يأمر كلّ فترة بتفتيش بيت الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وخصوصاً بعد أن رحل الإمام إلى جوار ربّه، لأنه كان يسمع إشاعات بأنّ المهدّي عليه السلام قد ولد فعلاً. ولكن ولادة الإمام المهديّ (عج) كانت قد تمتّ بتدبير الله تعالى بصورة سرّية بحيث لم يطّلع على هذه الحقيقة إلاّ القليل، وكان عمره (عج) ست سنوات عندما توفيّ والده، وكان الإمام الحسن العسكري لا يرى مولوده إلا الخواصّ الشيعة فقط، الذين كانوا يأتون من أماكن متفرّقة للتيقّن من صحّة الخبر، بينما كان عليه السلام يخفيه عن عامّة الناس. وعندما حضرت الإمام العسكري عليه السلام الوفاة، هجم مأمور الخليفة العباسيّ وفتشوا بيت الإمام تفتيشاً كاملاً، وأمروا النساء الجاسوسات أن يفحصن كل نساء الإمام الجواري وغيرهن وينظرن هل بينهنّ امرأة حامل أم لا؟ وعندما اشتبهن في إحدى الجواري أخذتها ووضعتها تحت المراقبة سنة كاملة، ولكن ثبت فيما بعد أنها لم تكن بحامل.

وكانت والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام تدعى «حُدَيْث»، ولكنّها أصبحت معروفة بلقب «الجدّة» لأنها جدّة الإمام الحجّة (عج). وهناك نساء أخريات في التأريخ يلقّبن أيضاً بلقب «الجدّة» باعتبار أن شهرتهن ترتبط بأحفادهنّ ومن جملتهنّ جدّة «شاه عبّاس» وتوجد في أصفهان مدرستان باسم «الجدّة» ولكن شهرة والدة الإمام الحسن العسكري عليه السلام لم تكن فقط لأنها كانت جدّة الإمام الحجة (عج)، بل لأنها كانت ـ أيضاً ـ تتمتّع بشخصية علمية ومكانة عظيمة، بحيث يذكر المحدّث القمّي في «الأنوار البهيّة» أنها كانت مفزع الشيعة بعد الإمام الحسن العسكري عليه السلام. فكان الشيعة بعد وفاة إمامهم يلجأون إليها لمعرفة جواب مسائلهم، باعتبار أن إمام زمانهم كان مختفياً ولم يكن بإمكانهم الوصول إليه.

يقول رجل: ذهبت إلى عمّة الإمام العسكري عليه السلام «حكيمة خاتون» بنت الإمام الجواد عليه السلام وتحدثت معها فيما يتعلّق بالعقائد ومسألة الإمامة وغيرها، فأخذت تستعرض عقيدتها في الأئمة المعصومين عليهم السلام إلى أن وصلت إلى الإمام العسكري عليه السلام. ثم قالت: وأمّا إمامي الحالي فهو ولده الذي هو الآن مخفي عن الأنظار. فقلت: فإن عرضت لنا مسألة فإلى من نرجع؟ فقال: ارجعوا إلى «الجدّة». فقلت عجباً، فارق الإمام الدنيا. وأوصى إلى امرأة؟ فقال: لقد صنع الإمام العسكري عليه السلام نفس ما صنع الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان وصيّه الواقعي في الباطن عليّ بن الحسين عليه السلام، ولكن ألم يوجّه في الظاهر كثيراً من وصاياه إلى أخته السيدة زينب عليها السلام، فالوصيّ الباطن للإمام الحسن العسكري عليه السلام، هو ولده المخفيّ عن الأنظار، ولكنه جعل وصيّه الظاهر هذه المرأة الجليلة القدر، من أجل التعمية على الأعداء وتثبيط همّتهم في طلبه والبحث عنه.

الفصل الثامن

القسم الأول: العدل الكليّ والعدالة الشاملة

إن جميع الأنبياء الذين بعثوا من قبل الله سبحانه بين البشر كانوا يسعون وراء هدفين رئيسيّين:

الهدف الأول: هو إقامة علاقة صحيحة بين البشر وبين الله ربّهم، وبعبارة أخرى: تخليص البشر من عبادة كلّ موجود سوى الله تبارك وتعالى وهو ما يتلّخص في هذه الكلمة الطيّبة «لا إله إلاّ الله».

والهدف الثاني: هو إقامة علاقات سليمة بين البشر أنفسهم على أساس العدل والإحسان والسلام والمحبّة والتعاون وخدمة بعضهم البعض.

والقرآن الكريم يبيّن هذين الهدفين حيث يقول فيما يتعلّق بالأوّل وهو يخاطب خاتم الأنبياء ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ويقول موضحاً الهدف الثاني: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾. وهكذا نرى أن القرآن يقرّر أصل القسط والعدالة في بناء المجتمع البشري، ويعتبر العمل بهذا الأصل أحد الأهداف الرئيسيّة لجميع الرسالات السماوية.

وسؤالنا هنا: هل سيأتي يوم على البشرية ترى فيه تطبيق العدالة الكليّة الشاملة، بحيث لا يبقى أي أثر بين الناس لأنواع الظلم والجور، والاستغلال والحقد والكراهية، والحروب وسفك الدّماء، ولا يبقى أثر لما يلازم هذه

الأمور من الرذائل الأخلاقية، كالكذب والنفاق والخداع والطمع والبخل.. الخ؟ أم أن ذلك مجرّد وهم وخيال لن يتحقق في يوم من الأيام أبداً؟.

قد نجد بين المسلمين المتديّنين من يقول: أنا لا أنكر العدلَ الإلهي. وأن الله سبحانه خلق كلّ شيء على أساس العدل، ولكنّي اعتقد أن دنيانا هذه بلغت درجة من الدناءة والانحطاط، وترسّخت جذور الظلم فيها، بحيث أصبح من المستحيل تطبيق العدالة الواقعيّة بين الناس، وبالتالي سيادة السلام والمحبّة والإنسانية الحقيقيّة في هذه الدنيا. فالدنيا هي دار الظلم، والعدل الكلّي والتامّ يختصّ بالآخرة فقط حيث يتمّ هناك جبران الظلم الذي وقع في الدنيا، وردّ الحقوق إلى أصحابها. وتوجد هذه الفكرة المتشائمة على نطاق أوسع بين غير المسلمين أهل الأديان السماويّة.

ولكنّ الميزة الأساسيّة للعقيدة الإسلامية ـ وخصوصاً من وجهة نظر الشيعة ـ هي نفي التشاؤم عن البشر، وبيان أن عهد الظلام بما فيه من ظلم وجور وبغي، وانحراف فكري وفساد أخلاقي، وما يستتبع ذلك من حروب ونزاعات واختلافات، إنّما هو عهد مؤقّت، حيث سيعقبه عهد النّور، فتنصلح الدّنيا وتسود العدالة الحقيقية فيها ويقوم الناس بالقسط.

وإذا تأملنا في القرآن الكريم، فإننا نجده يعطي هذه البشارة، حيث يقرّر أنّ مستقبل البشرية في هذه الدنيا هو طي بساط الشر والظلم ومجيء عهد الخير والعدل، وهذه واحدة من الآيات التي تبيّن، ذلك: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ وهنا يعطي الله سبحانه وعداً قاطعاً لأهل الإيمان والعمل الصالح بأن العاقبة في هذه الدنيا سوف تكون لهم، وأن الذي يحكم العالم في النّهاية هو شعار (لا إله إلاّ الله) ودين الله بكل ما فيه من المعنويات والقيم الصحيحة وعلى رأسها العدالة الحقيقة والتامّة.

وأما التوجّه المادّي، وعبادة المادّيات والأنانيّات وسائر القيم المنحرفة، فسوف يكون مصيرها الزّوال من بين المجتمعات البشرية.

وهكذا نستخلص من القرآن الكريم هذه الفكرة وهي أن مسألة التطبيق العملي للعدالة الكلّية الشاملة ليست مجرّد أمانّي وخيالات وهمية، وإنّما هي حقيقة تسير الدنيا باتجاهها لأنها سنّة إلهية لا بدّ أن يجريها الله تعالى، فيحكم العدل في هذه الدنيا قروناً وقروناً من الزمان لا ندري كم هي، يكون الإنسان فيها قد بلغ رشده وتكامل معنوياً بحيث أصبح ينفر بطبعه الفطري السليم من الظّلم وكل أنواع الظلمات المعنويّة.

وبحثنا هنا يدور حول الأساس الذي يستند عليه الإسلام عندما يقرّر بأن العدالة الشاملة الكلّية سوف تتحقّق في هذه الدنّيا. ولبيان ذلك يلزم أن أقوم فيما يلي بشرح النقاط الثلاث التالية:

الأولى: ماهيّة العدالة.

والثانية: هل يوجد ميل في فطرة البشر نحو العدالة أم أنه ينفر منها بفطرته وطبيعته، وإذا كان لها أن تطبّق في وقت ما فلا يكون ذلك إلا بالإكراه والإجبار؟.

والثالثة: هل أن العدالة الكلّية التامّة شيء عملي أم هي مجرّد فكرة مثالية، وإذا كان لها أن تطبّق عمليّاً فبأيّ وسيلة يكون ذلك؟؟.

تعريف العدالة

قد لا تكون هناك حاجة لتعريف العدالة، فالبشر على أي حال يعرف جيداً ما هو الظلم، وما هي التفرقة والتمييز. والعدالة ما هي إلا النقطة المقابلة لهذه الأشياء. وبعبارة أخرى، فإن النّاس بحسب خلقتهم واستعداداتهم الفطرية، وكذلك بحسب النشاطات والأعمال التي يقومون بها يتمتعون باستحقاقات معيّنة، والعدالة هي أن يعطي كل ذي حق حقّه، بعكس الذي هو حبس الحقوق عن أصحابها، وبعكس التفرقة، وهي عدم المساواة في المعاملة بين الأفراد الذين يتمتعون بنفس المؤهلات والاستعدادات ويقومون بنفس الأعمال.

وقد وجد قديماً بين البشر ـ امتداداً من عهد الفلاسفة اليونانيين الأوائل إلى سائر العهود الأوروبية اللاحقة ـ أفراد ينكرون واقعيّة العدالة وكونها أمراً طبيعياً في المجتمع البشري، ويقولون بأن العدالة هي ذلك الشيء الذي يقرره القانون الحاكم وتفرضه القوّة.

ولكن هذه الفكرة غير صحيحة بالمرّة، فالعدالة لها واقعية لا يمكن إنكارها، لأن العدالة تابعة للحقّ، والحق له واقعيّة يكتسبها من أصل الخلقة، فكلّ موجود يتمتّع في أصل خلقته وتكوينه بصلاحيات واستحقاقات معيّنة، والإنسان ـ إضافة إلى ذلك ـ يكتسب استحقاقات أخرى بأعماله ونشاطاته، وليست العدالة أكثر من أن يأخذ كل ذي حقّ حقّه الطبيعي بدون زيادة ولا نقصان. والذي يساعد على ذلك أن الطبيعة التي خلقها الله سبحانه، فيها متسع للعدالة بما أودع فيها من الإمكانات الوفيرة والخيرات الكثيرة، والذين ينكرون

واقعيّة العدالة يتوهّمون أنه لو أعطيت الحقوق إلى أصحابها فلن يكفي مخزون الطبيعة لذلك.

هل حبّ العدالة والرغبة فيها شيء فطري؟:

إن البشر بفطرته وتكوينه، يحبّ أشياءً في الحياة، ولا يملك دليلاً لذلك سوى تركيبه النفسي والرّوحي، ومثال ذلك حبّه للجمال، فالإنسان عندما يرى نفسه أمام شيء جميل فإنه لا يملك إلا أن يعجب به وينجذب إليه بدون أن تجبره قوّة من الخارج على ذلك. وقس على ذلك حبّ العلم وحب الفضائل الأخلاقية كالشجاعة والبطولة والأمانة والوفاء.. الخ. فهل أن الميل إلى العدالة سواء الفرديّة أو الاجتماعية بغض النظر عن حصول المنفعة الشخصيّة، جزء من المطالب البشرية، وهل يوجد شيء كهذا في فطرة البشر أم لا؟.

نظريّة (نيتشه) و(ماكيافيل)

يعتقد أكثر الفلاسفة الأوروبيّين بأنه لا يوجد في فطرة البشر أي ميل نحو العدالة، وقد جرّت فكرتهم هذه الدنيا في نهاية المطاف إلى الدمار، فهم يقولون: إن العدالة من اختراع الضعفاء والعاجزين، وذلك من أجل مواجهة الأقوياء، فهم يدّعون أن العدالة شيء حسن، وأن الإنسان ينبغي أن يكون عادلاً في تعامله مع الآخرين، وهذا كلام فارغ بدليل أن الذين يدافعون عن العدالة ويدعون إليها، ما إن يمتلكون القوة حتى يفعلوا نفس ما فعل الأقوياء من قبلهم. يقول الفيلسوف الألماني (نيتشه): كم حدث لي أن ضحكت عندما كنت أرى الضعفاء يتحدثون عن العدالة ويطالبون بها، وكنت أقول لهم: أيّها المساكين، لو كنتم تملكون مخالباً لما تفوّهتم بمثل هذا الكلام أبداً!.

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بأن العدالة جزء من الأمور المودعة في طبيعة البشر وفطرتهم ينقسمون إلى فريقين: ففريق يقول بأنه لا ينبغي للبشر أن يسعى وراء العدالة حتى ولو بعنوان أُمنية من الأماني، بل ينبغي أن يسعى وراء القوّة لا غير. ويأتون بمثلٍ على فكرتهم مفاده أن (القرن القصير أفضل من الذنب الطويل) ويرمزون بالقرن هنا إلى القوّة، بينما يرمزون بالذنب إلى العدالة. ومن هذا الفريق (نيتشه) و(ماكيافيل).

نظرية (برتراند رسل)

والفريق الآخر لا يوافق على ذلك بل يقول: ينبغي السعي وراء العدالة، ولكن ليس بصفتها هدفاً، بل لأن مصالح الفرد توجد فيها. ومن هؤلاء (برتراند رسل) الذي يدّعي بهذا النمط من التفكير أنّه ـ أيضاً ـ من أنصار الإنسانيّة وحبّ الإنسان، وهو مجبور على مثل هذا الادّعاء لأن فلسفته توجب عليه ذلك.

يقول هذا الفيلسوف البريطاني: إن الإنسان مفطور بطبيعته على حبّ المصلحة الشخصيّة، وهذا شيء مفروغ منه ولا يقبل أيّ نقاش.. إذن فماذا ينبغي أن نفعل من أجل تطبيق العدالة وسيادتها في المجتمع؟ إنّنا لا يمكننا أن نفرض العدالة فرضاً على الناس لأن طبيعتهم وفطرتهم لا تتلاءم مع ذلك. نعم يمكننا أن نعمل شيئاً آخر، وهو أن نقوم بتنمية عقل الإنسان وتقوية علمه إلى أن يصل إلى مرحلة نستطيع أن نقول له فيها: أيها الإنسان، صحيح أن المصلحة الشخصيّة هي التي تمتلك الأصالة في الحياة، وليس لأحد أن يحاول صرفك عن السعي وراءها. ولكن اعلم أن مصلحتك الفرديّة لا يمكن تأمينها إلا عن طريق إيجاد العدالة في المجتمع، ذلك أنّك لا تمتلك دائماً من القوّة في مقابل الآخرين ما يتيح لك الحصول على كل ما تريد عن طريق البغي والعداون، لأنهم سوف يردّون على اعتدائك وبالتالي فبدل أن تحصل على المنفعة فسوف تصاب بالضرر.

نقد هذه النظريّة:

واضح أن هذه النظريّة ليست سليمة، لأنها تصدق على الضعفاء ـ فقط ـ دون الأقوياء. والعلم في هذه النظرية يدفع الفرد إلى الالتزام بالعدالة من أجل

تأمين مصلحته الشخصيّة فقط، فإذا امتلك القدرة والقوّة التي تؤمّن حصوله على مصالحه الشخصيّة بطريقة مباشرة. فإن معنى العدالة ينعدم تماماً بالنسبة له في هذه الحالة. ولهذا فإن فلسفة (برتراند رسل) على النقيض من كلّ شعاراته الإنسانيّة، تعطي الحقّ لكل الأقوياء من الدرجة الأولى والذين لا يشعرون بأي خوف من الآخرين، أن يرتكبوا بحقّهم ما شاء لهم من الظلم والعدوان.

النظرية الماركسيّة

يذهب الماركسيّون إلى أن العدالة شيء عمليّ، ولكنّها لا يمكن أن تتحقّق عن طريق الإنسان ذاته، لأنه لا يملك القدرة على إقامة العدالة.. فلا يمكن تربيته بحيث يكون راغباً في العدالة وطالباً لها بمعنى الكلمة، ولا يمكن تنمية عقله وعلمه إلى الحدّ الذي يرى فيه بأن مصلحته الشخصيّة إنّما توجد في العدالة. إذن كيف تتحقّق العدالة؟ إنّها لا تتحقّق إلاّ بواسطة (آلهة) الآلة والماكنة. وبتعبير آخر: أيّها الإنسان.. ليس لك أن تطلب العدالة وتسعى وراءها، فهذا ليس من شأنك. وإذا تصوّرت بأنه يمكنك أن تصبح عادلاً فهذا تصوّر كاذب، لأنّك بطبيعتك لست محبّاً للعدالة، وإذا فكّرت بأن عقلك يمكن أن يرشدك في يوم من الأيّام إلى طريقة لتطبيق العدالة عمليّاً فهذا تفكير باطل، لأن الآلة وحدها هي التي تستطيع أن تقود البشر إلى تطبيق العدالة بصورة تلقائيّة. فالتطوّرات التي تحدثها الوسائل الاقتصاديّة والانتاجية توصل البشرية إلى دنيا الرأسمالية أولاً، ثمّ يتمّ الانتقال بعد ذلك بصورة طبيعيّة إلى دنيا الاشتراكية حيث تقوم الآلة بإقرار المساواة والعدالة في المجتمع بصورة جبريّة، شاء الناس أم أبوا، (طبعاً، أثبتت التجارب والأحداث فيما بعد، أن كثيراً من الحسابات التي توصّل إليها الماركسيّون كانت خاطئة وغير عمليّة بالمرّة).

النظريّة الإسلاميّة

أمّا النظريّة الإسلاميّة فترى أن جميع تلك الأفكار والفلسفات إنّما هي نوع من التشاؤم وسوء الظن بطبيعة البشر وفطرته، فإذا كانت البشريّة اليوم تهرب من العدالة، فذلك لأنّها لم تصل إلى مرحلة الكمال بعد. فالعدالة مرتكزة في أصل خلقة البشر. وإذا رُبيّ الإنسان بصورة صحيحة وعلى يد (مربّ كامل) فإنه حتما يصل إلى مرحلة يصبح فيها طالباً للعدالة بنفسه وبصورة واقعيّة، بحيث يفضّل العدالة الجماعيّة على المصلحة الشخصيّة، ويصبح حبّ العدالة عنده شيئاً نابعاً من ذاته كحبّ الجمال مثلاً يندفع إليه بكلّ وجوده بدون أن يجبره أحد أو شيء على ذلك.

والواقع أن العدالة من مقولات الجمال ومصاديقه، الجمال المعقول وليس المحسوس طبعاً ويخطىء الذين يزعمون بأن الإنسان بفطرته ليس مريداً للعدالة ولا طالباً لها، وأنه لا يتقبّلها إلا أن تُفرض عليه فرضاً، أو يدّعون بأن عقل البشر يجب أن يصل إلى مرحلة يرى فيها مصلحته الشخصيّة في العدالة، أو يعتقدون بأن تكامل الوسائل الانتاجيّة هو الذي يؤدّي إلى إقرار العدالة، بصورة تلقائية دون أن يكون للإنسان أيّ دور في ذلك.

كلاّ فهناك أفراد بين البشر أثبت التأريخ أنّهم كانوا يتمتّعون بصفة العدل وحبّ العدالة بدون أن يجبرهم شيء على ذلك، أو يكون حافزهم تأمين منافعهم الذّاتية، بل على العكس من ذلك فكثيراً ما دفعتهم هذه الصفة إلى مخالفة هذا الحافز والعمل في اتجاه مضادّ له. فالعدالة عندهم فكرة وأُمنية وهدف، بل هي أشبه بمحبوب يعشقونه ويضحّون بأنفسهم في سبيله. وهؤلاء

كانوا نماذج للإنسان الكامل في العصور السابقة، وإذا لم يمكن الوصول إلى درجتهم في هذا المجال، فعلى أيّ حال يمكن لأيّ فرد أن يكون نموذجاً مصغراً لهم.

لقد كان علي بن أبي طالب عليه السلام واحداً من أبرز وأشهر تلك النماذج الرائعة، حيث استطاع عمليّاً أن يثبت بطلان كل الفلسفات التي تدّعي بأن العدالة شيء غريب عن فطرة الإنسان. وعندما نضرب مثالاً بأمير المؤمنين عليه السلام فلا يتصوّر البعض بأن هذا الأمر منحصر في شخص واحد فقط، كلاّ، فقد كان عليه السلام استاذاً لمدرسة تلّقى فيها الكثيرون دروس العدالة وتخرجوا منها بتفوّق، وساروا على هذا النهج طيلة حياتهم. كما أننا نرى في كل العصور والأزمنة، وحتى في زماننا هذا، أفراداً يؤمنون بالعدالة بصورة واقعيّة، وقد مُزجت فطرتهم بحبّها مزجاً، وسوف يكون إنسان العصور القادمة أيضاً كذلك.

التطبيق العملي للعدالة الكلّية وكيفيّته

من البديهيّ أن العدالة شيء عمليّ وقابل للتطبيق، لأنها تتلاءم مع فطرة الإنسان أولاً، وتنسجم مع قوانين الكون والطبيعة ثانياً، ولكن تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وضع برنامج صحيح والإشراف على إجرائه وتنفيذه بدقّة وكفاءة عالية، ولن يتمّ بصورته الكاملة إلا في عهد صاحب الزمان (عج) فهو ذلك (المربيّ الكامل) الذي تنتظره البشرية جمعاء لترى تطبيق العدل الكليّ والعدالة الشاملة على يديه.

والغريب في الأمر أن هناك الكثيرين ممّن يتصوّرون بأن مسألة ظهور الإمام الحجّة (عج)، هي مسألة مساوية لانحطاط العالم وتقهقر البشريّة، ولكن القضيّة على العكس من ذلك، فهي عنوان الرّقيّ الفكري والأخلاقي والعلميّ للبشر، وذلك بحكم كلّ الشواهد والأدلّة التي وصلت إلينا عن طريق ديننا الذي يُحدّثنا عن موضوع ظهور الحجّة (عج) وسيادة العدل الكليّ الشامل في طول الدّنيا وعرضها.

ففي أحاديث «أصول الكافي» نقرأ بأنه عندما يظهر الحجّة (عج)، فإن الله سبحانه وتعالى يمسح بيده على أفراد البشر فيزداد عقلهم، كما يزداد فكرهم وعملهم، بعد أن تُنزع من نفوسهم طبيعة الشرّ والعدوان، ولن يكون هناك في الدنيا الرُقيّ الحقيقي، والتكامل الواقعي للإنسان. وقبل أن أذكر جانباً من تلك الشواهد والأدلّة التي أشرت إليها والتي تتعلّق بسيادة العدالة في زمان الإمام المنتظر (عج) وتطبيقها بنجاح تامّ، أودّ أن أتطرّق قليلاً إلى مسألة طول عمر هذا الإمام الغائب (عج).

مسألة عمر الإمام الحجّة (عج)

عندما يطرح موضوع الإمام الحجّة المنتظر (عج)، فإن كثيراً من الناس يتساءلون: هل من الممكن أن يعمّر الإنسان ألفاً ومائتي سنة؟ أليس ذلك مخالفاً لقانون الطبيعة؟.

إن هؤلاء يتصوّرون أن كلّ الأمور التي تحدث في هذه الدنيا تنطبق مائة بالمائة مع قوانين الطبيعة الاعتياديّة أي مع تلك القوانين التي توصّل إليها علم البشر.. في حين أن جميع التطوّرات الكبرى التي حدثت في تأريخ حياة جميع الموجودات الحيّة ـ من نبات وحيوان ـ لم تكن تطوّرات عاديّة. فهل أن انعقاد أول نطفة للحياة على وجه الأرض يتطابق مع أصول علم الحياة؟ كلاّ، فلم يكن ذلك متطابقاً مع أي قانون طبيعيّ في الأرض.

واستناداً إلى النظريات العلمية المعتبرة اليوم فإن عمر أرضنا هذه يقدر بحوالي أربعين ملياراً من السنين، حيث كانت الأرض في بداية أمرها كتلة مصهورة ملتهبة يستحيل على أي كائن حيّ أن يعيش فيهاز ثمّ مدت مليارات عديدة من السنين حتى بردت هذه الكتلة وظهر على سطحها أول موجود حيّ.

والعلم اليوم يقرّر بأن أيّ كائن حيّ لا بدُّ أن يتولّد أو ينشأ من كائن حيّ آخر، ولا يمكن أن يوجد كائن حيّ من كائن غير حيّ أبداً، إلا أنه لم يستطع إلى الآن أن يفسّر كيف وجد أوّل كائن حيّ على وجه الأرض، وكيف انعقدت أوّل نطفة للحياة فيها.

وعندما يتجاوز العلم هذه النقطة، فإنّه يقع في الحيرة مرّة أخرى..

ذلك أن العلم يقرّر بأن أوّل خلية حيّة وجدت على وجه الأرض أخذت تنقسم وتتكاثر وتنتقل من مرحلة إلى مرحلة في التكامل والتطوّر إلى أن جاء وقت أنشعبت فيه إلى فرعين رئيسين، ونشأت من ذلك المملكة النباتية والمملكة الحيوانيّة.. فكيف حصل هذا التطوّر الكبير الذي أدّى إلى أن تنقسم الخلايا البدائيّة الأولى إلى فرع نباتي وفرع حيواني يكمّل واحد منهما الآخر خصوصاً من ناحية امتصاص وإطلاق الغازات الموجودة في الجوّ؟؟.

وهكذا يواصل العلم حيرته في المراحل الأخرى ـ وخصوصاً في المرحلة التي وجد فيها الإنسان، ذلك المخلوق العجيب الذي يتمتّع بالعقل والفكر والإرادة ـ ويبقى عاجزاً عن إعطاء تفسيرات مقنعة لكل هذه الأحداث.

ثمّ هل أن مسألة الوحي مثلاً أمر عاديّ لا يلفت النظر؟.

هل أن مسألة وصول إنسان ما إلى درجة يكون مستعداً فيها لاستلام تعليمات آتية من عالم ما وراء الطبيعة، أقلّ شأناً من مسألة بقاء فرد من الأفراد حيّاً لمدة ألف ومائتي سنة أو أكثر من ذلك؟.

كلاّ، بل يمكننا القول بأن مسألة طول عمر الإنسان شيء طبيعي لا يخرج عن دائرة القوانين الطبيعيّة، بدليل أن العلم يسعى اليوم إلى ابتكار وسائل أو عقاقير تزيد في معدّل عمر الإنسان. فقانون الطبيعة لم يحدّد رقماً معيناً لحياة الإنسان على وجه الأرض.. صحيح أن خلايا بدن الإنسان لها دورة حياتية محدودة، ولكن هذا لا يكون إلا في ظروف معيّنة، وإذا اكتشف العلم في المستقبل العلاقة العلمية بين الظروف المحيطة، ومدة دورة حياة خلايا الجسم الإنساني، فلا يستبعد أن يتمكّن الإنسان آنئذٍ أن يعيش خمسمائة سنة أو ألف سنة وربّما أكثر!.

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن عبر الكثير من آياته الكونيّة بأن هناك أشياء تحدث في هذه الدنيا وفي بعض المراحل المعيّنة،

ويكون ذلك أشبه شيء بيد تخرج من وراء الغيب فتحدث تطوّرات خارقة في الحياة لا تنطبق مع قانون الطبيعة أصلاً ولا يمكن التنبؤ بها مسبقاً..

فسواء درسنا المسألة من الناحية العلمية أم من الناحية الغيبيّة، فإن موضوع طول عمر صاحب الزمان (عج) لا يحتاج إلى أي تشكيك أو ارتياب، خصوصاً بعد أن صرحّت الأحاديث والروايات الدينيّة بذلك. إنّ إحدى وظائف الدّين هي أن يفتّح عقل الإنسان ويخرج تفكيره من الدائرة الضيّقة للأحداث العادية المألوفة التي يراها في حياته اليوميّة.

والآن نعود إلى موضوعنا الذي كنّا نتحدث فيه..

خصائص عهد الإمام المهديّ (عج) من خلال النصوص الدينيّة

يتّفق علماء الشيعة والسنّة على هذا الحديث الشريف المنقول بالتواتر عن رسول الله ﷺ حيث يقول فيه: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي». . إذن فلا يوجد أدنى ريب في أن ظهور صاحب الزمان (عج) أمر حتميّ قضاه الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن ينقضي عمر الدنيا إلا إذا تحقّق هذا الأمر.

ولذلك فإن انتظار ظهور الحجّة (عج) لا يختص بالشيعة فقط بل يشاركهم في ذلك أهل السنّة حيث يروون من طرقهم الكثير من الأحاديث في هذا الباب.

ويقول النبيّ ﷺ في حديث آخر (مبيّناً كيف أنه يرى بوضوح ذلك العهد الذي تتكامل فيه البشريّة وتصل إلى رقيّها المنشود): «المهديّ يبعث في أمّتي على اختلاف من الناس والزلازل» (أي أنه يظهر في ظرف يكون فيه بين أفراد البشر اختلافات ونزاعات شديدة، ولا يقصد بالزلازل هنا الزلازل الأرضية الطبيعيّة، بل المقصود تلك الأخطار الناشئة عن الأعمال المنحرفة للبشر والتي تهدّد بتدمير الأرض تدميراً شاملاً). . «فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» (من البديهيّ أن هذا العمل لن يتمّ بالإكراه والإجبار، بدليل الفقرة التالية من الحديث). . «يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض» (أي أن حكمه سوف يُرضي جميع الموجودات التي تقول يومئذ بلسان الحال: الحمد لله الذي رفع به عنّا شرّ الظلم والجور نهائيّاً).

ثمّ يقول ﷺ: «يقسّم المال صحاحاً» فيقول الأصحاب: وكيف ذلك يا

رسول الله؟ فيقول ﷺ: «يقسم بالعدل والسويّة». ويواصل ﷺ حديثه فيقول: «ويملأ الله به قلوب أمّة محمّد ﷺ غنى، ويسعهم عدله» (هنا إشارة إلى الغنى المعنوي)، أي أن القلوب سوف تملأ بالصّفات العالية وتنظّف من الصفات الدنيئة كالبخل والطمع والحقد والحسد، وغير ذلك من الأشياء التي تشعر الإنسان بالفقر وإن كان جيبه مملوءاً بالمال.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» مشيراً إلى عهد الظهور: «حتى تقوم الحرب بكم على ساق (أي تشتد الحروب وتدوم ردحاً من الزمن)، بادياً نواجذها (أي مكشرة عن أنيابها كالسباع المفترسة، وذلك كناية عن كثرة الفتك والقتل بين الناس)، مملوءة أخلاقها (أي أثداؤها)، حلواً رضاعها، علقماً عاقبتها (أي أن تجار الحروب والانتهازيّين يتوقّعون الفوائد العظيمة والمكاسب الكثيرة لأنفسهم من وراء تلك الحروب، ولكنهم في النهاية لا يجدون إلا طعم الخسائر المرّة كمرارة العلقم)، ألا وفي غدٍ، وسيأتي غد بما لا تعرفون (أي اعلموا أن المستقبل سوف يكون مليئاً بالأحداث التي لا تتوقعونها)، يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالها (أي أن أوّل عمل يقوم به ذلك «الوالي الإلهي» هو عزل الحكام الظالمين في الأرض واحداً بعد واحد، ونصب أعوانه الصّالحين مكانهم فتنصلح الدنيا تبعاً لذلك)، وتخرج الأرض له أفاليذ أكبادها (أي كل ما أودع الله سبحانه فيها من الخيرات والمواهب والمعادن التي لم تخرجها حتى ذلك الوقت)، وتلقي إليه سلماً مقاليدها (أي أنه لن يبقى سرّ من الأسرار العلميّة المتعلقة بالأرض إلا ويكشف على يدي المهديّ المنتظر (عج)، فيريكم كيف عدل السّيرة (أي كيف تكون العدالة الحقيقية ويثبت بذلك زيف كل هذا الضجيج الإعلامي في العالم حول حقوق البشر والحريّة والسلام.. الخ)، ويحيي ميت الكتاب والسنّة (أي يعيد إلى الحياة قوانين القرآن والسنّة النبويّة المحمّدية، التي بقيت متروكة ومهجورة مدّة طويلة من الزمن حتى كادت أن تندثر).

ويقول عليه السلام في حديث آخر: «إذا قام القائم حكم بالعدل (لمّا كان لكل واحد من الأئمّة المعصومين عليهم السلام لقب يُعرف به بين الناس ويكون مشتقاً من صفة أساسية تظهر فيه أكثر ممّا تظهر في غيره، فإن الإمام المنتظر له لقب

مأخوذ من صفة القيام أي النهوض والثورة، فهو يلقّب (بالقائم) أي أنه إذا ظهر فإنه سيعلنها ثورة مستمرّة لا هوادة فيها ولا مهادنة إلى أن يصل إلى هدفه وهو إقرار العدالة في كل العالم، ولذلك فإنه (عج) يعرف بصفتي القيام والعدل)، وارتفع في أيّامه الجور (أي تنعدم هذه الصفة الذميمة من بين الناس)، وأمنت به السُبل (فعندما تقوم العدالة الحقيقية في العالم، تنعدم أسباب الخوف والقلق، ويعمّ الأمن أرجاء المعمورة)، وأخرجت الأرض بركاتها (هذه هي جائزة الله سبحانه للناس عندما يقوموا بالقسط ويرضون بحكم العدالة)، ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ولا برّه، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

وهكذا تتحدث الكثير من الروايات الإسلاميّة المتعلّقة بزمان الظهور عن السلام والوئام، وعن الأمن والازدهار، وعن البركة والوفرة، وعن زوال الرذائل والمفاسد من شرب الخمر والزنا.. الخ، وعن تكامل الإنسان معنوياً بحيث ينفر بطبعه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وما أشبه، وكل هذه الأشياء مبنيّة كما ذكرنا سابقاً على أساس فلسفة الإسلام الذي يرى بأن عاقبة البشريّة هي العدالة التامّة الشاملة. ولكنّه لا يوافق الفكرة القائلة بأن تلك العدالة التي سوف تأتي تعني أن تفكير الإنسان سوف يصل إلى مرحلة يقتنع فيها بأن منفعته هي في حفظ منافع الآخرين. ففي ذلك الزمان الموعود تصبح العدالة بالنسبة للإنسان بمثابة محبوب يعشقه، وذلك عندما ترتقي روحه، وتصل تربيته إلى حدّ الكمال، وهذا لا يحصل إلا إذا وجدت حكومة مبنيّة على أساس الإيمان والتوحيد، ومعرفة الله، وتطبيق التعاليم القرآنية.

ونحن ـ معاشر المسلمين ـ سعداء لأننا على العكس من كل هذا التشاؤم الموجود في دنيا الغرب، فإننا نمتلك عقيدة متفائلة جداً بمستقبل البشريّة.

يقول (برتراند رسل) في كتابه «الآمال الجديدة»: «إن غالبيّة العلماء الغربيّين قد قطعوا آمالهم من المستقبل، وهم يعتقدون بأن العلم قد وصل اليوم إلى مرحلة أصبح يهدّد فيها البشريّة بالدمار الوشيك. ومن هؤلاء العلماء (اينشتين) الشهير الذي يصرّح بأن الإنسان أخذ اليوم يحفر قبره بيده، فلم يعد

الأمر يحتاج إلى أكثر من الضغط على زرّ واحدة، حتى تكون الأرض ومن عليها في خبر كان!».

ونحن لو لم يكن عندنا اعتقاد بالله وبالقدرة الغيبيّة الإلهيّة، ولو لم يطمئننا القرآن بشأن مستقبل البشرية، لكنّا مجبورين على أن نعطي الحقّ لهؤلاء المتشائمين، لأن الحرب العالميّة الثالثة عندما تنشب ـ لا سمح الله ـ فإن الأسلحة الاستراتيجيّة المتطورة المكتظّة بها ترسانات الدول (المتقدّمة) لن تدع مجالاً بحيث يكون هناك غالب ومغلوب، بل سيكون مصير جميع شعوب العالم بلا استثناء هو الدّمار والفناء. ونحن نعتقد مطمئنين بأنه حتى لو حصلت مثل هذه الانزلاقات الخطرة، فإنّ يد الله فوق كل شيء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

ولقد قيل بأن أفضل الأعمال هو انتظار الفرج، أي التفاؤل بمجيء الفرج الشامل والنّهائي. والسبب في ذلك هو أنّ هذا الأمر يرمز إلى المستوى العالي للإيمان بالله تعالى والثقة التامّة بوعده. جعلنا الله من المنتظرين الحقيقيّين لفرج أمام زماننا (عج)، ووفّقنا لإدراك دولة الحق والعدل التي سوف تقوم بإذن الله على يديه الشريفتين..

«اللّهمّ إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة».

القسم الثاني: المهديّ الموعود

يدور البحث في هذا القسم حول مسألة المهدويّة ـ أي الاعتقاد بحتمية ظهور المهدي الموعود. وقد يتصوّر البعض ممن يفتقرون إلى الاطّلاع الكافي ـ وخصوصاً من الذين لا يعتقدون بأصول مذهب التشيّع ـ بأن هذه المسألة لم تظهر إلى الوجود إلاّ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ، وبالتّحديد بعد ولادة الإمام الحجّة المنتظر (عج). ولإثبات خطأ هذا التصوّر، أريد أن أبيّن هنا من أين وكيف ظهرت هذه المسألة؟ وسواءً كانت بصورتها الكاملة المفصّلة، أم بصورتها الإجمالية المقتصرة على الإشارة والإلماع.

المهدويّة في القرآن والأحاديث الشريفة

أولاً: توجد هذه المسألة في القرآن الكريم بصورة بشارة عامّة ومؤكدة. أي أن من يتدبّر في الآيات القرآنية، يرى أن طائفة منها تذكر تلك النتيجة المترتبّة على ظهور الإمام المهديّ (عج)، على أنها أمر قطعيّ لا بدّ أن يحدث في المستقبل. ومن جملتها هذه الآية الكريمة على سبيل المثال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ... ﴿١٠٥﴾ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾. ويذكر المفسرون أن المقصود (بالذكر) هنا هو التوراة، والآية صريحة في بيان حتميّة هذا الأمر، أي لقد قضينا قضاءً مبرماً. بأنه سيأتي يوم على البشريّة، يمسك فيه عباد الله الصالحون بزمام الأمور في طول الأرض وعرضها. فالأرض لن تبقى إلى الأبد تحت سيطرة الجبّارين والظّالمين، وسوف تقوم دولة الحق العالميّة الدائمة، بعد زوال دولة الباطل المؤقتّة.

وتذكر آية أخرى هذه البشارة القطعيّة الإلهية بأن دين الإسلام المقدّس سوف يكون دين البشرية جمعاء، في حين أن تمام الأديان الأخرى سوف تزول ـ أو لا أقل ـ تضمحلّ وتنزوي جانباً. وتحقيق هذا الوعد بأبعاده الكاملة لا يتمّ إلا في زمان ظهور الحجّة (عج)، فيخضع أهل الأرض جميعاً لدين الإسلام، ويصبح الدين المحمّدي الدين العالميّ السائد في كل الكرة الأرضيّة. وهناك آيات كثيرة أخرى في هذا المجال، تحتاج إلى بحث مفصّل خاصّ لا يسعنا التعرّض لها هنا.

ثانياً: وإذا ضربنا صفحاً عن الآيات القرآنية، فإننا نواجه عالم الأحاديث النبويّة الشريفة. فهل يا ترى ذكر نبيّ الإسلام ﷺ شيئاً في هذا الباب أم لا؟.

ولو كانت الروايات المتعلّقة بالمهديّ الموعود منحصرة في روايات الشيعة فقط، لكان هناك مجال للشكّاكين أن يقولوا معترضين: لو كانت مسألة

المهديّ الموعود مسألة واقعيّة، لكان ينبغي للنبيّ ﷺ أن يبيّنها في أحاديثه الشريفة. ولو كانت للنبيّ ﷺ أحاديث في هذا المعنى لتناقلتها بالرواية سائر الفرق الإسلامية، ولما اقتصر على روايتها الشيعة فقط.

ولحسن الحظ، فإن هذا هو الواقع، لأن روايات باب المهديّ الموعود التي يتناقلها أهل السنّة إن لم تزد على روايات الشيعة فإنها لا تقل عنها على أيّ حال. وهناك كتب كثيرة موضوعة لهذا الغرض بالذات، من جملتها كتابان تمّ تأليفهما في (قم) في الفترة الأخيرة.. الكتاب الأول بعنوان «المهديّ» وهو باللغة العربيّة وبقلم المرحوم آية الله الصدر (أعلى الله مقامه). وقد نقل المؤلف كل الروايات التي أوردها في الحديث عن المهديّ المنتظر، عن طريق أهل السنّة. والكتاب الثاني بعنوان «منتخب الأثر» وقد تمّ تأليفه بأمر من المرحوم آية الله السيد البروجردي (رض)، وبقلم أحد فضلاء الحوزة العلمية البارزين في (قم) وهو الشيخ آقا ميرزا لطف الله الصّافي. وعند مطالعة هذا الكتاب يجد القارىء الكثير من الروايات المنقولة عن طريق أهل السنّة والتي تتحدّث عن هذا الموضوع بمضامين وتعابير مختلفة.

ولا بأس هنا أن نشير إلى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، وهذا الحديث ـ كما سمعت شخصياً من المرحوم آية الله البروجردي ـ متواتر، أي أنه لم يرد في كتاب «نهج البلاغة» فقط، وإنّما ورد أيضاً في مراجع تأريخيّة أخرى. وموضع الشاهد من هذا الحديث هو آخره، حيث يلمّح أمير المؤمنين عليه السلام في بعض جمل إلى مسألة المهديّ الموعود (عج) فيقول: «اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً مغموراً. لئلا تبطل حجج الله وبيّناته. يحفظ الله بهم حججه وبيّناته، حتّى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم». وفي هذه الكلمات إشارة إلى ضرورة وجود المهديّ المنتظر وهو آخر حجج الله، وإن كان غائباً عن أعين الناس، ومختفياً عنهم لحكمة معيّنة. وفيها كذلك إشارة إلى ضرورة ظهوره وإن طالت مدة غيبته، وذلك عندما تتوفّر شرائط معيّنة بحيث يلزم الأمر حفظ حجّة الله على عباده والحيلولة دون بطلانها.

(المهدويّة) من الناحية التأريخيّة

تعمّدت الإيجاز في استعراض الآيات القرآنية والرّوايات الشريفة المتّصلة بمسألة المهديّ المنتظر (عج)، وذلك لأني أريد أن أركزّ على هذا البحث من الزاوية التأريخيّة، فأبيّن جانباً من الآثار التي تركتها هذه المسألة على تأريخ الإسلام. فعندما نطالع التأريخ الإسلامي، نجد أنه فضلاً عن الروايات الواردة في هذا المجال والمنقولة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أو عن أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه منذ النصف الثاني للقرن الهجريّ الأوّل، أصبحت الأخبار والتنبؤات المتعلقة بمسألة المهديّ الموعود سبباً لبروز حوادث كثيرة في تأريخ الإسلام، وذلك بأن أخذ البعض يسيئون الاستفادة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وما فيها من البشارة بظهور (المهديّ)، وهذا بحدّ ذاته دليل على وجود جذور لهذه المسألة، وإلا لم يكن هناك مبرر لبروز تلك الحوادث.

قيام (المختار) والاعتقاد بالمهدويّة

إنّ أوّل أثر ظهر في تأريخ الإسلام لعقيدة المهدويّة، كان في قصة انتقام المختار من قتلة الإمام الحسين عليه السلام وليس هناك شك في أن المختار كان رجلاً سياسيّاً محنّكاً، أكثر من كونه رجل دين ومذهب. طبعاً لا أريد هنا أن أحكم على المختار بأنه كان إنساناً خيّراً أم شرّيراً، ولكنّه على أيّ حال، كان يعلم جيّداً بأن هدفه وإن كان الانتقام من قتلة سيّد اشهداء عليه السلام. وهذا ممّا يوفر له أرضية شعبيّة مساعدة، إلاّ أن الناس لم يكونوا مستعدّين للقيام بهذا العمل تحت قيادته. وعلى إحدى الروايات، فقد حاول المختار أن يحصل على دعم الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا الأمر، ولكنّه لم يوفّق في ذلك، فلم يجد أمامه إلاّ أن يستغلّ مسألة الإمام المهديّ الموعود الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله، فطرح اسم محمد بن الحنفيّة وهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام وأخو الإمام الحسين عليه السلام، على أنه هو الإمام المهديّ المنتظر الذي بشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعلن نفسه نائباً لذلك الإمام.

وظل المختار مدّة من الزمان يلعب لعبته السياسيّة تحت عنوان نيابه المهديّ أي بصفته نائباً لمحمّد بن الحنفيّة.

والسؤال هنا: هل أن محمّد بن الحنفيّة كان مقتنعاً حقاً بأنه المهديّ الموعود، وهل أنه هو الذي نصّب المختار نائباً عنه؟.

يقول البعض: نعم، كان الأمر هكذا في الظاهر، ولكن الدافع الحقيقيّ لقبول محمّد بن الحنفيّة بهذا الأمر، هو فقط تهيئة الأرضيّة من

أجل الانتقام والأخذ بالثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، ولكن هذا غير ثابت بالطبع. وبعد أن مات محمّد بن الحنفيّة قال جماعة المعتقدين به: إن المهديّ الموعود لا يمكن أن يموت حتّى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. إذن فمحمّد بن الحنفيّة لم يمت في الواقع، وإنّما اختفى في جبل (رضوى)ن ومن هنا ظهر إلى الوجود مذهب (الكيسانية).

كلمة الزهريّ

يذكر أبو الفرج الأصفهاني في «مقاتل الطالبيين»، إنه لمّا وصل خبر شهادة زيد بن عليّ بن الحسين[١] إلى الزهريّ، قال: «لماذا يتعجّل أهل هذا البيت؟ فسوف يأتي يوم يظهر المهديّ الموعود منهم»[٢]، وفي هذا التصريح دلالة واضحة على أن هذا الأمر كان شيئاً مسلّماً به بين المسلمين، بحيث أن الزّهريّ أخذ على العلويّين قيامهم بالثورات وإراقة دمائهم، ولو أنّهم صبروا، وانتظروا وعد رسول الله ﷺ، لكفاهم المهديّ الموعود مؤونة هذا الأمر. طبعاً، انتقاد الزهريّ غير صحيح في نظرنا، ولكنّ الشاهد هو تسليمه بمسألة المهديّ الموعود.

(١) كان للإمام زين العابدين عليه السلام ولد باسم زيد. وقد قام زيد هذا بثورة في زمان العباسيّين واستشهد. وفيما يتعلق بكون هذا الرجل على الحق أم لا؟ كلام كثير، لكن يستفاد من روايات الشيعة أن أئمّتنا عليهم السلام كانوا يجلّونه. وجاء في رواية «الكافي» أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أقسم بالله تعالى أن زيداً فارق الدنيا شهيداً». ويعتقد الشيعة الزيديّون الموجودون الآن في اليمن أن زيداً هذا هو الإمام من بعد أبيه زين العابدين عليه السلام. وقد كان زيد على أيّ حال رجلاً تقياً زاهداً حسن السيرة. وتقرّر رواياتنا بأن قيامه كان قيام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولم يكن لديه أيّ ادّعاء للإمامة.

(٢) لا بدّ من التنبيه هنا إلى أنه منذ صدر الإسلام، لم يعينّ ـ أبداً ـ زمان ظهور المهديّ عليه السلام. طبعاً هناك بعض الخواصّ والمقرّبين إلى أهل البيت يعلمون سلسلة نسبه وعلامات ظهوره، ولكن لا يوجد في الروايات المنقولة عن النبيّ ﷺ ما يشير إلى تأريخ هذا الظهور أبداً.

قيام (النفس الزكيّة) والاعتقاد بالمهدويّة

كما ذكرنا في فصل سابق، كان للإمام الحسن المجتبى عليه السلام ولد باسم الحسن أيضاً، ولهذا كان يسمّى بالحسن المثنّى وقد صاهر الإمام الحسين عليه السلام بالزواج من ابنته فاطمة بنت الحسين، فُولد له ولد باسم عبد الله، الذي لقب بعبد الله المحض، دلالة على نسبه الخالص. وكان لعبد الله المحض ولد باسم محمّد، وآخر باسم إبراهيم. وكان زمان هذين مقارناً لأواخر العهد الأمويّ. وكان محمد بن عبد الله المحض، رجلاً عظيم المنزلة والشرف، ولذلك لقّب بـ (النفس الزكيّة).

وفي الأيام الأخيرة من عهد الأمويّين اجتمع السادات الحسنيّون مع جماعة من كبراء العباسيّين، وبايعوا (النفس الزكيّة) على أنه مهديّ الأمّة. ثمّ استدعوا الإمام الصادق عليه السلام باعتباره زعيم السادات الحسينيّن، وطلبوا منه أن يبايع هو أيضاً. ولكن الإمام عليه السلام قال لهم: ما هو هدفكم من وراء هذا الأمر؟ إذا كان محمّد يريد القيام بعنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنا معه. أما إذا كان يريد القيام بعنوان أنه مهديّ هذه الأمّة، فإنه مخطىء في ذلك، ولن أبايعه على هذا الأساس.

وربّما كان الأمر مشتبهاً حتى على محمد بن عبد الله المحض نفسه، لوجود التماثل بين اسمه واسم النبيّ صلى الله عليه وآله، ووجود خال على كتفه كما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الناس يسمّون هذا الخال (خاتم النبوة). ولهذا كانت بيعة كثير من الذين بايعوه مبنيّة على أساس أنه المهديّ الموعود.

ومن ذلك يمكن الاستنتاج بأن مسألة (المهديّ الموعود) كانت متجذرة في نفوس المسلمين وأفكارهم بحيث أن أيّ أحد كان يعلن القيام والثورة، مع وجود مسحة من الصلاح والتقوى عليه، فإنّ المسلمين كانوا يقولون: هذا هو المهديّ الذي أخبر به رسول الله ﷺ!.

حيلة الخليفة العباسيّ (المنصور)

كان ثالث الخلفاء العباسيّين يدعى (المهديّ) وهو ابن (المنصور الدوانيقي). ويذكر المؤرخون ومن جملتهم (دار مستر) بأن هذا الخليفة العباسيّ سمّى ابنه بهذا الاسم لهدف سياسيّ ماكر، وهو أن يثبّت قاعدته الشعبية ويستميل الناس إليه، بواسطة إقناعهم بأن المهديّ الموعود الذي ينتظرونه ما هو إلاّ ابنه (المهدي) هذا. ولهذا ذكر صاحب «مقاتل الطالبيين» وآخرون غيره بأن المنصور كان يعترف أحياناً في لقاءاته مع خواصّه ومقرّبيه بكذب هذا الادّعاء. فمثلاً عندما التقى مرّة بمسلم ابن قتيبة وكان من المقربين إليه، قال له: ماذا يقول محمّد بن عبد الله المحض هذا؟ قال: يقول أنا مهديّ هذه الأمّة. قال: إنّه مخطىء فلا هو مهديّ الأمّة، ولا ابني هذا؟.

ومثل هذه الحوادث تبيّن أن روايات المهديّ المنتظر، كانت كثيرة ومتداولة بين الناس، وكان ممّا يسبب لهم الوقوع في الأخطاء والاشتباهات أنهم لم يكونوا يحقّقون جيّداً، لكي يتبيّنوا توافر جميع الأوصاف والعلامات التي ذكرتها الروايات النبويّة، فكانوا ينخدعون، أو يتسرّعون في الحكم بأن فلاناً من الناس هو صاحبهم الموعود!.

محمد بن عجلان والمنصور العباسيّ

كان أحد فقهاء (المدينة) ويدعى محمّد بن عجلان من الذين بايعوا محمد بن عبد الله المحض، وكان بنو العباس من المؤيّدين لهذه البيعة في البداية، ولكنّهم لمّا استولوا على الخلافة، أخذوا يقتلون أولئك الذين بايعوهم بالأمس من السادات الحسنيّين وكذلك كل من كان يؤيّدهم. وكان أن استدعى (المنصور) هذا الفقيه، وحقّق في أمره، فثبت عنده أنه بايع (محمد بن عبد الله)، فأصدر أمراً بقطع يده، وقال: «هذه اليد التي بايعت عدوّي يجب أن تقطع». فاجتمع فقهاء المدينة، وتشفّعوا لزميلهم (ابن عجلان)، وكان ممّا قالوا للمنصور في شفاعتهم: أيها الخليفة، إن هذا رجل فقيه وعالم بالروايات، وقد توهّم بأن ذلك الشخص هو مهدي الأمّة الذي بشّر به رسول الله ﷺ، فبايعه على هذا الأساس، وإلا فإنه لا يضمر في قلبه أي عداوة بالنسبة لك.

وهكذا فإننا كلّما ننتقل من عهد إلى عهد في التأريخ الإسلامي، فإننا نشاهد حوادث وقعت وكان منشؤها الاعتقاد الراسخ بحتمية ظهور المهديّ الموعود. وأيضاً فإن كثيراً من أئمتنا عليهم السلام كالإمام موسى الكاظم عليه السلام، والإمام محمد الباقر عليه السلام وغيرهما، كانوا عندما يفارقون الدنيا، فإن بعض الشيعة كانوا يشكّكون في موتهم ويقولون بغيبتهم معتقدين بأن هذا الإمام الذي يدّعي الناس موته هو المهديّ المنتظر.

وكان للإمام الصادق عليه السلام ولد يدعى إسماعيل وهو الذي تنتسب إليه طائفة (الإسماعيليّة) من الشيعة. وكان الإمام الصادق عليه السلام يحبّ ولده إسماعيل هذا كثيراً. وعندما توفيّ، غسّله الإمام وكفنه، ثمّ استدعى أصحابه، وكشف

الكفن أمامهم عن وجه الميّت وقال لهم: هذا هو إسماعيل ابني وقد مات، فلا يدّعي أحد غداً أنه مهديّ الأمّة، وأنه قد غاب! انظروا إلى جنازته. انظروا إلى وجهه. عرفوه جيّداً وتحققوا من ذلك، ثمّ اشهدوا أمام الناس بما رأيتم.

وهكذا، فإني في كل تحقيقاتي التأريخية، لم أجد رجلاً واحداً من علماء المسلمين منذ صدر الإسلام وحتى زمان (ابن خلدون) ـ ادّعى بأن الأحاديث المتعلّقة بالمهديّ الموعود (عج) لا أساس لها من الصحة، بل على العكس، كان الجميع يعتقدون بذلك، وإذا كان هناك اختلاف، ففي جزئيات الموضوع، كأن يكون المهديّ هذا الشخص أو ذاك. وهل هو ابن الإمام العسكري أم لا؟ وهل هو من أبناء الإمام الحسن عليه السلام أم من أبناء الإمام الحسين عليه السلام؟ أمّا أن هذه الأمّة سوف يكون لها (مهديّ)، وأنه من أولاد النبيّ صلى الله عليه وآله وأولاد فاطمة الزهراء عليها السلام، وأن مهمّته هي أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً، فلم يكن يوجد أدنى شك في هذه الأمور بين المسلمين كافّة.

قصيدة (دعبل)

جاء الشاعر المعروف (دعبل الخزاعي) يوماً إلى حضرة الإمام الرضا عليه السلام، وأنشد بين يديه مرثيّته الشهيرة التي مطلعها:

أفاطمُ لو خلت الحسين مجّدلا وقد مات عطشاناً بشطّ فرات
إذاً للطمت الخدّ فاطمُ عنده وأجريت دمع العين في الوجناتِ

يوجّه (دعبل) خطابه في هذه القصيدة إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، ويستعرض مصائب أولادها واحداً بعد واحد، ويذكر كيفيّة استشهادهم وأماكن قبورهم. وكان الإمام الرضا عليه السلام يبكي أثناء إنشاد هذه الأبيات. وظلّ (دعبل) ينتقل من مصيبة إلى مصيبة حتى وصل إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام فقال: (وقبر بغداد لنفس زكيّة...).

وهنا طلب الإمام عليه السلام من دعبل أن يضيف إلى قصيدته هذا البيت: (وقبر بطوسٍ يا لها من مصيبة...).

فقال (دعبل): بأبي أنت وأمي يابن رسول الله، لا علم لي بهذا القبر.
فقال الإمام الرضا عليه السلام: إنه قبري أنا!.

وقد وردت في قصيدة دعبل هذا، بعض الأبيات التي تشير إلى الموضوع الذي نحن بصدده، حيث ذكر بأن تلك المصائب سوف تستمرّ وتتوالى، إلى زمان إمام لا بدّ من ظهوره، وهو الذي سوف يضع حدّاً لكلّ ذلك.

وهكذا، إذا أردنا ذكر الشواهد التأريخيّة المشابهة، فهي كثيرة جداً، ولا يتسع المجال لاستقصائها هنا، فاقتصرت على ذكر نماذج منها فقط، من أجل بيان أثر فكرة (المهدويّة) في تأريخ العالم الإسلامي.

الاعتقاد بالمهدويّة في عالم التسنّن

إذا أردنا أن نعرف أن مسألة (المهدي الموعود (عج) ليست منحصرة في الشيعة، فينبغي أن ننظر لنرى هل يكثر أدعياء (المهدوية) بين الشيعة فقط، أم أن هناك من بين أهل السنة من ادّعى ذلك أيضاً؟.

إن التأريخ يشهد بأن هناك الكثير من بين أهل السنّة من ادّعوا هذا الأمر. وليس المهديّ أو المتمهديّ السوداني الذي ظهر في بلاد السودان قبل أقلّ من قرن من الزمان، وكوّن جمعيّة ظلّت قائمة إلى قبل فترة من الزمن، إلاّ واحداً من هؤلاء. وقد ادّعى هذا الرجل بأنه هو المهديّ المنتظر وطلب من الناس أن يبايعوه. وهذه الحادثة تدلّ على انتشار الاعتقاد بفكرة (المهدوية) في تلك الممالك السنيّة، ممّا حدى ببعض الناس هناك إلى تصديق مدّعٍ كاذب والسير وراءه.

ويوجد أيضاً الكثير من مدّعي (المهدويّة) في البلاد الإسلامية الأخرى كالهند والباكستان، حيث ظهر هناك (القاديانيّون) تحت عنوان ادّعاء (المهدوية).

وكلّ ذلك مصداق لما يوجد في رواياتنا من إشارات إلى ظهور الكثير من الدّجالين الذين يدّعون (المهدويّة) كذباً وزوراً.

بيان (حافظ)

لا أدري هل كان (حافظ) شيعيّاً حقّاً، أم أنه كان سنّيّاً. ولا أتصور أن أحداً يستطيع أن يجزم بتشيّع هذا الشاعر المشهور. ولكنّي أرى في أشعاره إشارات واضحة إلى مسألة ظهور الإمام المهديّ (عج). فنقرأ في إحدى قصائده هذا البيت:

أيّها الصوفيّ، أين ذلك الدجال الأعور الملحد؟
قل له يحترق بغيظه فالمهديّ حصن الدين قد جاء

وفي قصيدة أخرى يقول:

بشارةٌ أيّها القلب، فهناك للمسيح نَفَسٌ يأتي
ومن هذا النّفَس الزكيّ رائحة (شخص) تأتي
لا تئنّ ولا تصرخ من الألم، لأنّي
ضربت فألاً، فظهر أنّ (منقذاً) لا بد أن يأتي
لست وحدي المبتهج (بنار الوادي الأيمن)
فموسى أيضاً من أجل قَبَسٍ إلى هنا يأتي
لا يعلم أحد أين هو ذلك (المنزل المقصود)
فقط هناك صوت جرسٍ ـ من جهةٍ ما ـ يأتي
تسألون عن خبر (بلبل) هذا البستان؟
وإنّي لأسمع أنيناً خافتاً ـ من قفصٍ ما ـ يأتي

سوء فهم خطير

وما دمنا في صدد هذا الموضوع، فلا بدّ من الإشارة إلى أن فكرة كون الدنيا سوف تشهد مرحلة العدل والعدالة بعد أن تمتلىء بالظلم والجور، قد أوجدت مسألة خطيرة، وهي مخالفة طائفة من علماء المسلمين لكل ما يندرج تحت عنوان الإصلاح الاجتماعيّ. حيث يزعم هؤلاء بأن الدنيا ينبغي أن تمتلىء بالظلم والفساد لكي يظهر المهديّ الموعود ويقوم بثورته الاصلاحيّة الشاملة! وعندما يرون شخصاً يخطو خطوة واحدة نحو الاصلاح، أو يرون توجّهاً في المجتمع نحو التّدين والعمل ببعض أحكام الإسلام، فإنهم يستاءون كثيراً، لأنهم يعتقدون أن الأوضاع الاجتماعية يجب أن تسوء وتزداد سوءاً حتى تتهيّأ الأرضيّة لظهور المهديّ الموعود. وإذا قام أحد بأي عمل من شأنه جلب اهتمام الناس نحو الإسلام والتّديّن، فإن ذلك يعتبر في نظرهم خيانة لقضيّة المهديّ، ومزيداً من التأخير لظهوره المرتقب. فهل أن هذا النوع من التفكير صحيح أم خطأ؟.

سأبيّن فيما يلي نقطة هامّة تجيب على هذا السؤال.

ماهيّة قيام المهديّ (عج)

إنّ بعض الأحداث التي تقع في هذه الدّنيا تتمتّع بصبغة الانفجار، وذلك مثل أن يوجد «دمّل» في بدن الإنسان فهذا الدمّل يجب أن يتطوّر ويصل إلى حدّ بحيث ينفجر دفعة واحدة فيتحقّق الشفاء أو «الاصلاح» في البدن. وعلى هذا فأيّ عمل يؤدّي إلى الحيلولة دون انفجار هذا الدّمل، يعتبر عملاً غير صحيح. وحتّى إذا أردنا أن نضع «دواءً» فوقه، فينبغي أن يكون هذا الدواء من النوع الذي يسبّب الإسراع في عمليّة الانفجار.

وهكذا، وبالاستناد إلى هذه الحقيقة، فهناك بعض التيارات الفلسفيّة ـ التي تحبّذ أنواعاً معيّنة من الأنظمة السياسيّة والاجتماعية ـ تؤيّد الثورة بمعنى الانفجار، وتعارض كل عمل من شأنه أن يؤخّر الانفجار والثورة. ولهذا نرى بعض المناهج والأنظمة الاجتماعية تخالف الإصلاحات بشكل عام، وتفضّل ازدياد المفاسد والمظالم في المجتمع، وتراكم العقد والعداوات بين الناس، واستمرار اضطراب الأمور، إلى أن يصل الوضع إلى نقطة الانفجار والثورة ومن ثمّ يمكن إصلاح المجتمع بصورة جذريّة!.

فهل ينبغي لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نفكّر بهذا الشّكل فيما يتعلق بالإصلاح وبظهور الإمام الحجّة (عج)؟ وهل يجوز لنا أن ندع المعاصي والذنوب تزداد، وأن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهمل تربية أطفالنا بدعوى أن ذلك يعجل ظهور المهديّ عليه السلام؟ بل لكي نساهم بأنفسنا في تعجيل ظهور الحجّة عليه السلام، فإننا ـ والعياذ بالله ـ نترك الصلاة والصيام وسائر الواجبات الدينيّة، ونشجع الآخرين على ذلك، بهدف تهيئة مقدّمات الظهور؟؟.

كلا، فهذا بدون شك خلاف الأصول القطعيّة في الإسلام، وفقهنا له موقف واضح في هذا الشأن، فهو يؤكّد بأنّ انتظار الحجّة عليه السلام لا يسقط أي تكليف من التكاليف الشرعيّة لا الفرديّة ولا الجماعيّة. ولا يمكننا أن نجد عالماً واحداً من علماء المسلمين ـ سواء كان شيعياً أم سنيّاً ـ يقول بأن مسألة انتظار المهديّ الموعود، تسقط أصغر تكليف شرعيّ قرّره الإسلام.

هذا نوع من التفكير:

أما النوع الآخر فهو يدور حول فكرة «النضج» وليس «الانفجار». والواقع أن «الثمرة» و«الدمّل» كلاهما له سير تكاملي يستمر فيه إلى أن يصل إلى مرحلته النهائية، حيث ينفجر الدمّل، بينما تنضج الثمرة وتصبح جاهزة للقطف. ومسألة ظهور الحجّة عليه السلام تشبه نضج الثمرة أكثر مما تشبه انفجار الدمّل. والإمام الحجّة (عج) لم يظهر إلى الآن، ليس فقط بسبب أن الذّنوب لم تتكاثر إلى الحدّ المطلوب، بل لأن الدّنيا لم تصل بعد إلى مرحلة القابليّة والاستعداد لهذا الظهور. ولهذا نقرأ كثيراً في روايات الشيعة بأنه عندما يبلغ عدد أنصار الإمام المهديّ المنتظر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً في العالم كلّه، فعند ذلك يظهر الإمام ويبدأ ثورته الإصلاحيّة، وإلى الآن لم يتوفّر هذا العدد من الأنصار! وهذا يعني أن الزمان يجب أن يواصل مسيرته، بحيث أنه مهما يزداد الفساد في الدنيا، فإنه من الناحية الأُخرى ينبغي تواجد أولئك النفّر الذين يريدون تشكيل الحكومة العالمية، وعندهم الاستعداد الكافي لأن يكونوا تحت لواء المهديّ المنتظر عليه السلام ـ قادة العالم وسادته. وعند ذلك فقط يظهر الإمام وتبدأ الثورة المباركة.

نعم، إن الفكرة القائلة بأنه (ما لم تحدث «الفوضى»، فإنّ الأمر لا يصل إلى «النظام») صحيحة، ولكن لا ينبغي إساءة فهم هذه الفكرة. لأن «الفوضى» لها مستويات مختلفة. فعلى الدوام تظهر الفوضى والاضطراب في الدنيا، ثم يعقب ذلك النظام والاستقرار. ثم يتبّدل هذا النظام بالفوضى ولكنها فوضى على مستوى أعلى. ثم تتبّدل هذه الفوضى بالنظام ولكنّه نظام على مستوى أعلى أيضاً من النظام السابق وهكذا.

ولهذا يقول علماء الاجتماع بأن حركة المجتمع البشري هي حركة حلزونيّة، أي حركة دورانيّة ارتفاعيّة. ففي نفس الوقت الذي يدور فيه المجتمع البشريّ، فإنه لا يدور في مستوىً أفقي، بل يتّجه إلى الأعلى دائماً.

ولا يوجد شك بأن دنيانا اليوم هي دنيا مضطربة تعمّها الفوضى، بحيث أن زمامها قد أفلت حتى من يد القادة العظام وزعماء القوى الكبرى في العالم، ولكن هذا الاضطراب والفوضى على ذلك المستوى العالمي يختلف عمّا يمكن أن يحصل في قرية أو مدينة ـ مثلاً ـ اختلافاً كليّاً، وكذلك الحال بالنسبة للنظام والاستقرار. وعلى هذا فنحن عندما نتوجه نحو زمان ظهور الحجّة عليه السلام، فإننا نتّجه في هذه الدنيا نحو «الفوضى» و«النظام» في آن واحد.. نتّجه إلى الفوضى لأنه من الطبيعي الانتقال من النظام إلى الفوضى. ونتجه أيضاً إلى النظام لأنه فوضى على مستوى أعلى.

فهل ظهرت إلى الوجود ـ قبل قرن أو بضعة قرون من الزمن ـ تلك الأفكار الموجودة اليوم بين الناس؟ فلقد توصل مفكرو العالم اليوم إلى أن الطريق الوحيد لمعالجة شقاء البشرية ووضع حدّ لآلامها المريرة، هو تشكيل حكومة عالميّة واحدة، ولم يكن لمثل هذه الفكرة أن تخطر مجرّد خطور في مخيّلة البشر طيلة العصور الماضية. ونستنتج من كل ما سبق بأنه كما أن انتشار الظلم والفساد في العالم يقرب ظهور الإمام الحجة المنتظر (عج)، فإن الدّعوة إلى الاصلاح ومحاولة إجراء العدالة تقرّب أيضاً ذلك الظهور المبارك، وربّما بسرعة أكبر، وعند ذلك سيكون حساب دعاة الاصلاح والعدالة مختلفاً كليّاً عن حساب دعاة الفساد والانحراف، فلننظر أنفسنا في أي جانب نكون.

«المهدويّة» فلسفة عالميّة كبرى

إنّ مسألة ظهور المهديّ المنتظر (عج)، لا تختصّ بطائفة من البشر ولا بمنطقة معيّنة من الأرض، بل هي مسألة عامّة تستوعب كل الأرض وكل البشر. ذلك لأن الدّين الإسلامي ـ والتي تعتبر المهدويّة واحدة من مسائله ـ دين عالميّ، وقد أرسل الله تعالى خاتم أنبيائه للناس كافّة، ووعده أن يظهر دينه على سائر الأديان الأخرى.

ولذلك فإن الآيات القرآنية التي تبشر بمجيء دولة الحق والعدل هي من قبيل هذه الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. وهذه الآية وأمثالها تشير:

أولاً: إلى الأمل بمستقبل البشرية، وأن الدنيا لن تدمّر وتفنى، كما هي الفكرة السائدة اليوم في أوروبا، بأن البشرية في تمدّنها وحضارتها قد وصلت إلى مرحلة بحيث لم يبق أمامها إلا خطوة واحدة لتسقط في القبر التي حفرته لنفسها بيدها! والواقع أن ظواهر الأمور تؤيّد هذه الفكرة بشدة، إلا أن أصول ديننا ومذهبنا تؤكّد أنّ ما هو موجود الآن من الفساد والاضطراب شيء مؤقّت، وأن هناك حياة سعيدة مستقرّة تنتظر البشرية في المستقبل.

وثانياً: إلى أن عهد المستقبل هو عهد العقل والعدالة، فكما أن الفرد يمرّ في حياته بثلاث مراحل: مرحلة الطفولة وهي تتّسم باللّعب والأفكار الصبيانية.

ومرحلة الشباب التي تتّسم بالغضب والشهوة.

ومرحلة الرجولة، التي تتّسم بالعقل والنضج والاستفادة من التجارب السابقة.

وكذلك المجتمع البشري لا بدّ أن يطوي مراحله الثلاث. وإلى الآن مرّ هذا المجتمع بمرحلتين من مراحله:

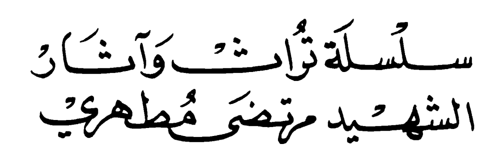
مرحلة الأساطير والخرافات، وبتعبير القرآن مرحلة «الجاهلية الأولى».

ثمّ مرحلة العلم، ولكنّه العلم الممزوج بالشباب، أي مرحلة حكومة الغضب والشهوة، فعصرنا الحاضر هو قبل أيّ شيء، عصر «القنبلة» أي الغضب، وعصر «الميني جوب» أي الشهوة.

فهل يا ترى من المعقول أن لا تأتي على البشريّة مرحلة تكون الحكومة فيها ليست حكومة جهالة وأساطير، ولا حكومة قنبلة وميني جوب؟ مرحلة تتّسم بالعلم والمعرفة في ظل العدالة والسلام والإنسانيّة، حيث تكون المعنويّات الساميّة هي الحاكمة في العالم لا الماديّات المنحطّة؟.

وهل من المعقول أنّ الله تبارك وتعالى خلق هذه الدنيا، وخلق الإنسان فيها بعنوان أشرف المخلوفات، ثمّ أنّه يقوم بعد ذلك بإفناء الحياة قبل أن تصل البشريّة إلى مرحلة رشدها وبلوغها؟.

كلا، فمضامين الآيات القرآنية والروايات الإسلاميّة تفيد بصورة لا لبس فيها، بأن البشريّة لا بدّ أن تصل إلى مرحلة كمالها ونضجها، ولا بدّ أن يحكم فيها الدّين والعقل، ويكون الإنسان الذي يعمر الأرض حينذاك، «إنساناً» كما أراده الله سبحانه يوم خلقه ونفخ فيه من روحه.



كتاب
دور الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر
في النهضة الحسينية

مقدّمة المترجم

يعتبر الأُستاذ الشهيد مرتضى المطهّري أحد روّاد الفكر الإسلامي الحديث، الذي ساهم مساهمة فعّالة في بثّ الصحوة الإسلاميّة الحديثة وقيادة حركة التغيير والثورة في المشروع الإسلامي المعاصر...

فالمطهري، هو من القلائل الذين حملوا هاجس الإسلام وقضاياه المصيرية وكان طموحه ينصب على إبقاء أفكار الإسلام وأحكامه ونظرياته غضَّة حيّة تتحكم في سلوكيات الناس وتؤطر حياتهم.

ولقد ميّز المطهّري بوضوح بين الثابت والمتغيّر في الفكر الإسلامي وبالذات في العملية الاجتهادية وحثَّ على استيعاب متطلبات الزمان المتغيرة وعمل جاهداً لتأسيس نظريات إسلامية تعي أصل العدل الاجتماعي والاقتصادي، ولم يتوقف عند مستوى المطالبة بذلك، بل بادر بنفسه لتشخيص النواقص ومواطن الخلل ومكمن الفراغ، وحلّل أسباب ذلك بصراحته المعهودة والمتناهية ونقده اللاذع أحياناً للمشاكل الذاتية والموضوعية التي تعرقل مسيرة تكامل البناء الإسلامي.

لقد ركّزَ المطهري في دراساته وبحوثه ومحاضراته على مجموعة القوى المحرّكة للمجتمع مثل الفقه والاجتهاد وناقش قضايا المرأة والشباب وولج الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والتشريع، وخاض غمار التجديد والإصلاح الديني والفكري، وابتدع الحلول العلمية والعملية القيّمة لشتى المعضلات بحيث يستريح من خلالها الضمير الديني عند الإنسان المسلم وهو يتحرك مطمئناً بحدود التعامل في سلوكه العام مع نفسه ومع المجتمع.

وعلى هذا الأساس، فلقد عُدّ الرجل بحقّ، الأُستاذ المعلم، أو الفقيه المثقف أو المفكّر الفقيه، واستطاع بصدقه وإخلاصه أن يُساهم في ردْم الهوّة المفتعلة بين الحوزة والجامعة، ويُشارك في إصلاحهما أو الدعوة لإصلاحهما وترميمهما، وأن يدفع بعجلة الثورة الإسلامية إلى الأمام ويُساهم في بناء ركائزها التحتية، وصولاً لإنشاء جيل واعٍ يجمع بين التراث والحداثة، وبين الدين والسياسة، وبين الغيب والواقع...

ولا نريد هنا المرور على تراث هذا المفكر الكبير، وإحصاء ملامح هذا التراث الثرّ، المتشعب الأبعاد، الوافر الخصوبة، بقدر ما نريد التوقّف عند نقطة واحدة، وواحدة فقط أراد الرجل من خلالها تفعيل حركة الإصلاح في الأُمّة، وريادة مشروع الصحوة الإسلامية، وعبر المرور على حلقة واحدة من حلقات مشروعه الإصلاحي، المتمثّلة هنا بمحاولة طرح رؤى جديدة حول النهضة الحسينية، وإصلاح الكثير من المفاهيم المغلوطة التي علقت بهذه النهضة الخالدة.

فكان في هذا الطريق كتابه الأكثر شهرة والأكثر إثارة للجدل، الذي جاء تحت عنوان (الملحمة الحسينية) والذي لخص فيه أهم متبنياته التأصيلية المتينة، ورؤاه الرائدة في الحديث عن هذه الملحمة، ويمكننا القول بحقّ أن الشهيد مطهري في كتابه هذا رفع صوت الغضب في وجه من يحتفلون بذكرى عاشوراء الخالدة احتفالاً خاوياً أجوف يخرج بها عن أصالتها وجوهرها، إذ لا غرض لهم سوى البكاء والنحيب، لمجرد البكاء والنحيب متناسين ما تدعو إليه هذه الذكرى من سموّ قيم (ومعالم ثورة) تبعث على اليقظة والتحفّز، وتدعو إلى الوقوف بإباء وشمم في وجه العتاة الجبابرة.

إن أهم موضوع تناوله الشهيد المطهري في (محاضراته هذه)، هو الحديث فريضة إسلامية مهمة تعتبر من أهم فرائض الإسلام وهي الفريضة المغيّبة التي نهض بعبء إحيائها سيّد الشهداء وأبو الأحرار عليه السلام، ودفع ضريبة هذا الإحياء حياته الشريفة وحياة الصفوة من أهل بيت النبوّة وحياة نخبة طاهرة من أصحابه وأبنائه وأنصاره وأهل بيته.. ويستدلّ أوّل على ضرورة إحياء هذه الفريضة الإسلامية السامية، بل أسمى الفرائض والتي يعتبرها بعض المسلمين أصلاً من أصول الدين وليس فرعاً من فروعه، من الآية القرآنية الكريمة التي

تقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

هذه الآية المباركة ـ كما نرى ـ التي تَقَدّم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى على الإيمان بالله سبحانه، إنما جاءت لتوكّد أهمية هذه الفريضة ودورها في خلق الأمة الخيّرة، وأن المسلمين لولاها ما كانوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أصلاً أو كما يقول الشيخ المطهري:

«ومن هنا لا بد لنا أن نستنتج المفهوم النقيض لهذا المفهوم المطروح، كما يقول المناطقة أي: نحن لسنا بأُمة الإسلام ولسنا بأفضل الأمم البشرية لأننا لا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر، وبالتالي فإننا لا نستطيع ادّعاء الرفعة والعزة والشرف ولا يمكننا أن نتباهى بما عندنا. . .»[٢].

ويُثير الاستاذ المطهري سؤالاً حساساً ودقيقاً جاء فيه:

«طبيعي أن يُطرح التساؤل التاريخي، ويتم التحقيق حول سبب تراجع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيم والمهم هذا عن واجهة التاريخ الإسلامي، ولماذا لم ينل أهميته اللازمة من قِبَل المسلمين، ولماذا لم يُعَر له أي اهتمام حتى صار موضوعاً مهملاً في مجتمعاتنا الراهنة»[٣].

من هذا المنطلق يبدأ الشيخ المطهري حديثه حول هذه الفريضة السامية، ويؤكّد كيف جاء الإمام الحسين عليه السلام ليُحييها في سنّة جدّه ويُعيد التذكير بها، لأنها **«ليس موضوعاً يمكن للمرء أن ينفيه، أو يغيّبه عن ساحة المجتمعات، بل إنه موضوع حاضر وحي، وعلى رأس الموضوعات الاجتماعية في كل عصر وزمان، ولا بد من طرحه على الدوام لنتذكّر أهميته ولا ننساه أبداً»**[٤].

فراح يؤكد مرات عديدة شعار الإمام الحسين الخالد **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً. . .»** ويؤكّد ما نشهد به في العديد من زيارات

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) انظر المحاضرة الثانية.
(٣) انظر المحاضرة الثانية.
(٤) انظر المحاضرة الثانية.

أئمتنا عليهم السلام حين نخاطب كلّ واحد منهم بالقول: «**ونشهد أنك قد أقمتَ الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين**».

ويضيف: «**من خلال ما تقدم يتضح لنا أن النهضة الحسينية قد استقت قيمتها وأهميتها الأساسية من بُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... هذا الأمر الذي يعتبر المبدأ الوحيد الذي يضمن بقاء الإسلام، وهو «العلّة المبقية» كما يقول الفقهاء، بل يمكن القول إنه لا وجود للإسلام بدون هذا المبدأ**»(١)

المؤلم المؤسف فعلاً أن هذه الفريضة السامية التي تُقام بها بقية الفرائض ـ كما يقول الفقهاء ـ والتي وصفها الإمام علي عليه السلام بقوله: «**والأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء**» وذكرها القرآن الكريم في العشرات من آيات الله البينات، كادت تضمر أو تنتهي إلى الصفر وهذا يعني تصفير عملية التغيير الاجتماعي والتنصّل من مسؤولية مواجهة الظلم، وخاصة حين راح بعض الفقهاء ينظّرون لغيابها أو تغييبها تحت عناوين «التقية» حيناً، وعناوين «عدم إلقاء النفس بالتهلكة» حيناً آخر، وكذلك عناوين عدم وجوبها إلاّ بعد «**حرز الأثر والأمن من الضرر**» أو عناوين الآخرين، في عدم جواز الخروج على الظلم و...، وما إلى ذلك من عناوين كادت ـ لفرط التساهل فيها ـ تطمس معالم هذه الفريضة العظيمة وتجتثّ نظرية التغيير الاجتماعي في الإسلام، من الأساس.

والخلاصة...:

لقد أراد الشهيد مطهري أن يقول من خلال محاضراته هذه: أنّه من الغبن أن لا نرى في القضية الحسينية إلاّ جانباً واحداً فقط، الجانب المأساوي الحزين ـ رغم قدسيته ـ دون أن ندع جانب الفكر والموقف والقدوة ينطلق ليشكل تفاعلاً منسجماً بين الفكر والعاطفة. فهدف الإمام الحسين عليه السلام من واقعة الطف كان إصلاح هذه الأُمّة والعمل على تغيير الواقع السيىء إلى واقع الإسلام المبارك.

---

(١) انظر المحاضرة الثالثة..

أمّا مواضيع المحاضرات فهي على الترتيب:

١ ـ العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية.

٢ ـ قيمة كل عامل من العوامل.

٣ ـ شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ مراحل وأقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نظر علماء الإسلام.

٦ ـ نتائج القول في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧ ـ تأثيرات قيام أهل بيت الإمام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد واقعة كربلاء.

وكان عملنا في هذه المحاضرات هو نقلها من المصدر أولاً (الأشرطة الصوتية) وهي بصوت الشهيد السعيد، ومن ثم تعريبها وتهذيبها وإضافة العديد من التعليقات والهوامش المفيدة حولها، لتخرج بهذه الحلّة القشيبة.

ونحن إذ نهدي الجميع هذا السفر القيّم ليلقى مزيداً من الأضواء على جوانب نهضة الحسين عليه السلام نسأل الله تبارك وتعالى أن يأخذ بيد أُمّتنا الإسلاميّة نحو العزّة والكرامة لنعود كما كنّا خير أُمّة أخرجت للناس عندما كنّا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر.

عبد الهادي الركابي
١/ محرم الحرام/ ١٤٢٣هـ

المحاضرة الأولى

العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه، سيّدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد، وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[٢].

إنّ بحثنا يتناول أثر عوامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية، ولا بدّ منذ البداية من السؤال عمّا إذا كان هذا العامل مؤثراً في النهضة الحسينية أصلاً، أم لا؟.

(١) أُلقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٦ محرم الحرام ١٣٩٠هـ. ق.

(٢) التوبة: ١١١ ـ ١١٢.

بعبارة أُخرى، ينبغي التساؤل فيما إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العوامل التي دفعت بالحسين بن علي عليه السلام للقيام والثورة أم لا؟.

ومن ثم ثانياً مدى تأثير مثل هذا العامل؟.

الكل يعرف أنّ فلسفة إقامة المآتم الحسينيّة، وإحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام التي أوصانا بها الأئمة الأطهار عليهم السلام بالمداومة عليها، عاماً بعد عام، إنما هي فلسفة تربوية، يُقصد منها التعلُّم وإدراك المعارف من ذلك الدرس التاريخي الكبير جداً.

ولكي يستطيع الإنسان الاستفادة من أي درس، لا بدّ له أوّلاً من فهم واستيعاب ذلك الدرس جيداً.

في هذه الليلة سأتحدث إليكم بشكل مجمل عن مجموع العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية، ثم أُعرِّج بكم للحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتباره العامل الأساس لهذه النهضة، وسأتناول هذا الموضوع بالتفصيل والشرح المُسهب والموسّع إن شاء الله.

هناك عوامل متعددة لعبت دوراً في وقوع النهضة الحسينية، وهذا الأمر بحد ذاته ساعد في تشابك التفسيرات وتداخل التحليلات المتنوعة لهذه الحادثة التاريخية التي أُريد من خلالها الوصول إلى كُنه واقعيتها العميقة والبلغية، بالرغم من عدم اتساع الرقعة التاريخية والزمانية لوقائع الحدث.

من أسباب اختلاف التفسيرات التي وردت بشأن هذه الواقعة واستغلالها بشكل سيّىء أحياناً، هي تعقيدات هذه الواقعة العظيمة، وذلك من زاوية العناصر المؤثرة في صناعة الحدث والرواية الحسينية.

ففي هذه الواقعة تواجهنا قضايا عديدة:

فمرةً هناك قضية أخذ البيعة ليزيد، وامتناع الإمام عليه السلام عن هذه البيعة، وهناك قضية دعوة أهل الكوفة للإمام وقبول الإمام لهذه الدعوة.

وفي مكان آخر من الحدث نرى أنَّ حديث الإمام لا يتناول بأيّ شكل من

الأشكال قضية البيعة، وامتناعه عليه السلام عن المبايعة[١]، كما أنه لا يتطرق بالمرّة إلى موضوع دعوة أهل الكوفة له، ومبايعتهم له، بل إنّ حديثه يتطرّق على العموم إلى الأوضاع الحكومية الفاسدة، وبالتالي فإنه يوجّه النقد اللاذع لوضع حكومة العصر، وكيف أنها تحاول تغيير جوهر الإسلام وماهيته، ويُبين مدى تحول الحرام إلى حلال، والحلال إلى حرام، وأخيراً تذكير الناس بواجبهم الإسلامي في مواجهة مثل تلك الأوضاع وضرورة عدم الرضوخ لها أو السكوت عليها.

وهنا نرى أنّ الإمام لا يتطرق إلى موضوع البيعة، ولا إلى موضوع دعوة أهل الكوفة. وكأنه ليس هناك مسألة باسم البيعة ليزيد، ولا قضية باسم دعوة أهل الكوفة له.

فأين يكمن السبب إذن في حصول النهضة؟ هل المسألة مسألة البيعة؟ أو إنّ القضية هي قضية الدعوة التي تلقاها من أهل الكوفة؟ أو إنها لا هذه ولا تلك، بل إنها مسألة المعارضة والنقد، أم شيوع المنكرات وضرورة محاربتها؟.

فأية قضية من تلك القضايا كانت الباعث الحقيقي؟ وكيف نُبرر هذه الحالة وما هو تفسيرنا لها؟ ثم ما هو الفرق الواضح والبيّن الذي يمكن عرضه بين عصر الإمام، أي عصر حكومة يزيد مع العصور التي ما قبلها؟ لا سيما مع عصر معاوية الذي صالحه الإمام الحسن عليه السلام في حين إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم تكن لديه أية نيّة للصلح مع يزيد، كما أنه لم يكن يجيز لنفسه مثل هذا الصلح.

والحقيقة إن كل هذه العوامل مجتمعة كانت مؤثرة. أي إنّ هذه العوامل كانت موجودة بأجمعها، وإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أبدى ردود فعله المناسبة

(١) كان من ضمن حوار الإمام الحسين عليه السلام مع الوليد بن عتبة والي معاوية على المدينة قوله عليه السلام: «أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم الله ويزيد رجل فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق والفجور، ومثلي لا يُبايع مثله ولكن نُصبح وتُصبحون، وننظر وتنظرون، أيّنا أحق بالبيعة والخلافة».
انظر: الملهوف: ١٧، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

تجاه كل عامل من هذه العوامل فجزء من تحركه استند في الواقع إلى موقف الامتناع عن البيعة ليزيد، في حين أنّ بعض قراراته قامت على أساس دعوة أهل الكوفة له، بينما كان البعض الآخر يقوم على أساس محاربة الفساد والمنكر الذي كان شائعاً على كل حال في ذلك الزمان.

كل هذه العوامل كانت مؤثرة في واقعة كربلاء، تلك الواقعة التي هي عبارة عن مجموع ردود الفعل والقرارات التي تم اتخاذها من قبل الوجود القدسي العظيم لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

في البداية سنبحث موضوع البيعة، ومدى تأثيرها في الواقعة، وردّ الفعل المعاكس الذي أظهره الإمام مقابل مطالبتهم إياه بمبايعة يزيد، والتكليف الذي كان يحمله الإمام مقابل هذه البيعة؟.

كلنا يعرف كيف وصل معاوية بن أبي سفيان إلى رأس الهرم في السلطة، وتربع على كرسي الخلافة. فبعد أن أظهر أصحاب الإمام الحسن عليه السلام ضعفاً شديداً، اضطر الإمام إلى التوقيع على معاهدة مؤقتة مع معاوية، لم يعترف فيها له بمشروعية الخلافة، أو الحكم، وإنما على أساس تخلّية عليه السلام عن الحكم له مؤقتاً، مقابل تعهد معاوية بإفساح المجال للمسلمين بانتخاب الحاكم الذي يرغبون بانتخابه خليفة على المسلمين(١).

وبعبارة أُخرى، إفساح المجال للمسلمين بانتخاب من يرونه صالحاً، وكفؤاً للخلافة، ممّن عيّنهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله للولاية من بعده.

وكلّنا يعرف أيضاً بأنه حتى عهد معاوية كانت مسألة الخلافة والحكم خارجة عن نطاق الوراثة تماماً، ورأي المسلمين بشأنها ينقسم إلى قسمين:

قسم يرى بأنّ الخلافة من حق ذلك الشخص الذي عيّنه النبي بأمر من الله سبحانه وتعالى للخلافة.

وقسم يقول بحق الناس في انتخاب الخليفة المناسب.

---

(١) راجع كتاب صلح الإمام الحسن لآل ياسين، حيث ستطلّع فيه على الأسباب الحقيقية التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام للصلح مع معاوية.

ولكن على كل حال لم يكن مطروحاً بعدُ أن من حق الخليفة الحاكم تعيين الخليفة الذي يليه، وبالتالي فرضه على الناس ولياً للعهد من بعده، وأنّ هذا الأخير يُعيّن الذي يليه، وهكذا دواليك. . . وبالتالي خروج مسألة الخلافة من دائرة البحث فيما إذا كان الأمر يعود لنصّ النبي الأكرم، أو حق المسلمين في انتخاب الحاكم المناسب.

إنّ أحد بنود اتفاقية الصلح، التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، والتي لم يعمل بها معاوية، بل ونقضها صراحةً (تماماً كما عمل مع بقية البنود)، كان ينص على عدم وجود أي حق لمعاوية في تعيين مصير المسلمين من بعده، ولذلك تراه يتآمر في قتل الحسن، عن طريق تسميمه، حتى لا يبقى أثر أو شاهد على هذه الاتفاقية، أو بالأحرى يتم القضاء على المُدعي في هذا النزاع.

فالحسن عليه السلام كان يُريد القول من خلال اتفاقية الصلح: إنّ معاوية شر أصاب المسلمين، وها نحن قد تجرّعناه، ولكن الأمر بعده لا بدّ وأن يعود بيد المسلمين، وفي كل الأحوال ليس بيد معاوية.

لكن معاوية، وكما يؤكد المؤرخون، كان يسعى منذ اليوم الأول، لجعل الخلافة تصبح نوعاً من أنواع السلطنة، ومن ثم ضمان بقائها في عائلته وقومه، فلا تخرج أبداً من عشيرته.

لكنه كان يعرف قبل غيره بأنّ هذا الأمر لم يكن بالأمر الهيّن، ولا توجد له الأرضية المساعدة. ولذلك تراه كان يُفكر كثيراً حول هذا الموضوع، ويتشاور مع أصحابه، وأعوانه خاصة، لكنه لم يكن يتجرأ بالإعلان عن نواياه الحقيقية تلك إذ إنه لم يكن يتصوّر أن يكون مشروعه مشروعاً عملياً.

المؤرخون يكتبون في هذا المجال، بأنّ الذي شجّع معاوية، وأدخل الاطمئنان إلى قلبه بإمكانية تحقيق مثل هذا الحلم، هو (المُغيرة بن شعبة)[1] الذي كان بدوره يبحث عن تأمين ولاية الكوفة لنفسه، لا سيما وأنه كان والياً على الكوفة في الماضي، غير أنّ معاوية كان قد أصدر لتوه أمراً بعزله عنها، مما أزعج المغيرة كثيراً.

---

(١) انظر ترجمته في كتاب الاستيعاب ٤: ١٤٤٦.

والمغيرة هذا معروف عنه بأنه من شياطين القوم ومُخططي العرب ودُهاتها.

فهو ومن أجل العودة مجدداً إلى كُرسي الولاية، فقد ذهب إلى الشامُ والتقى بيزيد بن معاوية، وقال له:

لا أدري ماذا ينتظر معاوية، ولماذا يتماهل بشأن ولاية العهد؟.

فقال له يزيد: إنّ أبي يتصور بأنّ هذا الأمر ليس عملياً.

فقال: بلى، إنه عملي، فممّن تخافون؟ هل تتصورون أنّ الناس سوف لن تتجاوب معكم؟.

فالناس في الشام مطيعةٌ لأمر معاوية وتعليماته، وأما المدينة فأنا أنصحكم بإرسال فلان إليها، وهو قادر على تنفيذ هذه المهمة لكم. يبقى المكان الأخطر والأهم، من كل مكان آخر، وهو العراق (الكوفة) وهذه المهمة اتركوها لي فأنا كفيل بها.

ويذهب يزيد إلى معاوية، ويُخبره بما يقوله المُغيرة بهذا الخصوص، فيطلب معاوية المغيرة ليتحدث إليه.

ومن خلال المنطق القوي الذي يحمله المغيرة، واللسان الحلو، يستطيع إقناع معاوية بأنّ الأرضية مُهيأة لطرح فكرة ولاية العهد، وأنّ المشكل الوحيد الذي سيواجه هذا الطرح هو موقف أهل الكوفة الذي هو بدوره على استعداد لحله، ومواجهة صعابه.

وهنا يُقرر معاوية تولية المُغيرة على الكوفة مرة أُخرى. (كل هذا يحدث بالطبع بعد شهادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، والذي يُصادف في السنين الأخيرة من عهد معاوية) والحكاية متشعبة كثيراً[١]. ولكن يمكن تلخيص ما جرى كما يلي: فأهل الكوفة والمدينة لم يقبلوا بالفكرة، وأُجبر معاوية على الذهاب بنفسه إلى المدينة وهناك دعا وجاء المدينة، أي أولئك النفر الذين يحترمهم الناس فيها، ويُجلون شخصياتهم، وهم الحسين بن علي عليه السلام،

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وطلب إليهم بلسان معسول، الموافقة على فكرة حكومة يزيد، من خلال طرح فكرة المصلحة الإسلامية العامة التي تتطلب مبايعة يزيد للحكم والخلافة ظاهرياً، على أنْ يكون الحكم الحقيقي والفعلي بيد هؤلاء الوجهاء الثلاثة، وذلك من أجل المحافظة على وحدة المجتمع، ودفع الاختلاف بين الناس.

لكنه فشل في إقناعهم بفكرة مبايعة يزيد، وبالتالي فإن الأُمور لم تسر على الشكل الذي أراد له معاوية أن يتم، حتى بعد استخدامه أسلوب الخداع، والمكر، والاحتيال، وذلك من خلال محاولة إعطاء الانطباع للناس في مسجد المدينة، بقبول هؤلاء الثلاثة بفكرة البيعة ليزيد، الأمر الذي لم يتم تحقيقه والوصول إليه كذلك.

إنّ معاوية كان قلقاً جداً بشأن مستقبل ابنه يزيد، وقد قدّم إليه بعض النصائح في أيام عمره الأخيرة عندما قال له: تصرف هكذا مع عبد الله بن الزبير لأخذ البيعة منه، وتصرف هكذا مع عبد الله بن عمر لنفس الغرض، ولكنه إيّاك أنْ تتصرف بخشونة وعنف مع الحسين بن علي عليه السلام!! بل ونصحه باستخدام الرفق واللين معه تماماً، وأضاف: إنه ابن النبي، وإنّ له مكانة عظيمة عند المسلمين، فإياك واستخدام الخشونة مع الحسين بن علي.

إنّ معاوية كان يعي جيداً ويعرف تماماً بأنّ معاملة يزيد للإمام الحسين بخشونة، وتلطيخ يديه بدم الحسين، كان يعني سلب الخلافة من يزيد، وضياعها بسرعة، وخروج الخلافة من عشيرة آل سفيان نهائياً.

لقد كان معاوية رجلاً داهية، وكانت تنبؤاته مثل كل تنبؤات السياسيين الآخرين، غالباً ما تصدُق على الواقع، أي إنه كان رجلاً يستوعب حركة الأمور جيداً، وقادراً على قراءة المستقبل بشكل جيد.

على العكس تماماً مما كان ابنه يزيد، فهو شاب مغروراً أولاً، ورجل إمارة مُدلّل، قضى أيام شبابه في حياة البذخ والقصور، ولم يخرج من دائرة اللهو واللعب والأنس، وهو لم تكن لديه حاسة الإدراك والشم السياسي، وقد تسلطت عليه وغلبته آفات الغرور، غرور الشباب، والسلطة، والثروة، والشهوة.

فهو قد ارتكب عملاً أضر وأكثر ما أضرّ به آل أبي سفيان بالدرجة الأولى، حيث كانت فيه عائلة أبي سفيان الخاسر الأكبر.

فهم لم تكن لديهم أهداف معنوية في الحياة، وكل ما كانوا يهدفون إليه هو الوصول للسلطة والتربع على عرش السلطنة، وهذا ما خسروه بالفعل نتيجة أعمال يزيد.

صحيح أنّ الحسين بن علي عليه السلام قد قُتل، لكنه حقق أهدافه المعنوية، وأدرك غاياته العرفانية في المقابل فإنّ آل أبي سفيان لم يُحققوا أيّاً من أهدافهم، بأيّ شكل من الأشكال.

بعد أن توفّي معاوية في الخامس عشر من شهر رجب من العام الستين للهجرة، أرسل ابنه يزيد رسالة إلى حاكم المدينة، الذي كان من بني أمية، يُخبره فيها بموت معاوية، ويطلب منه أخذ البيعة له من الناس(١).

لقد كان يعرف بالضبط أنّ المدينة مركز الدولة الإسلامية، وأنّ الناس جميعاً يشخصون بأبصارهم إلى المركز، ولذا تراه يبعث إليه برسالة أُخرى معها يطلب إليه فيها استدعاء الحسين بن علي، وأخذ البيعة منه، وأن يبعث إليه برأس الحسين في حالة رفضه للبيعة.

وبناء عليه، فإنّ إحدى القضايا التي كانت تواجه الإمام الحسين، هي طلب البيعة ليزيد بن معاوية بتلك الصورة التي مر ذكرها، والتي علاوة على كل المفاسد الأُخرى، فإنّ مفسدتين خاصتين تبرزان هنا لم تكونا موجودتين حتى مع معاوية.

إحداهما هي أنّ البيعة مع يزيد كانت تعني إضفاء المشروعية على الخلافة الوراثية من قبل الإمام الحسين، أيْ إنّ موضوع الخلافة لم يَعُد موضوع الموافقة على فرد معين، بقدر ما كانت تعني الموافقة على مبدأ الخلافة الوراثية.

والمفسدة الثانية كانت تتعلق بشخص يزيد بالذات، الذي كان وضعه يختلف عن وضع كل الأزمنة والعصور الأُخرى، فهو لم يكن رجلاً فاسقاً

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن الأثير ٨: ١٤٣، العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي ٤: ٣٧٤، البيان والتبيين للجاحظ ٣: ١٠٩، الكامل للمبرد ٣: ٣٠٠.

وفاجراً فحسب، بل إنه كان يتظاهر بالفسق، ويجهر بفساده وفجوره، ويفتقد مع ذلك إلى الكفاءة واللياقة السياسية تماماً.

إنّ معاوية وكثيراً من خلفاء بني العباس كانوا من الفسقة والفجّار، لكنهم كانوا يُدركون تماماً بأنهم إذا ما أرادوا لسُلطتهم وملكهم الدوام، فإن عليهم مراعاة المصالح الإسلامية العامة إلى حد كبير إلى جانب الحفاظ على الشؤون الإسلامية.

لقد كانوا يُدركون جيداً بأنّ عدم وجود الإسلام يعني عدم وجودهم أيضاً.

لقد كانوا يعرفون بأنّ مئات ملايين البشر من أبناء القوميات المختلفة في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهم الذين انضووا تحت علم وحكومة واحدة، مركزها الشام، أو بغداد، إنما يخضعون لسلطة هذه الحكومة المركزية، لأنها حكومة الإسلام، ولأنها تحكم باسم القرآن، وإنّ خليفتها هو الخليفة الإسلامي، وفي غير ذلك فإنهم لو اكتشفوا بأنّ الخليفة مناهض للإسلام، فإن أول عمل سيقومون به هو إعلان استقلالهم عن المركز.

فما الذي كان يُجبر مثلاً أهل خراسان، أو الشام وسورية، وقسماً من أبناء إفريقية، أن يُقدموا الطاعة لحاكم بغداد أو حاكم الشام؟.

ولذلك فإن الخلفاء العقلاء ومن يملكون الحس والإدراك السياسي، كانوا يُدركون بأن المفروض بهم مراعاة مصالح الإسلام إلى حد كبير.

لكن يزيد بن معاوية لم يكن لديه هذا الشعور، لأنه كان رجلاً متهتكاً.

لقد كان يُسر من حالة عدم احترامه للناس والإسلام، وكسره للحدود الإسلامية.

ربما كان معاوية بدوره يشرب الخمر أيضاً، (وعندما أقول هنا ربما، فإنني أقولها من الناحية التاريخية، لأنني شخصياً لا أتذكر شيئاً من هذا، لكن الذين يقرأون التاريخ بدقة أكثر، ربما عثروا على موارد من هذا القبيل)[1] والتاريخ أشار تلميحاً إلى أنّ معاوية قد شرب الخمر في مجلسٍ علني، أو أنّه دخل إلى المجلس

(١) راجع كتاب الغدير ١٠: ١٧٩ حيث ستجد أن هذا الموضوع مُسلّم من الناحية التاريخية.

وهو في حالة سكر، وإنّ هذا الرجل ـ أي يزيد ـ يشرب الخمرة علنا في المجالس الرسمية، ويسكر حتى الثمالة، ثم يبدأ بالهذيان الكامل.

كتب المؤرخون جميعاً عنه: أنّه كان يُمارس هواية ملاعبة القردة و... ولقد كان يملك قرداً سمّاه أبا قيس، وكان يحبه كثيراً.

ولمّا كانت أُمّه من أهل البادية، وقد نشأ هو أيضاً في البادية، ولذلك تراه يحمل عادات وأخلاق أهل البادية حيث كان يحب كثيراً القردة والكلاب و... ويأنس لمعاشرتهم.

وفي هذا الخصوص ينقل المسعودي في (مروج الذهب)[١] أنه ـ أي يزيد ـ كان يُلبس القرد الألبسة الحريرية الفاخرة والجميلة، ويجلسه كثيراً إلى جانبه أكثر مما يُجلس رجال الدولة والجيش! حتى قال الإمام الحسين عليه السلام عنه:

«وعلى الإسلام السلام إذْ قد بُليت الأُمة براعٍ مثل يزيد»[٢].

فهناك فرق بينه وبين الحكام الآخرين: فهذا الشخص وجوده بحد ذاته كان يُمثّل حرباً على الإسلام.

ومثل هذا الشخص يُراد من الإمام الحسين عليه السلام أن يُبايعه! وطبيعي أنْ يمتنع الإمام عن البيعة ويقول: «مثلي لا يبايع مثله أبداً»[٣]. وأهل الحكم من طرفهم أصروا على طلب البيعة.

وهذه الحالة كانت تُمثّل عاملاً من عوامل النهضة الحسينية، ولهذا فإن الحكم كان مُصرّاً على ضرورة حصول المبايعة من قبل الحُسين عليه السلام بالذات. (وعندما يرفض رجل مثل الحسين أن يبايع يعني أنه قد قرر الوقوف بوجه الحكم والسلطان، وصار بالتالي من رجال المعارضة).

وعليه فإنهم لم يكونوا على استعداد أن يروا الحسين يسيرُ حُراً بين الناس

(١) مروج الذهب ٣: ٥٧، البداية والنهاية ٨: ٢٣٥، أنساب الأشراف للبلاذري ٤: ١١.
(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٥.
(٣) الملهوف: ١٧.

وهو لم يُبايع الحاكم الجديد، لأن عدم البيعة هذه كانت تُشكّل خطراً على نظام الحكم العتيد.

وقد شخّصوا الموقف تشخصياً سليماً لأن الأمر كان يعني هذا، بل وأكثر من هذا: فعدم مبايعة الإمام كانت لا تعني المخالفة والاعتراض على الحكم فحسب، بل تعني أنّ طاعة يزيد ليست واجبة على الناس، وإنما الواجب يستدعي الاعتراض على الحكم الجديد.

لقد كانوا يُصرّون على البيعة، وهو كان يُصرّ على عدم البيعة.

والآن ماذا كان مطلوباً حقاً من الإمام عليه السلام في مقابل هذا الإصرار والإلحاح على البيعة؟.

الحقيقة أنه لم يكن أمامه أيّ تكليف آخر، غير تكليف رفض البيعة.

إذاً هل تبايع؟ كلاّ.

إنْ لم تبايع سَتُقْتَل!

مستعدٌ للموت ولن أرضخ للبيعة مهما كلّف الأمر.

كان هذا هو رد الفعل الطبيعي الوحيد المتوقع من الإمام الحسين عليه السلام.

حاكم المدينة[1] وهو أحد أفراد بني أمية طلب أن يأتوا إليه بالإمام. (طبعاً لا بدّ من القول إنّ أغلب أفراد بني أمية من العناصر الفاسدة، لكن هذا الرجل كان يختلف بعض الشيء عن الآخرين) وفي تلك الأثناء كان الإمام في مسجد النبي في المدينة، وكان إلى جانبه عبد الله بن الزبير.

رسول الحاكم الذي جاء إلى المسجد، وأبلغ الاثنين استدعاء الحاكم لهما، عاد من حيث أتى ليُبلِّغ سيده أنهما في الطريق إليه.

وفيما هما جالسان يُفكران بسبب الاستدعاء، سأل عبد الله بن الزبير الإمام قائلاً: وماذا تظن يكون سبب استدعاء الحاكم لنا في هذا الظرف؟.

---

(١) هو الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

فيجيبه الإمام: «أظنُ أن طاغِيَتُهم قد هلك. . .» وأنه يطلب منا مبايعة الحاكم الجديد.

فرد عبد الله بن الزبير: إن حدسك بمحله، وأنا أظن كذلك، فماذا أنت فاعل؟.

فقال الإمام سأذهب إليه، وماذا تفعل أنت؟.

سأرى. . .

عبد الله بن الزبير، خرج مع ظلام تلك الليلة، وفرَّ إلى مكة، هرباً من لقاء حاكم المدينة، وتحصّن هناك بالحرم المكي.

أما الإمام عليه السلام فقد ذهب إلى الحاكم، مصطحباً معه عدداً من شبان بني هاشم، وقال لهم: انتظروني هنا في الخارج، فإذا سمعتم صوتي قد علا، ادخلوا علينا، وفي غير ذلك لا تدخلوا علينا.

مروان بن الحكم، حاكم المدينة السابق، وهو من الأمويين المشهورين بالفساد، كان حاضراً في المجلس أيضاً[١]. حاكم المدينة استقبل الإمام بقراءة الرسالة العلنية التي وصلته من يزيد، بشأن خبر موت معاوية، ولمّا أنهى الرسالة قال له الإمام: وماذا تريد مني؟.

فرد عليه الحاكم بلغة لطيفة، في محاولة منه لكسب ود الإمام، بأنّ الناس قد بايعت يزيد الحاكم الجديد، وأن رأي معاوية كان كذلك أيضاً، والمصلحة الإسلامية تستدعي مبايعة الجميع. . . ولذا أرجو أن تبايع أنت بدورك فتكون المصلحة الإسلامية قد تحققت بعملك هذا.

ثم أضاف: بأنّ أوامر الإمام ستكون مطاعة إن شاء الله، وأن كل النقائص سيتم رفعها، وأنّ الأمور ستسير على ما يرام إن شاء الله.

فقال له الإمام: ولماذا أنتم تريدون البيعة مني؟ هل تريدونها من أجل

---

(١) لقد حكم هذا الرجل المدينة مدة طويلة وقد عمّر فيها كثيراً. فهناك عين ماءٍ لا زالت تجري مياهها حتى اليوم وهي من أعمال مروان بن الحكم في المدينة.

الناس؟ فأنتم لا تريدونها من أجل الله قطعاً! كما أن الموقف الشرعي لا يهمكم أيضاً، فأنتم لستم بفكر شرعية الخلافة أو عدم شرعيتها، حتى تريدوا مبايعتي مثلاً كي تصبح شرعية، إنكم تريدون البيعة مني حتى تواجهوا الناس بهذه الحقيقة وتجبروهم على المبايعة، أليس كذلك؟.

فقال له حاكم المدينة: نعم، إنه كذلك.

فقال الإمام: إذاً لا فائدة من بيعتي لكم في هذه الحجرة المغلقة حيث لا أحد يشهد المبايعة سوى نحن الثلاثة.

فرد الحاكم عندها مقتنعاً بقول الإمام وموافقاً على تأجيلها إلى وقت آخر.

وهنا نهض الإمام مستئذناً بالخروج فوافق الحاكم، لكن مروان بن الحكم انتبه هنا لحركة الإمام، فخاطب حاكم المدينة على الفور محذراً إياه من عاقبة خروج الحسين دون مبايعة، وقال له: إن خروجه من هنا دون مبايعة يعني أنه سوف لن يبايع، ولذا ينبغي عليك تنفيذ تعليمات الخليفة.

فأخذ الإمام مروان بن الحكم من رقبته ورفعه إلى الأعلى، ثم شدّه بقوة نحو الأرض، وقال له: إنك أصغر من هذا[(١)]!!.

وخرج الإمام من عند الحاكم دون أن يبايع للخليفة الجديد، وبقي ثلاثة أيام في المدينة، كان يذهب خلالها كل ليلة لزيارة قبر النبي ﷺ، ويجلس عند رأس مدفن النبي، ويدعو ربّه قائلاً: ربي افتح لي طريقاً يكون فيه رضاك.

في الليلة الثالثة، وبينما كان الإمام عند مدفن رأس الرسول ﷺ، وأثناء انشغاله بالدعاء، والتهجد، والبكاء، فإذا به يستسلم للنوم، فيرى النبي الأكرم في عالم الرؤيا، ويكون هذا الحُلم بالنسبة له بمثابة الوحي، والإلهام الربّاني القادم إليه عبر جدّه[(٢)].

(١) الكامل لابن الأثير ٣: ٢٦٤، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٨.
(٢) متقل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٧.

ولمّا طلع فجر اليوم التالي غادر عليه السلام المدينة متوجهاً نحو مكة سالكاً الطريق الرئيسية، وليس الطريق الثانوية.

فجاء بعض أصحابه يعاتبونه على سلوكه لهذه الطريق قائلين له:

يا بن رسول الله! لو تنكبت الطريق الأعظم، لكان أفضل لك، مثلاً، فقد يواجهك الحاكم بجنده، أو رجال أمنه في الطريق، فيُجبروك على الرجوع ويسبّبوا لك المصاعب، وقد تحصل بعض المواجهات؟ (ولكن الروح الشجاعة والقوية والمقتدرة، لا تقبل بالرضوخ لمثل تلك التعليلات أبداً).

فيقول لهم عليه السلام: إنني لا أُريد أن أظهر بمظهر المتمرد والفار، ولذلك فإنني أسلك الطريق العام، وليكن ما يريده الله ويشاؤه، فرضانا من رضا الله.

على كل حال، يمكن القول بأنّ القضية الأُولى والعامل الأوّل في الواقعة الحسينية، وهو العامل الذي لا تردد في صحة سنده التاريخي، هو عامل البيعة، تلك البيعة التي طلبت من الإمام الحسين عليه السلام، من قِبل يزيد، وهو ما جاء في النصّ التاريخي المؤكد، حيث جاء في رسالة يزيد الخاصة إلى حاكم المدينة:

خُذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً[١].

لكن الإمام الحسين عليه السلام قد وقف بشدة أيضاً بوجه هذه المطالب، فهو لم يكن على استعداد للمبايعة بأي شكل مع يزيد، وجوابه كان سلبياً منذ اللحظة الأولى وحتى الأيام الأخيرة من عمره الشريف، حيث جاء إليه عمر بن سعد محاولاً مفاوضته بشأن الصلح مع يزيد، ذلك الصلح الذي كان يعني البيعة دون أية مواربة.

لكن الإمام لم يكن على استعداد أبداً كما أسلفنا، وكما جاء في خطبته يوم العاشر من محرم، يبدو واضحاً تماماً، بأنه ظل مستقيماً وثابتاً في موقفه الذي أعلنه في اليوم الأول عند حاكم المدينة.

فكلامه في هذا المجال صريح للغاية حيث يقول في عاشوراء:

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٨.

«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد»[1]، أي إنني لن أبايع، أو أمد يدي لمبايعة يزيد، تحت كل الظروف، مهما ساءت، حتى وإن كانت الظروف المرافقة لقتلي وقتل أحبتي، وأصحابي، وأعواني، وأسر أهلي وعشيرتي.

ومتى برز مثل هذا العامل إلى الوجود؟ منذ القسم الأخير من عهد معاوية، إلاّ أنّ اشتداده، وفوريته، لم تبرزا إلا بعد موت معاوية، وصعود يزيد إلى سدة الخلافة.

أمّا العامل الثاني: فهو عامل الدعوة، وربما تكونون قد قرأتم في بعض الكتب عن هذا الموضوع لا سيما في كتب التاريخ المدرسية التي توزع على تلاميذ المدارس في بلادنا هنا! فهم يكتبون هكذا بأنه، ومع دخول العام الستين للهجرة فقد مات معاوية، ثم كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين يدعونه لقبول منصب الخلافة الذي اختاروه له، وأن الإمام الحسين توجّه بالفعل إلى الكوفة، إلاّ أنّ عدم الوفاء والغدر الذي أبداه أهلها تجاه إمامهم، وعدم معونتهم له في المهمة، أدى إلى مقتله!.

فعندما يقرأ الإنسان مثل هذا التاريخ، يُخيّل إليه أنّ الإمام الحسين ليس سوى رجل هادىء كان جالساً في بيته بِدعَةٍ واطمئنان، ولا دخل له بشأن أحدٍ من الناس، ولا يُفكّر بأي موضوع كان، وأن الشيء الوحيد الذي حرّكه عن تلك الدعة، وذلك الاسترخاء، هو دعوة أهل الكوفة له!.

في حين أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان قد بدأ حركته منذ أواخر شهر رجب، وذلك في أوائل حكومة يزيد، عندما خرج من المدينة قاصداً مكة، حيث الحرم الإلهي الآمن الذي يوفر الأمن والفضل، وبالإضافة إلى الاحترام الكبير الذي يُبديه المسلمون تجاه ذلك المكان المقدس، الأمر الذي يُجبر أجهزة السلطة على احترام ذلك المكان (وهي الأيام الأُولى التي أعقبت موت معاوية، الخبر الذي ربما لم يكن قد وصلت أصداؤه بعد إلى الكوفة).

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٣٥، المناقب لابن شهر آشوب ٣: ٢٢٤، مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٣٧.

واختيار الإمام لمكة إذا لم يكن بسبب موقعيتها الأمنية فحسب، بل بسبب مركزها الاجتماعي ـ السياسي المهم أيضاً ـ حيث صادف كل ذلك مع اقتراب مواسم العمرة والحج، في شهري رجب وشعبان، حيث أيام العمرة، يتقاطر الناس من الأطراف والأكناف إلى مكة، فيصبح بالإمكان إرشاد الناس ووعظهم، بنحو أفضل من سائر فصول العام.

ثم بعد ذلك يأتي موسم الحج، الفرصة مؤاتية أكثر من ذي قبل للتبليغ والدعاية.

بعد مرور حوالي شهرين على مغادرته للمدينة، وصلت رسائل أهل الكوفة إليه. فرسائل أهل الكوفة وكتبهم لم تصل إلى المدينة، والحسين عليه السلام في مقابل ذلك انطلق في حركته الجهادية العامّة من المدينة.

إذاً رسائل أهل الكوفة وصلت إلى الإمام وهو في مكة، أي بعد أن كان قد اتخذ من قبل قراره بالامتناع عن مبايعة يزيد، وهو القرار الذي كان قد وضع الإمام في المواجهة والخطر.

والإمام نفسه، كان يعرف كما يعرف الجميع بأن السلطة لم تكن على استعداد للتسامح معه بشأن البيعة، وفي المقابل، فإنه هو كذلك، لم يكن على استعداد للتراجع عن موقفه الرافض للبيعة، ومعنى ذلك أن دعوة أهل الكوفة للإمام ليست العامل الأساس في نهضة الإمام، بل كانت عاملاً ثانوياً، وأكثر ما يمكن القول فيها إن مثل هذه الدعوة قد أعطت للإمام، وهيأت له، من ناحية حكم التاريخ والشعب في المستقبل، ظروفاً مناسبة للاستمرار في النهضة.

لقد كانت الكوفة آنذاك ولاية كبيرة من ولايات الدولة الإسلامية، ومركز الجيش الإسلامي[١]. وهذه المدينة التي أسسها عمر بن الخطاب ما هي في الواقع إلاّ مدينة عسكرية، كان لها تأثير كبير للغاية في مصير البلاد الإسلامية آنذاك، ولو ظل أهل الكوفة على عهدهم مع الإمام لكان احتمال نجاح نهضته الفوري عليه السلام، كبيراً جداً.

---

(١) إضافة إلى الكوفة كان هناك مركز الخلافة الأموية في الشام.

إنّ الكوفة آنذاك لم تكن تُقارن بالمدينة أو مكة، لا بل وحتى بخراسان، وإن منافستها الوحيدة هي الشام، وإن الحد الأكثر لتأثير عامل دعوة أهل الكوفة في النهضة الحسينية، تمثّل في شكل النهضة وهيئتها العامة، أي أن ينتقل مركز النهضة إليها بدلاً من أن يبقى في مكة ولكن لا بد من القول إنّ مكة كانت موقعاً خطراً، ولم يكن بالإمكان تحويلها إلى مركز التحرك الحسيني.

نعم، فقد رفض عليه السلام اقتراح ابن عباس بالذهاب إلى اليمن[١]، والاحتماء بجبالها، كما ترك مدينة جدّه وراءه، وتوجه إلى الكوفة، كل هذا يعني أن دعوة أهل الكوفة لعبت دور العامل الفرعي في التحرك الحسيني بحيث ينتقل التحرك إلى العراق، ولم تكن الدعوة عاملاً أساسياً في حصول التحرك والنهضة.

عندما يصل الإمام إلى حدود الكوفة، يصطدم بجيش الحر بن يزيد الرياحي، فيقول لأهل الكوفة: بأنكم دعوتموني فإنّ تراجعتم عن دعوتكم عدتُ من حيث أتيت.

ولم يكن معنى هذا أن الإمام كان يقصد بذلك تخلّيه عن التحرك، والقبول بمبايعة يزيد، والتخلّي عن كل ما قاله في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وشيوع الفساد، والواجب المُلقى على عاتق المسلمين في مثل تلك الظروف، وبالتالي الجلوس في البيت، والسكوت عن كل تلك المنكرات.

أبداً، فالإمام كان رأيه واضحاً، فالحكومة غير صالحة، والواجب يتطلب مناهضتها، ولمّا كان أهل الكوفة قد دعوه لينتقل في التحرك إلى الكوفة، فلا بد له من الذهاب إليها. فأهل الكوفة قالوا بنصرة الحسين! وإنهم مستعدون لدعمه ومساعدته في تحركه المناهض للبيعة ليزيد، والمطالب بالعمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي دعوة لنصرة معارضته، ونهضته، وثورته.

ولذا فإن الإمام جاء إلى من أعلنوا النصرة، ووعدوه بها، فإن هم تراجعوا عنها، فإنه سيعود إلى مركزه الأصلي، أي إلى المدينة والحجاز، أو مكة وليفعل الله ما يشاء بمستقبل النهضة.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٣٤٢، الكامل لابن الأثير ٣: ٢٦٥، نهاية الأرب ٢٠: ٣٨١.

فعلى أي حال ليس هناك أي مجال للبيعة مع يزيد، حتى وإن أدى ذلك إلى القتل.

وعليه يمكن القول بأنّ الحد الأكثر لتأثير هذا العامل، أي دعوة أهل الكوفة، هو سحبهم للإمام من مكة نحو الكوفة.

بالطبع لا أريد القول هنا إنه: لو حصل فعلاً، بأن أهل الكوفة لم يدعوا الإمام إليهم، لكان الإمام قد بقي حتماً في المدينة أو مكة أبداً، فالتاريخ يبين لنا أنّ كلا هاتين المنطقتين، كانتا موضع إشكال وخطر على الإمام، فمكة مثلاً، لم يكن وضعها في الظاهر يساعد على بقاء الإمام فيها، وبالتالي لم يكن وضعها بأفضل من وضع الكوفة، والشواهد التاريخية تثبت أنه فيما لو بقي الإمام فيها فإن خطة أهل الحكم كانت تقضي بالقضاء على الإمام في حالة إصراره على عدم البيعة.

والمسألة لا تقتصر على نقل «الطُريحي» وحده، بل إنّ الآخرين ينقلون مثل هذا النقل أيضاً، ويقولون بأنّ الإمام نفسه، قد انتبه إلى أن بقاءه في مكة، في أيام الحج، كان يعني وقوعه فريسة المخطط الأموي الذي كان يُخطط لقتله، وهو في حالة الإحرام، أثناء أدائه لمناسك الحج، وإنّ هذا كان يعني أنّ زبانية بني أمية كانوا سيهدرون دمه، ويهتكون بذلك حرمة بيت الله الحرام في الكعبة.

وبذلك يكون هتك الحج والإسلام، وسيكون الهتك مزدوجاً حيث:

أولاً: كان سيُقتل ابن النبي، وهو في حالة العبادة في حرم بيت الله الآمن.

ثانياً: سيذهب دمه عليه السلام هدراً.

ثم يشيعون بعد ذلك بأنّ خلافاً ما قد وقع بين الإمام وأحد أفراد المجتمع!! وهذا الرجل بدوره قد قتل الإمام، وأخفى نفسه عن وجه العدالة، وبالتالي يكون دم الإمام قد ذهب هدراً.

ويشير الإمام الحسين عليه السلام نفسه في أقواله، إلى مثل هذه الظروف، وذلك عندما يسأله أحدهم، وهو في الطريق إلى العراق، خارجاً من مكة، عن السبب في مثل هذا الخروج؟ ذلك السؤال الذي كان يتضمن التعجب لترك الإمام

المدينة حيث قبر جده النبي ﷺ، ومكة البيت الحرام الآمن، وتعريض نفسه للخطر بالتوجه إلى العراق.

لكن الإمام يوضح المسائل جيداً قائلاً له: بأنهم ـ أي جلاوزة السلطة ـ يبحثون عني، حتى وإن اختفيت في ثقب حيوان[١]، ولن يهدأ لهم بال قبل أن يروا دمي ينزف أمامهم، ويضيف: بأن خلافه مع هؤلاء خلاف لا يقبل المهادنة والحلول الوسط، وأنهم يريدون منه ما لا يستطيع الرضوخ لمثله، وهو يُريد ما لن يقبلوه منه أبداً.

العامل الثالث للنهضة الحسينية هو عامل الأمر بالمعروف، وهذا بدوره يبرز في نص كلام الإمام، وفي هذا الشأن يذكر لنا التاريخ بأن محمد بن الحنفية، وهو شقيق الإمام الحسين عليه السلام، كان في تلك الأيام قد أصيب بشلل في يديه، وأنه أصبح غير قادر على الجهاد، ولذا فإنّ الحسين عليه السلام يتركه وراءه، ويكتب له كتاباً يوصيه قائلاً: «هذا ما أوصى به الحسين بن علي أخاهُ محمداً المعروف بابن الحنفية».

وهنا نرى الإمام يُقسم بوحدانية الله، ورسالة النبي (ذلك أن الإمام يعرف بأنّ البعض سيُشيع حوله بأنه قد خرج من دين جده)، ويمضي في حديثه حتى يصل إلى الحديث عن السبب الكامن وراء نهضته فيقول:

«إني ما خرجتُ أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ لِطلَب الإصلاح في أُمةِ جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي. وأبي علي بن أبي طالب، فمَن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خيرُ الحاكمين»[٢].

حيث ترون أنّ المسألة ليست مسألة دعوة أهل الكوفة، بل وليست كذلك

---

(١) روي أكثر من مرّة أنّ الحسين عليه السلام قال: وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في السبت.
انظر: الكامل في التاريخ ٤: ٣٩.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٨، مقتل الحسين للخوارزمي ج١، ص١٨٨، مقتل العوالم: ٥٤.

الامتناع عن البيعة، يعني أنّ الأمر كان يتعدى طلب البيعة منه وامتناعه عليه السلام عن المبايعة، ومعنى ذلك أنهم حتى لو لم يطلبوا منه البيعة لم يكن ليهدأ أو يسكت على ما كان يجري. وليعرف العالم: «ما خرجت أشراً ولا بطراً»...

فالحسين بن علي لم يكن يطلب الجاه، ولا السلطان، أو الثروة، ولم يكن كذلك رجلاً مُفسداً، أو مُخلاً بالأمن والنظام، أو ظالماً، بل إنّه ذلك الإنسان المُصلح الذي يُريد الإصلاح في أمة جده..

«ألا وإنّ الدعيَّ إبن الدعيَّ، قد رَكَّز بين اثنتين، بين السّلة والذلّة، وهيهاتَ منّا الذلّة! يأبى الله ذلك لنا، ورسوله، والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطَهُرتْ»[1].

إنّ هذه الروح ظلَّت تتجلّى في وجود الحسين بن علي، وشخصيته المقدسة، منذ اليوم الأوّل حتى اللحظات الأخيرة من عمره، ولم يكن بالإمكان أن تُفارق الإمام أو تنفصل عنه.

ففي اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة، كان أبو عبد الله الحسين عليه السلام، وهو في تلك الحفرة القاتلة، حيث قد فقد القدرة على الحركة، والقدرة على محاربة العدو، والقدرة على الوقوف على رجليه، يتجلّى عزةً، ويمتلىء حديثه غيرةً، ويتعاظم وجوده ويتألق كبرياءً وجلالاً، لقد كان الجُند يُريدون قطع رأسه عن بدنه، لكن الشجاعة والهيبة اللتين خبروهما تماماً تمنعانهم من ذلك.

كان البعض يقول: عسى أن لا يكون الحسين قد ابتدع حيلةً حربية جديدة، حتى يستطيع الإغارة على كل من يحمل عليه، ويُنهي مقاومته أمامه، فيبدأون بالتخطيط لعمل دنيء وجبان يتلخص: بالهجوم على خيامه، زاعمين أنه سوف لن يتمكن من الدفاع عن الحرم، وفعلاً يُهاجم الجند خيام حرم الإمام، فيرتفع صوت أحدهم في هذه الأثناء صارخاً:

وهل أنت حيٌّ يا حسين؟! إنهم هاجموا مخيم الحرم!.

وهنا ينهض الإمام بقوةٍ، ولكن بصعوبة على ركبتيه، ثم يسند قسمه العلوي على حربته ويُنادي عالياً:

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ٢: ٢٤، مثير الأحزان: ٤٠، ترجمة الإمام الحسين لابن عساكر: ٣١٩.

«ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، ولا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم»[1].

فيردَ عليه أحدهم: ما تقول يابن فاطمة؟.

فيرُدُ عليه الإمام قائلاً: «أنا أقاتلكم، وأنتم تقاتلوني، والنساء ليس عليهُنّ جُناح».

نعم فهذا بدن الحسين أمامكم، مزّقوه ما استطعتم بالسيوف والحراب، لكن روح الحُسين الحية لا تقبل أن يقترب أحدكم من خيام حرمه...

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم،

وصلى الله على مُحمدٍ وآله الطاهرين.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٧٩، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١١٠، الملهوف: ٥٠.

المحاضرة الثانية

قيمة كل عامل من العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيّدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد، وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾(٢).

هناك ثلاثة عناصر أساسية، تُشكّل الهيئة العامة لبناء النهضة الحسينية

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٧ محرم ١٣٩٠هـ.
(٢) التوبة: ١١١ ـ ١١٢.

المقدسة، أي إنه يمكن القول إنّ عوامل ثلاثة بشكل عام هي التي أثرت وطبعت الهيكل العام لتلك الواقعة الكبرى.

أوّلها: طلب يزيد بن معاوية بعد موت أبيه فوراً من عُماله فرض البيعة الإلزامية على الحسين بن علي عليه السلام، وامتناع الإمام في المقابل عن تلبية مثل هذا الطلب(١).

فقد كانت السلطة مُصرّة على طرح مطلبها القاضي بأخذ البيعة مهما كلّف الثمن، وغير مستعدة للتراجع عن مطلبها تحت كل الظروف، بينما في المقابل كان الإمام يُعارض بشدة الرضوخ لمثل هذه البيعة، وغير مستعد للاستسلام تحت كل الظروف، ومن هنا كان ابتداء التضاد والنضال الشديدين بين الطرفين.

العامل الثاني المؤثر في هذه النهضة، والذي ينبغي وضعه في الدرجة الثانية، بل وحتى في الدرجة الثالثة من الأهمية، هو: دعوة أهل الكوفة للإمام للقدوم إليهم ولكن متى؟ بعد أنْ يصبح في موضع المُطالَب بتقديم البيعة ليزيد، وامتناعه عن الرضوخ، الأمر الذي يؤدي به كما هو معروف إلى الهجرة إلى مكة، والإقامة فيها حوالي الشهرين، ومن ثم وصول أخبار تحركاته هذه إلى أهل الكوفة.

وهنا يجتمع أهل الكوفة، ويتخذون قرارهم المعروف بدعوة الإمام للتوجه نحوهم(٢).

وهذا عكس ما نسمع به في الغالب أو نقرأه في كتبنا المدرسية بشكل خاص.

فدعوة أهل الكوفة ليست هي السبب في تكوّن النهضة، بل إنّ نهضة الإمام هي التي أوجدت أو سببت أن يقدم أهل الكوفة دعوتهم للإمام، فلم تأتِ حركة الإمام من بعد وصول دعوة أهل الكوفة إليه، بل إنّ الواقع يقول بأنّه، وبعدما شرع الإمام في تحركه، وأظهر معارضته، سمع أهل الكوفة بقيام

---

(١) انظر للاطلاع: تاريخ الطبري ٥: ٢٤١، الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٤ أول حوادث سنة ٦٠، العقد الفريد٤: ٣٧٢، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٨.

(٢) إرشاد المفيد٢: ٢٣٢، أنساب الأشراف ٣: ١٥٢، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٧، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣-٢.

الإمام وتحركه، ولمّا كانت الظروف عندهم مُهيأة نسبياً، تداعى أهل البلد للاجتماع وقرّروا الكتابة للإمام ودعوته.

العامل الثالث هو عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا العامل يذكره الإمام بنفسه مُكرراً، وبصراحة تامة، دون أن يأتي على ذكر مسألة البيعة، ولا على دعوة أهل الكوفة وذلك بمثابة مبدأ مستقل وعامل أساسي يمكن الاستناد إليه.

إنّ هذه العوامل الثلاثة ليست متساوية من ناحية قيمتها ودرجة أهميتها، وإنّ كل واحد منها يُعطي أهمية لنهضة الإمام بدرجة معينة.

فعامل دعوة أهل الكوفة مثلاً لا يُشكّل إلاّ عاملاً ثانوياً، ذا قيمة بسيطة جداً وعادية للغاية[1]، ذلك أنه بموجب هذا العامل، فإنّ من أعلن استعداده لنصرة الإمام، من أمة الإسلام آنذاك، لم يكونوا يشكّلون سوى ولاية واحدة.

وحسب القاعدة المنطقية فإنّ احتمال تحقق الانتصار لم يكن يتجاوز في حده الأعلى أكثر من ٥٠٪، ولم يكن أحدٌ يحتمل نسبةً أكثر من تلك النسبة.

فبعد دعوة أهل الكوفة الإمام للقدوم إليهم، ولنفرض أنهم كانوا على أتمّ الاتفاق فيما بينهم، وأنهم كانوا سيظلون على عهدهم له بالنصرة، ولم يخونوا، ولم ينكثوا عهودهم معه، فهل كان بإمكان أحدٍ القول بأن انتصار الإمام أمر محقق ومؤكد مائة بالمائة؟ طبعاً لا، فالأمة كل الأمة لم تكن محصورة بأهل الكوفة، يكفي أن نأخذ أهل الشام بعين الاعتبار، وهم الذين يقفون مع آل أبي سفيان بالتأكيد حتى تتدنى نسبة نجاح النهضة إلى النصف.

ولذلك نرى أنّ أهل الشام هؤلاء قد وقفوا في عهد خلافة أمير المؤمنين موقف المحارب والمعادي لأهل الكوفة، وواجهوهم في صفين، واستطاعوا مقاتلهم ثمانية عشر شهراً استبسلوا خلالها، وقدموا من القتلى الكثير دون ذلك الموقف.

ولكن في كل الأحوال فإن احتمال النجاح كان يُشكّل ٤٠٪ أو ٣٠٪. أنْ

(١) بالطبع المقصود بالتأثير العادي والبسيط هنا إنما يأتي بالمقارنة مع أعمال الإمام وليس بمستوى أعمالنا.

يُعبّر الناس عن استعدادهم لتقديم العون والنصرة، ويستجيب الإمام لتلك الدعوة أمرٌ يمكن اعتباره حداً معيّناً من حدود القيمة، وهو الحد العادي. أي إنّ كثيراً من الناس العاديين يقفون مثل هذا الموقف عندما تواجههم مثل تلك الظروف.

لكن عاملاً مثل عامل البيعة من الإمام، وامتناع الإمام في المقابل، وهو العامل الذي برز إلى الوجود منذ الأيام الأولى، يمنح النهضة الحسينية قيمة أكبر من عامل دعوة أهل الكوفة، وذلك من حيث إنها الأيام الأولى، وفي الوقت الذي لم يكن قد أُعلن عن موقف النصرة والمساعدة، ولم يكن هناك دعوة، ولا التزام بالعهود والمواثيق.

فالوقت كان وقت تسلّط حكومة متجبرة، وقمعية ظالمة. حكومة تمادت في ظلمها، وقسوتها، ووصل قمعها حده الأعلى في عهد معاوية، لا سيما العقد الأخير من حكومته وسلطانه...

نعم، فمعاوية كان قد أوصل الأمور إلى الحد الذي صارت فيه المدينة الطيبة، ومكة المكرمة، تلعن علي بن أبي طالب من على منابرها في يوم الجمعة، وتعتبر ذلك عملاً عبادياً، وتفتخر به على رؤوس الأشهاد، وكل من كان يعترض كان يُعرِّض حياته للخطر، بل إن رأسه كان يَطير قبل أن يتحسّس رد الفعل على معارضته[١]...

فعندما كانوا يُريدون الحديث عن علي بن أبي طالب، كانوا يأتون على ذكره بالإشارة والواسطة، بل إن الأمر كان قد وصل إلى حدّ أنّ من كان يُريد نقل رواية، أو حديث ما، أو له صلة ما بعلي، أو أنْ يكون قد تخلله ذكر فضيلة لعلي، وإن كانت أقل ما يكون، فإن المحدِّثين والرواة كانوا يقبعون في صناديق خاصة، عبارة عن خلوات منعزلة تماماً، وبعد ذلك يبدأون بتحليف بعضهم البعض، والقسم جميعاً على عدم نقل هذه الرواية في أي مكان آخر قبل أن يتأكدوا من أنّ الطرف المقابل من الأفراد القابلين للاعتماد والثقة، وغير المُفشين لأسرارهم، وأن يكون من صنف الرواة.

في مثل تلك الظروف الصعبة يصبح ولي عهد هذا الرجل هو الخليفة وأي

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ٥٠٩.

خليفة! شابٌ متهوّر، أكثر غروراً من أبيه، وأكثر منه سفكاً للدماء، وجاهل بألف باء السياسة، ولا يملك حتى الحسّ السياسي العادي، أو أصول الدبلوماسية المعودة.

وفي مواجهة مثل هذه الحالة يصبح قول «لا» استثنائياً (فالمطلوب المبايعة بأية صورة كانت) ولكن في المقابل يأتي الرد: «لن أبايع حتى ولو قطعتم وجودي إرباً إرباً»، فنحن هنا نرى الإمام وقد وقف وحده، أي بشخصه وذاته فقط، أمام المطالب غير المشروعة لتلك القوة الجبارة القمعية جداً قبل أن يَرد إليه حتى ذكر الأنصار أو الأعوان، واحتمال نجاحه لم يكن يتجاوز العشرة بالمائة، ومع كل ذلك تراه ليس مستعداً للتنازل عن رأيه وعقيدته، والتظاهر بعكس ما يؤمن به، ذلك أن التاريخ سوف لن يسجل بأن الحسين قد بايع تحت الضغط والإجبار.

نعم، فهؤلاء الذين يأخذون البيعة بالإجبار يصنعون التاريخ أيضاً بقوة المال، وهو ما قاموا به بالفعل. فمعاوية وحاشيته كانوا قد استثمروا في الواقع قسماً من بيت مال المسلمين في شراء ذمم الوعّاظ ورجال الدين، فكانوا يشترون الرواة الفاسدين الذي لا إيمان ولا عقيدة لهم بقوة المال، ليزوّروا أحاديث النبي، ويُغيّروا الأسماء الواردة فيها أحياناً، أو يضعوا أحاديث في مدح أعداء علي.

فالتاريخ يؤكد مثلاً أن سمرة بن جندب[1] قد أخذ ثمانية آلاف مثقال من الذهب، مقابل وضع حديث ضد علي بن أبي طالب.

وعليه فإن تغيير التاريخ ومسخه، لم يكن عملاً شاقاً وصعباً بالنسبة لأمثال هؤلاء، وإن كان قسم من التاريخ قد بقي نقياً دون شوائب فإن هذا يعود للأعمال والحركات المشابهة للنهضة الحسينية، وإلاّ فإنّ سكوت الحسين ﷺ، كان يعني تغيير التاريخ أيضاً، وقلب صورته تماماً.

ولذلك يمكن القول بأنّ هذا العامل يُعطي قيمة أرفع ودرجة أعلى لنهضة أبي عبد الله ﷺ من درجة عامل دعوة أهل الكوفة للإمام.

---

(١) جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي (١/٣٦٣): إنّ سمرة هو الذي كان يحرّض الناس لحرب الحسين ﷺ، وكان نائباً عن ابن زياد في البصرة عند مجيئه إلى الكوفة، وهو صاحب النخلة في بستان الأنصاري، ومن المنحرفين عن أمير المؤمنين ﷺ.

أما العامل الثالث: فهو عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو العامل الذي يستند إليه أبو عبد الله الحسين بصراحة، قولاً وعملاً، فتراه عليه السلام يبني أساس نهضته وقيامه على أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، والأهداف المعلنة لنهضته، والتي يذكر فيها مراراً بالنص مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودون أن يأتي على ذكر البيعة، أو دعوة أهل الكوفة وكتابتهم الكتب إليه.

إنّ هذا العامل في الواقع يمنح النهضة الحسينية قيمةً أعلى بكثير مما يمنحه إياها العاملان الآخران، فاستناداً إلى هذا العامل استطاعت هذه النهضة أن تكون جديرة بالخلود، والحياة، وأن تكون الثورة المُعلِّمة.

بالطبع فإن العوامل كلها كانت تحمل في طياتها الدروس والعبر، لكن هذا العامل كان له الأثر التعليمي الأكبر، لأنه لم يكن يستند إلى الدعوة، أو الكتب والرسائل، ولا إلى طلب البيعة، أي إنّه حتى وإن لم يُكتب إلى الإمام فإنّ الحسين بن علي عليه السلام كان سيقوم استناداً إلى قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّه لو لم تُطلب منه البيعة، فلم يكن بقادرٍ على السكوت، فالأمر مختلف، ولا يمكن تحمل السكوت عنه.

فعلى أساس العامل الأول، فإنه نظراً لدعوة أهل الكوفة، وأرضية الانتصار التي تكونت نتيجة ذلك بنسبة ٥٠٪ أو أقل، فإنّ الإمام يبدأ بالتحرك، أي إنه فيما لو افترضنا، أن هذا العامل هو العامل الوحيد الذي كان سبباً في انطلاقة النهضة الحسينية وتبلورها، فإنّ ذلك يعني أنه في حال عدم حصول مثل هذه الدعوة فإن الحسين عليه السلام لم يكن مستعداً للتحرك.

وأما على أساس العامل الثاني، فإنه نظراً لأن السلطة طالبت الإمام بالبيعة فواجهها الإمام برفض البيعة والتحرك، أي إنّه لو كان سبب التحرك هذا وحده، فإنه يمكن القول بأنّ عدم مطالبة حكومة ذلك العصر بالبيعة من الحسين عليه السلام، فإن ذلك كان يعني بأنّ الإمام لم يكن مستعداً للاصطدام بتلك الحكومة، وبالتالي فإن النظر إلى حركة الإمام من زاوية هذا العامل وحده، كان يكفي عدم مطالبة الإمام بالبيعة، حتى ينتفي التحرك الحسيني، ويهدأ بال الحسين عليه السلام، ولا يحصل كل ما حصل في التاريخ بتاتاً.

في مقابل ذلك فإنّ الحسين عليه السلام، من زاوية العامل الثالث، رجل متمرد وناقد، رجل معارضة، بل رجل ثورة وقيام، وهو رجل إيجابي فاعل في الأحداث.

وهل هناك حاجة إلى سبب آخر، بعد هذا السبب! فالفساد قد عمّ في البلاد، وحلال الله صار حراماً، وحرامه حلالاً، وبيت مال المسلمين صار بأيدٍ غير أمينة، والثروات والأموال تُصرفُ في غير رضا الله وسبيله.

وها هو الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله يقول: «من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغير عليه بفعل، ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله...»[١].

وعليه فالحُسين هنا يستند إلى جدّه النبي في تحركه المناهض ليزيد، وقول جده واضح لا لبس فيه، فكل من يعلم ويفهم ويشعر ويُدرك، عليه أن يقوم وينهض ضد حكم الطاغية آنذاك، وإلاّ فإنّ مصيره سيكون مشتركاً مع مصير مجتمع المذنبين.

وهذا الحديث النبوي ليس الوحيد في هذا المجال فهناك أحاديث كثيرة يمكن الاستناد إليها في هذا المجال.

فقد جاء في الحديث الشريف، عن الإمام الرضا عليه السلام، عن جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا تواكلت الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله»[٢].

وأي عذاب ينتظر مثل هؤلاء الناس الذين يتركون هذا الواجب الإلهي؟ هل سيأتيهم حجرٌ من السماء؟ إنّه العذاب الإلهي الذي يشرحه الحق تعالى في الآية الكريمة التالية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، الكامل لابن الأثير ٤: ٢١.
(٢) الكافي ٥: ٥٩، ح٣، التهذيب ٦: ١٧٧، ح٣٥٨.
(٣) الإنعام: ٦٥.

وكما جاء في تفسير أهل البيت لهذه الآية الكريمة فإنّ عذاب «من فوقكم» يقصد فيه الحق تعالى العذاب المتأتي من الحكام والمتسلطين، أو الطبقات الفوقية للمجتع.

وأمّا عذاب «تحت أرجلكم» فالمقصود يصبح ذلك العذاب المتأتي من الطبقات الدونية في المجتمع.

والنبي الأكرم ﷺ يقول هنا بأنّه إذا ما ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلينتظروا إذاً العذاب الإلهي.

وهناك حديث آخر للرسول الأكرم ﷺ، ينقله علماء الشيعة في كتبهم المعتبرة، مثل «أصول الكافي»، كما يذكره أهل السنة في كتب حديثهم حيث يمكن قراءته في سند الغزالي في «إحياء العلوم» يقول رسول الله ﷺ.

«لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهُنّ عن المنكر، أو يُسلّطَنّ الله عليكم شِرارَكم، فيدعو خيارُكم فلا يستجاب لَهُم»[١].

التفسير المعروف والمتداول للحديث السالف الذكر يُفيد: بأنّه وبعد تسلُّط أشراركم على مقاليد الأمور في المجتمع، فإنّ خياركم، ومهما تضرعوا إلى الله، ودعوه لإنزال الرحمة على العباد، فإنّ دعاءهم ذلك لن يُستجاب له، أي إنّ المجتمع الذي يترك وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيسلب عنه رحمته، ومعنى ذلك أنهم مهما دعوا الله ليستجيب لهم دعاءهم، فإنه لن يفعل ذلك بسبب ذلك الذنب الذي اقترفوه، بترك شرارهم يتسلطون عليهم.

لكن الغزالي يرى غير ما يراه أغلب المُفسرين إذ يقول في تفسيره اللطيف لهذه الرواية ما مضمونه:

إنّ معنى الحديث المذكور: «فيدعُوا خياركم فلا يُستجاب لهم» ليس أنهم كلما يدعون الله، فإنّ لا يستجيب لهم، بل إنّ معنى الرواية الشريفة هنا يُفيد: إنه عندما يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنهم سيصبحون مُنحطين ومرعوبين،

(١) الكافي ٢: ٣٧٤، ح٢، وج٥: ٥٦، ح٣، علل الشرائع ٢: ٥٨٤، ح٢٦.

وأذلّاء وخنوعين، إلى درجة أنهم عندما يذهبون ليستجدوا الرحمة، أو المطالب من الظلمة، بالوقوف على أعتابهم، فإن هؤلاء الظلمة سوف لن يُعيروهم أي اهتمام، أي إنّ الرسول الأكرم ﷺ يقول: بأنكم إذا ما أردتم العزة واحترام الغير لكم، فعليكم عدم ترك وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!.

فغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بين صفوفكم، أمرٌ ملازمٌ لضعفكم وانحطاطكم وذلُكم، ومن ثم فإن العدو سوف لن يحسب لكم أي حساب، وسيعاملكم معاملة الرقيق والعبيد، ولن يُلبّي لكم أي مطلب مهما التمستموه.

وهذا تفسير لطيف لغاية، وهو ينسجم ويتناسق مع المبادىء المؤكدة في الإسلام، وأبو عبد الله الحسين عليه السلام إنما يستند إلى مثل هذه الأصول والمبادىء، عندما يُبيّن للأمة مبادىء تحركه ويشرحها.

ولذا نرى أن مضمون خطاباته تُصرّح بأنه عليه السلام كان سيتحرك ضد السلطان الغاشم، حتى ولو لم يدعُه أهل الكوفة إليهم، أو لو لم تُطالبه السلطات بمبايعة يزيد، لأنّ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الذي يمنع سكوته وقبوله بالظلم والفساد.

المطلوب أن نتوسع في البحث حول هذا المبدأ، ونحن بحاجة في الأساس إلى معرفة هذا المبدأ جيداً، وهو المبدأ الذي يؤكد عليه نبي الإسلام كل هذا التأكيد.

وهذا الأصل والمبدأ الإسلامي يرد ذكره في القرآن الكريم كثيراً حتى إننا نستطيع إدراك أهمية هذا المبدأ من دون العودة إلى موارد ذكره في الأحاديث النبوية، أو أحاديث الأئمة الأطهار، بالإضافة إلى كتب الفقه الإسلامي، على امتداد تاريخ الإسلام، حيث خُصّص البحث حوله بباب فقهي مستقل، أطلق عليه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

نعم، فالاستناد إلى القرآن الكريم وحده يكفينا لهم مدى تأكيد الإسلام

(١) أي إنه كما يوجد لدينا كتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وكتاب الحج، وكتاب الجهاد، في باب العبادات، وكتاب البيع، وكتاب الإجارة، في المعاملات، أو كتاب الطلاق، وكتاب الإرث، وكتاب الديّات، وكتاب الحدود والقصاص... فإن لدينا أيضاً كتاباً في الفقه يسمى بكتاب (أي باب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

على هذا المبدأ الإلهي العظيم، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يورد في كتابه الكريم، في أماكن عديدة، حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعتبر أن سبب تعاسة وفشل الأمم السابقة يعود في الواقع إلى تركهم لهذه الفريضة، كما ورد في ذكره تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾[(١)].

أو في قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(٢)] أو كما ورد في ذكره تعالى، وهو يخاطب المسلمين، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٣)]، أي إن المطلوب من المسلمين قيام «أمّة» منهم، أي جماعة منهم، تكون مهمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هذا في حال تفسير (مِن) بـ (مِن) التبعيضية).

وأمّا في غير ذلك، فيصبح من واجب الجميع القيام بهذه المهمة.

وفي كلا التفسيرين فإنّ المعنى الأساسي واحد ولا تناقض بينهما إذ إنّ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجب ووظيفة عمومية للمسلمين، كما أنه واجب فئة خاصة من الناس، تتميز عن العامة، في سرعة إدراكها، أو التزامها بمبادىء وتعاليم الإسلام، أكثر من غيرها مثلاً.

إنّه لينبغي أنْ تخرج من بينكم مثل هذه الجماعة، أو أن تكونوا أنتم جميعاً أمةً واجبها الدعوة إلى الخير ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وأولئك هم المفلحون. ومثل هذه الأُمّة الداعية إلى الخير، والآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، يمكن لها فقط أن تكون نهايتها وعاقبتها، الحياة السعيدة، وصلاح دنياها وآخرتها، وفلاح أعمالها.

في سورة (آل عمران) تتكرر الآيات الخاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كثيراً، والآية التي أوردناها سابقاً تأتي بعد هذه الآية الكريمة التالية:

---

(١) هود: ١١٦.
(٢) المائدة: ٧٩.
(٣) آل عمران: ١٠٤.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[١]، والآية هنا واضحة في دعوتها الناس إلى الوحدة والاتحاد، والابتعاد عن الفرقة والتفرق، فهي تدعوا المسلمين إلى حل الاختلافات الحاصلة فيما بينهم، ومنع توسيع الشقة فيما بين صفوفهم.

نعم، فمن هو المستفيد حقاً من اتساع شقة الخلاف الحاصلة يوماً بعد يوم بين المسلمين؟ وهل هناك أحد يستفيد من هذا الخلاف غير عدو الإسلام؟ وماذا يريد منّا العدو؟.

ألا يريدنا أنْ نتصارع، ونحارب بعضنا، ويسب بعضنا البعض الآخر تحت يافطات وأسماء مذهبية وفئوية مختلفة؟!.

وها هو القرآن الكريم يدعونا بالمقابل إلى الابتعاد عن التفرقة، ثم يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ...﴾ وكأنه يُريد تعالى بـ «الخير» هنا معنى الاتحاد، أيْ أن تكون بينكم أُمّة تدعو المسلمين دائماً إلى الوحدة والاتحاد، وأن تحارب الفرقة والتفرّق المنتشر بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه وتعالى عقب هذه الآية في آية أُخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾[٢].

وأقول هنا أليس عجيباً أن تتوسط آية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ...﴾ آيتين من آيات الدعوة إلى الوحدة، والابتعاد عن الفرقة والخلاف؟!.

نعم، فهذا التناغم والتناسق في الآيات الكريمة يأتي وكأنه يُراد من ورائه القول بأن الخير كل الخير، بل وأُم الخير في أعمال المسلمين، إنما يكمن في حسن التفاهم والوحدة والاتفاق، وهو مبدأ كل الخير. بينما يبدو أن المنكر كل المنكر، بل وأبو المنكرات والمساوىء جميعاً، هو الاختلاف والتفرقة تحت أي عنوان، أو أي اسم حصل ذلك الاختلاف، أو وقعت تلك التفرقة.

هناك آية قرآنية أُخرى، يقول فيها تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾، أي يا أيها المسلمون! ليس هناك أُمّة، ولا ملّة ظهرت على سطح

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) آل عمران: ١٠٥.

هذه البسيطة، أفضل منكم. فلماذا؟ وما هي خصوصية تلك الأمة؟ ﴿...تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1].

ومن هنا لا بد لنا أن نستنتج المفهوم النقيض لهذا المفهوم المطروح، كما يقول المنطقيون أي: نحن لسنا بأمة الإسلام، ولسنا بأفضل الأمم للبشرية، لأننا لسنا نأمر بالمعروف، ولا ننهي عن المنكر، وبالتالي فإننا لا نستطيع ادعاء الرفعة والعزة والشرف، ولا يمكننا أن نتباهى بما عندنا، فإسلامنا ليس ذلك الإسلام الواقعي.

الحقيقة أننا إذا ما أردنا البحث حول موضوع أهمية وعظمة هذا المبدأ الإسلامي، من وجهة نظر القرآن والسنة والحديث، وما ورد عن هذا الموضوع، فإن لدينا كثيراً من الروايات الواردة بهذا الخصوص، التي تبرز مدى اهتمام الإسلام بهذا الموضوع.

وطبيعي أن يُطرح التساؤل التاريخي، ويتم التحقيق حول سبب تراجع مثل هذا الموضوع العظيم والمهم عن واجهة التاريخ الإسلامي، وكيف أنه لم ينل أهميته اللازمة من قبل المسلمين، ولم يُعر له أي اهتمام حتى صار موضوعاً مهملاً في مجتمعاتنا الراهنة.

وينبغي هنا أن نكون منصفين، ونعترف بأن أهل السنة بحثوا وحققوا من وجهة النظر العلمية حول هذا الموضوع أكثر مما بذل الشيعة في هذا المجال. فإذا ما وضعنا كتب الشيعة الفقهية ابتداءً من الكتب الواردة في أبواب «كتاب الصلاة» إلى الكتب التي تتحدث عن «الديات» وغيرها مقابل كتب فقه أهل السنة في هذا المجال، فإننا نستطيع القول، دون أدنى ريب، إنّ فقه الشيعة أكثر تفصيلاً، وأكثر دقةً، وأمتنُ، وأعمقُ، وأقوى استدلالاً، من فقه أهل السنة في كل الأبواب.

وهذا ما استطيع إثباته بالأدلة الراسخة، لكن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظل في كتبنا الفقهية، وللأسف الشديد، باباً صغيراً أمام سائر الأبواب الأخرى.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

بالطبع لا بد من القول إنّ هذا الباب من الزاوية العملية قد أصبح أيضاً باباً صغيراً بين أهل السنة المعتزلة، وهم فرقة من فرق المتكلمين السُنة، يعتبرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصلاً من أصول الدين، وليس فرعاً من فروعه.

فالشيعة تقول بأن أصول الدين خمسة وفروع الدين عشرة، حيث يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في باب فروع الدين العشرة.

بينما المعتزلة، كما ذكرنا، يوردون أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمن المبادىء الخمسة للأصول الدينية، لكنهم ومع مر الأيام، بدأوا يحيدون عن هذا المنحى التاريخي في كتاباتهم وبحوثهم، حتى صار هذا الباب عندهم باباً ثانوياً من الزاوية العملية.

والمؤرخون الاجتماعيون يذكرون، في هذا الصدد، سبباً سياسياً لهذا الإنكفاء، حيث كان البحث في هذا المجال يعني مواجهة السلطات السياسية الحاكمة في كل عهد، ولمّا كان الأمر بالمعروف يُقابل المضايقة لهذه الفرقة، من قبل حُكّام كل زمان، فقد مال أصحاب البحث من شيوخ المعتزلة وبقوة إلى الابتعاد عن ذكره في كتبهم، أو المرور عليه مرور الكرام، بالرغم من كونه يمثل أصلاً من أصول دينهم الخمسة.

والحقُ يُقال هنا أيضاً: بأنّ هذا الباب قد أُهمل إهمالاً كبيراً في كتبنا، وبحوثنا الدينية، نحن الشيعة. كذلك، حتى أنك يندر أن ترى بحثاً مكتوباً في القرون الأخيرة في رسائل المجتهدين العملية، يتناول هذا الباب الديني الكبير.

وإلى الحد الذي أعرفه أنا فإنّ آخر كتاب من كتب الرسائل العملية، التي كتبت في هذا الموضوع، هو كتاب «الجامع العباسي» للشيخ البهائي، والذي يعودُ تاريخه إلى ثلاثة قرون ونصف القرن تقريباً[١]، بل إنه صار يُحذف من كتب الرسائل العملية بعد ذلك تماماً.

---

(١) أُلقيت هذه المحاضرة قبل الثورة الإسلامية، أي قبل ظهور أبحاث وكتابات الإمام الخميني (قدس سره)، في هذا المجال.

في حين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل الصلاة والصيام، وليس مسألة تشبه مسألة الإماء، والعبيد، والرق، حتى نقول إنها مسألة تاريخية قديمة، تنتفي ضرورة البحث حولها، بانتفاء وجود الأمر في هذا الزمان وهو أمر صحيح.

ففي الزمن الذي يوجد فيه الرق والعبيد، يكون البحث حول الأحكام الواردة في الإسلام، لصالح العبيد أمراً مفيداً، بينما في ظل عدم وجود الرق، فإن البحث في مسائله يصبح عبثاً، وغير مفيد بالمرة.

لكن موضوعاً كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس موضوعاً يمكن للمرء أن ينفيه، أو يغيِّبه عن ساحة المجتمعات، إنه موضوع حاضر وحي على الدوام، وعلى رأس الموضوعات الاجتماعية، في كل عصر وزمان، ولا بد من طرحه على الدوام، حتى نتذكر أهميته، ولا ننساه أبداً.

بعض المستشرقين الأوروبيين ينسبون إلى الإسلام (بالأحرى يتهمون الإسلام) وهو الأمر الذي يكررونه ويؤكدونه، في الكثير من كتاباتهم، وذلك بأن دين الإسلام هو دين القضاء والقدر، أي إنه دين لا يُعطي للإنسان أي دور مسؤول، أو دور فعّال ونشط، وأنه يُعلّم البشر على توكيل الله تعالى للقيام بواجباتهم الإنسانية بدلاً عنهم، وما على الإنسان إلاّ أن يبقى منتظراً نتائج وثمرة ممارسة الرب لتلك الوظائف.

كما أنهم يدّعون بأن الإسلام لا يمنح البشر حرية الاختيار مطلقاً، بل إنّ الأمر محصور كليّاً بإرادة الله ومشيئته وحده، ولا دخل للإنسان بأيّ أمر من أمور الحياة الدنيوية، وبالتالي فليس للإنسان أية مسؤولية مُلقاة على عاتقه.

وهذا افتراء محض! فالقرآن الكريم يُدين اليهود، ويحاكمهم نتيجة لحملهم أفكاراً من هذا القبيل، وعدم تحملهم المسؤولية إلى جانب النبي موسى عليه السلام، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ...﴾[1] لكنهم كانوا يردون على موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا

(١) المائدة: ٢١.

﴿قَٰعِدُونَ﴾[١]، نعم، اذهب أولاً، وأخرج العدو من أرضنا، ثم ندخل معك إلى ميدان المعركة!.

المعروف أنّه في معركة بدر، عندما جاء النبي، واستشار أصحابه في المطلوب عمله، في تلك الظروف، وذلك بعد أن فرت القافلة، قافلة العدو، فهل يُريد المسلمون ملاحقتهم أم العودة إلى المدينة؟ ردّ عليه أصحابه وكلٌّ أشار عليه برأي من الآراء، حيث قيل يومها إنّ أبا ذر الغفاري، أو المقداد الكندي، وهما من صحابته الأجلاّء قال:

يا رسول الله! إننا لسنا مثل بني إسرائيل حتى نقول: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، بل إننا نقول لك: الأمر أمرك، ونحن على استعداد لتطبيق أوامرك، والعمل بها في كل الظروف، ولو طلبت منّا رمي أنفسنا في البحر، لفعلنا، ولو طلبت منا رمي أنفسنا في النار، فنحن حتماً فاعلون أيضاً.

ثم إضافة إلى ذلك، فها هو القرآن الكريم نفسه يقول بوضوح حول موضوع حرية الإنسان، والمسؤولية، والالتزام الشخصي المطلوبين منه، وذلك كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢] أو ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٣] أو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٤].

ثم إنّ هناك عبارات كثيرة، يتكرر ذكرها في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٥]، ثم إن القرآن الكريم يؤكد مراراً على حقيقة تنزيه الله سبحانه وتعالى عن المفاسد والشرور، ولا يقبل إلاّ بتحميلها للإنسان ذاته: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٦].

ثم إنّ هناك جانباً آخر للرؤية الإسلامية للفرد تضع ديننا في الواقع في

(١) المائدة: ٢٤.
(٢) الدهر: ٣.
(٣) البلد: ١٠.
(٤) الإسراء: ١٩.
(٥) الشورى: ٣٠.
(٦) النحل: ١١٨.

مقابل ادّعاء هؤلاء المفترين والكاذبين، ألا وهو ذلك الجانب الذي أصبح في صُلب القانون الديني لأمتنا الإسلامية، بينما لم يدخل إلى هيكلية القانون الديني لأية أمة من الأمم الأُخرى (ولا أريد القول هنا بالطبع بأن السلف من الأنبياء لم يكن لديهم هذا التصور عن الإنسان الفرد).

ولكن على كل حال لم يتبلور هذا الأمر إلاّ في ديننا الإسلامي، حيث نرى أنّ الفرد في الشريعة المحمدية، ليس مسؤولاً أمام الله فقط، بل أنه مسؤول أيضاً أمام المجتمع، ويحمل بذاته وشخصه تعهداً والتزاماً خاصاً تجاه شعبه وأمته، وهذا هو مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أي إنك أيها الإنسان لست مسؤولاً من الناحية الشخصية والفردية، تجاه الله فقط، بل إنك مسؤول أيضاً بنفس الدرجة أمام المجتمع، فهل يمكن اعتبار مثل هذا الدين بعد هذا دين قضاء وقدر؟!.

وبالطبع، القضاء والقدر بالمفهوم الذي يطرحه هؤلاء المستشرقون والذي يعني عندهم إرجاع الحركات والسكنات كافة إلى الله تعالى فقط، وإخراج البشر نهائياً من دائرة الالتزام والمسؤولية الاجتماعية، وهو قضاء وقدر لا بد وأن يُفيد بسلب حرية الرأي والاختيار والمسؤولية من الإنسان.

نعم، فالقرآن الكريم لا يقبل بمثل هذا النوع من القضاء والقدر، وهل هناك جملة أوضح من هذه الجملة التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم مرتين بسياق لفظي، ومفهوم معنوي متقارب وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

إنّ هذه الآية الكريمة في الواقع تصبُّ ماءً صافياً ونقياً على رؤوس كل أولئك المنتظرين من الله عزّ وجل، أن يُغيّر لهم الأمور والأحوال من طريق ما، فهي تقول لهم بوضوح: إنّ انتظاركم هذا سقيم، فإنّ هنا جزماً وتأكيداً على أن الأوضاع لن تتغير أبداً لقوم ما، حتى يقوموا هم بتغيير ما بأنفسهم من مواصفات، أخلاقهم، روحيتهم، وملكاتهم، وتوجهاتهم، ووجهة سيرهم، ونياتهم، وبالتالي أنفسهم.

---

(١) الرعد: ١١.

فهل هناك تعبير عن المسؤولية والالتزام، أكثر صراحة، من هذا التعبير القرآني؟ وأية مسؤولية؟ إنّها مسؤولية تجاه المجتمع، فالمخاطب هنا هو المجتمع.

وفي آية شريفة أُخرى، يخاطب فيها عزّ وجلّ الناس عامة، ويُذكّرهم بسيرة إحدى الأمم الفاسدة من السلف، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١) وما كان الله، أو لم يكُ» هنا، إنما تُفيد: بأن ربوبية وألوهية الله سبحانه وتعالى، تأبى أن تكون الأمور أو تسير الأمور بغير هذا القانون، أي إنها السُنّة الإلهية القاضية بأنْ لا يكون الأمر الربّاني إلاّ كذلك (فالإنسان عندما يقول مثلاً: أنا لم أكن، أو أنا لست كذلك، فإنما يقصد بأنه ذلك الشخص الذي لا بد وأن يُلازم شخصيته في الماضي كما في الحاضر والمستقبل، مثل تلك المواصفات).

هناك آية أُخرى، ورد ذكرها في القرآن الكريم، أذكر هاهنا في سياق التوسع في شرح: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا...﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢) أي إنّ الله لا يُعذّب أبداً أمةً من الأمم ما لم يُلقِ بحجتهِ عليها أولاً، أي إنّ ربوبيته تأبى غير ذلك التعامل، أي إنما نُعذّب تلك الأمة التي تفهم وتُدرك ما عُرض عليها، ثم تُحجِمُ في نفس الوقت عن العمل بتعاليم تلك الرسالة.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أي إنّ ربوبيتنا لا تقبل بمثل هذا العمل، بل تأمرنا بغير ذلك. فهل هناك وثيقةٌ وسندٌ أكثر وضوحاً وصراحة بعد هذه الآيات الكريمة، نستدلُ من خلالها على أنّ «توقعنا» و«انتظارنا» بل قل «تواكلنا» في مسألة التغيير ليس بمحله؟ إنّه النصّ القرآني الذي لا يمكن ردُه أو دحضهُ.

«محمد إقبال اللاهوري» يستنبط من هذه الآية الكريمة استنباطاً لغوياً يؤكد ما ذهبنا إليه في تفسير هذه الآية الكريمة فيقول(٣):

إنّ الله سبحانه لم يستخدم تعبير حتى «يُغيّروا ما بأنفسهم» بل قال: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. فالضمير هنا في «يُغيروا» عائدٌ للناس أنفسهم، أي إنه لم يَقُل

---

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) راجع كتاب «معرفة إقبال» تأليف سيد غلام رضا سعيدي.

حتى يُغيّر الله سبحانه وتعالى ما بأنفس الناس من أخلاق، روحيةٍ، وخصوصيات، بل تراهُ يقول: حتى يُغيّروا هُم، أي يُبادروا هم، مستقلين استقلالاً فكرياً قائماً بذاته.

وهنا نستنتج أنه لا يمكن لأية أمة أن تُغيّر أحوال وأوضاع أُمة أُخرى بالجبر والإكراه، مهما بذلت من محاولات، ما دامت الأمة الأُخرى لم تُقرّر بنفسها التغيير، ولم تأخذ زمام المبادرة في الاتجاه المطلوب، ولم تستند على قاعدة الاستقلال الفكري الذي هو وحده القادر على تحسين أحوالها وتقدمها نحو الأفضل.

أيها الناس! لا تنتظروا أن يأتيكم الآخرون من الخارج، حتى يُصلحوا ما فسد من أحوالكم! فالأمة التي ترغب أن يكون قرارها بيد المستشارين الأجانب، لن تصلح أحوالها يوماً، ولن تصبح أمة آدمية إلى الأبد، لأن قرارها هذا لا ينطبق مع مضمون الآية السالفة الذكر.

وعندما تقرر هي بالذات الاعتماد على نفسها، وعلى قدراتها الخاصة، وتبدأ بالتخطيط، والتدبير لمستقبلها، وتصبح أُمةً تُمسك قرارها بيدها، عند ذلك فقط يمكن لها أن تتوقع تدفّق الرحمة الإلهية عليها، وتنتظر التأييد الرباني لها، وبذلك يتحقق الوعد الربّاني لها، والذي يُطلق عليه القرآن الفيض الإلهي، والعون الرباني، والنصرة الربانيّة.

فلو كان الانتظار الفارغ والتوكل على الله، واعتماد نزول الرحمة الإلهية لوحدها، أمراً صحيحاً، لكان الحسين بن علي عليه السلام أكثر الناس استحقاقاً لمثل هذه الرحمة له ولأُمّته.

لكنه لم يعمل، لماذا؟ لأنه أراد أن يكون مثالاً لتطبيق الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي إنه أراد أن يأخذ زمام المبادرة بيده، ويبدأ بتغيير أوضاع المجتمع، وهو ما عبّر عنه عليه السلام عندما استعان بحديث جده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إذ قال: «... فلم يُغير عليه بفعل، ولا قول، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله»[1].

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، الكامل لابن الأثير ٤: ٢١.

ولكن ما هو نوع التغيير؟ وما هي القرارات المطلوب اعتمادها؟ فالأعمال العادية البسيطة نعرفها جميعاً ونستطيع تنفيذها، وإصلاح أمورنا، في المستوى البسيط، عملٌ سهل يقدر عليه الجميع، فالإسلام أوصى مثلاً بزيارة الحاج لدى عودته من مكة الحرام، وهو ما يقوم به أغلبنا، حيث نزور الحجاج العائدين من موسم الحج، ونُجالسهم قليلاً، ونأكل الحلويات معهم، ثم نتركهم عائدين إلى بيوتنا، أو إنّ الإسلام قد أوصانا بالمشاركة بتشييع جنازة الميت، والمشاركة في مأتم الوفاة، وهذه كلها من الأعمال السهلة في الإسلام، وهي أعمال بسيطة يقدر عليها كل إنسان، والمسلم لا يقوم بهذه الأعمال فقط، إذ يأتي يوم على الإنسان المسلم لا بد له من أن يقف موقف الحسين بن علي عليه السلام، وينهض، ويتحرك، ويثور، ويهز، ليس فقط أوضاع المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، بل إنّ شعاع تأثيره يصل إلى خمس سنوات بعد وقوع الحادثة، وبعد عشر سنوات تراه يظهر بشكل آخر، ثم بعد ثلاثين سنة بشكل مختلف، ثم بعد ستين عاماً، وهكذا بعد مئة عام وخمسمائة عام بأشكال أُخرى، بل وبعد مُضي ألف عام ترى ذلك التحرك يصبح المُلهم، والمُعلّم، لسائر الحركات والثورات الإنسانية.

وهذا النوع من التحرك يُقال له تحرّك من نوع التحرك الذي تقول به الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾.

نحن جميعاً نحبّ أولادنا! فهل كان الحسين بن علي عليه السلام لا يُحب أولاده؟! بالتأكيد كان يُحبهم أكثر منّا.

إبراهيم الخليل أيضاً لم يكن أقل حباً لابنه إسماعيل من حُبنا لأولادنا، فهو كان يُحبه أكثر من حُبنا نحن لأولادنا لأنه أكثر إنسانية منّا، وهذه العواطف عواطف إنسانية، ولمّا كان عليه السلام أكثر إنسانية منّا، فإنه بالتأكيد كان يحملُ من العواطف الإنسانية بكمية وبدرجة أكثر وأرفع منّا.

وهكذا الحسين بن علي عليه السلام، فإنه كان يُحب أولاده أكثر من حُبّنا نحن لأولادنا، ولكنه في نفس الوقت كان يُحب الله أكثر من أي أحدٍ آخر، وأكثر

من أي شيء في الدنيا، وبالتالي فإنّه لم يكن ليحسب حساب أيّ أحد أو شيء، مقابل الحق تعالى.

يذكر الرواة أنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام، عندما كان متوجهاً بقافلةٍ نحو كربلاء، كان أفراد عائلته جميعهم معه! إنه لأمر يصعب على التصور بالنسبة لنا بالفعل، فالواحد منّا إذا ما كان في رحلةٍ عادية، وكان يرافقه فيها طفل من أطفاله، فإنه يحس بشكل طبيعي بوجود مسؤولية معينة تجاه ذلك الطفل، وبالتالي فإنه سيكون قلقاً، ومشغول البال، باستمرار، على ذلك الطفل.

إلاّ أن الحسين عليه السلام، وكما يذكر الرواة، فإنه سلّم أمره لله مطمئناً هادئاً، وغطّ في نوم عميق، وهو فوق الفرس، حتى أنه وضع رأسه فوق سرج الفرس، لكنه لم يستمر طويلاً، وما كان منه إلاّ أن أفاق ورفع رأسه قائلاً: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

وما أن قال كلمته هذه، أي استرجع كما يقول أهل اللغة، وإذا بجماعته ينظر بعضهم لبعضٍ، وهم يتساءلون: وماذا يقصد عليه السلام بهذه الجملة؟ وهل هناك من نبأ جديد؟.

ويتقدم إليه ولده الغالي، ذلك الابن الذي يحبه كثيراً، والذي يحمل إضافة إلى ما يحمله كل ولدٍ من مواصفات تُحبِّب الولد لأبيه، يحمل خصوصية كانت تزيد في محبة أبي عبد الله عليه السلام له، ألا وهي خصوصية كونه أشبه ما يكون بجده النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله (تصوروا حجم المعاناة، والابتلاء، الذي يتعرض له الإنسان، عندما يصبح مثل هذا الولد في موقع الخطر)!.

نعم، يتقدّم إليه علي الأكبر ويقول له: «يا أبتاه! لِمَ استرجعتَ؟» أي لماذا قلت إنا الله وإنا إليه راجعون[1]؟.

قال: سمعت نداءً من السماء يهتف فيّ قائلاً «القوم يسيرون والموتُ يسير بركابهم».

والذي فهمته من الهاتف الربّاني، أنّ مصيرنا الموت، فنحن نسيرُ باتجاه الموت الحتمي.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٠٧.

(في هذه الأثناء يردُ علي الأكبر بقول) تماماً كما قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم عليه السلام[1].

نعم، هكذا أجاب علي الأكبر أبا عبد الله الحسين عليه السلام قائلاً: أولسنا على الحقّ؟.

قال: بلى.

قال: فعندما يكون الأمر كذلك فإننا ماضون إلى المصير الذي كتبه الله لنا، لا فرق إن كان مصيرنا الموت أم الحياة، فالمهم أن نكون ماضين على الصراط، وفي جادة الحق.

فما كان من أبي عبد الله الحسين عليه السلام إلاّ أن سُرّ كثيراً، وأقبل عليه بوجد، ولذلك تراه يردُّ على ابنه بعد ذلك، رد الشاكر لله الذي لا يملك لابنه دُعاءً أفضل من ذلك الدعاء، إذ قال له: «جزاك الله عني خير الجزاء».

فكم يتمنّى الأب أن تأتي الفرصة المناسبة حتى يخدم مثل هذا الابن؟ ولكن لاحظوا دقّة الموقف، وحساسيته الشديدة، ومدى عظمة المصاب، عندما يأتي بعد ظهر يوم العاشر من محرّم، ويقف هذا الشاب نفسه أمام هذا الأب بالذات، ثم يتقدم إلى الميدان ويُبارز الأعداء ويُبدي من الشهامة والشجاعة المنقطعة النظير، ويضرب من يضرب، ويقتل من يقتل، وهو على هذه الحال، ذابل الشفتين، ولسانه أشبه ما يكون بالخشب من شدة العطش، وفي لحظة استراحة واستعادة أنفاس، يعود إلى أبيه ليلتقط بعض أنفاسه، ويطلب منه رشفة

---

(١) فعندما يقول إبراهيم لابنه إسماعيل عليه السلام يا بُني! إنني أرى في عالم الرؤيا ما يشبه الوحي، بأنّ الله يأمرني أن أذبحك قُرباناً في سبيل الحق (وإبراهيم عليه السلام في هذه المرحلة لا يعرف فلسفة هذا الأمر، لكنه متيقّن من أنه أمر الله تعالى إليه) ماذا تتصور ردّ الابن؟ فهل قال له مثلاً: يا أبت، إنه لحلم ورؤية الشخص ميتاً في المنام يُفيد بطول العمر. وإن شاء الله يكون عمري طويلاً؟ لا إنه قال له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. (الصافات: ١٠٢) لكن الله سبحانه وتعالى يتدخل عندما يُقرر إبراهيم ذبح ابنه بالفعل فيوحي إليه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ (الصافات: ١٠٤).
نعم فالهدف من الوحي والخطاب الرباني هو: امتحان قوة إيمان الأب والابن، ولمّا كان قد أثبتا أنهما من المطعين لربهما فالأب أبدى استعداده للتضحية بابنه، والابن وافق على أن يكون الضحية، لذلك أمر الله تعالى إبراهيم بأن لا يذبح ابنه وهكذا كان.

ماءٍ، (ولا أدري هنا هل تذكر جملة أبيه التي قالها له، وهم في الطريق إلى كربلاء مع سائر الأصحاب).

على كل حال الولد يتمنى رشفة ماءٍ من أبيه في تلك الظروف الشديدة القساوة، قائلاً له: «يا أبتاه! العطشُ قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة من الماء سبيل»؟.

ولكن الحسين بن علي عليه السلام لم يكن أمامه أن يُجيب ولده الطاهر الرشيد علياً الأكبر عليه السلام، وهو في تلك الظروف الصعبة، والمعاناة العميقة سوى ببضع كلمات: «... بُني ارجع إلى قتال عدوك فإني أرجو أنك لا تُمسي حتى يسقيك جدك بكأسه الأوفى شربةً لا تظمأ بعدها[1] أبداً!».

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) الملهوف: ٤٨، مقاتل الطالبيين: ٨٥.

المحاضرة الثالثة

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، باريء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه، سيّدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

من خلال الموضوعات التي تم عرضها في الليلتين الماضيتين، يتضح لنا أنّ شكل النهضة الحسينية مرهون في الواقع لثلاثة عوامل، هي:

امتناع الإمام عليه السلام عن المبايعة، وقبوله لدعوة أهل الكوفة، والعامل الثالث الذي يظهر تأثيره بشكل مستقل، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما وقد اتضح لنا أيضاً أنّ كلاً من هذه العوامل الثلاثة كان بحد ذاته قد

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٨ محرم ١٣٩٠هـ قمري.
(٢) التوبة: ١١٢.

حمل معه وظائف ومسؤوليات خاصة للإمام عليه السلام، فضلاً عن استعداده لردود الفعل المتناسبة مع كل عامل.

ثم إننا بيّنا أيضاً أنّ تأثير كل عامل من العوامل على النهضة الحسينية، يختلف من واحدٍ لآخر، وبالتالي فهي ليست متساوية في تأثيرها على النهضة.

فلو أخذنا بعين الاعتبار عامل دعوة الكوفيين فقط، لرأينا أن قيمة تأثيره محدودة بحدود معينة، بينما لو نظرنا لعامل امتناع الإمام عن المبايعة، لرأينا أن قيمته أكبر وأعظم على النهضة من العامل الأوّل.

وإذا ما أخذنا عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنظر الاعتبار، لوجدنا أنّ تأثيره هو بعشرات المرات أكبر وأهم من العاملين الأوّلين، ذلك أن عامل دعوة أهل الكوفة، كان يحمل معه احتمال تحقيق نصر حسيني بنسبة ٥٠٪ أو أقل بقليل، في حين أن عامل الامتناع عن المبايعة، لم يكن يحمل معه أي احتمال من هذا النوع.

فهنا كانت المواجهة من نوع المقاومة الخطرة مئة بالمئة، وعلى الجانب الآخر فإن عامل العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحمل في طياته أيضاً تفاوتاً عظيماً وفرقاً كبيراً مع عامل المبايعة.

ففي عالم المبايعة يكون الطلب وتكون المطالبة من قبل العدو، أي أن يتقدم العدو بطلب غير مشروع وغير مقبول، فيواجهه الإمام مقابل ذلك بالرد، وبالتالي برفض الطلب والامتناع عن النزول عند رغبة المطالب.

وإذا ما أردنا أن نأخذ هذا العامل وحده بعين الاعتبار، لكان يمكن لنا القول: لو أنهم لم يطالبوا الإمام بمثل تلك البيعة لما كان الإمام قد وقف بوجههم، ولأنهم طلبوا منه مثل ذلك الموقف، فإن الإمام كان مضطراً لأن يرفض شخصياً ذلك الطلب، وبالتالي وقف في مواجهتهم. (وفي العامل الأول كانت الدعوة ـ دعوة أهل الكوفة ـ هي التي دفعت بالإمام إلى المواجهة).

وأمّا إذا ما أخذنا بالعامل الثالث، وهو عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبرناه هو العامل الأساسي، فإنّه عند ذلك لن تكون الدعوة هي التي تدفع بالإمام إلى المواجهة ولا المبايعة، بل إنّ الإمام هو الذي يُقرر المواجهة، وفي الحقيقة فساد الأوضاع، وشيوع الشرور والمنكرات، وبتعبير الإمام نفسه، تحول الحلال إلى حرام، والحرام إلى حلال، وبالتالي رؤية الوضع الفاسد والمنكر للمجتمع، الأمر الذي يضع الإمام أما منعطف المواجهة، ويوجب عليه القيام والنهضة.

وعلى هذا الأساس فإنّ قيمة قيام الإمام، استناداً إلى هذا العامل، تتضاعف كثيراً ويأخذ الدرس الحسيني انطلاقاً من هذا الحساب شكلاً آخر، ووضعية مختلفة.

والسبب الأساسي، والعامل الرئيسي، الذي يُعطي لهذه النهضة جدارتها وأهليتها، لتبقى دائماً مُشعةً، ومشرقة على جبهة التاريخ، وخالدة أبداً، ودرساً أزلياً، وثورةً لا نظير لها في العالم، هو هذا السبب، وهذا العامل، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالطبع إضافة إلى بعض الخصوصيات التي سأتعرض إليها أيضاً في السياق.

إنّ هذا العامل يرفع كثيراً من أهمية وقيمة النهضة الحسينية، ولهذا السبب، فإنّ الواجب يتطلب منا أن نتعرف أكثر فأكثر على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.

وما هو هذا المبدأ الذي يحمل كل هذه الأصالة والقدرة الكامنة، والذي يحمل كل تلك الأهمية في الإسلام، حتى يدفع بشخص مثل الحسين بن علي عليه السلام، للتضحية بنفسه على طريق ذلك المبدأ، وتسيل دماؤه، ودماء أحبائه، ودماء أصحابه، من أجل انتصار ذلك المبدأ، بل حتى إنه يذهب إلى حد تقبل حدوث مثل تلك الواقعة الحسينية التي لا مثيل لها في التاريخ.

ولهذا فإننا، وبعد مُضي ما يقارب الألف ومائتي عام، ترانا نقف بين يدي الإمام، ونقرأ الدعاء الخاص: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت

الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين»(١).

ودعونا الآن نفكر جيداً في مفهوم هذه الشهادة، وفي هذا الدُعاء:

فنحن نقول في هذا الدعاء: إنّك ـ أي الإمام الحسين ـ قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأديت واجب الإنفاق، بكل مراتبه ودرجاته(٢)، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، أي أنّك هنا إنّما قمت وجاهدت بهدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وثم فقد جاهدت في الله حق جهاده، أي إنّك سعيت كل سعيك الممكن في قدرة الإنسان، والفرد، وبذلت ما في وسع الإنسان أن يبذله في طريق الحق.

والجدير بالملاحظة هنا، هو أننا في (زيارة وارث) نقول: «إننا نشهد» فلمصلحة من يا ترى نشهد نحن هنا؟ فالمفروض أن الشاهد إنما يذهب إلى المحكمة، ليشهد أمام القاضي، على صحة ادعاء ما، أو البرهنة على أحقيته مثلاً كأن نقول: سيدي القاضي! إنني أشهد بأنّ فلاناً من الناس يوجد في رقبته دين لفلان، وهذا هو الحاصل في (زيارة وارث).

وهل تعلمون عند من نشهد؟ ترى هل هي الشهادة بين يدي الله، وأمام المحكمة الإلهية؟ ولمصلحة من؟ هل هي لمصلحة الإمام الحسين؟.

إنّ علماء المعاني والبيان يوردون في هذا الصدد ملاحظة جميلة وحكيمة

---

(١) عن زيارة وارث (الزيارة المشهورة بهذا الاسم ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام ـ.

(٢) إذ إن أمر الزكاة لا ينحصر بدفع المال فقط، فالثروة لها زكاتها، كما أن الكلام له زكاته، والفكر والدماغ لهما زكاتهما، وجسم الإنسان بشكل عام له زكاته، فالأطراف لها زكاتها، والأذن لها زكاتها، أي أن أية نعمة يمنحها الله لعباده، ويقوم العبد باستعمالها لخدمة سائر المخلوقات، فإنه يكون بذلك قد زكى تلك النعمة. فنحن نقرأ في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣) وتفسير ذلك كما جاء على لسان الأئمة عليهم السلام عندما سُئلوا عن معنى «مما رزقناهم»؟ هنا قال عليه السلام: أي ممّا علّمناهم يُعلّمون. وواضح هنا بأن الأمر لا يخص المال والثروة فقط. إذ إن أحد مصاديق الإنفاق هو أنه عندما ينطبق على الفرد مصداق العالم، وبالتالي فإنه يَعْلَم ما لا يعلمه الآخرون، وإنه يحمل من العلم المفيد للبشر بين أنسجة دماغه، فإنه يصبح من الواجب على ذلك الفرد أن يقوم بالإنفاق، والزكاة من ذلك العلم، في سبيل الله، وعلى طريق خدمة المحتاجين من هذا العلم. وهذا بدوره زكاة وإنفاق مُعتبران.

للغاية وهي: إنّ الإنسان يقوم أحياناً بأداء شهادة ما أمام مقام معين، ليس بهدف إفهام الطرف المقابل بمضمون تلك الشهادة، وإنما بهدف إفهام الطرف المعني بأنه ـ أي الشاهد ـ إنما يُدرك ذلك المضمون ويفهمه، وهذا أمر منتشر أيضاً. فأنت أحياناً تؤدي الشهادة لصالح قضية ما، أمام شخص معين من الناس، ليس بهدف إفهام ذلك الشخص بذلك الموضوع، فأنت تعرف بأنّه يعرف، لكنك إنما تُريد من وراء شهادتك تلك إفهامه والإقرار أمامَه بأنّك تعرف وتفهم وتعلم.

وهنا يأخذ معنى الشهادة، معنى الإقرار والاعتراف، فتقول: (أشهد أي إنني، مثلي مثل كل إنسان عاقل، اعترف وأُقرُّ يا أبا عبد الله الحسين بأن نهضتك هي نهضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

أي إنّني أدرك جيداً بأنك لم تقم فقط بسبب دعوة أهل الكوفة، بل إنك قمت قبل أن يدعوك أهل الكوفة إليهم، فأنت نهضت، وقمت أولاً، ثم قام أهل الكوفة بتوجيه الدعوة إليك.

كما أنني أشهد أيضاً بأنك لم تقم فقط بسبب رفضك مبايعة يزيد، فنهضتك تشمل بنداً آخر أيضاً وبقيامك إنما أردت تنفيذ مبدأ آخر من مبادىء الإسلام ألا وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فيما سبق بينتُ لكم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يرفعُ من مقام وقيمة النهضة الحسينية، درجات عالية جداً، إضافة إلى ميزةٍ معينة، بل ومميزات أُخرى.

والميزة التي أُحب التعرض إليها هي أنّ ثورات الأنبياء، وأولياء الله والمؤمنين بشكل عام، تمتاز عن سائر الثورات الأُخرى التي تحصل على يد القادة، أو غير القادة من الناس العاديين بمواصفات معينة، فما هي هذه المواصفات؟.

نقول: إن فعل البشر له وجهان أو جانبان، جانب جسمين وجانب روحي، فقد نقومُ، أنا وأنت، بتنفيذ نفس العمل، وبشكل واحد ولكن من أية جهةٍ بشكل واحد؟ من جهة هيكل أو صورة العمل الظاهري، كأن يقوم كلانا

بتأدية فريضة الصلاة، أو أن يُساهم كلانا في دفع الأموال من أجل عمل خير معين، فيدفع كل واحد منّا نفس المبلغ الذي يدفعه الآخر.

وأصلّي أنا أربع ركعات، وأنت كذلك أربع ركعات، وبالتالي فإن هذه الأعمال التي مارستها أنا لا تختلف عن أعمالك أنت، لكن الفرق يكمن في كونك مثلاً تمتلك من خلوص النية، ومن الخضوع والخشوع، ما لا أملكه أنا بدوري، وتكون أنت بالتالي حاملاً لعشق، ومحبةٍ، وإخلاصٍ، وهيجان روحي عالٍ ينفعك، بينما افتقد أنا بدوري لمثل هذه المواصفات، وعليه تكون قيمة أعمالك، ألف مرةٍ، أرفع، وأفضل من أعمالي.

هناك العديد ممن جاهدوا في سبيل الله، ولكن لماذا تصبح: «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[١] فهل ضربة عليٍّ لها هذه القيمة الرفيعة حقاً ولماذا؟ ذلك أنّ علياً عليه السلام وكما جاء في تعبير العُرفاء قد ذهب إلى درجة الفاني في الله ـ أي إنه لم يبقَ في وجوده من الأنانية، أو الذاتية، شيء بتاتاً ـ.

ففي الوقت الذي يبصق العدو بوجهه، في حين يأبى هو رغم ذلك، قطع رأس العدو في تلك اللحظة، حتى لا يختلط في عمله الانفعال الذاتي الذي قد ينبع من غضبه على فعلة العدو، مع عمله الجهادي الأساس، وهو بهذا يُريد أن يغني نفسه ولا يُبقي في روحه سوى الله. وهذا الأمر لا تجدونه إلاّ بمنهج وعقيدة الأولياء والأنبياء، إذ لا وجود لمثل هذه التصرفات في غير مدرسة الأنبياء بتاتاً.

في الآية الكريمة التي تلوناها عليكم في بداية الجلسة جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[٢]، إنّ التائبين تأتي في مقدمة المواصفات، التي يذكرها القرآن الكريم.

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٣٨، بحار الأنوار ٢: ٢٠٦.
(٢) التوبة: ١١٢.

وكما يقول العرفاء فإنّ أول منزلة من منازل السلوك، أو أول مرتبة هي التوبة.

فالتوبة تعني العودة، والذي ينحرف عن الطريق، ويميل عن الصراط، تراه يعود فجأةً إلى طريق الحق، أي إنه يعود ويتجه مجدداً نحو الله.

نعم، التائبون العابدون أي إنّ الابتداء بالتوبة، والانطلاق منها، هو الذي جعلهم يصبحون من العابدين، وبالتالي يعبدون الله، ولا يعبدون سواه، ويصبح الله سبحانه وتعالى هو الحاكم فوق وجودهم، ولا حاكم سواه.

وهكذا فإنهم لا يقبلون بغير أمر الله، ويرفضون أوامر غيره، ويُطيعونه وحده لا شريك له، ولا يُطيعون غيره.

الحامِدون: أي المُمجّدون اسم الحق تعالى، ولا يُمجِّدون غيره.

إنّهم لا يعرفون أحداً يستحق التمجيد، والمدح، والابتهال غير الله.

إنّهم لا يمجّدون، ولا يبتهلون لغير الله سبحانه وتعالى.

السّائحون: أي السوّاح، وقد ورد بهذا الخصوص، عدة تفاسير مختلفة، منها من قال بمفهوم السياحة المعنوية، وهي تلك السياحة التي تظهر في عمل الصوم، لكن كثيراً من المحققين لا يقبلون بهذا التفسير مثل العلامة الطباطبائي في ـ ميزانه ـ.

التفسير المحتمل هنا هو: أن يكون المقصود: السائحون في الأرض، حيث إنّ القرآن يدعو العباد إلى السير في الأرض.

ولكن ما معنى السير في الأرض؟.

إنه يعني قراءة سير الزمان، والبحث والدراسة في العبر، والقصص، التي تحصل في بقاع الأرض المختلفة، وليس سياحة اللاهدف، وقتل الوقت.

فالإسلام يُقدّر عمر الإنسان كثيراً، ولا يقبل أن تمضي السنون على العباد، وهم منشغلون فقط في السفر والاستطلاع فقط.

نعم، إن الإسلام لَيُشجِّع تلك السياحة التي تترافق مع التدبّر والتفكر

واستخلاص العبر وأخذ الدروس، والله سبحانه يوصينا بمثل هذه السياحة فيقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) وهذا درس وفكر لنا.

وعليه فالسّائحون: هم أولئك النوع من البشر الذين يُمعنون في مطالعة التاريخ، هم أولئك الممعنون في مطالعة قوانين الخلق والإنشاء، هم أولئك الأفراد الذين تزخر أذهانهم وأدمغتهم بالأفكار والنظرات الفكرية المُشرقة.

ثم يذكر القرآن الكريم مظهرين آخرين من مظاهر العبادة في قوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، أي المُسبّحون بحمده، والذين يقولون: «سبحان ربّي العظيم وبحمده»، في ركوعهم، و«سبحان ربي الأعلى وبحمده»، في سجودهم، إنهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

وعندما يحمل أولئك البشر مثل هذه المواصفات والامتيازات، ومثل هذا الرأسمال المعنوي، ومثل هذه الروح والأفكار، عندها يمكن القول بأنهم يملكون صلاحية حمل راية الإصلاح الاجتماعي، أي راية الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أو المصلحين.

وإلاّ كيف يمكن للفاسد وغير الصالح، أن يكون مُصلحاً؟!.

نعم، فأولئك الذين أصلحوا أنفسهم أولاً وأدّبوها وربّوها، تربية صالحة يمكنهم فقط أن يكونوا مصلحين.

وفي هذا الصدد يقول علي بن أبي طالب عليه السلام:

«من نَصَبَ نفسَه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل غيره، ومُعلّم نفسه ومُؤدّبها، أحقُّ بالإجلال من مُعلّم الناس ومُؤدبهم»(٢).

أي إنّ على الإنسان أن يبدأ بنفسه أولاً، ويتغلّب على تلك النفس الأمّارة بالسوء.

فالإنسان يحمل موجوداً غير مُربّى في داخله عليه أن يُربيه ويؤدبه أولاً،

---

(١) الأنعام: ١١.
(٢) نهج البلاغة ٤: ١٦، رقم ٧٠، بحار الأنوار ٢١: ٥٦، ح٣٦، وسائل الشيعة ١٦: ١٥١، ح٢١٢١٣.

فيعظ نفسه ويلومها ويحاسبها، وبعد أن ينتهي من علم وإصلاح نفسه وتهذيبها، وعندما يصبح في عداد الصالحين، يمكنه عندئذٍ الادعاء بإمكانية حمله لمهمة الدليل، والهادي للناس، والواعظ والمُعلّم والمُربي والمؤدّب والمُصلح الاجتماعي.

نعم، فالإمام يقول بوضوح بأنّ المُعلّم لنفسه أحقّ بالإجلال من مُعلّم الناس ومؤدبها، لأنها المهمة الأصعب والأهم.

وفي خطبة أُخرى للإمام علي عليه السلام نقرأ: «الحقّ أوسعُ الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف»[1].

فما أروعهُ من قول! إنه لينبغي خطّهُ في لوح القلب.

نعم، فما أوسع ميدان الحديث عن الحق، والخطابة حول مبادىء الحق، ولكن ما أن تأتي ساعة العمل والتطبيق، حتى يضيق الميدان ويصعب الموقف حتى النهاية، وتضيق المسافة المتوفرة للمناورة عند العمل بالحق، حتى ليصعب على الإنسان المُضي، ولو بخطوة عملية واحدة في هذا المجال.

ومن هنا فإنّ القرآن الكريم تراه بعد أن يؤكد على مواصفاتهم، وأنّهم: التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، ومن ثم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، وندرك أنّهم هم الطليعة في عمل الخير وإشاعته، والسبّاقون في طريق الكفاح ضد مظاهر الشر والفساد، وهم فقط من يملكون صلاحية حمل مثل هذا الشرف، تراه يقول أخيراً: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن هم أولئك المؤمنون الذين يستحقون تلك البشارة، إنهم أولئك التائبون العابدون... إلخ.

ولكن إذا كانوا يمتلكون كل تلك المواصفات، ولم يكونوا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فإنهم لن يُفلحوا في أعمالهم، وكذلك إذا

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٤، الكافي ٨: ٣٥٢، ح٥٥٠، بحار الأنوار ٢٧: ٢٥١.
وتواصف القوم: وصف بعضهم لبعض. وتناصف القوم: أنصف بعضهم بعضاً.

كانوا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولكنهم كانوا أنفسهم من الملوثين وغير التائبين. . . فإنهم أيضاً سوف لن يوفّقوا في أعمالهم.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لعن الله الآمرين بالمعروف، التاركين له والناهين عن المنكر، العاملين به»[(١)].

وهذا يعني بالضبط أن أولئك الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لكنهم ليسوا من التائبين، ومن العابدين، والحامدين، والسائحين، والراكعين، والساجدين، فإنّ لعنة الله عليهم، لا بدّ نازلة، لا محالة، فهم لم يطووا المرحلة التمهيدية المذكورة في الآية الشريفة السالفة الذكر.

يقول العرفاء في هذا المجال إنّ «السالكين» يمرون في الواقع بأربع مراحل في سيرهم العرفاني:

١ ـ سير من الخلق إلى الحق.

٢ ـ سير بالحق في الحق.

٣ ـ سير من الحق إلى الخلق.

٤ ـ سير بالحق في الخلق.

إنّهم في الحقيقة يُريدون القول: إنّ الفرد الجدير بهداية الآمرين والكفوء، لأن يكون دليلهم، هو ذلك الفرد الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والذي سما إلى تلك المرتبة الراقية من مراتب الحق، ثم أصبح مُكلّفاً برفع الناس إلى حيث استقرّ به المطاف.

من خلال ما تقدم، يتضح لنا أنّ النهضة الحسينية قد استقت قيمتها، وأهميتها الأساسية من بُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعليه فإننا يجب أن نتعمق في فهم وإدراك هذا المبدأ الذي هو من الأهمية بمكان، ويستحق أن يستشهد في سبيله مثل الحسين بن علي عليه السلام، وخليقٌ بنا أن نسير على هذا المثل الحسيني العظيم.

(١) نهج البلاغة ٢: ١٢، الخطبة رقم ١٢٩، وسائل الشيعة ١١: ٤٢٠، ح٩.

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو المبدأ الوحيد الذي يضمن بقاء الإسلام، وبعبارة أُخرى هو «العلة المُبقية» كما يصطلح عليه الفقهاء.

بل يمكن القول بأنّه لا وجود للإسلام دون هذا المبدأ.

إنه المبدأ الذي على أساسه تتمّ مراقبة وضع المسلمين وحالتهم بشكل دائم، وهل يمكن لأي معمل أو مصنع البقاء سالماً دون مراقبة وصيانة دائمة من قبل المهندسين الاختصاصيين؟.

بل هل يمكن لأية مؤسسة أن تستمر في عملها دون ممارسة الرقابة عليها، ومتابعة شؤونها العامة من قبل الأطراف المعنية؟ أبداً. وكذلك هو شأن المجتمعات البشرية.

والمجتمع الإسلامي أيضاً، لا بد وأن يكون كذلك، بل إنّ درجة الاهتمام لا بد وأن تكون أكثر دقة من غيرها من المجتمعات، وهل رأيتم إنساناً ليس بحاجة إلى طبيب!.

فإمّا أن يكون الإنسان هو طبيب نفسه، أو أن يكون أحد آخر قد تفرّغ لمعالجته، وناهيك عن أنّ المعالجة لها حقوقها الاختصاصية.

فهذا طبيب للعيون، وآخر للحلق والأذن، وذلك متخصص في الأمراض النفسية والأعصاب، إلى غير ذلك من فروع الطب البشري.

فها هو الإنسان إذن يضع بدنه تحت المراقبة الدائمة حتى يصون الوضع العام لجهاز البدن، ويطمئن عليه.

فهل يمكن القول بعد ذلك إنّ المجتمع البشري لا يحتاج إلى رقابة ومتابعة؟!.

وهل يمكن تصور مثل هذا الأمر؟! أبداً بالتأكيد وكلاّ.

لقد قُتل الحسين بن علي عليه السلام على طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي على طريق المبدأ الأكثر أساسية لضمان بقاء المجتمع الإسلامي،

ذلك المبدأ الذي لو لم يكن، لتلاشى المجتمع الإسلامي وتفكك، وتفرّقت الأمة وتقطعت أوصالها، وانهار بنيانها، وتناثرت قطعاً قطعاً.

نعم، فهذا المبدأ يحمل كل هذه القيمة والأهمية، والآيات القرآنية الواردة بهذا الصدد كثيرة للغاية.

ففي موارد عديدة نرى أنّ القرآن الكريم يُذكرنا بمصائر عدد من المجتمعات التي انقرضت وتلاشت وهلكت، بسبب عدم توفر قوة الإصلاح فيهان وافتقارها إلى قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم، فتلك الروح الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، وذلك الحس كان قد مات عندهم، فماتت مجتمعاتهم واندثرت.

والآن دعونا نرَ ما هي شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف نستطيع أنْ نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ بل دعونا قبل ذلك نسأل ما هو المعروف؟ وما هو المنكر؟ وما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟.

لما كان الإسلام لم يُرد لموضوع مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنْ ينحصر ويتحدد بموضوعات مثل العبادات، والمعاملات، والأخلاقيات، والعلاقات العائلية... وغير ذلك، فإنه استخدم مصطلحاً عاماً شاملاً ـ هو المعروف ـ أي كل عملٍ تُشتمّ منه رائحة الخير والإحسان.

فالأمر بالمعروف ضروري، وفي مقابل ذلك: النهي عن المنكر، فلم يقل الشرك، أو الفسوق، أو الغيبة، أو النميمة، أو الكذب، أو التفرقة، أو الربا، أو الرياء، بل لخص ذلك في كلمة: المنكر، أي كل ما هو قبيح ودنيء وحقير.

إنّ «الأمر» هو التكليف، والواجب، وأما «النهي» فهو المنع والردع، ولكن ما هو هذا الأمر والتكليف؟ فهل المقصود منه هو التكليف اللفظي؟ أي أنْ لا يتجاوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حدود اللفظ؟ ولا يتعدى عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دور اللسان؟.

كلاّ، فهناك مراحل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تبدأ بالضمير، والقلب، ومن ثم اللسان، وأخيراً باليد، أي بالتطبيق العملي.

وهذا يعني أنك يجب أن تعيش بكل وجودك وأنت آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، فعندما يُسأل الإمام علي عليه السلام عن معنى نعت القرآن الكريم بعض الأحياء بالأحياء الميّتة[1]! فإنه يقول عليه السلام ما مضمونه: بأنّ الناس تنقسم إلى فئات وطبقات مختلفة، منهم من إذا رأى المنكر تراه قد تحرك ضميره فوراً، واشتعلت جوارحه تأثّراً بما رأى، وبدأ بالنطق بلسانه ناهياً، ومنتقداً للذي رآه، ومُنطلقاً في أداء وظيفة الإرشاد، بل ولا يقنع بذلك أو يكتفي به وإنما يستمر في المحاولة حتى يدخل مرحلة العمل أي شكل من أشكال العمل باللطف أو بالخشونة، بالضرب أو بالتعرض للضرب، ليس مهماً إلى أين تصل نهايات الأمر فالمهم أنْ يستخدم الوسيلة العملية الممكنة للنضال والكفاح ضد المنكر.

وهذا الإنسان كما يقول الإمام علي عليه السلام هو الحي بكل معاني الحياة.

أما البعض الآخر فإنه عندما يرى المنكر، فإن قلبه يتحرق تأثيراً مما يرى، ولذلك تراهُ يصيح، وينادي ويستغيث وينصح ويعظ من يراه ضرورياً، وأهلاً للموعظة، ولكنه لا يتجاوز هذه المرحلة إلى العمل فهذه حدوده وكفى.

والإمام عليه السلام يقول عن هذا النوع بأنهم أحياء أيضاً وعندهم عدد من خصال الحياة لكنهم يفتقدون إحدى خصالها.

أما الصنف الثالث: فإنك تراه يتحرّق ويشتعل غضباً وتنفراً من رؤيته للمنكر، لكنه لا يُحرّك ساكناً مقابل ذلك، بل يكتم تأثيره في داخله فهو يقرأ الجريدة مثلاً وهي تكتب عن أيام عاشوراء، وتصفها بأنها من أيام الأعياد أو أنه ينبغي على الناس أنْ تستثمر هذه الأعياد، وتستغل أيام العُطلة هذه، وتنطلق في السفر والترفيه! إلى ما هنالك من وسائل الدعاية والترويج المضادة لفكر الإمام الحسين عليه السلام ومنهجه وذكراه الخالدة.

فالراديو والتلفاز، وكل أجهزة أعلام البلاد مُعبأة لتحريض الناس بالاتجاه المُعاكس للأعراف، والتقاليد الإسلامية الخاصة بهذه الذكرى.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ (النحل: ٢٠ ـ ٢١).

ومع ذلك ترى تلك الفئة من الناس لا تُحرّك ساكناً، ولا تعترض على ما يجري بأي شكل من الأشكال، ولا تتساءل حتى لماذا ينشط هؤلاء ضد الإمام الحسين عليه السلام؟ ومن هم هؤلاء المُحرّضون ضد الإسلام؟! ولماذا لا يكتب أحد، ويرد عليهم بأنّ للعيد مناسباته، وأيامه المعروفة![1].

ومن ثم فإننا نُنادي على الدوام بأنّ قضية الحسين بن علي عليه السلام قد عُجنت واختلطت بأرواحنا، ونحن جميعاً مدينون لهذا الدين وهذه المدرسة، فهذا البلد بلد الحسين بن علي عليه السلام، والبلاد هي بلاد التشيع والإسلام، والحسين بن علي شعار هذا الشعب وشعار هذه البلاد، فكيف نسمح لأنفسنا أن نرى ونسمع كل هذه الإهانات الموجهة ضد الحسين بن علي عليه السلام، والدعوة إلى تحويلها إلى أيام فرح ونُزهةٍ، واغتنامها فرصة من فرص السفر والترفيه، ثم نسكت على كل ذلك؟! وهذه الفئة الثالثة التي نتحدث بصددها الآن ليست حاضرة حتى تُنبِّه رفاقها وأهلها الأقربين إلى ضرورة احترام شعائر الإمام الحسين بن علي عليه السلام، والتحمل ثلاثة أيام فقط من دون الإساءة لهذه الشعائر.

حتى هذا القدر القليل من المحافظة على التراث والتقاليد والعُرف الحُسيني، لا يصدر من هذه الفئة ـ وأقولها صراحةً ـ: نحن لم نَصُن الحسين، ولم نحافظ عليه!.

إنّ الحسين صاننا، وحافظ علينا حتى الآن، وكما يقول الفيلسوف الكبير محمد إقبال اللاهوري: «لم يحصل أبداً أنّ المسلمين قد صانوا الإسلام بل إنه الإسلام دوماً هو الذي كان يصون المسلمين».

فكلما هدد البلاد خطر عظيم تراهم يتمسكون بأذيال علي بن أبي طالب عليه السلام و(نهج البلاغة)، والبحث عن خيمة الحسين بن علي عليه السلام وعن ذكراه. ـ والله ـ إنه لينطبق علينا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) لا بدّ من التذكير هنا بأن هذه المحاضرة إنما أُلقيت في زمن عهد الشاه المقبور.

(٢) العنكبوت: ٦٥.

وهذا هو الحال في بلادنا اليوم! لقد رأيناهم كيف كانوا يرددون اسم الحسين بن علي عليه السلام، واسم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام! لقد كان ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً عندما كانوا لا يعرفون اسم الحسين ولا الإمام علي عليه السلام.

وما إن استنفدوا أغراضهم من هذه القضية حتى استفاق العالم على ذكر بابك خُرَّم[(١)] والمقفع[(٢)] ومازيار[(٣)] ـ وبقية الأسماء الفارسية المعروفة ـ. فعندما يُهدد هذه الأُمّة الأخطار الجدّية، فإنّ «بابك خرم» يذهب إلى الجحيم، ولا نراه في الواجهة!.

إنهم لا يعرفون الخجل حقاً! كيف يتجرأون هكذا على محاربة الحسين بن علي، ويضعون الأبطال مقابله؟! تراه للأسف بدلاً من افتخاره بتسمية ابنه بأسماء إسلامية كالحسين وغيرها يُسميهم بابك، ومازيار، وجمشيد، وخورشيد، خجلاً من الأسماء الإسلامية!.

والله إنّ كل هذه التحركات والتصرفات ما هي إلاّ حرب ضد الإسلام، وإماتة للإسلام، ولهذا فإن علينا جميعاً أن نحيي شعائر الدين، وإحدى الشعائر هي الأسماء، فما معنى أنْ يُقال أنّ الاسم الفلاني أصبح قديماً ولم يَعُد عصرياً، أو لا يُناسب الموضة؟ فهل هناك اسم جديد واسم قديم؟! ولأن اسم الخادمة الفلانية فاطمة يصبح اسم فاطمة يوحي بانتماء الشخص إلى صنف الخدم! إنه لأمر عجيب حقاً! إذن ينبغي أن لا نُسمي بناتنا بعد الآن باسم فاطمة!.

هنا بالذات أحد موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم، فأحد درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أيها الناس! أن

---

(١) وهو الذي خرج في زمن المعتصم العباسي في أذربيجان، وإليه تنسب طائفة البابكية أو الخرّمية.
انظر: الأنساب للسمعاني ١: ٢٤٣.

(٢) هو عبد الله بن المقفع الفارسي المشهور، كان مجوسياً قبل الإسلام، اسمه «روزبه قبل الإسلام، يقال أن الحجاج الثقفي ضربه على يديه فتقفّعت ـ أي تشنّجت ـ.
انظر: أمالي المرتضى ١/ ٩٣، هامش (١).

(٣) مزدك بن مازيار: من ملوك الفرس، وهو الذي زيّن للناس ركوب المحارم.
انظر: الأخبار الطوال: ٦٧.

تُسموا أبنائكم بالأسماء الإسلامية. (فهذا أمر بالمعروف). ومن جهة أُخرى عليكم أن تحاربوا الأسماء غير الإسلامية (وهذا نهي عن المنكر) وانتخبوا اسماء إسلامية لمؤسساتكم وبذلك تُحيوا الأسماء الإسلامية، وتُحيوا لسان الإسلام ولغته.

إنّ اللغة العربية ليست لغة قوم وشعب مُعين، إنها لغة الإسلام، نعم، فاللغة العربية ليست لغة العرب، إنها لغة الإسلام، فلو لم يكن القرآن لما كان هذا اللسان موجوداً اليوم!.

وإنّ من أهم واجباتنا اليوم الدفاع عن هذه اللغة وصيانتها.

إنّ كل ثقافة وحضارة، يُراد لها أن تبقى حيّة، لا بد من إحياء لغتها، فإذا ماتت لغتها ماتت تلك الحضارة.

إنّ هذه الحرب العلنية التي تشهدونها اليوم ضد اللغة العربية، ينبغي أن تكون ناقوساً لإعلان الخطر عليكم، ولا بدّ أن تفهموا ذلك جيداً وتُدركوه وتتيقظوا لما يُحاك من مؤامرة خفية من وراء ذلك.

فوالله إنها الحرب ضد الإسلام. فلا أحد يحارب الحروف الأبجدية للغة! قسماً بالله إنّ علينا واجب أمام اللغة العربية، وما ينبغي أن نقوم به هو حفظ هذه اللغة وصيانتها، ومَنْ يستطيع الوقوف ضدكم؟ شكّلوا معاهد تدريس اللغة العربية في كل مكان واشرعوا في تعليم أبنائكم وأنفسكم وأزواجكم.

وصدّقوني إذا ما تعلمتم هذه اللغة فإنكم ليس فقط لن تخسروا شيئاًن بل إنكم ستستفدون أيضاً لأنكم كسبتم تعلُّم لغة حية من لغات الدنيا.

فها هي اللغة الإنجليزية قد غزت بلادنا، ونفذت في داخل بيوتنا في الأعماق، والدعاية تفرضها علينا فرضاً، لماذا؟ هل كل هذه الدعاية من أجل سواد عيوننا؟ أبداً.

إنهم يروجون لهذه اللغة الإنجليزية حتى يفرضوا عاداتهم وتقاليدهم علينا، يوجهوا ثقافتنا وتربيتنا نحو أفكارهم ومدنيتهم، إنهم يريدون من وراء ذلك فرض روحهم وروحيتهم علينا حتى يذيبوا شخصيتنا وروحنا وإرادتنا.

كم كُنا نحن المسلمين غافلين ولا نزال، ليس الإيرانيون وحدهم مصابين بهذا المرض، بل أينما يضع الإنسان قدمه في عالم الإسلام سيرى كيف أن المسلمين قد ظلوا نياماً ولمدة قرون، لكن والحمد لله فقد بدأت تظهر بوادر اليقظة بين صفوف المسلمين. . .

إنه لأمر يدعو إلى الأسف الشديد أن يرى الإنسان المسلمين القادمين من بلدان مختلفة يجتمعون في مكة أو المدينة، وتكون لغة التفاهم فيما بينهم اللغة الإنكليزية!.

إنه مخطط عملوا من أجله، ولا زالوا منذ أكثر من أربعمائة عام، ولكن أما آن الآوان لنا أن نستيقظ ونواجه هذه المخططات؟! قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[(١)].

إنّ هذا الواجب الكبير ـ والذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ له ركنان، أو شرطان أساسيان:

أولهما: النمو المعرفي، وامتلاك البصيرة بالأشياء. فأنا عندما أقول لكم الآن بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنكم حتماً ستخرجون من هنا وأنتم تقولون دعونا ننطلق حالاً ونبدأ ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكنني قبل ذلك أسألكم:

وهل نحن نعرف حقاً ما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وكيف يجب أن نُمارس هذه الوظيفة؟ لا سيما وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالنسبة لنا كان حتى الآن، لا يتعدى الأمور الحياتية البسيطة، التي تتلخص بمتابعة المظاهر السلوكية للناس، من لباس، وهندام، وهيئة عامة!.

فنحن لم نتعرف على كُنه المعروف الحقيقي بعد ولا كنه المنكر الحقيقي!.

وربما كنا في بعض الأحيان نأخذ المعروف مكان المنكر أو العكس من

---

(١) آل عمران: ١١٠.

ذلك، والأفضل لنا نحن الجهلاء أن لا نقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ ربما زُرع المنكر وانتشر بسبب هذا النوع من ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم، فالمرء على العموم بحاجة إلى المعرفة والبصيرة والخبرة والاطلاع والعلم بالشيء، وشيء من علم النفس، وعلم الاجتماع، قبل أن يُمارس مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أي إنّ عليه أن يُشخّص المعروف أولاً، ويُحدد موقعه، ثم يُشخّص المنكر، ويكشف عن جذوره ومنابع نموه.

ولذلك ترى أنّ أئمة الدين قالوا في هذا الشأن:

الأفضل أن لا يقوم الجاهل بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لماذا؟ «لأنه ما يُفسده أكثر مما يُصلحه»[١].

ذلك أنّ الجاهل ربما جاءت نتيجة عمله مُغايرةً لما أراده من إصلاح كأن يُسيء لشخصٍ أراد من خلال ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإحسان له، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

وهنا ربما تقولون: إذاً فقد سقط عنّا نحن الجُهّال واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! لكن القرآن يرد على هذه المقولة بقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٢]، أو ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣].

وفي سؤال أحدهم لأحد الأئمة المعصومين عليهم السلام، عن كيفية محاسبة البعض الجاهل من الناس، يوم القيامة؟ يقول عليه السلام ما مضمونه:

يأتون في ذلك اليوم المشهود بعالمٍ ويسألونه عن سبب تخلّفه عن ممارسة

---

(١) الكافي ١: ٤٤، باب العمل بدون العلم.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) النساء: ١٦٥.

الواجب؟ ولا يكون عنده جواب فينال جزاءه المعلوم، ويكون مصيرهُ العار والذل.

ومن ثم يأتون بآخر ويسألونه عن سبب تخلفه؟ فيقول لم أكن أعلم! فيقولون له: «هلاّ تَعَلّمت»[١]. إذ أنّ عدم المعرفة والفهم ليس عُذراً مشروعاً، وإلاّ فما هو الهدف من وراء خلق الله سبحانه وتعالى للعقل؟.

نعم، فالله تعالى إنما خلق العقل، ووهب لنا هذه النعمة، حتى نُفكّر ونتفحّص ونُحقّق ونُدقّق بالأمور صغيرها وكبيرها.

نعم، ليس علينا أن نكتفي بفهم أوضاع زماننا فقط، بل إنّ علينا أن نفهم وندرك ما يُخبّئهُ لنا المستقبل.

فأمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «ولا نتخوف قارعةً حتى تَحُلّ بنا»[٢].

ولكن للأسف فإنّ شعبنا أصبح جاهلاً بشؤون حياته، ولا يدري ما يُخبىء له الدهر من بلاء، فهو لا يدرك حجم المأساة إلاّ بعد وقوعها، وغير قادر على التنبؤ بها.

علينا أن نتعلّم التنبؤ بوقوع الأحداث قبل حدوثها، نعم، لا يجوز لنا الاكتفاء بِهَمْ أحوالنا الراهنة، بل علينا أن نستنبط ونستقرىء من الآن ما ينتظرنا من مصائب بعد خمسين سنة من الآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾[٣].

إنّ إحدى الخصائص المميزة لنهضة الحسين بن علي عليه السلام هي النظرة الفاحصة والثاقبة التي امتاز بها الإمام عليه السلام، فهو كان يرى في الأفق أموراً ويستقرىء في أحشاء حركة الزمان أحداثاً، لم يكن لأحد غيره القدرة على رؤيتها.

صحيح أننا نجلس اليوم هُنا، ونُحلّل بكل سهولة أحداث ذلك الزمان، لكن رجال ذلك العصر لم يكونوا يُدركون ما كان يُدركه الحسين بن علي عليه السلام.

إنها ليلة التاسع من مُحرّم، وحري بنا أن نذكر بالخير ذلك المُجاهد في

(١) أمالي الشيخ الطوسي ١: ٩، تفسير الصافي ٢: ١٦٩.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٧٤، الخطبة رقم ٣٢، بحار الأنوار ٧٥: ٤.
(٣) الأنبياء: ٥١.

سبيل الله، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ذلك الرجل الذي نال رضا الحسين بن علي عليه السلام بالتمام والكمال، إنّه العباس عليه السلام.

ولكن قبل ذلك أقول: إنّ العلاقات في ذلك الزمان ليست كما هي حالها اليوم. فالأحداث التي كانت تحصل في الشام، لم يكن يسمع عنها أهل الكوفة، أو أهل المدينة إلاّ بعد مُضي فترة طويلة، وأحياناً لم يكونوا ليسمعوا بها على الاطلاق.

وأفضل دليل على ذلك قصة أهل المدينة مع يزيد، فالحسين بن علي عليه السلام يقوم في المدينة ويناهض تنصيب يزيد للخلافة، ويرفض مبايعته، ويتجه نحو مكة، ومن ثم يتتابع مسلسل الأحداث المعروفة، ويستشهد الحسين عليه السلام، وإذا بأهل المدينة يستفيقون فجأة من غفلتهم، ويفركون عيونهم، ويتساءلون عن سبب استشهاد الحسين عليه السلام؟ ويُقررون التوجه نحو الشام لمعرفة حقائق الأمور؟.

وهكذا يُقررون إرسال وفد من سبعة أو ثمانية أشخاص إلى الشام، ويتوجه الوفد بالفعل إلى الشام، ويُقيم مدةً فيها، ويُحقق في أوضاعها، ويلتقي الخليفة الجديد، وبعد أنّ يطّلع تماماً على أحوال البلاد هناك، يعود إلى المدينة، فيسأله أهلها عن سر الأحداث الخاصة، فيجيبونهم قائلين: لا تسألوا كثيراً فنحن كنا نخاف أن تمطر علينا السماء حجارةً، ونحن مقيمون في الشام، فيُقضي علينا ـ لشدة سوء الأحوال المحيطة بالخليفة وأعوانه، والغضب الإلهي المتوقع ـ (أي إنهم قد أدركوا لتوّهم ما كان قد نبّه إليه وحذّر منه الحسين عليه السلام في بداية نهضته عندما قال: «وعلى الإسلام السلامُ إذ قد بُلِيَتْ الأمّة براعٍ مثل يزيد»)[١].

نعم، في حينها فقط أدركوا ما كان يُحذّر منه الحسين بن علي، وعندما يسألهم أهل المدينة: وكيف ذلك؟ يقولون: يكفي أن نقول لكم إننا عائدون من عند شارب للخمر علناً، ومِنْ لاعبٍ بالكلاب والقرود، وفاسق لا يعرف الحلال والحرام ـ وبتعبيرهم ـ وزانٍ بأهله ومحارمه.

وهذا اكتشاف متأخر للحقيقة التي قال بها أبو عبد الله الحسين منذ اليوم الأول لتنصيب يزيد.

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ١: ١٨٥.

أمر آخر نتبّأ به عليه السلام يوم العاشر من محرّم، عندما قال: إنهم سيقتلونني، ولكنهم بعد مقتلي سوف لن يتمكنوا من الاستمرار بالحكم.

وفعلاً لم يتمكن آل أبي سفيان من الحكم بعد مقتل أبي عبد الله، وليس فقط آل أبي سفيان، بل إن بني أمية أيضاً لم يتمكنوا من المحافظة على السلطة طويلاً، إذ أخذها منهم بنو العباس، وحكموا هم الآخرون على نفس القاعدة خمسمائة سنة.

وهكذا يمكن القول: إنّ حكومة بني أمية قد ظلّت تعاني من التزلزل والاهتزاز طوال فترة تسلطها بعد حادثة كربلاء. وهل هناك أثر أعمق، وأوضح لهذه الحادثة التاريخية، من بروز المعارضة في داخل بني أمية نفسها، الأمر الذي يُبيّن لنا القوة المعنوية العالية لحادثة كربلاء.

فهذا شقيق ابن زياد الشقي، عثمان بن زياد، يقول لأخيه: أخي! إنني كُنت أُفضلُ أن نُبتلى جميعاً بالفقر، والذل، والهوان، والفاجعة، على أنْ يُسجِّل التاريخ ارتكاب مثل هذه الجريمة في سجال عائلتنا.

وأُمهُ مرجانة المعروفة بالزانية بعد أن قام ابنها بارتكاب ذلك العمل البشع تقول له: بُني! لقد قمت بما قمت به، ولكن أعلم أنك بعدها لن تشم رائحة الجنة.

مروان بن الحكم، ذلك الشقي الأبدي له شقيق باسم يحيى بن الحكم، وقد كان حاضراً في مجلس يزيد تراه يقوم مُعترضاً في ذلك المجلس وهو يقول: سبحان الله! وهل يكون الاحترام والتقدير لبنات سُمية (أي أولاد أم زياد)، وتأتي ـ مخاطباً يزيد ـ بآل النبي، وهم على هذه الحالة ـ المُزرية ـ في هذا المجلس؟! نعم إنه النداء الحُسيني الذي ينطلق مُحدداً من أعماق بيوت بني أمية نفسها.

وأما قصة هند زوجة يزيد، فإن الجميع قد سمع بها، إذ خرجت معترضةً من داخل بيت يزيد، الأمر الذي أجبر يزيد على التراجع وإنكار مسؤوليته عن الجريمة، وادّعائه بعدم رضاه عما حصل، وإلقاء المسؤولية في ذلك على عاتق ابن زياد وحده.

وهكذا توالت بعد ذلك الحوادث التي تنبأ بها الإمام الحسين عليه السلام لبني أمية، فيزيد يموت قبل أن يُنهي ثلاث سنوات من تسلطه على العرش، عاشها في ظل أزمات متلاحقة، ويخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذي كان يأمل معاوية بن أبي سفيان من خلال تأسيسه الحكم الأموي أن تدوم الخلافة لهما ـ أي ليزيد وابنه معاوية ـ طويلاً. يأتي هذا الرجل معاوية بن يزيد، وبعد مرور أربعين يوماً على تسلُّمه عرش الخلافة، فيصعد المنبر ويُنادي بالناس:

أيها الناس! إنّ جدي معاوية قد حارب علي بن أبي طالب، وقد كان الحق إلى جانب علي، وليس إلى جانب جدي، كما أنّ أبي يزيد قد حارب الحسين بن علي، وقد كان الحق إلى جانب الحسين، وليس إلى جانب أبي، وأنا بريء من مثل هذا الأب، وأنا بدوري اليوم لا أرى في نفسي صلاحية الخلافة، وحتى لا أرتكب من الخيانات التي ارتكبها كل من جدي وأبي، أُعلن استقالتي واعتزالي عن الحكم.

نعم، فقد ترك الخلافة وشأنها بالفعل، كل ذلك حصل بقوة الحسين بن علي عليه السلام، بقوة الحقيقة التي أثّرت في الصديق والعدو.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله عمّي العباس لقد آثَرَ وأبلى بلاءً حسناً»[1]. لقد كان عليه السلام بمنتهى المروءة، وقد قدّم كل شيء على طبق من الإخلاص التام في النيّة، وكان مثالاً في التضحية والفداء! ونحن مع ذلك لا نرى إلاّ الجانب المادي من حركة العباس عليه السلام، ولا نلاحظ روح عمله الكبير حتى نُدرك مدى الأهمية البالغة التي تُميّز فعل العباس وحركته.

في ليلة العاشر من محرّم وبينما كان العبّاس في خدمة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وإذا بأحد رؤوس الفتنة من الأعداء، يُنادي بأعلى صوته، بأنه قد جاء بالأمان للعباس وأُخوته من طرف ابن زياد.

أمّا العباس الذي سمع صوت المُنادي، فإنه ظل جامداً لا يتحرك، وهو ينظر إلى الحسين بن علي بكل خشوع واحترام، ولا يبالي بقول ذلك المُنادي، وكأن شيئاً لم يكن، إلى أن طلب منه الإمام أن يرد عليه، وإن كان فاسقاً.

---

(١) أبصار العين: ٢٦، سر السلسلة العلوية للنسّابة أبي نصر البخاري: ٧٦.

فيخرج العباس ليرى أنّ المنادي هو شمر بن ذي الجوشن، الذي تربطه بالعباس رابطة قرابة بعيدة عن طريق الأُم، وقد تصوّر أنّه قادم من الكوفة، وقد حمل خبراً وبشارة إلى العباس وأخوته بفضل هذا الأمان، لكن العباس ردّه بكل عنف، وبكل مروءة الرجال، وهو يقول له:

لعنك الله، ولعن من أرسلك بهذا الأمان. وماذا تعرف عني؟ وماذا تتصورني؟ وهل تخيّلت أنني ومن أجل سلامتي، سأتخلى عن إمامي وأخي الحسين بن علي عليه السلام والتحق بك؟ أنني قد كبرتُ في حُضن يأبى ذلك مني والثدي الذي أرضعني ينتفض من مثل هذا التصرف الخائن.

نعم، فأُمّه هي أُمّ البنين[1]، زوجة علي عليه السلام، التي ولدت له أربعة أولاد وهي التي يكتب المؤرخون عن زواجها أنّ علياً قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأةٍ: «ولدتها الفحولة لِتَلِد لي ولداً شجاعاً».

وبالطبع فإنّ متون التاريخ لا يوجد فيها سندٌ يبين الأهداف التي كانت تراود عليّاً من تحقيق مثل هذه الأمنية، إلاّ أنّ العارفين بنظرة علي الثاقبة، وقراءاته للمستقبل، يعترفون ويؤمنون بأنّ عليّاً كان يقرأ صفحات المستقبل، والدور المطلوب من مثل هؤلاء الأولاد فيما بعد.

على أيّ حال فقد اختار عقيل أُمّ البنين زوجةً لأخيه علي، وهي التي أنجبت أربعة شجعان من الأولاد، أكبرهم وأرشدهم أبو الفضل العباس. وهؤلاء الأربعة جميعاً تحركوا في ركاب أبي عبد الله الحسين واستشهدوا معه في كربلاء.

فعندما يصل دور بني هاشم في المعركة، يتقدم أبو الفضل العباس ويقول

---

(١) فاطمة بنت حَزام بن خالد بن ربيعة بن عامر، وأُمّها ثمامة بنت سهيل بن عامر، وتكنّى بـ «أُمّ البنين» قبل تزويجها بالإمام علي عليه السلام لأنّها من بيت (أُمّ البنين العامريّة) التي قيل فيها:

نحن بنو أُمّ البنين الأربعة الضاربين الهام وسط المجمعة

وكانت من بيت كرم وشجاعة وفصاحة ومعرفة.

قال الإمام علي عليه السلام - بعد وفاة الصديقة الزهراء عليها السلام - لأخيه عقيل - وكان نسّابة العرب وعرّافة بأحسابها وعاداتها -: «أبغني امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً».

فقال له عقيل: أين أنت عن فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابيّة؟

انظر: تاريخ بغداد ١٢: ١٣٦، عمدة الطالب: ٣٢٤.

لأخوته، بأنه يتمنى لو أنهم يتقدّمون قبله إلى الميدان لأنه أراد أن يُدرك أجر شهادة الأخ.

وبالفعل فقد لبّى أخوته النداء، واستشهدوا ثلاثتهم، ثم جاء دور أبي الفضل، ولَحِق بهم.

هذه الامرأة الجليلة (أم البنين) التي كانت لا تزال على قيد الحياة، ولكنها لم تكن حاضرة في واقعة كربلاء، استشهد لها أربعة أولاد، وعندما وصل نبأ استشهادهم لها، وفي المدينة، يُقال إنها صارت تُقيم لهم المآتم، وتجلس في الدروب أحياناً على الطريق المؤدية إلى العراق، وأُخرى في البقيع، وتندبهم وتبكيهم بُكاءً تتفطر له الأكباد، وترثيهم بأبيات من الشعر فيها منتهى الحزن والتأثر حتى إنه ليُقال إن مروان بن الحكم، وهو حاكم المدينة آنذاك، ومع كل العداء والقساوة التي كان يحملها في قلبه ضد آل البيت كان يتوقف أحياناً، ويبكي لرثاء أم البنين لأولادها[١].

تقول أُمّ البنين في إحدى مرثياتها المعروفة:

لا تدعوني ويك أُمّ البنين تذكّريني بليوث العرين
كانت بنون لي أُدعى بهم واليوم أصبحت ولا من بنين
أربعة مثل نسور الربى قد واصلوا الموت بقطع الوتين

---

(١) أنّ أغرب شيء في هذه الرواية هو خروج مروان بن الحكم للبكاء على الحسين عليه السلام، وهو القائل عندما نظر إلى رأس الحسين عليه السلام:

يا حبذا بردك في اليدين ولونك الأحمر في الخدّين
كأنّه باب بعسجدين شفيت قلبي من دم الحسين

والأغرب منه أن تذهب أُمّ البنين إلى البقيع كل يوم، فيجتمع حولها الناس بمن فيهم الرجال وأشياع بني أُميّة، لتندب العبّاس وأخوته الذين استشهدوا بين يدي أبي عبد الله عليه السلام.

أُمّ البنين التي اقتبست من سيّد الأوصياء عليه السلام، ومن سيد شباب أهل الجنّة عليهما السلام المعارف الإلهية والآداب المحمّديّة ما يأخذ بها إلى أسمى درجة من اليقين، لا يصدر منها ما لا يتّفق مع الأحكام الشرعيّة الناهية عن تعرّض المرأة للأجانب إذا لم تكن ضرورة لذلك. وماذا تفعل أُمّ البنين في البقيع وأولادها دفنوا في كربلاء؟ ومن البديهي أنّ المرأة إذا أرادت ندب فقيدها فإنّها تجلس في بيتها وتتحصّن به عن رؤية الأجانب لها وسماع صوتها الذي لم تدع الضرورة إليه.

انظر: تهذيب التهذيب ١٠: ٢١٤، رياض الأحزان: ٦٠، بحار الأنوار ١٠: ٢٠١.

تنازع الخرصان أشلاءهم وكلّهم أمسى صريعاً طعين
يا ليت شعري أكما أخبروا بأن عبّاساً قطيع اليمين[1]

وفي أُخرى لها، وهي ترثي أبا الفضل العباس عليه السلام، تقول:

يا من رأى العبّاس كرّ على جماهير النقد
ووراه من أبناء حيدر كلّ ليثٍ ذي لبد
أنبئت أنّ ابني أُصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمالَ برأسه ضربُ العمد
لو كان سيفك في يديك لما دنا منه أحد

الله أكبر لفاجعة المأساة، والله أكبر لتلك المُروءة، ولتلك الأم التي ولدتها الفحولة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

(١) مقاتل الطالبيين: ٨٥، إبصار العين: ٣٦.

المحاضرة الرابعة

مراحل وأقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه، سيّدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

إنّ علماء المسلمين قسّموا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى درجات وأقسام ومراحل أيضاً. .[٣] ولا بدّ أن يكون لديه كره عميق، أي ينبغي أنْ يكون هناك جذور للأمر في روحه وقلبه وضميره.

ثم في المرحلة اللاحقة كما يذكرون فإن المرتبة الأولى من مراتب النهي

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في ٩ محرم الحرام ١٣٩٠هـ.

(٢) التوبة: ١١٢.

(٣) يوجد هنا خلل وقطع في التسجيل لصوت الشهيد.

عن المنكر أو الخطوة الأولى المطلوبة في هذا الاتجاه هي الهجر والإعراض. أي إنك عندما تلقى فرداً أو مجموعة يقومون بارتكاب المنكر، أو العمل القبيح، فإنّ عليك ـ وبمثابة نوع من النضال ضد ذلك العمل القبيح، وليس ضد ذلك الشخص ـ وحتى تكون خطوتك ذات مفعول ردعي لدى ذلك الشخص، أن تقوم بالإعراض عنه وهجرانه، أي قطع العلاقة معه.

على سبيل المثال نفترض أنّ صديقاً عزيزاً عليك ومن أصحابك ورفاقك الدائمين، تربطك وإياه صداقة حميمة، وبينكما عشرة طويلة لا يُكدّرها شيء يُذكر، وإذا بك فجأةً تسمع أخباراً سيئة عنه، وتتأكد من أنه قد ارتكب بالفعل ذنوباً كبيرةً، وقام بأعمال قبيحة يندى لها الجبين.

هنا بالذات يتطلب الواجب ـ أي واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يتطلب منك أن تُظهر له عدم رضاك عن أعماله تلك، وتعامله لبعض الوقت معاملةً باردة، عقاباً على ما ارتكبه، لعلهُ يرتدع ويحسُ بالخجل من ممارساته السيئة.

بالطبع ينبغي هنا أن يكون تصرفك منطقياً، وخالياً من أي نوع من أنواع التعنُّت أو الاستعلاء، أو الإساءة.

بمعنى آخر ينبغي أن يكون أسلوبك بشكل يؤدي به فعلاً إلى الارتداع عن ممارسة تلك الأعمال المذكورة بعد أن يحسّ بنوع من العذاب والمعاناة الروحية الناتجة عن برودة المعاملة الجديدة، وإلاّ يكون رد الفعل المقابل معاكساً أحياناً.

فقد تصادف أنّ ابنك، أو صديقك، أو أحد أقاربك وهو من الذين ابتلوا بممارسة عمل المنكر، ينتظر في الواقع تلك الفرصة التي تقطع أنت فيها علاقتك معه، وتهجره حتى يتفرغ هو لمتابعة أعمال المنكر التي غرق في أجوائها، وتكون أنت بممارستك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهذه الطريقة المذكورة، قد أتحت له الفرصة في الاستمرار بممارسة أعماله السيئة بدلاً من نهيه عنها.

وفي مثل هذه الحالة لا يجوز استخدام هذه الطريقة، لأنك تكون بذلك قد

ساهمت في تعزيز موقع المنكر والرذيلة، وشجعت الطرف المقابل على مزيدٍ من الارتماء في عالم الشر والمنكرات، وهذا أمر غير جائز أبداً.

إذاً عندما يقول العلماء بأنّ إحدى درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي الإعراض، والهجر المقصود، هو أن تكون هذه الوسيلة مؤاتية ومناسبة، وتكون ممارستك لها تؤتي ثمارها حقاً، وتكون تلك الوسيلة طريقاً إلى عقاب الطرف الآخر.

وهناك بالطبع نوع آخر من الإعراض والهجر، لكنه يأتي في سياق مختلف، ولا علاقة له بعملية النهي عن المنكر، كأن تكون مثلاً على علاقة وطيدة، وربما علاقة قرابة أيضاً، مع إحدى العوائل وتكون هذه العائلة مبتلاة بنوع من أنواع الفساد، فتقوم أنت وحفاظاً على سلامتك وسلامة عائلتك، بالإعراض عن معاشرة تلك العائلة حتى لا يسري مرض تلك العائلة إلى محيط عائلتك، وبالتالي تقطع العلاقات بينك وبينهم، وهذا أمرٌ آخر لا علاقة له بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

من هنا يمكن القول إنّ الأمر يعود إلى تشخيص المرء نفسه، فإذا ما كان استمرار العلاقات بين الطرفين يؤدي إلى تشجيع الطرف الآخر، واستمراره في ممارسة الأعمال السيئة، يصبح عند ذلك من الواجب عليك أن تهجر صديقك المُبتلى وتقاطعه، حتى يحس بعذاب ومعاناة تلك القطيعة، ويتأثر روحياً لعلّه يرتدع عن الاستمرار في عمل المنكر، وهذه درجة من درجات النهي عن المنكر.

أمّا الدرجة الثانية التي يوصي بها العلماء والروحانيون فهي مرحلة اللسان، أي مرحلة النصح، والإرشاد، والوعظ:

فقد يكون المُبتلى بعمل المنكر، أو الأعمال القبيحة، إنما هو يعاني من الجهل، وعدم المعرفة، وواقع تحت تأثير سلسلة من الدعايات، والتوجيهات الضارة، وبالتالي تراه بحاجةٍ إلى مُعلّم، ومُربٍّ، ودليل، يُخرجه من ذلك النفق المظلم.

وتراه بحاجة إلى من يُنير له الطريق، من يتكلم إليه باللغة المناسبة، والكلام الطيب، وبكل رأفة وحنان، ويشرح له مفاسد وعيوب طريق الضلال، وبالمقابل فوائد الصراط المستقيم، حتى يكتسب المعرفة اللازمة للخروج من المأزق.

وهذه درجة أُخرى من درجات النهي عن المنكر، بمعنى آخر إذا كُنا نحن في محيط شخص ما من أولئك الأشخاص الذين يرتكبون المنكر، وكان باستطاعتنا استخدام منطق الهداية، والنصح لإقناع ذلك الشخص بضرورة ترك تلك الأعمال، فإنه يصبح من الواجب علينا استخدام ذلك المنطق الملائم دون تردد.

أمّا المرحلة الثالثة فهي مرحلة العمل والممارسة، فأحياناً يكون الطرف المقابل في حالةٍ ودرجةٍ من درجات الاستغراق في عمل المنكر بحيث لا يفيد معه إلا وسيلة الإعراض والهجر، ولا استخدام منطق النصح والإرشاد، فكلاهما لا يردعانه عن الاستمرار في ممارسة المنكرات، وعندها لا بد من دخول ميدان العمل.

ولكن كيف ندخل هذا الميدان؟ فدخول ميدان العمل والممارسة، يختلف من حالة إلى حالة، ودخول مرحلة العمل لا يمكن تلخيصها في استخدام العنف فقط، وإلاّ أدى الأمر إلى الاحتكاك ونزف الدماء، كما أن حصول مثل ذلك ربما يكون ضرورياً أحياناً كوسيلة من وسائل العقاب والردع.

نعم، فهناك حالات لا بد من استخدام العنف فيها، فالإسلام دين الحدود والتعزيرات، أي إنه دينٌ يرى أنّ مراحل الإجرام قد تصل إلى درجة أحياناً لا بد للمُشرِّع فيها من استخدام وسائل الردع العملية، لأنها تكون عند ذلك الطريقة الوحيدة الرادعة عن استمرار عمل الشر والمنكر.

لكنه لا يجوز لنا أنْ نرتكب الخطأ ونتصور أنّ كافة الحالات يمكن معالجتها بالخشونة والعنف.

إنّ علياً عليه السلام يصف النبي الأكرم محمداً صلى الله عليه وآله فيقول: «طبيبٌ دوّارٌ بطبِّه، قد أحكم مَراهِمَهُ، وأحمى مياسِمَهُ»[1] أي إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمارس نوعين من العمل، أحدهما يغلب عليه طابع اللطف والحنان، والملامسة الرقيقة

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٧.

لمشاعر الناس، وقد أورد عليه السلام كما نرى اللطف والحنان أولاً أي المعالجة الرقيقة للأمور - «أحْكم مَراهِمهُ» - وبكل لطف، يعالج موضوع مكافحة المنكر.

ولكن ما أن يصل الأمر إلى الحد الذي لا ينفع بعده اللطف، والمعالجة الرقيقة، فإنه صلى الله عليه وآله لا يترك الأمور هكذا بل يتحول العلاج إلى مرحلة العمل الجراحي والكيّ بالنار.

بعبارة أُخرى يمكن القول إنّ النبي صلى الله عليه وآله كان ينتخب مرهمه بكل دقة وعناية، مما يترك الأثر المفيد في نفس الإنسان، وفي حال تطلب الأمر الانتقال إلى العمل الجراحي والكيّ، فإنّ العملية تحصل بكل عمق وقاطعية ممكنة أيضاً.

كان هذا ما يخص النهي عن المنكر، والآن كيف يمكن أداء واجب الأمر بالمعروف؟ بأي شكل وأي أسلوب ينبغي ممارسة هذا الواجب؟.

نقول إنّ الأمر بالمعروف أيضاً فيه مراحل ودرجات، مع فرق: إنّ الأمر بالمعروف ينقسم إلى قسمين فقط: لفظي وعملي.

واللفظي هو ما يقوم الإنسان بشرحه وتبيانه للناس بلسانه، فيُلقي عليهم الحجة ببيان الحقائق، وتنوير الناس بأعمال الخير، وتشجيعهم على فعله، وتشخيص مصاديقه في كل عصر وزمان.

إنّ الأمر بالمعروف عمل لا ينبغي للإنسان أن يقنع، ويكتفي بالقول منه فقط، فالقول وحده ليس كافياً. ويمكننا القول إنّ أحد أمراض مجتمعنا الراهن هو كوننا نولي أهمية فوق الحد للقول والكلام.

بالطبع لا أريد هنا أن أنكر قيمة القول والكلام، فالقول له قيمته البالغة. وما لم يكن هناك قول وشرح وبيان للحقائق، لا يمكن إنجاز أي عمل كان.

ولكن لا يجوز أن يكون هدفنا الوصول إلى غاياتنا كلها عن طريق القول والكلام، وبذلك نكون مثل أولئك الذين يُريدون حلّ المعضلات كافة بالدعاء والاستغاثة. وانتظار المعاجز من وراء تلك الاستغاثة. فترانا نود لو أننا ندخل

ميدان الصراع بقوة اللفظ والبيان فقط، بينما حال الأمور غير ذلك تماماً، «فالقول» شرط ضروري لكنه ليس كافياً، إذ ينبغي العمل والممارسة.

ثم إنّ للأمر بالمعروف اللفظي، والأمر بالمعروف العملي طريقان:

طريق مباشر، وآخر غير مباشر.

فأحياناً يتم الأمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، بواسطة الدخول المباشر بالموضوع، فيقول المرء ما يُريد قوله مباشرةً، كأن يُريد أحدنا الطلب، من شخص ما ممارسة عمل معين، فيقول له أرجو منك أن تقوم بالعمل الفلاني، ولكن قد يحصل الطلب في أحيانٍ أُخرى بشكل غير مباشر من خلال إفهام الطرف الآخر بما هو مطلوب منه أن يقوم به دون التصريح بذلك الطلب، وهذا الأسلوب البتّة أثر إفادة وتأثيراً.

وهو أنْ تمجِّد عملاً قام به أحد من الناس أمام الشخص الذي تُريد منه القيام بمثل ذلك العمل، وهكذا تكون قد شوقته، وشجعته على ممارسة العمل المطلوب، أو أداء الواجب المفروض، من خلال مدح وتبيان فوائد مثل تلك الأعمال، بشكل عام، فيفهم الطرف المقابل هدفك وغرضك، دون استنفار في الأحاسيس، فيحصل المطلوب بشكل أفضل من أسلوب التصريح المباشر.

وإليكم مثالاً حول الأسلوب غير المباشر في طرح القضايا، وذلك من خلال عرض الحديث المشهور عن الإمامين المُطهرين الحسن والحسين عليهما السلام:

يقول الراوي إنّه صادف يوماً أنّ الحسن والحسين عليهما السلام، وهما سائران في الطريق، وإذ بهما يلتقيان بشيخ عجوز، كان يؤدي الوضوء، بطريقة خاطئة، مما يعني بطلان وضوئه.

ولما كانا لا يزالان شابين صغيرين، وأمامهما واجب إفهام الشيخ العجوز ببطلان وضوئه، ولما يتميزان به من نظرةٍ حادةٍ، ومعرفةٍ دقيقةٍ في تقاليد الإسلام والأعراف، والعادات الدينية المفروضة، وحتى لا يجرحا أحاسيس شخصية الطرف المقابل وشعوره، من خلال التصريح له ببطلان وضوئه، ويكون رد الفعل الأولي المتوقع من قبل الرجل هو رفض تدخلهما، وردّ

قولهما، لذلك كلّه قرّرا أن يذهبا إليه، ويشرعا في الوضوء أمامه، ويطلبا منه أن يحكم بينهما على صحة الوضوء الذي يقوم به كلّ منهما.

ولمّا كان المتوقع من الشيخ الكبير، قبول مثل هذا التحكيم بين طفلين صغيرين، فقد طلب إليهما أداء الوضوء، وبالفعل توضأ كل من الحسن والحسين، وضوءاً كاملاً أمامه، وإذا بالشيخ الكبير يلتفت إلى بطلان وضوئه، فيقول لهما: إنّ وضوء كليكما صحيح، ووضوئي كان باطلاً...!.

نعم، هكذا ينبغي العمل على تصحيح أخطاء الآخرين، وإلاّ يمكن لكم أن تتصوروا الطريقة الأُخرى التي كان من الممكن اتباعها، كأن يتوجها إليه فوراً، ويقولا له: أيها الشيخ! ألا تخجل من نفسك؟! وأنت بهذه الشيبة البيضاء، لا تزال تجهل عمل الوضوء؟! إلى غير ذلك من الكلام الجارح. ولكن تأكدوا فإنّ نتيجة ذلك كان حتماً سيودي بالشيخ إلى ترك الصلاة، والنفور منها.

ينقل أحد الخطباء: إنّه كان لديه صديق في (مشهد المقدسة) ممن لا يعرفون الصلاة، أو الصوم أبداً، بل إنه لم يكن يعتقد بأي شيء في الدنيا، ويمكن القول باختصار إنه كان رجلاً مناهضاً للدين من أساسه.

يقول الخطيب: ولكن بعد فترة لابأس بها من الحديث، والحوار مع هذا الرجل وتبيان معالم الدين له، تغيّرت شخصيته بالفعل، وصار شيئاً فشيئاً يتوجه نحو التمسك بأداء الفرائض، حتى صار رجلاً مؤمناً، وملتزماً حقاً، وتغيّر كلياً عن واقع حياته السابق، ولم يَعُد يكتفي بأداء الفروض اليومية، وهو الرجل صاحب المنصب الإداري الحسّاس في الدولة آنذاك، بل صار مُقيّداً في مغادرة دائرته الحكومية، للحضور إلى صلاة الجماعة في المسجد، ويُصلّي خلف إمام المسجد آنذاك ـ المرحوم النهاوندي ـ بل ويلبس العباءة الخاصة بالصلاة، ويشترك في الجلسات الدينية التي كانت تُعقد في المسجد.

ولكن فجأة يقول الخطيب: انقطعت أخبار الرجل، ولم نَعُد نشاهده في المسجد، فتصورنا أن الرجل ربما سافر من (مشهد)، ولمّا سألنا عنه بعض الإخوة قالوا لنا: إنّه لا يزال في (مشهد) لكنه لا يود المشاركة في صلاة

الجماعة، ولا في جلسات المسجد الدينية، الأمر الذي دفعنا للتحقيق في سر هذا التحوُل الجديد للرجل، والسبب الذي دفع به لاتخاذ مثل هذا التصميم، بعد أن كان قد اندفع كل تلك الاندفاعة نحو الدين، وممارسة المراسم الدينية، وإذا بنا نكتشف القصة التالية:

يقول الخطيب اكتشفنا أنّه، وبعد مضي فترةٍ بسيطة على تردّد الرجل المذكور إلى المسجد، ليُصلي الجماعة، وفي الصفوف الخلفية تقريباً، وإذا به يوماً يأتيه أحد المشايخ المُقدّسين، من أصحاب اللحى الطويلة، وأهل المسواك والمسبحة، وغير ذلك من الالتزامات الجانبية، التي يُركّز عليها مثل هؤلاء «المؤمنين» جداً، والذين يُريدون التمنن حتى على الله سبحانه وتعالى في صلواتهم وعباداتهم.

نعم، يأتي إليه مثل هذا الرجل وسط الصلاتين، وفي غمرة اجتماع المُصلّين، تاركاً الصف الأول الذي يُصلي به، متوجهاً إلى الصفوف الخلفية ليواجه أخانا، مورد الحديث، فيجلس أمامه، ويقول له:

أُريد أن أسألك سؤالاً.

فيقول له الرجل: تفضّل.

فيسأله الشيخ قائلاً: هل أنت رجل مُسلم؟.

فيُدهش صاحبنا المسكين، ولا يدري كيف يَرُد عليه، ولكن يقول له: ما معنى هذا السؤال الذي توجهه إليّ فيُصرّ الشيخ على سؤاله، ويطلب إليه ويرجوه التفضّل بالإجابة، هل هو مسلم حقاً أم لا؟.

فينزعج كثيراً صاحبنا المسكين، ويُجيبه قائلاً: أنا مسلم يا مولانا، ولو كنتُ غير مُسلم فما بالي والصلاة جماعةً في مسجد «كَوهر شاد» هنا؟.

فيردُ عليه الشيخ: إذا كنت مسلماً حقاً فلماذا إذاً هكذا وضع لحيتك؟.

فما كان من صاحبنا ـ يقول الخطيب ـ إلاّ أن جمع سجّادة صلاته، وغادر المسجد على الفور، وهو يقول للشيخ: تركتُ لك صلاة الجماعة هذه

وهذا الدين والمذهب أيضاً والسلام، ولم يَعُد منذ ذلك اليوم يتردد على المسجد أبداً.

نعم، فهذا أسلوب آخر من أساليب النهي عن المنكر! لكنه ينبغي نعته بأسلوب إخراج الناس من الدين، وتنفيرهم منه، لأنه ليس فوق هذا العمل عمل، باستطاعته خلق المعارضين والأعداء للدين.

لقد قرأت مرةً في إحدى المجلات الأجنبية قصة مفادها: إنّ بنتاً متدينة جداً، كانت تعيش هناك في بلاد الغرب، وكان هناك أمير من الأمراء قد وقع في حبها وصار يتردد عليها حتى يجعل منها عشيقةً له، وكان ذلك الأمير مشهوراً بفسقه، وفجوره، وحياته المتهورة المتهتكة.

ولكن لمّا كانت هذه البنت من أهل العفة، والنجابة، والشرف، كانت تردّه باستمرار، وترفض الاستسلام إليه، مهما كلّف الثمن.

وبعد أن استخدم الأمير كل الطرق الممكنة لخداعها، وإيقاعها طعمةً لأحابيله، وفشل بعد جهد جهيد، قرر التراجع عن محاولاته، وتركها وشأنها.

ومرّت الأيام إلى أن حدث أن قررت البنت أن ترسل برسولٍ منها إلى الأمير الشاب، تدعوه إلى زيارتها وتُعلمه بموافقتها على العيش معه، وأن تكون عشيقةً مطيعة له.

ولم يُصدّق الأمير لأوّل وهلة إلى أن ذهب إليها، ووجد أنها بالفعل جاهزة لمثل هذه العشرة، وأراد أن يعرف سر هذا التحوّل في حياة البنت، وبعد أن حقق في الأمر وجد أنّ قسيساً من الكنيسة، كان قد سمع عن قصة هذه البنت المؤمنة، والتزامها الديني العميق، فأراد أن يجعل منها أكثر التزاماً وعمقاً في الحياة الدينية.

وقرر زيارتها يوماً، وقد حمل معه هديةً لعرضها عليها في تلك الزيارة، وقد وضع هديته على طبق كبير، وغطى الطبق بقطعة من القماش، وبعد أن جلس يُحدّثها عن الدين وضرورة أخذ العبرة من هذه الحياة الدنيا الفانية، رفع الغطاء عن ذلك الطبق وإذا بجمجمة ميّت من أهل القبور، أتى بها القس من

المقبرة، وصار يُردّد أمامها القول، بأنه ـ أي القس ـ إنما أتى بهذه الجمجمة ليُثبت لها أن هذه الدنيا الفانية ليست وفية لأحد وأن مصير الإنسان إلى ما حالت إليه هذه الجمجمة التي أمامها، وينبغي بالتالي أن تكون عبرة كافية لها لمزيد من الالتزام الديني.

لكن هذا القس في الواقع بعمله ذلك، ليس فقط لم يخدم تلك البنت، ولم يدفعها إلى مزيد من الالتزام الديني، بل إنه جعلها تفرُ من هذه الحياة السخيفة بنظرها، والتي نهايتها كما عرضها عليها ذلك القس، وبالتالي قررت أن تهرب من هذا الواقع العبثي، وتلجأ إلى ذلك الأمير الفاسق والفاجر، لتقضي أياماً في التهتك والفساد، قبل أن تُنهي عمرها.

وهذا أيضاً يمكن أن يصطلح عليه البعض نوعاً من الموعظة والنصح، وصدقوني إن كثيراً مما نُسميه اليوم موعظةً ونصحاً أو أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر هو في الواقع منكر.

وأنا بدوري انقل لكم قصةً حدثت معي شخصياً:

في الأيام التي كنا فيها ندرس في مدينة (قم) وقد كانت قد بدأت شركات السفر لتوِّها بتسيير عددٍ من الرحلات بين (قم) و(مشهد) بـ (الأوتوبيس)، توجهتُ يوماً عازماً السفر إلى (مشهد المقدسة)، وركبت (أوتوبيس) بالفعل، وانطلقنا في الرحلة.

وبعد مضي فترة على الرحلة، بدأتُ أحس أنّ السائق ينظر إليّ نظرة خاصة تعبّر عن اشمئزازه وتنفُّره من مقامي الديني كما يبدو، فهو لا يعرفني شخصياً، وأنا بدوري لا أعرفه، إذ ليس هناك سابق معرفة بيننا.

وعندما توقف في إحدى المحطات في الطريق، حاولت أن أسأله عن مدة توقفه في تلك المحطة، لكنه أجابني بطريقة خشنة للغاية، كان يهدف من ورائها إسكاتي، وعدم سماع صوتي مرةً أُخرى حتى نصل إلى (مشهد).

ولقد قمت بيني وبين نفسي بتبرير تصرف هذا السائق من خلال القول،

ربما كان الرجل ليس مسلماً، أو يهودياً، أو رجلاً ماديّاً... الخ حتى إنني قطعت باليقين أن الرجل لا بدّ وأن يكون واحد من هؤلاء.

لا زلت أتذكر أننا عندما توقفنا في المحطة التالية، وكان الوقت بعد الظهر، وبينما أنا منشغل في الوضوء، والتهيؤ للصلاة رأيت السائق وقد غسل رجليه، واستعد للوضوء، ومن ثم قام بأداء فريضة الصلاة.

وعندها تحيّرت كثيراً، وأصابتني دهشةٌ كبيرة، إذ اكتشفتُ أن هذا الرجل مُسلم مثلي مثله، ورجل مُصلّ أيضاً، فلماذا إذن يتصرف معي ذلك التصرف الخشن والشائن، كما نقلت لكم؟!.

وحلّ المساء، وكان اثنان من طلاب الجامعة يجلسان خلف الكرسي الذي أجلس عليه، وهما من أهل منطقة (خراسان) من قرية (تربت)، وهما ينويان أيضاً قضاء عطلتهما كما يبدو في (خراسان).

وكان هذا السائق المذكور يعامل هذين الشابين بكل لطف ومحبة ورقة، بنفس المقدار الذي كان يكنه لي من خشونة ونفور.

ولمّا صار الوقت متأخراً، وعمّ الظلام الدامس، وبدأ المسافرون يغطّون بالنوم، طلب السائق من أحد الشابين، أن يأتي ويجلس إلى جانبه، ليُحدِّثه حيث لا ينام، ويستطيع الاستمرار في قيادة (الأوتوبيس) ليلاً، وبدأ السائق يُحدّث الطالب المذكور، ويحكي له قصة حياته، وأنا بدوري بسبب ما حصل لي مع هذا السائق، فقد بقيتُ متيقظاً أحاول أن استمع للحديث حتى اكتشف سر تصرّف هذا السائق معي.

واسترسل السائق يُحدّث الطالب عن بعض مقاطع حياته، وقال له فيما قال: إنه لا يُطيق من أهالي (مشهد) كل من له علاقة بالمعممين أو رجال الدين، ولا يحب إلاّ وجهاء (مشهد) ممن يسكنون الأحياء الراقية فيها.

ثم إنه ـ أي السائق ـ الوحيد بين أفراد عائلته يعمل بهذه المهمة بينما بقية أفراد العائلة كلهم موزعون بين دكتور، ومهندس، وتاجر وضابط في الجيش، وإنه هو الفقير الوحيد بين أفراد العائلة.

ولمّا سأله الطالب: ولماذا كان مصيرك مختلفاً عن سائر أفراد عائلتك؟.

قال السائق: إنّ لذلك قصة ينبغي أن تسمعها:

كان أبي رجلاً مسلماً متديناً جداً، وقد كنتُ طفلاً في السنوات الأولى من حياتي حيثُ أرسلني إلى المدرسة. ولما سمع إمام جماعة محلتنا، بهذا الخبر، جاء في زيارة خاصةٍ لأبي، مستنكراً إرساله لي إلى المدرسة!.

فقال له أبي: وأي ضررٍ في ذلك؟!.

قال: يا للهول!! ألا تعرف أنّ ابنك بذهابه إلى المدرسة، سيتحول إلى إنسان لا ديني؟!.

ولمّا كان أبي أُمياً فقد صدَّق حديث الشيخ، وحيثُ كنتُ طفلاً لا أفهم شيئاً، فقد أُجبرتُ على ترك المدرسة، وصار أبي يأخذني معه للعمل في أماكن متعددة.

واستمرت الأُمور هكذا إلى أن تزوجت، وتكونت عندي أسرة من زوجة وأولاد، وأدركت فجأةً، أنني رجلٌ أمي، لا أعرف القراءة والكتابة.

إلى هنا كانت قصة السائق مع إمام جماعة محلتهم، وهنا بالذات وجدتُ حل اللغز الذي كنتُ أبحث عنه، فالرجل يعتبر نفسه من أهل الحظ السيء، ويرى أنّ المُعممين هم السبب في سوء حالته وحظه التعيس!.

فهل هذا نهي عن المنكر! كلاّ فإنه عمل يجلب التعاسة للناس ويخلق منهم أعداء للدين وللعلماء.

وهنا لا أكتمكم، فقد صرتُ بيني وبين نفسي أقول: رَحِم الله أموات هذا الرجل إذ أصبح عدواً لرجال الدين فقط، ولم يتحول إلى عدو للإسلام، فهو لا زال يُصلي صلاته، ويؤدي واجباته الدينية الأُخرى كالصيام، وزيارة العتبات المقدسة، فهو متوجه لزيارة الإمام الرضا عليه السلام.

أقول: إنّ هذا العمل ـ عمل إمام جماعة المحلة ـ إنما هو أضرّ بالإسلام بشكل غير مباشر.

وإليكم الآن قصة أُخرى:

كان هناك رجل محترم، من رجال طلبة الحوزة الدينية الفضلاء جداً، وقد كان هذا الرجل من المثقفين، والمتدينين بالفعل.

وفي ذات يوم كان قد صمم كما يبدو أن يخرج دون عمامة على رأسه أي ـ ببدلة الأفندية ـ ولكنه ما أن زار رفاقه في اجتماع ما وهو بهذا الهندام الجديد حتى صار الجميع من أصدقاء ومعارف يسخرون منه، ويهاجمونه بشدة، فانزعج كثيراً من تصرف رفاقه معه، وغضب منهم كثيراً، ولمّا كان رجلاً حليماً، فضّل أن يردّ عليهم بكلام منطقي وحوار عقلاني، بدل الدخول في معركة غضبٍ من نوعٍ آخر، فقال لهم:

انظروا أيّها الأصدقاء! أود أن أقول لكم شيئاً: إنكم أصدقاء أعدائكم، وأعداء أصدقائكم. وسأوضح لكم معنى كلامي هذا:

إنني واحدٌ منكم، وفرد من أفراد جمعكم، أُفكر كما تُفكرون، واعتقد بالله والقرآن والنبي والأئمة كما تعتقدون، وقد تعلمت ما تعلمتموه أنتم، وتربّيتُ كما تربّيتم، وفي الحقيقة فأنا اشترك معكم في ألف مسألة ومسألة، وكل ما هنالك أنني ارتكبتُ جريمةً واحدةً برأيكم ـ إذا كان عملي هذا يُحسب عليّ جريمةً ـ وقمت بتغيير هندامي، أو مظهري الخارجي، وخرجتُ لعمل ما ولاكتساب الرزق، وإدارة شؤوني الحياتية.

ولنفرض أن هذا التصرف جريمة بالفعل، لكنكم تتصرفون معي بشكل تجبرونني فيه على قطع العلاقة معكم، ولمّا كان الإنسان لا يستطيع البقاء والعيش دون علاقات اجتماعية مما يعني أنكم ستجبرونني على التوجه لمصادقة ومعاشرة الصنف المُعادي لكم، ولذلك من حيث إنكم طردتموني من بين صفوفكم بالقوة، ولهذا السبب فأنتم أعداء أصدقائكم وهو أنا، في حين أنكم أصدقاء أعدائكم.

ومن ثم يضرب لهم مثالاً فيقول: في المقابل فإنّ الشخص الفلاني الذي لم يتظاهر طوال عمره بالإسلام، ولا أظهر اعتقاداً بالقرآن، ولا بانت منه علائم معينة تشير إلى التزامه بتعاليم الدين الحنيف، بل إنه اشتهر عنه بأنه رجل

ظالم، وفاسق، وشارب للخمرة، ولكن هذا الرجل بالذات، والذي لا تتوقعون منه شيئاً، يكفي أنكم سمعتم عنه أنه توجه لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، حتى تقولوا عنه جميعاً: بأنه يبدو على الرجل أنه مُسلم.

في حين أنّ ذلك الرجل الذين تعرفون أن تسعمائة وتسعاً وتسعين علامة من علامات الإسلام تطبع سلوكه، ولا يحمل إلاّ خصلة واحدة تخالف الإسلام، يصبح برأيكم ليس بمسلم، بسبب تلك الخصلة، بل وتخرجونه من نطاق الإسلام تماماً.

ولذلك فإنكم أصدقاء أعدائكم، أي إنكم تُساعدون أعداءكم، وأعداء أصدقائكم، أي إنكم في الواقع أعداء أنفسكم.

إنك لو أردت أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، بشكل غير مباشر، فإنّ إحدى الطرق الممكنة هي أن تكون قبل كل شيء صالحاً، وتقياً، وصاحب فعل، قبل أن تكون صاحب قول.

وعندما تكون أنت شخصياً نموذجاً لهذه المواصفات، ستكون مثالاً مجسّماً، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فليس هناك أكثر من الفعل، يستطيع التأثير على البشر، فأنتم ترون كيف أنّ الناس تتبع الأنبياء، والأولياء، ولكنها نادراً ما تتبع الفلاسفة والحكماء، لماذا؟ لأن الفلاسفة يتكلمون فقط، يمتلكون مدرسة نظرية فقط، ويطرحون مُجرّد أفكار، يجلسون في بيوتهم بين أربعة جدران، ويكتبون الكتب ثم ينزلون بها إلى السوق، ويعرضونها على الناس.

بينما ترى الأنبياء والأولياء، لا يكتفون بالنظرية فقط، بل يُطعِّمونها بالعمل أيضاً، وما يقولونه يقومون بتطبيقه أولاً، لا بل أنهم يعملون أولاً، ومن ثم يقولون، وليس يقولون أولاً، ومن ثم يفعلون.

فعندما يتحدث الإنسان عن أمر بعد ممارسته له، يكون تأثير حديثه مضاعفاً عدة مرات.

يقول الإمام علي بن أبي طالب (والتاريخ يُثبت ذلك أيضاً) **«ما**

امرْتُكُم بشيءٍ إلاّ وقد سبقتُكم بالعمل به، ولا نَهَيْتُكُمْ عن شيءٍ إلاّ وقد سبقْتُكُم بالانتهاء عنه»(١).

و«**كونوا دُعاةً للناسِ بغير ألسِنَتِكُمْ**»(٢). أي إنه ينبغي عليكم أن تدعوا الناس إلى الإسلام، من خلال ممارساتكم وأعمالكم، فالإنسان عندما يفعل، ويُمارس، سيؤثّر عمله على المجتمع، بشكل لا يقبل الشك.

يقول الفيلسوف المعاصر الشهير جان بول سارتر ـ وكلامه بالطبع ليس جديداً، غير أنّ تعبيره عن الموضوع يحمل طابعاً جديداً ـ يقول: «عندما أقوم أنا بعمل ما، أكون قد ألزمتُ مجتمعي بذلك الفعل، وتلك الممارسة».

وما يقوله صحيح، فأي عمل يقوم به الفرد سواء كان خيراً، أو شراً، إنما يكون قد ألزم مجتمعه بذلك العمل، إن كان قائداً على وجه الخصوص.

فأنت، شئت أم أبيت، من خلال ممارستك لعمل معين، تكون قد أوجدت نوعاً من الفعل وتعهداً معيناً من قبل مجتمعك تجاه ذلك العمل. نعم فكما هو إلزام لك شخصياً، فهو إلزام لمجتمعك أيضاً، أي إنّ أيّ عمل يُمارسُ في المجتمعِ، يحمل في طياته في الواقع أمراً للمجتمع بضرورة القيام بتلك الممارسة أيضاً.

فعندما أقوم أنا بعمل معين على صعيد مسؤولية معينة فإن لسان حال عملي يقول: كُن مثلي يا أخي! ومهما قلتُ بعد ذلك عكس ذلك فإنّ كلامي لن يكون مسموعاً كعملي، فأنا مهما قلتُ لكم اعملوا بأقوالي، ولا تلتفتوا إلى أعمالي، فإنّ الأمر المُلزم لكم، والمؤثر فيكم، سيكون لا شك هو أعمالي بالدرجة الأُولى، ومن ثم أقوالي بالدرجة الثانية.

إنّ أي مُصلحٍ لا بد وأن يكون صالحاً أولاً، حتى يتمكن من أن يكون مُصلحاً، فهو يجبُ أن يتقدّم إلى الأمام، ثم يقول للآخرين سيروا من ورائي.

فالفرق كبير بين من يقف ويُعطي الأوامر لجنوده: انطلقوا إلى الأمام

---

(١) نهج البلاغة١ : ٧٣، خطبة رقم ١٧٥.
(٢) الكافي ٢ : ٧٨، باب الورع، دعائم الإسلام ٢: ٥٦، شرح الأخبار ٣: ٥٠٦.

وأنا واقف هنا، وبين من يتقدّم هو أولاً، ومن ثم يقول: لقد انطلقت، هيّا الحقوا بي.

في مدرسة الأنبياء، والأولياء، نرى القسم الثاني على الدوام. فهم دائماً يقولوا: «لقد انطلقنا»، وعليٌ يقول للناس: أنا ذاهبٌ فتعالوا معي، وسيروا خلفي.

ولو لم يكن نبي الإسلام في طليعة كل عمل كان يأمر الناس به، فإنه كان من المستحيل أن يتبعه الآخرون.

فعندما قال بالصلاة، وصلاة الليل، فهو قبل غيره أكثر العابدين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾[1].

وعندما كان يقول بالإنفاق في سبيل الله، والتضحية والإيثار، فإنّ أول شخص كان يؤثر على نفسه هو النبي ﷺ نفسه، أي إنه كان أول من يقطع عن نفسه لِيُعطي الآخرين.

وعندما كان يدعو إلى الجهاد في سبيل الله، فإنه كان في مقدمة المحاربين في الحروب، ومن بعده الأعزاء والمُقرَّبون من أفراد عائلته وعشيرته، مما كان يدفع الآخرين إلى المشاركة، والاندفاع في العمل، بكل رغبة وشوق، وبعشق شديد كانوا ينطلقون لأداء المهمات، فهم كانوا يرون أمامهم النبي القائد، وقد أرسل أعز المُقرَّبين إليه من عشيرته في مواجهة الموت، وقد تسلّح هو الآخر واندفع في قلب معسكر الأعداء حتى إنه جُرح في المعارك، الأمر الذي كان يعني أنّهم كانوا يجدون الحقيقة وقد تبلورت وتجسمت في مثل ذلك الشخص ـ النبي القائد ـ.

هل كان هناك أحدٌ أعزّ على النبي من علي بن أبي طالب؟ أو هل كان أحدٌ أعزّ عليه من عمه حمزة سيد الشهداء؟ ويا ترى من كان أول المُرسلين من قبله إلى ميدان المعارك في يوم بدر؟.

لقد أرسل أو ما أرسل عليّاً عليه السلام، وهو صهره، وابن عمه، والذي كان

(١) المزمّل: ٢٠.

بمثابة ابنه في الحقيقة (ذلك أنّ علياً قد تربّى وكبر في بيت النبي، والنبي لم يكن له ولد، فصار عليٌ عليه السلام بمثابة الولد للنبي)، ومعه حمزة عم النبي، وهو الذي كان يحظى بالتقدير البالغ من الرسول صلى الله عليه وآله، إضافة إلى ابن عمه، أبو عبيدة بن الحارث، والذي كان يعزه النبي كذلك معزةً خاصةً[1].

ولننظر إلى الحسين بن علي عليه السلام، ونرى كم كانت خطبه، وكم كان عمله؟ وعندها سنرى قلة خطبه، وحجم عمله الكبير.

نعم، فعندما يكون العمل هو الأساس، لا تكون هناك حاجة إلى الكلام الكثير، وها هو الحسين عليه السلام يُنادي: «**فمن كان باذلاً فينا مُهجتَهُ، مُوطِّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحلٌ مُصبِحاً، إن شاء الله**»[2].

أي إنّ من التحق بقافلتنا من أجل بلاده، فَلْيَعُد من حيث أتى، ومن جاء معنا، وليس على استعداد للتضحية بنفسه، فليرحل من بيننا أيضاً، فقافلتنا هي قافلة المُضحِّين.

وبين أولئك المُضحِّين، كان أهله وأحبته وأعزّاؤه عليهم السلام، ولو أنه تركهم في المدينة المنورة، فهل كان قد تعرّض لحياتهم أحد؟ أبداً! ولكنه لو كان قد استشهد وحده في كربلاء، دون حضور أهله وعياله معه، فهل كانت نهضته تأخذ الأبعاد التي أخذت الآن؟ أبداً.

إن الإمام الحسين عليه السلام في الواقع قد قام بعمل خالص لله سبحانه وتعالى، دون أية شائبة، أي أنّه أدى المهمة المطلوبة في حدها الأقصى، ولم يدع شيئاً قابلاً للتضحية في سبيل الله، إلاّ وقدّمه خالصاً لوجه الله تعالى.

ولم يكن أحد، من أهله أو أحبّائه، قد جيء به جبراً إلى ساحة الجهاد، بل إنّ كل من حضر منهم إنما كان من رفاق العقيدة، والفكر، والإيمان معه عليه السلام.

---

(١) كان هؤلاء الثلاثة قد خرجوا لمبارزة ثلاثة أفراد من معسكر الأعداء، وقد تمكن الثلاثة من قتل أفراد العدو، الذين برزوا إليهم، لكن أبا عبيدة بن الحارث كان قد جُرح جُرحاً بالغاً، الأمر الذي أدى إلى استشهاده فيما بعد.

(٢) اللهوف: ٢٦، مقتل الخوارزمي ١: ١٨٦.

بل إنّه عليه السلام رفض من الأساس أنْ يكون بين صفوفه أي فرد، له ولو نقطة ضعف واحدة في وجوده، ولهذا تراه يقوم بغربلة رفاق دربه في الطريق مرتين، أو ثلاث مرات، ليُبقي على النخبة الخالصة النقيّة.

فهو قد أعلن منذ اليوم الأول لخروجه من مكة، بأن من لا يملك الاستعداد للتضحية بنفسه، عليه أن يبقى مكانه، ولكن رغم ذلك يبقى بعض من يُفكّر بإمكانية الحصول على شيء ما، من حركة الإمام الحسين عليه السلام، ويتصور أنّ ذهاب الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ربما يكون فيه مغانم معينة، ينبغي استثمارها، واغتنام الفُرص المتأتية من هذه الرحلة.

ولذلك نرى أنّ عدداً من الأعراب في البادية يلتحقون بقافلة الحسين بن علي، وهو في الطريق بين المدينة والكوفة.

ولهذا فإنّ الإمام الحسين عليه السلام يخطب في أفراد القافلة، مرة أخرى، في وسط الطريق، ويقول لهم:

أيها الناس! من لحق بنا ولديه تصور أننا نريد المقام والسلطان، فإنّ الأمر ليس كذلك، والأفضل له العودة من حيث أتى[1].

وأمّا خطبته الأخيرة، أو الغربال الأخير، فقد كان ليلة العاشر من محرّم، حيث خطب عليه السلام خطبته التاريخية، ولكن الجو كان نقياً وخالصاً من تلك الليلة، إذ لم يخرج أحد من هذا الغربال.

إنّ الشخص الوحيد الذي ارتكب هذا الخطأ التاريخي، هو صاحب كتاب «ناسخ التواريخ»، حيث ذكر أنه قد خرج عدد من أصحاب الإمام بعد انتهاء الخطبة، واستغلوا سواد الليل ليكون غطاءً لانسحابهم من ساحة المواجهة، والمصير المحتوم.

إلاّ أنّ هذا التحليل، وهذه الرواية، لم يؤكدها أي مؤرخ آخر على الاطلاق، فهي من أخطاء صاحب «ناسخ التواريخ» وحده، وليس هناك أحد

(١) قال الإمام الحسين عليه السلام: أيها الناس، أما بعدُ، فإنَّه مَن لحق بيَ منكم استُشهد، ومَن لم يحلق بيَ لم يبلغ الفتح والسلام. انظر: كامل الزيارات: ٧٥.

آخر ارتكب هذا الخطأ التاريخي، إذ أنّ جميع من عداه، يؤكدون أن أصحاب أبي عبد الله كافة صمدوا معه ليلة العاشر من المحرم، وأكدوا بذلك أنّه لم يكن قد بقي بينهم أحد من أصحاب الجاه أو المقام أو الغش، بل كانوا جميعاً الخلاصة النقية لأنصار الحسين عليه السلام.

ولو أنّ أحداً من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وإنْ كان طفلاً، كان قد أبدى أي ضعف، أو تراجع في اليوم العاشر من محرم، والتحق مثلاً بمعسكر العدو الذي كان أقوى، وأكثر اقتداراً من معسكر الحسين، وذلك من أجل النجاة بجلده، وطلب الإمام لدى جيش العدو، لكان ذلك مظهراً من مظاهر الضعف والنقيصة في شخص الإمام الحسين عليه السلام والمدرسة الحسينية.

لكن الذي حدث هو العكس تماماً، فقد جذب معسكر الحسين عدداً من أفراد العدو إلى جانبه.

وهكذا يكونون قد أتوا بالعدو، الذي كان يتمتع بالأمن، والطمأنينة الماديّة في معسكره، ووضعوه عملياً في مواجهة الخطر.

نعم، لقد التحق هؤلاء الأفراد بإرادتهم إلى المعسكر الآخر، لكن العكس لم يحصل بتاتاً ولم يترك أحد موقع الخطر، وينتقل إلى مركز الأمن والطمأنينة. وهذا يؤكد أنه لو لم يكن الحسين عليه السلام، قد قام بالغربلة المطلوبة، ولم يبيّن معالم المواجهة وبوضوح شديد من قبل، لكان قد حصل الكثير من مثل هذه الحوادث، كأن يفر نصف أصحاب الإمام إلى المعسكر الآخر ويبدأوا - والعياذ بالله - بالتبليغ ضد الإمام الحسين عليه السلام، ذلك أنّ الفار من الخطر سوف لن يُعلن عن ضعفه، ويُصرّح بضعف إيمانه ورعبه، وإنما كان سَيُبرر لنفسه ذلك العمل التراجعي، ويتوسل بشتى الأساليب، والطرق لإقناع الملأ العام، بأنه إنما قد شخّص الحق إلى جانب المعسكر الآخر، الأمر الذي دفع به إلى الانتقال إليه.

وهو لو لم يكن قد شخّص رضا الله في هذا العمل، لما كان أقدم على مثل هذه الحركة، وإلى غير ذلك من أساليب المراوغة والكذب، والتي كان سَيُلفقها القائمون مثل هذه الحركة وفي سياق منطقي خاص بهم!.

ولكن مثل هذا لم يحدث، وهذا الأمر بحد ذاته من أبرز مفاخر الحسين ابن علي عليه السلام، والمدرسة الحسينية، في حين أنّ أحد الوجوه البارزة، من معسكر العدو، قد تم جذبه إلى معسكر الحسين، وهو الرجل الذي كان مُرشحاً لإمارة الجيش المحارب.

إنه الحُر بن يزيد الرياحي، هو رجل ليس قليل الأهمية، بل إنه لو سلّمنا بأنّ الرجل الأول في جيش العدو، كان المدعو عمر بن سعد، فإنّه لم يكن هناك أحد يمكن له كسب امتياز الرجل الثاني في معسكر العدو سوى الحر بن يزيد الرياحي.

لقد كان رجُلاً ذا شخصية مرموقة فعلاً، وهو أول من كُلّف بوقف حركة القافلة الحسينية، عندما أُرسل على رأس ألف مُحارب لهذه المهمة.

لكن قوة الجاذبية، والإيمان، والعمل، ذلك العمل العظيم الذي يتلخص بالأمر بالمعروف الذي مارسه الحسين بن علي عليه السلام تجاه الطرف الآخر، جعل من الحُر بن يزيد، ذلك الرجل الذي امتشق سيفه في البداية لمحاربة الإمام، أن ينتفض من عبودية الكفر، في يوم عاشوراء، وينتقل مقاتلاً في صفوف معسكر الحسين، ويصبح بالتالي واحداً من التوابين. ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

ذلك الرجل المعروف بالشجاعة والبطولة، وأكبر دليل على ذلك، هي تلك المهمة التي أوكلت إليه بقيادة ألف مقاتل لمواجهة الحسين بن علي عليه السلام.

نعم، هذا الرجل الذي اكتسب هذه الشهرة، وهذا الصيت البطولي، ترى أن الحسين يخترق قلبه، ويحوّله أشبه بالموقد الذي تشتعل النار في داخله، فيغلي الماء الموضوع عليه، ويتصاعد البخار، حتى يبدأ الموقد بالاهتزاز والارتعاش من شدة غليان الماء.

نعم، إنها النار التي اشعلها الحسين بن علي عليه السلام، بواسطة مشعل الحقيقة وشراراتها، فأضاءت قلب الرجل، وبدأت تخترق الجدران التي كانت تُغلّف وجوده، فالحر بن يزيد مثله مثلي ومثلك، إذ كان يُفكّر في الدنيا، والمال، والمقام، والجاه، والسلامة، والعافية.

هكذا تكون قوة ضغط البخار تشد على الرجل من ناحية، وتدفعه باتجاه التحول نحو معسكر الحسين بن علي عليه السلام، من ناحية ثانية.

لكن بالمقابل هناك قوة الضغط الأُخرى، المتأتية من الأفكار المادية الموجودة داخل كل إنسان، تدفعه هي الأُخرى، وتوسوس في قلبه قائلةً: أنْ أركن إلى وضعك الذي أنت عليه، فإنك إنْ تحوّلت إلى المعسكر الآخر، فإنّك لا بد سَتُقتَل، وبالتالي سوف لن ترى أولادك وأهلك، وستفقد كامل ثروتك، وربما راح العدو يُصادر كل أموالك، وكل ما تملك بعد موتك، مما يجعل وضع أولادك وزوجتك في حالة حرجة دون ولي ولا نصير!.

وكل هذه أفكار ضاغطة باتجاه عدم اندفاعه نحو الأمام.

إنّ قوتين متضادتين كانتا تضغطان على الرجل، ولذا فإنه في لحظة معينة، تراه يرتجف، ويرتعش بشدة، وعندما يأتي أحدهم ويسأله:

لماذا أنت ترتجف يا حر؟ فإنت رجل شجاع، ظناً منه أنّ الرجل يرتجف من الخوف والرعب من ساحة المواجهة!.

لكنه يرد عليه: لا يا هذا، فإنك لا تعرف حجم العذاب الوجداني الذي أعاني منه، وأنا في هذه اللحظة أرى نفسي مُخيراً بين انتخاب طريق الجنة أو طريق جهنم، ولا أدري هل اشتري الجنة بالدنيا، أم تراني أذهب وراء هذه الدنيا التي تُعرضُ عليّ نقداً الآن، ولكن عاقبتها هي الجحيم!!.

وهكذا ظل الرجل فترةً، وهو يُعاني من صراع نفسي داخلي مرير، إلى أن حسم هذا الرجل الشريف والحُر، كما وصفه الإمام الحسين عليه السلام، موقفه، واختار طريق الحق والجنة.

وحتى لا ينتبه العدو إلى حركته غير العادية، ويمنعه من الانطلاق باتجاه المعسكر الآخر، بدأ بالتراجع ببطء أولاً، ومن ثم الانزواء جانباً، ثم ضرب فرسه بالسوط طالباً منه الانطلاق بسرعةٍ نحو معسكر الحسين.

وحتى لا يتصور الطرف المقابل بأنه إنما يهدف مهاجمتهم رفع علامة الأمان والاستئذان.

يقول الراوي: قَلَبَ تُرسَهُ، وأول الذين كانوا في استقباله هو أبو عبد الله الحسين عليه السلام، حيث كان واقفاً أمام مخيم الحرم، فبادرهُ الحُر:

السلام عليك يا أبا عبد الله!.

ثم أخذ يخاطب ربّه، ويطلب لنفسه المغفرة على فعلته ويقول: اللهم إليك تُبتُ فُتب عليّ! فقد أرعبتُ قلوبَ أوليائكَ، وأولاد بنت نبيك[1]!.

ثم وجّه كلامه مخاطباً الحسين عليه السلام: جعلتُ فداك أنا صاحبُكَ الذي حبسكَ عن الرجوع، وجعجع بكَ، وما ظننتُ القوم يبلغون منك ما أرى، وأنا تائبٌ إلى الله تعالى، فهل ترى لي من توبة؟.

نعم فأهل الحسين عليه السلام، قد وقعت أعينهم على العدو أول ما وقعت على الحُر بن يزيد، وهو على رأس ألف مقاتل، حبس عليهم الطريق، وهم على أبواب العراق، الأمر الذي أثار الرعب والخوف في قلوب الأهل والعيال.

ولكن الحسين عليه السلام وعلى الرغم من كل ذلك قال له:

يتوبُ الله عليكَ فانزل ـ أي إنزل من عن فرسك واسترح ـ.

والإمام هنا يعرف جيداً أنّ توبة الحر لن تُقدّم، أو تؤخّر في ميزان القوى في المعركة، ولكنه يُريد الخير للحُر، والعمل في سبيل رضا الله، ثم وهل يمكن لرحمة الله الواسعة، أن تُسدّ بوجه التائبين؟!.

ولمّا عرف الحُر بأنّ توبته مقبولةٌ فرح كثيراً، ولأنه يُريد أن يمسح العار الذي مضى منه بالدم لذلك قال: أنا لكَ فارساً، خيرٌ مني راجلاً، وإلى النزول يصيرُ آخر أمري.

نعم، فالحر كان مُصمماً على إهداء دمه في سبيل الحسين عليه السلام، ولذلك فإنّ إصرار الحسين عليه السلام عليه بالنزول، كان يُزيده تصميماً وإصراراً على القتال بين يدي الإمام.

(١) الملهوف: ٤٣.

وقد أراد الإمام منه أن يجلس، ولو بعض الوقت، إلاّ أنه أبى إلاّ أن يقاتل، ويستشهد بين يدي أبي عبد الله الحسين.

ويقول بعض أصحاب السير هنا: إنّ السبب ربما في عدم نزول الحُر الذي يبدو أنه كان راغباً في الجلوس بعض الوقت، بين يدي الحسين، هو خوفه من أنْ يراه الأطفال والعيال، فيتذكروا تلك اللحظة التي أرعبهم فيها في اللقاء الأول، حيث حبس عليهم الطريق، فيخجل الحُر، وهو بهذه الحالة، ولذلك فإنه كان مُصمماً على مسح ذلك العار بأسرع ما يمكن من خلال إراقة دمِهِ في سبيل الحسين.

وكما يقول الراوي: فإنّ الحُر يقف أولاً مخاطباً جيش عمر بن سعد، وهم من أهل الكوفة، ولمّا كان هو كوفياً أيضاً، فإنه يوجّه لهم الخطاب قائلاً:

يا أهل الكوفة! هل نسيتم أنكم قد بعثتم بالكتب والرسائل إلى هذا الرجل، تدعونه للمجيء، وتعدونه بالنُصرة فيكف إذاً تقاتلونه الآن؟ وتنكثون العهود وتتملصون من الوعود التي قطعتموها لهُ؟ إنني لستُ ممن كتب هذه الكتب، ولكنكم أنتم ورؤساؤكم وأُمراؤكم، قد كتبتم إليه بالتأكيد مثل هذه الكتب، وأنتم اليوم تقاتلونه بعد أنْ جاء إليكم، أي دينٍ تتبعون؟ وبأي قانون تعملون؟ حتى تُعامِلوا ضيفكم مثل هذه المعاملة؟!.

وكما يبدو فإنّ واحدة من تلك التصرفات اللئيمة، كانت قد اتبعت روح الحُر كثيراً، ذلك التصرف الحقير والدنيء الذي بدر من جماعة عمر بن سعد، والذي يتنافى مع روح الإنسانية والإسلام تماماً، والذي لم يحصل في التاريخ الإسلامي على الاطلاق.

فالإسلام لم يكن يسمح لأية جهة بالمبادرة إلى قطع المياه عن العدو، بهدف التضييق عليه، ومحاصرته، ذلك العمل الذي اقُترح على علي بن أبي طالب ليُمارسه ضد معاوية، إلاّ أنه رفض.

والحسين بن علي نفسه، قام بسقي جيش الحر، وهم الأعداء قبل ورودهم منطقة كربلاء.

ولا بد أنّ الحر قد تذكر ذلك الأمر جيداً، ورأى المفارقة بين الموقفين، وأخذ يقول: إننا قطعنا الماء عن ذلك الرجل الذي سقانا عندما كُنّا عطاشى، دون أن نطلب منه ذلك: فما أشرفه، وأرفعه من رجل! وما أحقرنا بالمقابل!.

قال: يا أهل الكوفة! ألا تخجلون من أنفسكم؟! وهذا الفرات الذي يلمح مثل بطن السمك، وفيه تجري المياه التي أُحلت لكل الموجودات الحية، فيشرب منها الإنسان والحيوان الأهلي، والحيوان الوحشي، وأنتم اليوم تقطعونها عن ابن بنت نبيكم؟!.

ثم يقاتل هذا الرجل الشريف حتى يستشهد، ولكن الحسين عليه السلام لم يتركه دون مكافأة. يقول الراوي: فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: أنت الحُر كما سمّتك أُمّك، ونِعم الحُر حُر بني رياح[1].

إنه الحسين الجليل الشريف العظيم، الذي لا ينسى تفقد أصحابه حتى المستطاع، وهذا بحد ذاته نوع من أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والذين حملهم الحسين، ومسح على وجوههم في ميدان المعركة، مختلفون، منهم من كان يصل إليه، وهو لا يزال على قيد الحياة، فيُكلّمه الحسين، ويُحدّثه بعض الحديث، ومنهم من كان يجده قد لبى نداء ربه، وفارق الحياة.

ومن بين أولئك الذين احتضنهم أبو عبد الله عليه السلام، في اللحظات الأخيرة من حياتهم، لم يكن هناك أحد أسوأ وصفاً وأصعب موقفاً، من وضع أخيه أبي الفضل العباس، ذلك الأخ الذي كان الحسين عليه السلام يجلّه كثيراً، والذي كان يُمثّل بالنسبة له الأثر الحيّ المتبقّي من شجاعة أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكما تذكر بعض السير فإنه قال لأخيه في تلك اللحظة، وهو يحتضنه فيها: بنفسي أنت يا عباس! وما أعزّها وأجلّها من كلمة، تصدر عن أبي عبد الله لأخيه الصغير.

---

(١) ويقال أن علي بن الحسين عليه السلام رثاه بقوله:

لنعم الحرّ حرّ بني رياح صبورٌ عند مشتبك الرماح
ونعمُ الحرّ إذ نادى حسينٌ فجادَ بنفسه عند الصباح

الملهوف: ٤٥، مقتل الحسين، للمقرّم: ٣٠٣.

فالعباس كان يصغر الحسين عليه السلام بحوالي ثلاثة وعشرين عاماً، أي إنّ أبا عبد الله كان له من العمر في عاشوراء (٥٧ عاماً)، بينما العباس كان شاباً لم يبلغ سوى (٣٤ عاماً).

وأبو عبد الله الحسين هو بمنزلة الأب بالنسبة لأبي الفضل العباس، سواء من الناحية التربوية، أو من ناحية كبر السن، ومع ذلك كان يقول لهُ: فدتك نفسي يا عباس! نعم ما أعز الموقف وماأجلّه.

كان أبو عبد الله الحسين واقفاً أمام الخيمة، ينتظر، ويراقب، ويتابع أخبار المعارك، وإذا به يسمعُ فجأةً نداء البطولة والشجاعة نداء أبي الفضل العباس عليه السلام.

وأبو الفضل كما تنقل لنا الروايات كان يُدعى لجماله الفائق بـ «قمر بني هاشم» كما أنّ بعض المؤرخين كتب عنه يقول: «وكان يركبُ الفرس المُطهَّمَ، ورِجلاهُ تُخطّان في الأرض».

وإنّ كان المرحوم الشيخ محمد باقر البيرجندي يرى أنّ بعض المبالغة قد حصلت في هذا الوصف، لكنه على كل حال، وكما يبدو، كان يتمتع بقدّ رشيق، وهيكل وسيم، يُدخل البهجة والانشراح على أخيه الحسين كلما رآه.

يقول الراوي: عندما وصل الحسين، ولأنّ أخاه أبا الفضل، وقد تطايرت يداه من بدنه، ورأسه قد تهشّم بفعل ضربة من عمود حديدي، والسهم قد أصاب عينه، ولذلك لم يكن عجيباً أن يكتب التاريخ عن وضع الحسين، وهو بهذه الحالة: «لمّا قُتِل العبّاس بان الانكسار في وجه الحسين».

بل إنّه هو شخصياً عليه السلام، قال في تلك اللحظة، وهو يُودِّع شقيقه: «الآن انقطع ظهري وقلّت حيلتي»[1].

ولا حول، ولا قوة، إلاّ بالله العلي العظيم

وصلى الله على محمد، وآله الطاهرين

(١) منتخب الطريحي: ٣١٢.

المحاضرة الخامسة

قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نظر علماء الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه، سيّدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

كما أنّ عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد رفع من قيمة النهضة الحسينية وأهميتها، فإنها بالمقابل قد رفعت من قيمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وكما أنّ تأثير عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد تمثّل في رفع

(١) أُلقيت هذه المحاضرة بتاريخ ١٠ محرم ١٣٩٠هـ.
(٢) التوبة: ١١٢.

مستوى النهضة الحسينية إلى أعلى المستويات الممكنة، فإن هذه النهضة المقدسة بدورها أيضاً قد ساهمت في رفع هذا الأصل الإسلامي إلى أعلى المستويات، فكيف حصل هذا؟ وهل يمكن للحسين بن علي أن يرفع وأن يُخفّض من قيمة أصل من الأصول الإسلامية؟ كلاّ.

فليس هذا هو المقصود في حديثنا، كأن نقول مثلاً إن هناك قيمة معينة للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الواقع وفي نفس الأمر، كما يقول الفقهاء أو في متن الإسلام، ثم جاء الحسين بن علي، وغيّر أو رفع من هذه القيمة الواقعية الموضوعة في متن الإسلام!.

فهذا عمل ليس بوسع الحسين بن علي أن يفعله، ولا حتى بوسع النبي محمد ﷺ أن يقوم به، إنه من صلاحيات الباري عزّ وجلّ لوحده، لا شريك له.

إنّ الله الذي بعث إلى عباده، وفرض عليهم هذه الأصول والتعليمات، هو الذي عيّن وقدّر لكل أصل من تلك الأصول مرتبته ودرجته وقيمته المحدّدة، ولا يمكن لأحدٍ كائناً من كان حتى النبي أن يتصرّف في مثل هذه الشؤون، أو يؤثر في متن الواقع الإسلامي لها.

وما أقصده هو أنّ النهضة الحسينية، إنما رفعت من إمكانيات الاستنباط والاجتهاد لعلماء الإسلام والمسلمين، بشكل عام، في دائرة أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هنا تعبير متداول بين طلاب العلوم الدينية، يتحدث عن مقام الثبوت، ومقام الإثبات:

ومقام الثبوت يعني المقام الواقع، وكل شيء في مقام الواقع أو بذاته، له حدٍ معين، ودرجة معروفة، أو بتعبير الفلاسفة الجدد مقام الشيء بذاته، مقابل مقامه بالنسبة لنا، ومقام الثبوت هو مقام لا الشيء بذاته، وذلك مقابل مقام الإثبات، أي ما يعني بالنسبة لنا من مقام وموقع.

وتوضيح الأمر كما يلي:

لنفرض وجود عدد من أطباء القلب في إحدى المدن، فهؤلاء في مقام

الواقع، وفي ذات الأمر، قد يكونون جميعاً أطباء جيدين، بنفس الدرجة والمرتبة العلمية.

ولكن قد يحصل أنّ السيد (ألف) طبيب من الدرجة الأولى، أي إنّه من أفضل الأطباء، وأكثرهم علماً وتخصصاً في مجال طب القلب.

والسيد (ب) من الدرجة الثانية، والسيد (ج) من الدرجة الثالثة والسيد (د) من الدرجة الرابعة، ولكن كيف يُقيّم الناس هؤلاء الأطباء، وكيف ينظرون إليهم؟ وما هي الأهمية والقيمة الموجودة لهم بين الناس؟ وهل أن التقدير والاعتبار الموجود لدى الناس عنهم يتطابق مع قيمتهم، واعتبارهم الواقعي الذي يحملونه بذاتهم؟ فهل إنّ طبيب الدرجة الأولى يُنظر إليه من قبل المجتمع فعلاً، على أساس أنّه طبيب من الدرجة الأولى؟ وطبيب الدرجة الثانية في المدينة يعتبره الناس بالفعل طبيباً من الدرجة الثانية؟.

قد يحصل هذا أحياناً، ولكن في أحيان أُخرى ربما يحصل العكس. فترى الناس نتيجة لتأثير بعض العوامل الخارجية، مثل الدعاية، أو الأخطاء، أو تداخل عدد من العوامل المتضادة، يحكمون في مقام الإثبات، أو المقام النسبي خلاف الواقع تماماً، وإذا بالطبيب صاحب الدرجة الرابعة يصبح طبيب الدرجة الأولى في أعين الناس، وطبيب الدرجة الثالثة يصبح بمستوى الدرجة الثانية، وصاحب الدرجة الثانية بمستوى الدرجة الثالثة، وصاحب الدرجة الأولى بمستوى الدرجة الرابعة.

وهنا يُرى بوضوح أنّ مقام الإثبات يختلف عن مقام الثبوت، أي هناك فرقٌ بين ما هو منظور بالنسبة لنا، وبين ما هو واقع كشيء في نفسه.

وعليه، فإنني عندما أقول بأن الحسين بن علي قد رفع من قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ قصدي هو القول بأنه عليه السلام، قد رفع هذه القيمة في عالم الإسلام. وليس في الإسلام.

فمن ناحية الدين الإسلامي، أي في مقام الثبوت، ومقام الشيء نفسه، لا يمكن للحسين بن علي عليه السلام، أو النبي صلى الله عليه وآله، أو علي بن أبي طالب عليه السلام، أن يرفعوا أو يُخفّضوا من قيمة أصل من الأُصول، والمبادىء العامة للدين.

إنّ الله وحده هو الذي حدّد قيمة خاصة معينة لكل أصل من أصول الإسلام، ولكن يا تُرى هل إنّ نظرة المجتمع الإسلامي، وتقييمها لهذه الأصول، تتطابق بالفعل مع ذلك الحد الموجود والموضوع له من قبل الله، أي المعروف بمقام الثبوت ومقام الشيء في نفسه؟.

ربما لا يملك المجتمع مثل هذه النظرة المتطابقة مع القيمة الواقعية لهذه الأصول، بل قد يحصل العكس من ذلك، أي أن تصبح الأشياء التي تحمل قيمة الدرجة الأولى بنظر المجتمع أشياء من الدرجة السُفلى، وتلك الأشياء التي تحمل قيمة الدرجة السُفلى، يتم النظر إليها في المجتمع كأشياء من الدرجة الأولى.

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد: «**ولُبِسَ الإسلام لُبس الفرو مقلوباً**»[1]. **أي كما يُلبس الفرو مقلوباً، ترى الناس تأخذ الإسلام بالمقلوب، وعندها ليس فقط لا فائدة من مثل ذلك الفرو، بل إنه سيصبح مُضحكاً ومثيراً للسخرية.**

والقيم الإسلامية بدورها إذا ما أصبحت معكوسة، أي أصبح ما هو من الدرجة الأولى محسوباً من الدرجة السفلى، وما هو من الدرجة الثانوية والسفلى، من الدرجة الأولى[2]، عندها يصبح ذلك الإسلام هو الإسلام المقلوب، الذي يتحدث عنه علي عليه السلام، كالفرو الذي لُبس مقلوباً.

إنّ قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قضية مختلف عليها بين المسلمين، وتوضيح ذلك من وجهة نظر علماء الإسلام هو كالتالي:

بالطبع فإنّ علماء الإسلام لم يبحثوا يوماً مسألة قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحت هذا العنوان بالذات، لكنهم تناولوا قضية أُخرى

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٧.

(٢) كأن نفرض مثلاً أن ترتفع قيمة وأهمية أمر من قبيل تقليم الأظافر وهو من الأمور المستحبة في يوم الجمعة إلى درجة أهمية أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو أن يصبح أمر تمشيط شعر الرأس أو اللحية وهي من الأمور المستحبة أيضاً أكثر أهمية من أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أو أن تتحول الزيارات المستحبة إلى أصول من الدرجة الأولى.

بالبحث، يمكن من خلالها استنباط وجهة نظر العلماء في قضية قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هناك أصل في الإسلام وحديث نبوي، يبني على أساسه علماء الإسلام بعض اجتهاداتهم، والحديث هو كما جاء في الروايات: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمعت حُرمتان تُرِكَت الصُغرى للكبرى»[١].

هذا الموضوع له أمثلة واضحة للغاية، والمثال الشائع الذي يُذكر في هذا المجال هو: إنّ دخول الأرض المغصوبة هو عمل حرام، لكنك إذا ما رأيت أنّ إنساناً أو حيواناً، أو أي نفس محترمة، قد تعرضت للغرق في مثل هذه الأرض، فما هو المطلوب منك في هذه الحالة؟.

فإمّا أن تضع قدَمَك فوق تلك الأرض المغتصبة، وهو عمل حرام بحد ذاته، وتدخل إليها لإنقاذ تلك النفس، أو أنْ تقف متفرجاً بحجة حرمة دخول الأرض المغتصبة، وبالتالي يتم هلاك تلك النفس المحترمة، فما العمل هنا؟ فهناك حرمتان، ينبغي مراعاتهما:

أولاً: حرمة المال، والقوانين المالية لا بد من المحافظة عليها، ولا بد من احترام المال المشروع للناس، والمحافظة عليه، ولا يجوز في هذه الحالة دخول تلك الأرض المغتصبة دون الحصول على رضا صاحبها.

والحرمة الثانية: هي احترام النفس الروح، واحترام المال لا يمكن له أن يصل أبداً في أهميته لدرجة احترام النفس.

وإذا كان لا بد من التضحية بأحدهما في سبيل الآخر فما على المرء إلاّ أن يضحي بالمال مقابل النفس.

وفي هذه الحالة يكون دخولك للأرض المغصوبة ليس فقط خالياً من الذنب، بل إنّه عمل مثاب وطاعة ربّانية.

في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هناك مسألة يتم طرحها للبحث في هذا المجال، وهي أين حدود مثل هذا المجال؟ فالعبد الفقير

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ٢: ٢٤٤، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١: ٣٥٩.

وحضرتك، وكل واحد منّا، مطلوب منه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ولكن إلى أي حد ينبغي عليه المُضي في عمله هذا؟.

فأحياناً نرى أننا نستطيع أن نؤدي هذا الواجب، دون أن يلحق بنا أي أذىً يذكر، وفي مثل هذه الحالة إذا لم نفعل، نكون قد تساهلنا وتخلفنا عن القيام بالواجب.

لكن في الحقيقة ترانا مستعدّين أنْ نمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقط في حدود عدم تعرضنا للخطر، الخطر الموجّه ضد أموالنا وكرامتنا وحياتنا.

ولكن إذا ما صار القرار أنْ نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وتتعرض أموالنا للخطر، ترانا نتساءل على الفور، نقوم بذلك أو لا نقوم؟.

أو إذا أصبح فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يُعرّض كرامتي وماء وجهي للخطر، أو أن يتم التعرض لي بالسباب والشتائم أو الضرب أو يتم إلصاق التهم والتلفيقات المتنوعة ضدي، فعند ذلك أيضاً تراني اختار طريق التساؤل وأقول: أأفعل ذلك أو لا أفعل؟.

كذلك إذا ما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يُسبب لي التعرض لخطر الموت، تراني بالطبع أترددُ في صنعه، وهكذا إذا ما كان يُسبب بالإضافة لنفسي ولأهلي وعيالي وأعزتي، مختلف العذابات والأخطار، سواء الحياتية أو المالية والنفسية، فإنه وفي مختلف تلك الحالات، ترانا جميعاً نتردد في الإقدام على أداء مثل هذا الواجب.

قد يأتي أحد هنا ويقول: إن بعض علماء الإسلام قد حددوا حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعيّنوها حيث لا وجود للخطر فيها، إنْ على صعيد الضرر الجسمي أو المالي أو الضرر المتعلّق بالكرامة وماء الوجه.

وفي الحقيقة إنهم هنا قد خفضوا قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى درجة كبيرة، إذ قالوا: إنّه لا بد من فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن شرط عدم تعرُّض ماء وجه المرء للخطر، أي إنك لو خُيّرت بين فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من جهة، وبين ماء وجهك المُهدد

بالزوال، فعليك ترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمسك بماء وجهك!!.

بالطبع أن أُقدّر أنّ مسألة ماء الوجه في الإسلام مسألة محترمة، ولا شك أبداً في أنّ ماء الوجه وبدن المؤمن لهما احترامهما في الإسلام.

فالإنسان ليس من حقه أبداً أن يُعرّض جسمه لأي جرح بسيط هكذا بدون علة، أو سبب وجيه، ولا يحق له كذلك أن يفعل بجسمه أيّ شيء مهما كان صغيراً. فما بالك لتعريض حياته للخطر. والقول بأنه ينبغي على الإنسان الامتناع عن تعريض حياته للخطر، أمرٌ لا شك فيه الاطلاق. فالقرآن الكريم واضح في هذا المجال حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] إذ لا يحق للإنسان أنْ يرمي بنفسه عن سطح بناية مثلاً، وينتحر لمجرد أنّه واقعٌ تحت ضغط شديد من الديون، أو أنّه فشل في علاقة حُب، أو أنّه يائس من الاستمرار في حياته، بسبب المستقبل الأسود، الذي يتراءى له.

فالمنتحر حسابه تماماً كحساب من يقترف جريمة قتل بحق إنسان آخر، والقرآن الكريم يقول في باب القتل العمد: ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾[2] نعم فجزاء من يقتل النفس المحترمة، سواء أكانت تلك النفس شخص الإنسان أو أيّ إنسان آخر، هو جهنم لا محالة ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ كما يقول القرآن الكريم.

إنّ الذين يتصورون أنّ مصائرهم بيدهم مُخطِئون، وأموال الناس، وثرواتهم محترمة، ذلك أنّ المال الذي يملكه المرء ليس ماله وحده، إنه بالدرجة الأُولى مال المجتمع، وبالدرجة الثانية ماله، ويحق له الاستفادة منه، لكنه لا يحق له تضييعه أو تبذيره أو الإسراف في استخدامه.

فالإسلام لا يُعطي للإنسان مثل هذا الحق أبداً، والمال والمُلك محترم في الإسلام، كما البدن، والنفس، والكرامة.

وهل يحق للمرء أن يتصرف في المجتمع كيفما يشاء، بحيث تتعرض

---

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) النساء: ٩٣.

كرامته للخطر، أو يصبح موضع اتهام بدون سبب أو علّة؟! فالحديث واضح في هذا المجال إذ يقول: «اتّقوا مواضع التهم»[1].

كل هذا أمرٌ متفقٌ عليه، ولكن البحث يدور حول مدى الاهتمام، والأولوية الممنوحة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمام هذه الأمور المحترمة.

نعم، المطلوب معرفة حجم الاحترام المتوفر لفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدقةٍ، وهل هو كبير لدرجة انطباق الحديث الشريف الآنف الذكر عليه حيث يقول ﷺ: «إذا اجتمعت حُرمتان تُركت الصُغرى للكبرى».

إنّ بعض علماء الإسلام، ومع شديد الأسف، ينبغي عليّ أن أقول: إنّ بعض كبار علماء الشيعة أيضاً، والذين لم ننتظر منهم مثل هذا الموقف يقولون: بأنّ حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقف عند نقطة عدم حصول الضرر بالمطلق، وليس عدم حصول المفسدة.

نعم، في حدود عدم تعرّض مالك وحياتك، وكرامتك للضرر، أي أنّك إذا ما رأيت أنّ الضرر سيلحق بواحدةٍ من هذه الجهات، فما عليك إلاّ أن تتخلى عن هذا الواجب! إنّه أصغر من أنْ يُقارنُ بالنفس أو المال أو الكرامة! إنهم يُخفّضون من قيمة فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى هذا الحد.

لكن هناك من يرى المسألة بشكل مختلف، ويقول بأنّ قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرفع من ذلك، ولكن بالطبع فإنّ المسألة نسبية، وتختلف من مسألة إلى أُخرى.

فأوّلاً يجب أن نعرف المجال الذي يُراد منّا أنْ نمارس فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وما هو الموضوع الذي نُريد أن نمارس حوله هذا الواجب المذكور؟.

فأحياناً يكون الأمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، يتعلق بموضوع تافه لا قيمة له، كأن يقوم أحدهم برمي الأوساخ في زقاق المحلة، ولا يحق له أن يقوم

(١) كشف الخفاء للعجلوني ١: ٤٤.

بمثل هذا العمل القبيح، وينبغي عليك هنا أن تنهى عن المنكر، كما ينبغي عليك هداية هذا الرجل وإرشاده وتوجيهه بحيث لا يرمي الأوساخ في الزقاق بعد الآن.

ولكن هناك مسألة، وهي: إنّه إذا ما كانت مثل هذه الهداية، أو مثل هذا النهي عن المنكر، سيؤدي إلى سماعك لنوع من السباب والشتم، والتعرّض لناموسك وشرفك، ففي مثل هذه الحالة يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أقل قيمة من تعرض كرامة الشخص للضرر.

ولكن في أحيانٍ أُخرى قد يكون موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، موضوعاً وضع له الإسلام أهمية وقيمة أبلغ وأرفع من مال الإنسان، وثروته، وكرامته.

فالمسألة تدور حول تعرض القرآن للخطر، وأنّ كل المؤامرات، والدسائس تدور حول محاربة القرآن، والحالة العامة توحي بالخطر الداهم على القرآن، ومبادىء القرآن.

إنّ الخطر الذي يوشك أنْ يقضي على العدالة، وهي الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه الأنبياء كافة في المجتمع البشري كما ورد صريحاً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

فالقضية هي قضية الظلم والعدل، وهي أصل ومحور الحياة البشرية، ويقول النبي الأكرم ﷺ: «الملك يبقى مع الكُفر، ولا يبقى مع الظلم»[2].

أو أن تكون القضية المعرّضة للخطر هي قضية الوحدة الإسلامية، وكلنا يعرف مدى الحساسية الخاصة، والعناية الفائقة، التي يوليها الإسلام، لمثل هذه القضية الكبرى، قضية وحدة المسلمين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[3].

فهل يجوز لك أن ترى دسائس الأعداء، ومؤامراتهم الداعية دوماً إلى بث

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) الكافي ٢: ٣٣٣، أمالي المفيد: ٣١٠، بحار الأنوار ٧٢: ٣٣١، ح٦٥.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

الفتنة بين المسلمين، وتمزيق وحدتهم، ثم تقول: وما شأننا بفعل الأمر بالمعروف؟ أو فلندع الكلام جانباً في مثل هذا الموضوع!.

أو ما شأني أنا والنهي عن هذا المنكر؟!.

وإنني لو قمت بهذا الواجب فإنّ حياتي ستكون معرضةً للخطر، أو إنّ كرامتي ستكون مهددة بالضياع، أو إنّ المجتمع سينبذني، وإلى غير ذلك من التُرّهات!!.

وبناءً عليه نقول: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال القضايا الكبرى لا يعرف الحدود، وليس هناك أمر محترم في هذه الحالة يمكن مقارنته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يمكنه أنْ يُعيق تأدية هذا الواجب.

إنّ هذا المبدأ يدور في الواقع حول نوع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهنا بالذات يتبين لنا إلى أي مدى رفع الحسين بن علي عليه السلام من قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فكما أنّ أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رفع من قيمة النهضة الحسينية، كما بيّنا ذلك آنفاً، فإنّ النهضة الحسينية بدورها قد رفعت هذا الأصل الواجب الإلهي.

ذلك أنّ الحسين بن علي عليه السلام قد بيّن للعالم أجمع أنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد تصل إلى درجة يتطلب فيها من الإنسان أن يُضحّي بنفسه، وماله، وكل ما يملك، في سبيل هذا الأصل، ويتحمل في سبيل ذلك كل أنواع اللوم، والانتقاد، كما فعل الحسين نفسه.

فالنهضة الحسينية لم تحظ بتأييد أحدٍ من الناس، نعم بالمستوى الذي كانوا يُفكرون به، وقد كانوا على صواب في حدود تصوراتهم للموضوع.

لكن الحسين بن علي كان يرى ما وراء حدود رؤياهم، إنهم كانوا يتصورون جميعاً بأن الأمر لا بدّ منحصر بحدود الوصول إلى الزعامة، وحسم أمر السلطة، ولذا فإنهم كانوا يرون العاقبة السيئة المتوقعة، وكانت توقعاتهم دقيقة وصحيحة.

والإمام الحسين نفسه عندما رأى بعينه ما كان يدور حوله في يوم عاشوراء قال: «**لله دَرُّ ابن عباس ينظرُ من سترٍ رقيق**»[١].

إنّه ـ أي ابن العباس ـ قد أخبرني بكل هذه الأحوال، وبالمصير المنتظر لأهل بيتي، وأنا في المدينة المنورة، نعم، فقد قال ابن عباس للحسين عليه السلام وهو لم يزل في المدينة، بأنّك لو ذهبت إلى الكوفة فإنني على يقين بأنّ أهلها ينقون عهدهم معك، وهذا ما أكّده الآخرون أيضاً، والذين قوبلوا أحياناً بالصمت من قبل أبي عبد الله، وقد رَدّ على أحدهم عليه السلام: «لا يخفى عليّ الأمر»[٢].

إنّ أبا عبد الله عليه السلام قد أثبت في هذه النهضة، أنه، ومن أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم من أجل هذا الأصل الإسلامي، يمكن للمرء أنْ يُضحي بحياته، وماله، وثرواته، ويتحمل كل أنواع اللوم والانتقاد.

فهل هناك أحد في الدنيا منح قيمةً لأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمقدار ما أعطاه الحسين بن علي؟.

إنّ معنى النهضة الحسينية يُفيد بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالغ القيمة إلى الحد الذي يُمكن فيه للمرء أن يُضحي في سبيله بكل شيء.

إنّه ومع حصول النهضة الحسينية، لم يَعُد هناك مجال للحديث عن وجود حدود لفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلا فهو لا يعرف الحدود، نعم يعرف المفسدة، أيْ إنّ أولئك الذين يقولون بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروط بعدم حصول المفسدة، يقولون عين الصواب، حتى وإنْ اعتمدوا الضرر بمعنى المفسدة.

أي إنّه قد يحدث أحياناً أنْ أكون راغباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأُريد خدمة الإسلام من خلال ذلك، إلاّ أنّ عملي في هذا بحد ذاته يوجد مفسدةً أُخرى للإسلام، وليس لي شخصياً بالطبع.

(١) تفسير القرطبي ١: ٣٥، المناقب للخوارزمي: ١٩٧، ح٢٣٩.
(٢) تاريخ الطبري ٥: ٣٨٤.

نعم مفسدة للإسلام هي أكبر من تلك الخدمة التي أردتها من خلال عملي ذلك للإسلام.

كثيرون هم أولئك الأفراد الذين ينهون عن المنكر، لكنهم ليس فقط لا يجنون نتائج إيجابية من عملهم ذلك، بل إنهم يُخرجون ذلك الشخص الذي نهوه عن فعل المنكر من الدين تماماً.

إنني أقبل بوضع إمكانية ترتُّب المفسدة، واعتبارها الحدود التي تفصل بين ضرورة القيام، أو عدم القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولكن لا أقبل بأنْ تكون الحدود هي الضرر، لا سيما إذا ما كان الضرر شخصياً (أياً كان الموضوع).

ودليلي على ذلك هو عدم قبول الحسين بن علي عليه السلام لمثل هذه الحدود، بالإضافة إلى دلائل أُخرى، لا مجال لبحثها الآن.

إن الحسين بن علي عليه السلام قد استمسك بهذا الأصل، وأثبت لنا جميعاً بأنه قد قام، وانتفض دفاعاً عن هذا الأصل المقدس، أو أنّ أحد العوامل التي دفعته للقيام ـ أحد العوامل على الأقل ـ كان هو هذا الأصل.

لقد سبق له عليه السلام أنْ وضّح وبيّن في زمن معاوية بعض العلائم والقرائن التي كانت تُفيد بأنّه كان يُمهّد للقيام والثورة.

فقد جمع صحابة النبي في (منى) وتحدّث إليهم، وبيّن لهم الحقائق، وشرح لهم المفاسد البارزة آنذاك، ودَلّهم على الواجب المُلقى على عاتقهم بهذا الخصوص، وقد ورد كل هذا التفصيل، على أحسن وجه في ذلك الحديث الشهير المعروف عنه عليه السلام في «تحف العقول»، وهو الحديث الذي يُبيّن لنا بشكل كامل، كيف كان يفكر الحسين بن علي عليه السلام في مثل هذه القضايا.

يروى أنْ الحسين عليه السلام قد كتب إلى معاوية في أواخر عهده، كتاباً رمى به ابن أبي سفيان باللوم، والانتقاد الشديد، ومن جملة ما قال له فيه:

«يا معاوية بن أبي سفيان! وايمُ الله! إني لخائف الله في ترك

ذلك»[١]. أي في ترك محاربتك، وهو يُريد أن يقول له بذلك: إنّك وإن رأيت الحسين عليه السلام اليوم ساكتاً، لكن هذا لا يعني أنّه لا يُحضّر للثورة.

إنني إنما أبحث عن الفرصة المناسبة والمؤاتية، للثورة وذلك حتى يكون قيامي مُفيداً، ومؤثراً، ويُساعدني على المضيّ، ولو خطوةً واحدة في سبيل الوصول إلى ما أصبوا إليه، وأبذل جُهدي في سبيله.

وهذا ما جاء بصراحة في وصيته عليه السلام لمحمد بن الحنفية، في اليوم الأول لخروجه من مكة، عندما قال: «**إني ما خرجتُ أشراً ولا بطراً ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر**»[٢].

إنّ أبا عبد الله الحسين، ظل مستمسكاً بهذا الأصل، في مواضع متعددة، وهو في طريقه إلى الكوفة، من دون أن يتطرق إلى ذكر البيعة، أو ذكر دعوة أهل الكوفة له.

والعجيب في الأمر أنه عليه السلام، كان كلّما جاءته أخبارٌ موحشة، ومتشائمة من الكوفة، كلما كانت خطبه عليه السلام تأخذ طابعاً حماسياً، أكثر من الخطب التي سبقتها.

---

(١) كتب الإمام الحسين عليه السلام كتاباً إلى معاوية ردّاً على كتاب معاوية إليه وممّا جاء فيه:
«. . . أما بعد، فقد بلغني كتابُك تذكر فيه: أنه قد انتهت إليك عنّي أمورٌ أنتَ لي عنها راغبٌ، وأنا بغيرها عندك جديرٌ. فإن الحسنات لا يهدي لها ولا يُسدّد إليها إلاّ الله تعالى، وأما ما ذكرتَ: أنه رُقي إليك عنّي، فإنه إنما رقاه إليك الملاّقون المشاؤون بالنّمائم المفرّقون بين الجمع، وكذب الساعون الواشون ما أريد لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وأيمُ الله إني لأخاف الله ـ عزّ ذكرُه ـ في ترك ذلك منك.
وما أظن الله راضياً عنّي بتركه، ولا عاذري بدون الاعتذار إليه فيك وفي أوليائك القاسطين الملحدين حزب الظلمة، وأولياء الشياطين. ألستَ القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلّين الصالحين العابدين. . . أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح. . . أولست المدعى (زياد بن سُميّة) المولود على فراش عبيد بن ثقيف، فزعمت أنه ابنُ أبيك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولدُ للفراش وللعاهر الحجر» فتركتَ سُنة رسول الله صلى الله عليه وآله تعمداً. . .
إلى أن يقول: وأنّي لا أعلم فتنةً أعظم على هذه الأُمّة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة جدي محمد صلى الله عليه وآله أفضلَ من جهادك، فإن فعلته فهو قربة إلى الله عزّ وجلّ. وإن تركتُه فاستغفر الله لديني، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.
انظر: الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٥٥، أنساب الأشراف ٣: ١٥٣، سير أعلام النبلاء ٣: ١٩٨.
(٢) مقتل الخوارزمي: ج١، ص١٨٨.

وكما جاء في الروايات، فإنه وبعد سماعه نبأ استشهاد مسلم بن عقيل عليه السلام، خطب خطبته المعروفة: «**يا أيها الناس! إنّ الدنيا قد أدبَرَتْ وأذِنت بوداع، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت بصلاح**».

وهي خطبة مقتبسة من كلام أبيه علي عليه السلام. ثم يقول عليه السلام: «**ألا ترون أنْ الحق لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغَب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً**»(١).

فهل تلاحظون تعبيره عليه السلام إذ يقول: «... ليرغبُ المؤمن...»، ولم يقل ليرغبُ الحُسين بن علي بشكل خاص، وإنّ المهمة هذه من المهمّات الخاصة، المُلقاة على عاتق الإمام فقط دون غيره من الناس العاديين.

نعم، ففي مثل هكذا ظروف ينبغي للمؤمن أن يُضحي بروحه، وبكل ما لديه، ويتّجه للقاء الله، أي إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لديه كل هذه الأهمية، وهذه القيمة البالغة، والغالية.

وفي إحدى خطبه في منتصف الطريق إلى الكوفة، تراه عليه السلام يقول بصراحة: «**إني لا أرى الموتَ إلاّ سعادةً، والحياة مع الظالمين إلاّ برما**»(٢).

وقد جاء في بعض النسخ تعبير «شهادةً» بدل «سعادة» أي أنه عليه السلام لا يرى الموت في مثل هذه الحالات سوى شهادة في سبيل الحق.

أي إنّ من يُقتل في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يُقتل شهيداً. كما أنّ المعنى الآخر أي «لا أرى الموت إلاّ سعادة» في الحقيقة إنما يعطي نفس المفهوم الاستشهادي، والحياة مع الظالمين إلاّ برما. أي إنني لا أرى مجالاً، أو إمكانية للعيش مع الظالمين، والتعايش معهم، فروحي ليست تلك الروح التي تتعايش مع الظالم.

الموقف الأقوى والأكثر صراحةً، يمكن لنا أن نراه عندما تصبح

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٠٣، تحف العقول: ٢٤٥.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٤٠٣.

الأوضاع، والحالة العامة، يائسة مئة بالمئة، وهو الوقت الذي يصل فيه الحسين بن علي إلى حدود العراق، ويصطدم بجيش الحُر بن يزيد الرياحي.

إنّ ألف مقاتل جاؤوا ليأخذوه مخفوراً إلى الكوفة، ويُسلّموه لابن زياد، هُنا وفي مثل هذه الظروف القائمة ينقل المؤرخون المعتبرون خطبةً مشهورة للحسين بن علي عليه السلام، ورد ذكرها على لسان المؤرخ المعروف الطبري، وهي الخطبة التي يُذكر فيها الإمام بقول جده النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يأمرنا بالتمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أيها الناس! من رأى سُلطاناً جائراً، مُستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مُستأثراً لفيء الله، مُتعدّياً لحدود الله، فلم يُغيّر عليه بقولٍ، ولا فعلٍ كان حقاً على الله أن يُدخله مدخَلهُ، ألا وإنّ هؤلاء القوم قد أحلّوا حرام الله، وحرموا حلاله، واستأثروا في الله»[1].

وبعد هذه المقدمة المنطقية تراه عليه السلام، يأخذ النتيجة على الفور، ويقول لأصحابه، ولجميع من يسمع من جيش الحُر:

«وقد علمتم أنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولّوا عن طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله. . .»[2].

فمن هم هؤلاء القوم؟ أليسوا آل أُمية؟ نعم، بل هم كذلك، ومن ثم يُطبّق عليه السلام هذا الخطاب المحمّدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على شخصه فيقول: وإنّي أحقّ بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل بعد ذلك من عجب، أن يُخلّد ذكر الحسين إلى الأبد، بعد أن تكون صفاته وخصائله بمثل هذه الصفات والخصال، التي يذكرها التاريخ لنا؟ فالحسين هذا ليس إنساناً لنفسه، بل إنه ضحى بنفسه للإنسان، ضحى بنفسه من

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، الكامل لابن الأثير ٤: ٢١.
(٢) تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩، الكامل لابن الأثير ٤: ٢١.

أجل مجتمع البشر كُلهم، وقدّم نفسه فداءً لمقدسات البشرية، وقرباناً على طريق التوحيد، ومن أجل العدالة والإنسانية.

ولذا نرى بأنّ أبناء الإنسانية جميعاً يحبونه، ويعشقونه، من كل ملة وطائفة.

فالإنسان عندما يرى أحداً من الناس لا يصرف اهتمامه لشيء يتعلّق بشخصه، وبذاته، وكل ما فيه، إنما هو مظهر من مظاهر الشرف والإنسانية، فإنه عند ذلك يرى في ذلك الشخص جزءاً لا يتجزأ من نفسه، منصهراً في ذاته.

لقد أراد الحُر أن يأخذ أبا عبد الله الحُسين معه إلى الكوفة لكن الإمام أبى، ورفض ذلك، فالحسين لم يكن على استعداد ليرضخ للذلة والهوان، ذلك أنّ الحُر إنما أراده أن يأتي إلى الكوفة مخفوراً، ولكن بعد مفاوضات تقرر أن يجعجع الحُر بقافلة الحسين حتى تأتيه الأوامر مُجدّداً من الكوفة، أيْ أن تسير القافلة، وجيش الحُر في طريق لا يؤدي بهم لا إلى الكوفة، ولا إلى المدينة.

وهكذا صار حتى انتهى بهما المطاف إلى أرض كربلاء، وكان ذاك هو اليوم الثاني من محرّم الحرام، عندما نزل عليه السلام في أرض كربلاء، فنصب الخيم، واستقر، هو وأصحابه، الذين كانوا يبلغون حوالي (٧٢) نفراً.

وفي الجهة المقابلة لهم، أقام العدو مُخيّمه وفيه من الجُند ما يُقارب الألف نفر.

وظلت رُسُل العدو في ذهاب وإياب من الكوفة، وإليها، والإمدادات تتوالى على معسكر العدو، ومخيّمه ألفاً، وثلاثة آلاف، وخمسة آلاف «حتى كَمُلَتْ ثلاثين» وذلك في اليوم السادس من مُحرّم، كما جاء في الروايات.

وعندما حانت ساعة المواجهة، قرر ابن زياد أن يكون قرار الحرب، وأن تكون إمارة الجند والعساكر، جميعاً، بيد عمر بن سعد.

واختياره لعمر هنا كان نوعاً من الحرب لنفسه، حيث إنّ هذا الرجل هو ابن سعد بن أبي وقّاص، الرجل الذي اعتزل السياسة والحكم، في زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث وقف على الحياد، ولم يرد أنْ يأخذ موقفاً منحازاً

آنذاك، الأمر الذي كان يعني نوعاً من ضعف العصبية الشيعية في هذا الرجل، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنّ هذا الرجل (أي سعد بن أبي وقّاص) قد كانت له مواقف بطولية في المعارك والغزوات الإسلامية في عهد النبي ﷺ، فذاع صيته، ولمع اسمه بين الناس، الأمر الذي لا شكّ أنه ترك أثراً من المحبة، والشعبية في قلوب الناس، نسبةً لهذا الصحابي الشهير.

وبالتالي فإن اختيار عمر بن سعد، كان يعني انتخاباً لابن ذلك الصحابي الشهير، وأمير الحرب المعروف، الذي شارك في غزوات الإسلام، وفتوحات الدولة الإسلامية الأُولى.

وابن زياد باختياره لعمر بن سعد، أراد أن يوحي للناس، بأنّ هذه الحرب التي سيشنها على الحسين عليه السلام، إنما هي من قبيل تلك الغزوات والحروب الأولى، وأنه كما كان سعد بن أبي وقاص يُقاتل الكفر، فإن ابنه (والعياذ بالله) يُقاتل اليوم فرقة من الفرق الخارجة على الإسلام.

ولمّا كان عمر بن سعد رجلاً مُدركاً لحقائق الأمور، إلاّ أنّ طمع الجاه والسلطان، كان قد سيطر عليه، لا سيما وأنّه قد أظهر طمعه هذا في مناسبات عديدة، لذلك فإنّه أراد التخلّص من هذا الإحراج، ولم يكن يُريد التورط في مثل هذه المعركة أبداً، فأخذ يتوسل إلى ابن زياد أن يعفيه من هذه المُهمة.

لكن ابن زياد الذي كان يعرف نقطة ضعف عمر بن سعد جيداً وكان قد أصدر إليه من قبل أمراً بتولي حكومة ـ الري وجرجان ـ قال له على الفور: سأخلعُك عن ولاية الري وجرجان، وبعد ذلك إذا أردت عدم قبول هذه الأمارة فأنت حُر!.

ولمّا كان عمر، قد عقد آمالاً كبيرة على الحكم، وقلبه يرفُ للمُلك، فإنّه تراجع قليلاً، وقال لابن زياد: أمهلني قليلاً، ودعني أتأمل في الأمر بعض الشيء، وعندما ذهب عمر بن سعد ليشاور أصحابه بالأمر فإنّ كل من تحدث معهم نصحوه بعدم قبول مثل هذه المهمة، لكن طمع الحكم والملك قد غلب آخر الأمر، وهكذا رضخ عمر بن سعد، وأعلن عن موافقته على قبول المهمة التي أوكلها إليه ابن زياد، نعم، طمعاً في ولاية الري وجرجان.

لقد حاول عمر بن سعد أن يجمع بين الدنيا والآخرة أثناء وجوده في كربلاء، وسعى كثيراً بهدف خلق ما يُسمى بحالة صلح بين طرفي النزاع، أيْ إعفاء نفسه من دم الحسين بن علي، أو على الأقل النجاة بجلده، وليحصل بعد ذلك ما يحصل.

وقد عقد عدة جلسات تفاوض خلالها مع الحسين بن علي ولكن دون نتيجة.

وكما يقول (الطبري) فإنه بسبب انحصار هذه المفاوضات بين شخص الحسين عليه السلام وعمر بن سعد لا توجد عندنا صورة واضحة عمّا جرى في تلك المفاوضات، والجزء اليسير المتداول هو ما صرّح به عمر بن سعد نفسه فيما بعد، أو إننا سمعنا ببعض أخبارها على لسان الأئمة الأطهار، وفيما عدا ذلك لا نملك أية معلومة دقيقة عن حقيقة ما جرى في تلك الجلسات.

لقد كان يسعى بكل جهده أن تنام الفتنة، ولا تقع الحرب (وكما كُتب في بعض الروايات فإنه حتى توسل أحياناً بالكذب من أجل تحقيق ذلك ولم ينفع).

ولمّا وصلت الرسالة الأخيرة من قبل عمر بن سعد لابن زياد، وهو في مجلسه في الكوفة، فإنه أطرق مُفكراً، وكاد يتراجع عن قرار الحرب، وقد سُمع وهو يُدمدم قائلاً: ربما أمكن حل هذه القضية بالطرق السلمية.

لكن أولئك المتزلفين، والمتملقين و- الملكيين أكثر من الملك - كما يقول المثل، ممن كانوا حاضرين في المجلس، لم يتركوا المجال لمثل هذه الأفكار أن تجد طريقها إلى الواقع، فتدخلوا، وكان بينهم شمر بن ذي الجوشن الذي انتفض من محله وقال: أيها الأمير! إنّك لَتُخطىء فكيف تقبل هذا منه، وقد نزل بأرضك وأتى جنبك؟ وإنه والله لو خرج سالماً من قبضتك، فإنك سوف لن تقدر على الإمساك به مرةً أُخرى! ثم لا تدري أن شيعة أبيه لا ينحصر وجودهم في الكوفة فقط، وإنهم كُثُرٌ في الدولة الإسلامية، وإذا ما اجتمعوا من الأطراف، والأكناف فإنهم سيكونون الأقوى، وتكون أنت في موضع الضعف والوهن، فلا تعطِ الحسين هذه المنزلة.

يقول الراوي: فإذا بابن زياد وكأنه قد أفاق من غفلةٍ ونهض على الفور وهو يقول للشمر: نِعمَ ما رأيت وأخذ يُنشد قائلاً:

الآن قد عَلقَتْ مخالبِنا به يرجو النجاة ولاتَ حين مَناصِ

وفي المقابل، فإنه كتب إلى عمر بن سعد رسالة غاضبة، يقول له فيها:

«لم أبعثك إلى الحسين لتكفَ عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتعتذر عنه...» إلى أن يقول: «.. فإنْ أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيناك جزاء السامع المطيع، وإنْ أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر...».

وحمَّل هذه الرسالة لشمر بن ذي الجوشن، وقال له: سَلِّمها لابن سعد يداً بيد، ثم كتب رسالة أُخرى سرية لشمر بن ذي الجوشن نفسه، سلّمه إياها ليُنفّذ أوامره، في حال رفض عمر لأوامر ابن زياد.

وقد جاء في أمره للشمر يقول له: «.. فإنْ فعل (أي قاتل عمر الحسين) فاسمع له واطع، وإنْ أبى أن يقاتلهم فأنت أمير الجيش، فاضرب عنقه، وابعث إليَّ برأسه».

يقول المؤرخون: إنّ شمر بن ذي الجوشن، قد وصل إلى كربلاء ومعه هذه الرسالة إلى عمر بن سعد، عصر يوم التاسع من محرّم، ويوم التاسع من محرم كان يوماً حزيناً جداً على آل بيت النبي.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ تاسوعاً يوم حوصر فيه الحسين»[1].

نعم، فهو يوم تدفقت فيه الإمدادات على جيش عمر بن سعد، بينما لم يصل فيه شيء لأهل بيت النبي، بل سُدّت بوجههم كل الطُرق.

وكما أسلفنا، فإنّ ذلك اللعين من الأزل إلى الأبد (أي الشمر)، يصل إلى كربلاء، عصر يوم التاسع من محرم، ويبدأ أولاً بتسليم كتاب ابن زياد ـ العلني ـ لعمر بن سعد، وينتظر جواب عمر، وفي أعماقه يتمنّى رفض ابن سعد لفحواه، حتى يقطع رأس عمر بن سعد، ويتولى هو قيادة الجيش بموجب كتاب ابن زياد السري الموجود عنده.

---

(١) نفس المهموم: ص٢٢٥، نقلاً عن كتاب الكافي: ج٤، ص١٤٧.

ولكن خلافاً لتوقعاته، فقد كان رد فعل ابن سعد على عكس ذلك، إذ نظر إليه أولاً نظرة ارتياب ثم قال له: «.. والله إني لأظنُك نهيته عمّا كتبتُ به إليه، وأفسدت علينا أمراً قد كنا رجونا أن يصلح...».

فقال له الشمر: «أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك، وتقتل عدوه، وإلاّ فخلّ بيني وبين الجند والعسكر».

فقال عمر: لا ولا كرامة لك، ولكن أنا أتولّى ذلك، فدونك فكن أنت على الرجّالة.

فعمر بن سعد يعرف جيداً حجم مقام الشمر لدى ابن زياد (فهما من سنخ واحد، وطبقة واحدة، وكلّما كان الواحد منهم شقياً وقاسي القلب أكثر، كلما كان أقرب إلى ابن زياد). ولذلك تراه سلّمه إمارة الرجّالة.

فكتاب ابن زياد لعمر بن سعد كان قاسياً جداً: «... انظر فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي، واستسلموا، فابعث بهم إليّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتُمثّل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإنْ قتلت حسيناً فاوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عات ظلوم...».

يقول الراوي: كان الوقت يقترب من غروب التاسع من محرّم، والحسين بن علي قد جلس خارج إحدى الخيم، وقد وضع يديه على ركبتيه ورأسه فوق يديه، واستسلم إلى النوم. في تلك اللحظات بالذات، كان عمر بن سعد قد أتمّ لتوّه قراءة كتاب ابن زياد، وإذا به ينطلق صائحاً:

«يا خيل الله! اركبي وبالجنة أبشري».

(يا لها من مغالطة ورياء وغش وخداع للرأي العام!)، وهكذا كما يقول الرواة فإن جند عمر بن سعد الثلاثين ألفاً الذين كانوا يُحيطون بمخيم الحسين من كل جانب، قد تأهبوا وهاجوا وماجوا كالطوفان، وبدأ صهيل الخيل، وجلجلة السلاح يُسمع في كل أنحاء الصحراء[1].

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٣٣ ـ ٢٣٤، بحار الأنوار ٤٥: ٤ ـ ٥.

كانت العقيلة زينب عليها السلام في هذه الأثناء، داخل إحدى الخيم، تراقب الوضع الصحي لزين العابدين عليه السلام، وإذا بها تسمع بهذه الأصوات، فتخرج على الفور لترى جيش العدو، وقد بدأ يشدّد الحصار على مخيم الحسين، فأتت على الفور إلى أخيها أبي عبد الله وهي تقول له: أُخيه انهض وانظر ماذا يدور حولك، ألا ترى وتسمع؟ انظر ما الخبر هنا!.

وينهض الحسين ويرفع رأسه من دون أن يعير أي اهتمام للعساكر ويقول لها بأنه قد كان لتوّه في عالم الرؤيا مع جدِّه الذي بَشّرهُ، بأنه عمّا قريب سيلتحق به، والله العالم فقط ماذا حلّ بزينب عليها السلام وكيف كانت تُعاني في تلك اللحظات!!.

الليلة هي ليلة عاشوراء، ليلة إذا ما دققنا جيداً بالحالة التي عاشها الحسين، وأصحاب الحسين، من شهداء كربلاء، فإننا سنعيش مزيجاً من شعورين مختلفين، فمرة ستلتهب مشاعرنا حماساً عندما نتذكر تلك الروح الشجاعة، والمعنويات العالية التي كانت تطبع سلوكهم، وتظهر عليهم جلية، في تلك الليلة، ولكن في أخرى فإن صعوبة الوضع، وقسوة الظروف التي حكمتهم، ستجلعنا نحزن، ونتأثر لحالهم تأثراً شديداً.

وكما تشير الدلائل المختلفة، فإن مقدار المعاناة التي تعرضت لها السيدة زينب عليها السلام، في تلك الليلة، لم يتعرض لها أحدٌ مثلها، وقد كانت من أصعب الساعات التي مرّت على العقيلة من أيّ وقت آخر في حياتها، ذلك أنها في يوم عاشوراء نفسه كانت عليها السلام قد استمدت قوة معنوية هائلة، من خلال رؤيتها لِما كان يدور حولها من مشاهد ترفع المعنويات وتقوّيها.

لقد حصلت في ليلة العاشر من محرم حادثتان مليئتان بالمشاهد المعنوية قلبتا أحوال العقيلة زينب، ورفعتا من معنوياتها تماماً، الأولى حصلت عصر يوم التاسع من محرم، والثانية ليلة العاشر.

ففي تلك الليلة وضع أبو عبد الله الحسين برنامجاً تعبوياً مفصلاً، حيث إنّ جزءاً من ذلك البرنامج، كان يتضمن القيام بمهمة تهيئة السلاح، وتجهيز القوات، بالتعاون مع أصحابه، فقد كان هناك رجل من أصحاب الحسين

مختصّ بصناعة الأسلحة يدعى ـ جون ـ أو ـ هون ـ وهو مولى سابق، حرره أبو ذر الغفاري، خصص له الحسين عليه السلام خيمةً، ليتولى فيها تهيئة السلاح، وصناعة السيوف، وكانت هذه الخيمة مجاورة للخيمة التي أقام فيها زين العابدين عليه السلام، حيث كانت ترعاه فيها عمته العقيلة زينب سلام الله عليها.

وكانت الخيمتان متجاورتين تماماً، وهو الأمر الذي أمر به أبو عبد الله عليه السلام أساساً، عندما طلب إلى أصحابه أن ينصبوا الخيم في تلك الليلة بحيث تتشابك الأطناب ببعضها البعض، لأسباب سآتي على ذكرها فيما بعد.

يقول الراوي وهو زين العابدين عليه السلام: إنّ عمتي زينب وبينما هي منهمكة في رعايتي الصحية، وإذ بنا نسمع أبي يدخل على خيمة ـ جون ـ صانع الأسلحة، ليرى سير العمل هناك، وبعدها بقليل نسمع أيضاً أبي عليه السلام وهو يُردد عدة مرات هذه الأبيات الشعرية بينه وبين نفسه:

يا دهرُ! أُفٍّ لَكَ من خليلِ كم لكَ بالإشراقِ والأصيلِ
وصاحبٍ، وطالبٍ قتيلِ، والدهرُ لا يقنع بالبديل
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ(١)

ويضيف زين العابدين عليه السلام هنا فيقول:

كنتُ أسمع صوت أبي بوضوح كما كانت عمتي تسمعهُ كذلك، وهكذا خيّم علينا صمتٌ ذو معنىً عميق، وغامضٍ، في نفس الوقت، وإذا بقلبي يمتلىء عذاباً ومعاناة، وكذلك قلب عمتي زينب، وكما فضلت عدم البكاء من أجل عمتي زينب، فإنها هي الأُخرى التزمت السكوت، ولم تبكِ خوفاً على حالتي الصحية، وقاومنا معاً لفترةٍ موجة العذاب النفسي، واندفاعه الرغبة بالبكاء، إلاّ أنّ عمتي زينب لم تستطع الصبر طويلاً، فانفجرت أخيراً بالبكاء (نعم فهي امرأة ومن شأن النساء الرقة)، وصارت تولول، وتنوح، وتبكي بصوت عالٍ، وتصرخ، وهي تقول: يا ليتني لم أرَ مثل هذا اليوم، ويا ليت الدنيا قد تداعت إلى الخراب، قبل أن ترى زينب مثل هذه الساعة.

---

(١) الملهوف: ص٣٣، الإرشاد للمفيد ٢: ٩٣، تاريخ الطبري ٥: ٤٢٠ ـ ٤٢١.

ثم توجهت وهي على هذه الحال لرؤية أبي عبد الله عليه السلام، فاقترب منها عليه السلام، وضمها إلى صدره، وصار يهدّئها ويعظها ويقول: أُخيه! لا يذهَبنّ بحلمِك الشيطان».

ما هذه الأشياء التي تقولينها؟! ولماذا القول بخراب الدنيا؟! وما شأن الدهر حتى تلعنيه؟! فالموت حق، والشهادة حق، والشهادة فخر وعزة لنا، فجدي النبي كان خيراً مني، وأبي علي، وأمي فاطمة، وأخي الحسن، كلّهم كانوا خيراً مني، وكلّهم رحلوا من قبلي، وأنا راحل أيضاً، مطلوبٌ منك أن تنتبهي، وتكوني أنت أميرة القافلة من بعدي، وتتولي بنفسك رعاية الأطفال من أهل بيتنا!.

فأجابته زينب، وهي لا تزال تبكي، برقةٍ قائلةً: ولكن يا أخي الحُسين، كل هذا صحيح ولكن كلما كنتُ أفقدُ واحداً منكم من قبل، كان يبق معي عدد منكم، أو واحد منكم على الأقل، كنتُ أُعزي نفسي ببقائه، وكان آخر من رحل هو الحسن، وكُنتُ أعزّي نفسي بك يا أخي! فإذا ذهبت فمن يبقى لزينب يُعزِّيها ويهدّىء خاطرها بعدك؟!.

وأمّا في عصر التاسع من محرم، وبعد أن كان أبو عبد الله، قد حدّث زينب بما رآه عليه السلام، في عالم الرؤيا، فقد نادى أخاه أبا الفضل العباس، وقال له:

«اركب أنت يا أخي حتى تلقى ـ العدو ـ وتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم إذا كانوا ولا بدّ يريدون الحرب معنا، فإن الوقت الآن هو وقت غروب، وهو ليس وقت حرب (من المعروف أنّ التقاليد السائدة آنذاك كانت تمنع حصول الحرب والمعارك، في مثل هذا الوقت، حيث كانت المعارك تدور من الصباح حتى الغروب، وبعدها يذهب الجند للراحة في مراكزهم، ومعسكراتهم).

وبالفعل فقد توجّه أبو الفضل العباس إليهم في نحو من عشرين فارساً، فيهم عدد من كبار أصحاب أبي عبد الله، منهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، وقال لهم: ما بدا لكم وماذا تريدون؟.

فردّ عليه عمر بن سعد قائلاً: «قد جاء أمر الأمير عبيد الله بن زياد أنْ نعرض عليكم أنْ تنزلوا على حكمه، أو نناجزكم».

فقال العباس: إذن انتظروا حتى أرجع إلى أخي أبي عبد الله، وأعرض عليه ما ذكرتم[١].

وبالفعل انصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين عليه السلام يُخبره الخبر، فقال له أبو عبد الله الحسين عليه السلام: نحن لسنا بأهل استسلام، وسنقاتلهم حتى آخر قطرة من دمنا، ما داموا قد أرادوا ذلك، ولكن ارجع إليهم فإنْ استطعت أنْ تؤخرهم إلى غد، وتدفعهم عنّا العشية لعلّنا نُصلي لربنا الليلة، وندعوه، ونستغفره، فهو يعلمُ أني كُنتُ أُحبّ الصلاة لهُ، وتلاوة كتابه، وكثرة الدُّعاء، والاستغفار.

ولولا العبادة والدعاء والاستغفار، فإنّ الساعات والأيام والحياة كلها لا تعني شيئاً لأبي عبد الله الحُسين عليه السلام، ولا يتصورنّ أحدٌ بأنّ التأجيل من أجل كسب مزيد من الفرص الحياتية.

ولما مضى إليهم أبو الفضل العباس، وطلب إليهم التأجيل، رفضوا في البداية، إلاّ أنّ خلافاً وقع فيما بينهم حول الأمر، وبادر أحدهم قائلاً:

ويلكم من أناس لا حياء لكم!! لقد كُنّا نُمهل الكفار في حروبنا معهم، فكيف بنا الآن ونحن نقاتل أهل بيت النبوة؟!.

الأمر الذي دفع عمر بن سعد إلى الرضوخ إلى مطلب التأجيل، ومخالفة أوامر ابن زياد العاجلة، والقاطعة، خوفاً على وحدة صفوف عساكره.

وهكذا رجع العبّاس من عند القوم، ومعه رسول من قبل عمر بن سعد، يقول: إنّا قد أجّلناكم إلى غد.

يقول الرواة: إنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام قد أمضى تلك الليلة بإشراق، ونورانية، وطمأنينة، ومعنويات رفيعة، وأحاسيس غير عادية تماماً، صدق الذين اطلقوا على تلك الليلة تسمية ليلة معراج الحسين.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤١٧، الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٥.

وفي تلك الليلة أورد أبو عبد الله خطبته الغرّاء المعروفة، حيث أَذِنَ لمَن يريد من أصحابه العودة من حيث أتى، وهو يقول لهم:

«. . . أمّا بعدُ: فإنّي لا أعلمُ أصحاباً أوفى، ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ، وأوصل، من أهل بيت! فجزاكم الله عني خيراً. ألا وإنّي لأظنُّ يوماً لنا من هؤلاء، ألا وإنّي قد أذنتُ لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم حرجٌ مني، ولا ذِمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذُوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سواد هذا الليل، وذروني وهؤلاء القوم، فإنهم لا يُريدون غيري. . . »[1].

لكن أصحاب أبي عبد الله كانوا قد مروا من الغربال ولم يبق منهم إلاّ الصفوة المختارة.

يقول الراوي: فردوا عليه جميعاً بصوتٍ واحدٍ: ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟! لا أرانا الله ذلك أبداً.

وقد بدأهم القول العبّاس بن علي عليه السلام، ومنهم من قال: والله يابن رسول الله لوددنا أننا قتلنا، ثم نشرت أرواحنا ألف مرة، وإن الله قد دفع القتل عنك، وعن هؤلاء الفتية من إخوانك وولدك، وأهل بيتك. أرواحنا فداك يا أبا عبد الله!.

ونحن نتحدث عن أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا بد لنا أن نذكر في هذه الليلة، ذلك الشاب اليتيم، القاسم بن الحسن عليه السلام، ونتوسل الخير من ذكره في ليلة عاشوراء.

أقول: وبعد أن رأى أبو عبد الله الحسين عليه السلام، ذلك الوفاء، والتصميم على الفداء، لدى أصحابه، وأهل بيته، غيّر مجرى الحديث، وقام بكشف وجه آخر من الحقيقة لهم بقوله: إذن لا بد من إبلاغكم بهذه الحقيقة، وهي أنّه سوف لن يخرج أحدٌ منّا غداً سالماً، من هذه المعركة، وأننا سنستشهد جميعاً.

---

(١) مقتل الخوارزمي ١ : ٢٤٦، الملهوف: ٧٩.

فاستبشر جميع الحاضرين خيراً، واعتبروا هذه البشارة نعمةً إلهية خصّهم الله بها دون غيرهم.

أحد الأخوة الحاضرين يذكّرني الآن بأمر هام، فالمعلومات الواردة من خارج البلاد، تُشير إلى أنّ اثنين من كبار أمتنا هما حضرة آية الله العظمى السيد الحكيم وآية الله العلامة المجاهد صاحب كتاب «الغدير» العلامة الأميني، مريضان، ويرقدان في المستشفى.

ولمّا كان من واجبنا الدُعاء لكل المؤمنين والمؤمنات، لا سيما لقادتنا ووجهاء أمتنا.

فإننا نسألُ الله بحق الحسين بن علي، وبحق روح وقلب القاسم بن الحسن، أن يرزق العالمين المذكورين، وكل المحبين من أمتنا الشفاء العاجل.

وقد كان من بين الحاضرين، كما أشرنا، ذلك الفتى اليافع الصغير، الذي لم يناهز عمره الثالثة عشرة، فعندما يسمع بتلك البشارة من أبي عبد الله، يساوره الشك فيما إذا كانت هذه البشارة، تصدُق عليه أيضاً، أم إنّها ربما كانت مخصصةً للكبار فقط.

طبيعي أنْ يراود مثل هذا الفكر ذلك الفتى اليافع، فهو بهذه البشارة من جهة، وهذه الأفكار من جهة أُخرى، قد ساوره القلق، والاضطراب الشديدان، ولذلك تراهُ أطل برأسه من بين الجمع، ونادى عمهُ متسائلاً: «يا عمّاه! وأنا فيمن يُقتل؟».

لكن الحسين بن علي نظر إليه نظرةً رقيقةً، لطيفةً، وقال له: يابن أخي! أُريد أن أسألك أولاً، فأجبني، ثم أُجيبك على سؤالك هذا!.

فقال له القاسم: تفضّل يا عمّاه!.

قال: ما طعم الموت عندك؟.

فردّ الفتى على الفور: عمّاه! «أحلى من العسل!»[1].

---

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٨٤٨، نفس المهموم: ٢٣٠.

(أي إنّه أراد أن يقول لعمّه، إنما سألتُك ليس خوفاً من الموت، بل خوفاً من عدم حصولي على مثل تلك النعمة ـ الشهادة ـ).

وعندها قال له أبو عبد الله: نعم يابن أخي! إنّك فيمن يُقتل، ولكن بعد أن تَبلو بلاءً شديداً، وتُعاني من آلامٍ شديدة.

لكن أبا عبد الله لم يوضح نوع البلاء والآلام التي سيتعرض إليها القاسم عليه السلام، غير أن ما وقع للقاسم يوم عاشوراء قد أوضح المعنى المقصود.

فالقاسم عندما يبرز في اليوم العاشر إلى الميدان، لم يكن لدى معسكر الحسين اللباس المناسب الذي يلبسونه لهذا الفتى، وكل ما يتعلق بوسائل الحرب هو أكبر منه، لكنه القاسم وهو ذلك الشبل الشجاع، الذي لم يتوان عن المبارزة، ومقاتلة الأعداء، حتى يتلقى ضربة غادرة أصابت مَفْرِقَه، وأسقطته عن فرسه على الأرض.

أمّا عمهُ الحُسين عليه السلام، فقد كان متأهباً واقفاً على باب الخيمة، وهو يُمسك بلجام فرسه، وكأنه ينتظر نداء النجدة من إبن أخيه، وفجأةً سمع ذلك الصوت من بعيد يلف الفضاء: عمّاه إني راحِلٌ فتلقاني.

يقول الراوي: فجاء الحسين كالصقر المنقض، فتخلل الصفوف، وشدّ شدة الليث في الحرب، فضرب عمراً قاتل القاسم بالسيف، فاتقاه بيده فاطنّها من المرفق، فصاح ثم تنحّى عنه، وحملت خيل أهل الكوفة (يُقال في حدود مئتي فارس) ليستنقذوا عمراً من الحسين، فاستقبلته بصدورها، وجرحته بحوافرها، ووطئته حتى مات.

فانجلت الغبرة، فإذا بالحسين قائمٌ على رأس الغلام، وهو يفحص برجله، وهنا سُمع صوت الحُسين يقول لابن أخيه: «عزيزٌ على عمِّك أن تدعوه فلا يُجيبك، أو يُجيبك فلا يَنفعُكَ».

ويُضيف الراوي: ثم احتمله، فكأني انظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض، وقد وضع صدره على صدره، والقاسم يتوجع من شدة الألم ويضرب برجليه في الأرض، وهو في هذه الحال: «فشهق شهقةً فمات».

نعم، في هذه الأثناء، كان أبو عبد الله الحسين يجري بالقاسم نحو المخيم، ويُلقيه بين قتلى أهل بيته، إنه لأمر عجيب وعظيم أيضاً!!.

فعندما خرج القاسم يُريد المبارزة، تراهُ يستأذن الحسين، ويتوسّل إليه، ولا يُريد أبو عبد الله أن يأذن له في البداية، لكنه وبعد أن يأذن له، يخرجان متعانقين، وكما يقول الراوي: وجعلا يبكيان حتى غُشي عليهما.

ولكن ها هي اللحظات الأخيرة من عمر القاسم، وهو مرخي اليدين، وقد ضمّه الحُسين إلى صدره، وهو مسربل بالجراح وصعدت روحه إلى السماء عليه السلام، دون أن يتمكن من معانقة عمّه مرة أُخرى.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين، وسيعلم الذين ظلموا آل بيت محمد أي منقلبٍ ينقلبون.

المحاضرة السادسة

نتائج القول في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله، وحبيبه وصفيّه، وحافظ سرّه، ومُبلّغ رسالاته، سيّدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين(١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢).

في المحاضرات الخمس الماضية، تحدثت إليكم حول «عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية»، وفيما يلي أُقدم تلخيصاً لنتائج تلك الموضوعات كافة.

لقد قلنا قبل كلّ شيء إنّ الإسلام لا يضع حدّاً معيناً يُحدِّد فيه باب الأمر

(١) أُلقيت هذه المحاضرة بتاريخ ١١ محرم الحرام ١٣٩٠هـ. ق.
(٢) التوبة: ١١٢.

بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأهداف الإسلامية الإيجابية بأجمعها تدخل في عداد المعروف، كما أن الموضوعات السلبية كافة في الإسلام، تدخل في عداد المنكر، صحيح أنّ مدار البحث في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتلخص في تعبير الأمر والنهي، لكنه، ونظراً للقرائن التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم نفسه واستناداً إلى الأحاديث الإسلامية المؤكّدة، وتأسيساً على مسلّمات فقهنا الإسلامي، وبشهادة تاريخنا الإسلامي، فإن المقصود ليس الأمر والنهي اللفظيّين فحسب، بل إنّ المقصود هو الاستفادة من كلّ الوسائل المشروعة في سبيل تطبيق الأهداف الإسلامية وتدعيمها وترسيخها في المجتمعات، وهذه هي الروح الحقيقية لواقع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ما أُريد عرضه بإيجاز عليكم في هذه المحاضرة هو نتائج قولنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكما ذكرت لكم في المحاضرات السابقة فإنّ هذا المبدأ هو واحد من أركان وأُسس التعاليم الإسلامية، وإنّه ركن يتأكد موقعه من خلال النصّ الصريح في المتون الإسلامية، وحديث النبي الأكرم ﷺ وذهابه يعني ذهاب وضياع التعليمات الإسلامية كافة.

وأيّة عملية نسخ لهذا المبدأ، تعني عدم وجود المجتمع الإسلامي، وعدم قيامه بالصورة المطلوبة له أن يكون.

فما هو سجلّنا في هذا الباب؟.

للأسف يجب القول بأنّ سجلّنا نحن المسلمين في هذا المجال ليس سجلاً مشرِّفاً، وهو سجلٌ غير مشرق.

أوّلاً: لأننا لم نبدِ في هذا المجال، تلك الحساسية الخاصّة التي يُبديها الإسلام تجاه هذه الموضوعات، أي إننا لم ندرك تلك الأهمية التي أولاها الإسلام لهذا الموضوع.

وثانياً: لأننا وعلى الرغم من تحسسنا لأهمية هذا الموضوع ترانا رغم ذلك لم نكن نحمل شروط العمل بتلك الموضوعية.

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ النبي الأكرم ﷺ عرّف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتعبير: «كُلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيته»[١]، أي أنّكم أنتم يا أفراد الأُمّة الإسلامية جمعاء إنّما تقع عليكم فرداً فرداً، مسؤولية حراسة الآخرين من أبناء أُمّتكم، كما أنّكم مسؤولون عن بعضكم البعض.

وهو تعبير لا نجد أرفع منه، فهو تعبير جامع يخلق نوعاً من المسؤولية والالتزام المشترك بين أفراد الأُمّة المسلمة للمحافظة والدفاع عن المجتمع الإسلامي على قاعدة التعاليم الإسلامية.

والقيام بمهمة خطيرة كهذه المهمة بحاجة أولاً وقبل كلّ شيء إلى كسب المعرفة والاطلاع، أي إن الفرد أو المجتمع الجاهل، لا يمكنه إنجاز مثل هذه المهمة بشكل جيد وثانياً إلى امتلاك القدرة والإمكانيات اللازمة.

إنّ القيام بمثل هذه المسؤولية الخطيرة، والعمل بمثل هذا التكليف الكبير جداً، يحتاج إلى القدرة والقوة ونحن المسلمين لم نحصل ولم نكتسب بعد القدرة والقوة اللازمتين لمثل هذا الموضوع، ونحن نمتلك مثل هذه الطاقات ـ القوة ـ ولكننا لم نجمعها ونحوّلها إلى قوة بالفعل.

إنّ الإحصائيات الدقيقة والصحيحة تشير إلى أنّ تعداد المسلمين في العلام يبلغ حوالي الـ (٧٠٠) مليون نسمة[٢]، فكيف يمكن القول بأنّ مثل هذا العدد الكبير لا يستطيع تكوين قوة عظمى في العالم؟!.

فلو أنّ مثل هذا العدد الكبير فكّر في تنظيم نفسه، وقرّر أن يضع الأهداف والمثل الإسلامية نصب عينيه، وعزّز التضامن الإسلامي بين أفراده وقوّى من أواصر التكاتف الإسلامي، ووسّع من شبكة الاتصالات فيما بين قواه وتشكيلاته الداخلية، فإنّه من غير الممكن أن لا يحسب له العالم حساباً خاصاً، كما هو حاله اليوم.

ففي هذه الحالة يكون من المستحيل أن لا تحسب أمريكا لمثل هذه القوّة

(١) الجامع الصغير، للسيوطي: ٩٥.
(٢) لقد تجاوز تعداد المسلمين الآن المليار نسمة.

حساباً خاصاً، وتستمر في انتهاك أراضي العالم الإسلامي باستمرار، وكذلك من المستحيل أن لا يحسب الاتحاد السوفياتي بدوره، حساباً لمثل هذه القوة الجديدة.

نعم، بشرط أن تظهر هذه القوة، وتبرز بشكل منظّم، وليس بصورة قوى صغيرة متناثرة، وشعوب تسودها الفرقة والاختلاف، وتشيع وسطها دوماً موجات التنافر والانشقاق، وتفتقر إلى أبسط أنواع التفكير المتعلق بشخصيتها الواقعية وهويتها المعنوية.

إنّ سجلنا نحن المسلمين في مجال التكاتف والتعاون الإسلامي، في مجال التعارف (بالتعبير القرآني)، أي معرفة أحدنا الآخر، والاطلاع على أحوال بعضنا البعض، والإحساس بالمصير المشترك فيما بيننا سجلّ ضعيف، وضعيف جداً إن لم نقل بظلمته وشينه.

لأنني أُريد الحديث في هذا الموضوع بالإجمال والإشارة لذلك اكتفي بالقول:

إذا أراد الواحد منّا معرفة وضع سجلنا في هذا المجال، فما عليه إلاّ أن يُراجع أعمالنا في مجال العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي التدقيق في مظاهر فعلنا وتنفيذ لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فماذا سيرى؟.

نحن ندّعي بأننا نقوم بمهمة التبليغ بمثابة نوع من أنواع الخدمة للإسلام، ونحن نقيم المجالس الخاصة بالتبليغ في كلّ يوم، دعونا نراجع بدقة سير عمل هذه المجالس التبليغية والإرشادية، لنرى الكم العام المبذول في هذا المجال والمستوى الذي تطرح فيه القضايا، ومن ثم نوع القضايا التي عادة ما يتم طرحها في مثل هذه المجالس؟ ثمّ إن المظهر الآخر من مظاهر التضامن الإسلامي الموجود بيننا نحن المسلمين وأحد أشكال وحدتنا، وقيامنا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو نشر الكتب الإسلامية.

وفي بلادنا الآن لا يزال الكتاب الإسلامي والديني هو الكتاب الأوّل في

مكتباتنا ودور نشرنا، ولكن دعونا نتحقق من مستوى هذه الكتب، ونُدقق في قيمتها المعنوية، بل وننظر في مستوى الكُتّاب المتصدّين لهذه المهمة.

ثمّ لنتمعّن بعد ذلك في أهداف هذه الكتب ومضمونها، فما هو المستوى الذي يتم من خلاله مخاطبة المسلمين؟ أي ما هو المستوى وما هو المقام، أو الدرجة التي تتراوح فيها قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وأي من المسائل الاجتماعية الإسلامية هي التي تشغل فكرنا، وتأخذ من وقتنا أكثر من غيرها؟ وتجاه أي نوع من القضايا نحن أميل في إبراز انزعاجنا، أو إبداء الحساسية الخاصة في معالجتها؟ ثمّ تجاه أي نوع من القضايا تُرانا نقف موقف اللامبالاة والاستهتار؟.

عندما نتحقق من كلّ الأُمور عندها سيصبح بإمكاننا تقييم تطورنا الاجتماعي ومستوى تطور قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتالي تشخيص سجلنا في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد كانت لنا حضارة عظيمة جداً نحن المسلمين طوال الأربعة عشر قرناً الماضية ـ من ضمنها تلك العصور الذهبية التي دامت حوالي الستة قرون ـ وقد تطرّق بعض الخطباء، من علماء الاجتماع هنا في هذا المكان إلى مثل هذا الموضوع، وتحدثوا لنا عن مدى القيمة البالغة للحضارة الإسلامية وأصالتها.

في الجزء الثاني من كتاب «محمد خاتم النبيّين» استطاع المؤلف في أحد فصول الكتاب تحت عنوان «سجلُّ الإسلام» أن يؤكد على حقيقة أصالة الحضارة الإسلامية، وكون الحضارة إنما تنبع في الواقع من الإسلام فقط، وأنها تعتبر في عداد أهم الحضارات الكونية، وأنّه قد ورد ذكر الحضارة الإسلامية في عداد الحضارات الثلاث أو الأربع الأساسية من الطراز الأوّل في العالم مثلاً.

وإذا كان الأمر كذلك، فأنا أسأل هنا: ما هو مقدار تحسسنا، واهتمامنا تجاه هذا الموضوع؟ وكم هو نشاطنا وحجم الفعاليّة المبذولة من قبلنا في سبيل الترويج لحضارتنا وتراثنا؟.

إنّ شبابنا يتصوّرون أنّ الإسلام لم يُقدم شيئاً منذ انتشار الدعوة حتى يومنا

هذا، في الوقت الذي كان على الدوام الدليل العملي لسلوك الناس وأعمالهم! لكننا لا نعرف شيئاً حتى عن كتبنا.

ولو سُئلنا عن اختراعات المسلمين في عالم الرياضيات لما استطعنا الإجابة عن حقيقة مثل هذا الأمر.

كل ما هُنالك أنّ بعض الغربيين قد تحدّثوا عن مثل هذه الموضوعات بشكل يضمن مصلحتهم العامّة، ولكن لحسن الحظ فإن هناك عدداً من العلماء الإيرانيين الذين قاموا ببعض التحقيقات والمطالعات في هذا المجال وقد توصلوا إلى نتائج واكتشافات بالغة الأهمية، وأثبتوا بدقة بأنّ كثيراً من النظريات التي يدّعي العالم الغربي اكتشافها واختراعها، إنّما قد وضعت في الواقع في العالم الإسلامي.

إنّنا نجهل تراثنا في الحقول الحياتية الأُخرى أيضاً، كحقل الفنن والصناعات الجمالية والفلسفة والفيزياء والكيمياء والتاريخ. فنحن نجهل حقيقتنا الماضية كما نجهل حقيقة وضعنا الراهن.

لقد قرأت بالأمس خبراً في الصحف يُبيّن بالضبط مستوى تطورنا ورُقيّنا وإن السادة الذين تشرفوا بزيارة مدينة مشهد المقدّسة والذين يبدون اهتماماً ولو بسيطاً بمثل هذه المواضيع وسبق لهم أن زاروا المكان الذي توضع فيه المصاحف النفيسة داخل الحرم الرضوي المقدّس، والمعروف بمتحف الحرم الرضوي، قسم المصاحف النفيسة فإنهم لا بدّ رأوا تلك المصاحف الخطّية النفيسة جداً، والتي يعود تاريخها إلى ما قبل عشرة أو أحد عشر قرناً من الزمان.

إنّ بعض تلك المصاحف يوجد فيه جوانب من العمل الفني أو الجمالي الفائق للتصور، وكما يقول المشرف على هذا القسم: فإنّ واحداً من هذه المصاحف قد تم تخمين قيمته المادية فقط في حدود خمسة ملايين تومان فمن كتب هذه المصاحف؟.

إنّ الذين كتبوا أو ساهموا في إخراج هذه المصاحف بتلك الهالة الجمالية أو شاركوا في صناعتها الخطية كالتذهيب أو ما شابه ذلك ترى فيهم الإيراني والتركي والمغولي والعربي والهندي، المهمّ أنّ الذي كان يدفع كلّ هؤلاء إلى

الإبداع في هذا المجال هو الإسلام، وحسّهم الإسلامي، أي إنّ الروح الإسلامية هي التي تقف وراء كلّ تلك الإنجازات.

بالأمس قرأنا جميعاً في الصحف، أنّه تم اكتشاف مصحف يُقدّر ثمنه اليوم بحوالي الثلاثة ملايين تومان، وهل تعرفون أين وجد هذا المصحف؟.

لقد تمّ العثور عليه في أحد صناديق الأوراق القديمة، أي إنّ المصاحف المخطوطة كانت توضع بين أيدي القراء طوال القرنين، أو الثلاثة الأخيرة، حتى يقرأ فيها الناس من أجل الحصول على الثواب دون أن يفهم هؤلاء المساكين قيمة هذه المصاحف، فكان المصحف يقع بيد الأطفال مثلاً، أو يقع بيد أفراد غير ملتزمين وبالتالي فإنه كان يتحول تدريجياً إلى أشبه ما يكون بالأوراق البالية فيُحفظ مع سائر الأوراق القديمة، ويُدفن خارج المدينة مع أكوام الورق والسلع البالية. ولحسن الحظ، فإن المصاحف المُعدة للدفن قد تم العثور عليها في داخل أكياس من الورق القديم، أُريد لها كما يبدو أن تدفن مع أكوام من النفايات.

لكنه كما يبدو فقد صادف أنّ أحد الفضوليين، قد ذهب وفتش بين تلك الأكوام، وتمكن من جمع ما يُقارب ألفاً ومئة نسخة من هذه المصاحف القديمة، والتي يُقدر الواحد منها بحوالي ثلاثة ملايين تومان.

فهل لاحظتم مقدار اهتمامنا ووعينا لتراثنا الثقافي والحضاري! قسماً بالله لو أننا نبكي دماً على حالنا لكان ذلك قليلاً، فلماذا يكون سجلنا نحن الشعب في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى هذا الحد مُزرياً ووضيعاً؟.

أتعرفون ماذا يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ إنّه يعني التعاضد والتضامن والتعاون والنضال المشترك والتعارف واكتساب الوعي والقدرة.

وعندما يتمّ طرح هذا المبدأ منذ اليوم الأوّل كدعامة من دعائم ديننا، فإنّه إنما يُطرح لأنّ ديننا دين اجتماعي، وليس ديناً فردياً، ولا هو دين الصوامع والأديرة.

إنّ الذين أمضوا عمراً طويلاً في الصوامع والأديرة يتجهون اليوم نحو

التشكّل والتضامن والتعاضد، فكيف بنا نحن المسلمين الذين نملك ذلك الدين الاجتماعي، دين الحياة والتعاون والوحدة والتضامن!.

أترانا ذاهبين حقاً باتجاه العزلة والانعزال والتفرقة والانفصال!.

إنّ ديننا ودستورنا يدعوننا إلى امتلاك الوعي والمعرفة، بل وإلى التنبؤ واستنباط المستتر والمخفي من حوادث المستقبل، في حين أننا نعيش الآن في وضع، وليس فقط لا نعرف فيه ماذا يُخبىء لنا المستقبل، بل إننا نجهل حتى حقيقة الأوضاع التي نعيشها في الوقت الراهن!.

وإمامنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال قبل ثلاثة عشر قرناً: «العالِمُ بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»(١).

أي إنّ الأُمّة التي لا تعرف الحقائق المحيطة بها أُمّة مُعرضة على الدوام لارتكاب الأخطاء والانحراف على النهج القويم.

وبالتالي فإنّها بدلاً من الانقضاض على العدو ستعمل على نهش كيانها، وبدلاً من ضرب العدو، وإلحاق الجراح به، تراها تُدمي قلبها، وتسودّ سجّلها هي.

نعم، أُمّه تهيم على وجهها في التيه والضياع. وهذا هو حالنا اليوم وهذه حقيقة سجلّنا!.

في الجلسات السابقة حدثتكم عن قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأدركنا كيف أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد رفع من قيمة النهضة الحسينية وكذلك كيف أنّ النهضة الحسينية بدورها قد رفعت وعزّزت أهمية وقيمة موضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والآن ماذا علينا أن نفعل حتى نصبح نحن أُمّة رفيعة المقام وأُمّة معتبرة يُحسب لها حساب بين الأمم والشعوب؟.

إنّ هذا السؤال قد أجاب عنه القرآن الكريم، عندما ورد في ذكره تعالى:

(١) الكافي ١: ٢٧، تحف العقول: ٣٥٦، واللبس ـ بالفتح ـ: الشبهة، أي لا تدخل عليه الشبهة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، نعم، ولكن بشرط ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١).

فهل تريد حقّاً ـ يا أخي ـ أن تمنح نفسك قيمة واعتباراً؟ هل تريد أن ترفع من مقامك لدى رسول الله؟.

إنّه لا يتم لك ذلك إلاّ بالعمل بهذا الأصل، وعند ذلك تحفظ مقامك عند الله وعند رسوله، وإذا ما أرادت أُمّتنا أن يُحسب لها حساب بين الأُمم والشعوب العالمية وأن يحترمها المعسكر الشرقي كما يحترمها المعسكر الغربي، فإنّ عليها أن تخرج نفسها من التبعية لهذه القوى وتمتلك الحاكمية المستقلة وتقرر مصيرها بنفسها، أي أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُعزّز أُسس التضامن والتكاتف والأُخوة، وتُحيي التكافل الأخوي فيما بين صفوفها، وترمي جانباً كلّ مظاهر الجهل والضعف واللامبالاة.

فالجهل إنّما يُفقد الأُمّة مقومات الشعور والاطلاع على حقائق الزمان، واللامبالاة إنّما تجلب للأُمّة الضعف والهوان والارتهان.

ثمّ هل يكفينا أن نجلس هنا ونقول: إنّ عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان عاملاً هاماً من عوامل النهضة الحسينية وإنّه أعطى زخماً كبيراً للحسين عليه السلام.

وإنّ الحسين بن علي عليه السلام في ترجمته لهذا العامل بالعمل إنما رفع من قيمة هذا العامل.

وإنّ الإسلام قد منح أهمية بالغة لموضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبرها دعامة أساسية من دعائم الدين والتعاليم الإلهية.

وإنه لا قيمة لسائر التعليمات الدينية الأُخرى بدون هذا الأصل والركن الديني الهام.

وهل يجوز لنا أن نكتفي بهذا أم أنّ كلّ هذا صحيح، ولكن علينا أن

(١) آل عمران: ١١٠.

نعرف ما هو المطلوب منّا في الوقت الراهن؟ وهل يجوز لنا الاكتفاء بالحديث عن الماضي؟ أم أنّ الحديث عن الماضي لا ينفع دون البحث عن المستقبل؟.

علينا أن نصل بين الماضي والمستقبل، ولا بد من الاستفادة من برنامج النهضة الحسينية في هذا المجال إذ ينبغي توعية الناس، وتوجيههم الوجهة الصحيحة في التبليغ والدعاية والإعلام والترويج، سواء أكان ذلك بواسطة كتابة الكتب أو قراءتها أو مطالعتها، لكي نُشخص نوع التفكير المطلوب، ونوع التعاطف والالتزام المطلوب من قبلنا.

فلننظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام والحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ونرى نوع القضايا التي كانا يتحسّسا تجاهها ويتعاطفان معها، حتى نهتم نحن ونتعاطف مع تلك القضايا والمسائل.

ولنسأل أنفسنا لماذا يا ترى كان أئمتنا يتعاطفون مع قضايا ومسائل غير تلك التي نتعاطف معها، ونتحسس تجاهها اليوم؟.

وانطلاقاً من هذا الموقع أيضاً ينبغي لنا أن نتعلم كيف ننفق أموالنا وأين نستثمرها؟.

فهل قمنا نحن بأي تطور يُذكر في هذا الاتجاه؟ وهل ترانا نعرف ماذا يعني الإنفاق في سبيل الله في مثل أيّامنا هذه؟.

والله إنّي أخاف أن يكون الضرر الذي نُلحقه بالمجتمع، أو الإساءة التي نوجهها نحن للإسلام بسبب فعلنا لعمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصورته المغلوطة، أكثر من الضرر الناتج عن تركنا لهذا الواجب.

ولو جئنا اليوم لنحسب مجموع الفوائد والأضرار الناتجة عن حركة تأليفنا ونشرنا لكتبنا الإسلامية الراهنة، لا أدري هل سيكون حجم الفائدة فيها هو الأكثر أم حجم الضرر؟.

كما أنني لا استطيع كذلك القطع بشكل دقيق فيما إذا كان حجم الفوائد المتأتية من الطرق الفعلية المتبعة في إنفاق الأموال، بما فيها تلك الطريقة التي نسميها قربة إلى الله هو الأكثر أم أنّ ضررها للإسلام أكثر من نفعها؟.

وهذا القرآن الكريم يُصرّح بوضوح بأنّ الإنفاق على نوعين:

فإمّا أن يكون إنفاقاً يُثاب عليه كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾(١)، بل أكثر من ذلك أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

أو إنفاقاً في اتجاه يُعاقب عليه كما ورد في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾(٢).

فإذا أردنا أن نُعطي أنفسنا القيمة والدرجة اللائقتين بالمؤمنين، ونكتسب الاحترام والتقدير عند الله ورسوله، ونحصل على اعتزاز شعوب العالم، واحترامهم لنا، ليس أمامنا سوى إحياء هذا الأصل والمبدأ الإسلامي.

هل سألنا أنفسنا لو كان نبي الإسلام حياً يعيش بيننا اليوم ماذا كان سيفعل؟ وبماذا كان يفكر؟.

والله وبالله؟ أُقسِمُ، بأنّ النبي الأكرم ﷺ إنّما يرتعش جسده المقدّس الآن وهو في قبره من اليهود وأعمال اليهود!.

وهذه مسألة لا تقبل التأويل إنّها مسألة منطقية واضحة للغاية وإنّها مسألة حسابية بسيطة، ومن يرفض التصريح بها يرتكب إزاء ذلك ذنباً، وإنّني والله لو رفضت التصريح بها إنّما ارتكب ذنباً وكل خطيب أو واعظ لا يُصرّح بهذه الحقيقة، فإنّه مرتكب للذنب حتماً.

فناهيك عن الجانب الإسلامي للقضية أتعرفون ما هو تاريخ القضية الفلسطينية.

إنّ قضية فلسطين ليست منحصرة بكونها قضية تتعلق بدولة من الدول الإسلامية، إنّها قضية شعب أُخرج من بيته ووطنه بالقوة نتيجة حركة قلم خفيفة من متنفذ بريطاني هو «بلفور»(٣)، فما هو تاريخ فلسطين؟.

---

(١) البقرة: ٢٦١.

(٢) آل عمران: ١١٧.

(٣) وزير خارجية بريطانيا، وقد أطلق وعده المشؤوم هذا في عام ١٩١٧م.

إنّهم يدّعون أنّه وقبل ثلاثة آلاف عام قد حكم اثنان من جماعتهم بشكل مؤقت هذه البلاد وهما داود وسليمان!.

اقرأوا التاريخ، وانظروا متى كانت بلاد فلسطين على امتداد ألفين أو ثلاثة آلاف عام مضت ملكاً لليهود؟.

أو متى كان القسم الأعظم من أرض فلسطين ملكاً لليهود؟.

هل كانت فعلاً المساحة العظمى من بلاد فلسطين ملكاً لقوم يهود؟.

إنّها والله لم تكن ملكاً لهم، لا قبل الإسلام ولا بعد الإسلام؟.

وفي اليوم الذي فتح فيه المسلمون أرض فلسطين، كانت فلسطين تحت تصرف المسيحيين، وليس تحت تصرف اليهود، وبالمناسبة فإنّ المسيحيين الذين عقدوا الصلح مع المسلمين بعد الفتح قد وضعوا بنداً في معاهدة الصلح المذكورة يشترط على المسلمين بعدم السماح لليهود بالدخول إلى فلسطين أي إنّهم قالوا للمسلمين بأنّهم مستعدون للتعايش معهم، ولكن غير مستعدين للتعايش مع اليهود! فكيف، ومن أين جاءت هذه التسمية فجأة، وتم إلصاقها بهذه البلاد، وصارت الوطن القومي اليهودي؟ إنّه الظلم ووسائله...

إنّ واحدة من القضايا التي تسوّد سجل قرننا الحاضر وتجعله مظلماً (هذا القرن الذي اكتسب لقب قرن حقوق الإنسان وقرن الحرية والإنسانية كذباً وزوراً)، هي هذه القضية.

فيهود العالم وبعدما تعرضوا له من عذاب ومحنة ومعاناة على أيدي شعوب غير إسلامية في روسيا وألمانيا وبلاد أُخرى كثيرة جلس كبرائهم مجتمعين في مؤتمراتهم وصاروا يقولون: ما دمنا متفرقين وموزعين في الشتات، فإننا سنظل أقليات لا قيمة لها في العالم، ويظل مصيرنا هكذا مجهولاً، ولا بدّ لنا من مركز نختاره لأنفسنا لنجتمع فيه، ونلمّ حوله شمل اليهود من أنحاء العالم.

ولم تكن أرض فلسطين في مخيلتهم في بادىء الأمر، بل ذهبت بهم الخيارات إلى أماكن أُخرى، إلى أن وقعت الحرب العالمية الأُولى (بالطبع فأنا أسرد لكم هنا مُلخصاً لهذا السياق التاريخي، ومن يريد المزيد عليه أن يطالع

بعض الكتب التاريخية التي تناولت هذه المواضيع بالتفصيل)، واندلعت الحرب بين الحلفاء والعثمانيين.

ولست هنا بصدد الدفاع عن العثمانيين، ولكنها على أية حال كانت تمثل دولة مركزية للمسلمين ولو هشّة، حتى وإن كانت ظالمة، لكنها بالتالي دولة مركزية.

وما كان من وجهاء العرب السذّج آنذاك، والذين كانوا قد طفح الكيل بهم لتصرف العثمانيين إلاّ أن رضخوا لتحريك الحلفاء لهم ضد العثمانيين، وبدأوا بشن الحرب الداخلية ضد الحكم العثماني، أملاً بالحصول على الاستقلال الذي وعدهم به الحلفاء.

كان الإنجليز قد قطعوا عهداً على أنفسهم بمنح الاستقلال للعرب، شرط وقوفهم إلى جانب الإنجليز ضد العثمانيين في الحرب، وقاتل أولئك البسطاء المساكين.

نعم، وبينما كان أولئك التعساء الجهلة يقاتلون بدون وعي ضد حكومتهم المسلمة ولو نسبياً، كان الإنجليز قد عزّزوا تحالفهم مع الحركة الصهيونية الناشئة، ودعموا ذلك التحالف بوعد قدموه للصهاينة، بأن تكون فلسطين لهم ما بعد الحرب، وطناً في قلب العالم الإسلامي.

وتشكّلت عصبة الأُمم (لاحظوا العدالة!) التي أقرّت بوجود أمم قاصرة وغير نامية (لا سيما تلك الأُمم التي انفصلت عن الدولة العثمانية) وأمرت بتعيين ولي وقيّم يرعى شؤونها، أي أن تصبح تحت الانتداب والحماية الخارجية.

وفي الحقيقة فإنّهم أرادوا اقتسام إرث الدولة العثمانية فيما بينهم وهكذا منحوا قسماً من تلك البلاد إلى الفرنسيين بينما منحوا القسم الآخر إلى بريطانيا.

ومن جملة ما أُعطي لبريطانيا كانت فلسطين، وخرجت بريطانيا بعد الحرب لتقول لأهل فلسطين: أنا القيّم والولي عليكم! ومن ثمّ منحت هذه الأرض إلى الصهاينة بوعد رسمي من الدولة البريطانية وهو الوعد المعروف في التاريخ باسم (وعد بلفور).

فهل تعرفون من هم هؤلاء الصهاينة؟.

إنّهم مجموعات من اليهود غير متجانسة الأُصول، عاشت منذ عشرات القرون في أنحاء مختلفة من بلاد العالم ولا يجمع بينها حتى العرق القومي، فهم من أعراق متباعدة.

لقد كنت أتصور أنّ اليهود الموجودين في العالم جميعاً من نسل «إسرائيل»! لكنني الآن اكتشفتُ أنّ التاريخ يُشكك في هذه النظرية، بل إنّه يثبت أنّ هذا الادعاء كذب، وتحريف للتاريخ.

فكثير من اليهود لا علاقة لهم بنسل «إسرائيل»، وإنّ النقطة الوحيدة التي تجمع بين كلّ ذلك الشتات هي النقطة المذهبية فقط.

وإنَّ أعراقهم لم تعدّ أعراقاً يهودية خالصة.

وملخص القضية أنّ اليهود المنتشرين في أطراف الدنيا وأكنافها استغلّوا العذابات، والمعاناة التي ألحقها بهم الغربيون، وصاروا يبحثون عن مركز لهم، بعيداً عن مواقع المعاناة، والشتات تلك ليُقيموا عليها سلطتهم.

ولمّا كانوا قوماً تتأصل في وجودهم الروح الخيانية، وتسمح لهم كتبهم بفعل ما يشاؤون من أجل تحقيق أهدافهم، حيثما نزلوا ولو توسلوا بكل الوسائل الممكنة بعيداً عن الرحمة والإنسانية، فإنّهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا أدواتٍ لتنفيذ ذلك المأرب الصيهوني القذر، وبمساعدة الإنجليز الذين وفروا لهم وسائل وإمكانات الهجرة، واغصتبوا شيئاً فشيئاً الأراضي الفلسطينية، وتسلطوا على تلك البلاد، وأهلها بما فيهم يهود فلسطين، الذين لم يكن تعدادهم يتجاوز الخمسين ألفاً، وهم جماعة من الفقراء المساكين الذين لا يزالون حتى الآن يعاقبون من يهود أوروبا وأمريكا الذين جاؤوا إلى بلادهم، وأضافوا إلى معاناتهم معاناة جديدة، بينما هم من سكان فلسطين الأصليين كما يزعمون.

هنا قام عدد من المثقفين العرب بالتمرد والثورة على هذه الأوضاع، ولكن سرعان ما تم إعدامهم، والتنكيل بجماعتهم وتعليق المشانق لعناصرهم.

من جهة أُخرى كانت أمواج الهجرة الهيودية مستمرة دون انقطاع، وكلما كان عدد اليهود يزداد كلما كانت تزداد بينهم عصابات الإرهاب التي كانت تسلِّحها القوى الاستعمارية العالمية.

وشيئاً فشيئاً أوكلت مهام ضرب المسلمين والتنكيل بهم في فلسطين إلى أيدي هؤلاء الصهاينة الذين لم يتوانوا عن كلّ أشكال الإرهاب بما فيه الإخراج والطرد والملاحقة حتى خلقوا أجيالاً من اللاجئين الفلسطينيين المُبعدين عن وطنهم.

ولم تنقطع موجات الهجرة الصهيونية من أنحاء أوروبا إلى فلسطين، وهذه الأسماء التي تسمعون بها اليوم على رأس عصابات اليهود أمثال (موشه دايان) و(غولدامائير) وغيرهما من الشياطين[1]، ما هي إلاّ مجموعات من المرتزقة الذين تنادوا من أركان الأرض المتباعدة، وجاؤوا ليدّعوا أنّ هذه الأرض أرضهم!.

بينما أصبح أصحاب الأرض المسلمون الذين يناهز تعدادهم اليوم ثلاثة ملايين نسمة لاجئين مشرّدين خارج وطنهم فلسطين!.

وهل تتصوّرون أنّ الهدف من وراء كلّ هذه الأعمال هو تشكيل دولة صغيرة لهم في فلسطين!.

إذا كان هذا هو تصوركم فأنتم على خطأ أكيد ونحن جميعاً مخطئون، إنّهم يعلمون جيداً أنّ مجرّد دولة صغيرة، لا يمكن لها أن تستمر في الحياة في هذه البلاد، فهذا الكيان يجب أن يكون إسرائيل الكبرى التي ستشمل حدودها ربما حتى إيران.

وكما يذكر عبد الرحمن فرامرزي (كاتب إيراني كتب عن فلسطين):

«إنّ إسرائيل التي أراها ستدّعي غداً بملكيتها حتى لشيراز[2] وستقول:

بأنّ شعراء إيران أنفسهم قالوا بذلك ـ استناداً إلى تشبيه بعض الشعراء الإيرانيين لمدينة شيراز بمُلك سليمان ـ وكلّما ادعينا نحن الإيرانيين، بأنّ ذلك القول ما هو إلاّ تشبيه شعري ليس إلاّ، فإنّهم سيجيبوننا بأنّ ما هو موجود بين يدينا يُعتبر وثيقة تاريخية تثبت ملكيتنا لتلك المدينة الإيرانية!.

ألم يدّعو ملكيتّهم لخيبر القريبة من المدينة المنوّرة؟!.

(١) أمثال شارون وشمعون بيريز وباراك ونتنياهو وغيرهم من المجرمين.
(٢) مدينة في جنوب إيران.

وهل نسينا اقتراح «روزفلت» لملك السعودية آنذاك بأن يبيع «خيبر» لليهود!.

وهل نسينا ادّعاءهم ملكية العراق، والأراضي المقدّسة للمسلمين فيها.

والله وبالله أقسم بأننا مسؤولون تجاه هذه القضية.

وأقسم بالله بأننا رغم ذلك غافلون.

وأقسم بالله بأنّ القضية التي تُدمي قلب النبي الأكرم ﷺ ـ وهو في قبره ـ هذه الأيام هي هذه القضية، وأنّ القضية التي تُدمي قلب الإمام الحسين بن علي هي هذه القضية، فإذا كنّا نحترم أنفسنا حقّاً، ونُقدّر عزاء الحسين بن علي حقّ التقدير، فإننا يجب أن نتصور ماذا لو أنّ الحسين بن علي عليه السلام كان بيننا اليوم، وأراد أن يطلب منّا أن نُقيم له العزاء؟ تُرى أي الشعارات كانت هي التي سيطالبنا بترديدها؟ فهل كان سيقول لنا اقرأوا في المجالس: «أين ابني الفتى علي الأكبر» أو يطالبنا المناداة: «يا زينب المعذّبة الوداع الوداع» وهي أُمور لا شكّ لم يفكّر فيها «الإمام الحسين» طوال حياته وأنّه لم يُردد مثل هذه الشعارات الخانعة الذليلة في يوم من أيام عمره.

نعم، فلو كان الحسين بن علي بيننا اليوم، لقال لنا: إذا كنتم تُريدون إقامة العزاء من أجلي، وأردتم الضرب على الصدور والخدود من أجلي فإنّ شعاركم لا بدّ وأن يكون فلسطينيّاً.

فشمر اليوم هو «موشي دايان»(١) وشمر ما قبل ألف وثلاثمائة عام قد مات، وعليك أن تتعرف على شمر هذا العصر، لأنّ جدران هذه المدينة يجب أن تهتز اليوم من شعارات فلسطين!.

لقد كذبوا علينا طويلاً وقالوا لنا إنّها مسألة داخلية لا تخصّنا، بل تخصّ الصراع العربي ـ الإسرائيلي ـ، ومرة أُخرى كما يقول عبد الرحمن فرامرزي: «إذا كانت فلسطين ملكاً للإسرائيليين حقّاً، والهجمة ليست هجمة دينية مذهبية، فلماذا تتدفّق الأموال باستمرار من يهود العالم نحوهم؟».

---

(١) موشي دايان وزير دفاع الكيان الصهيوني لسنوات ١٩٦٦ إلى منتصف السبعينات.

ما هو الجواب الذي نملكه تجاه إسلامنا ونبيّنا؟.

ألم تقرأوا قبل أيام في الصحف أنّ يهود العالم المتشردين في بلاد الأرض، وليس اليهود الحاملين للجنسية «الإسرائيلية»، قد أرسلوا مؤخراً خمسمائة مليون دولار إلى «إسرائيل» لتشتري بها طائرات الفانتوم حتى ترمي بقنابلها على رؤوس المسلمين!.

وكما سمعت فإنّ يهود إيران قد بعثوا ما يُعادل قيمة طائرتي فانتوم مساعدات نقدية إلى إسرائيل في العام المنصرم.

نعم، ستّة وثلاثون مليون دولاراً هي قيمة مساعدات يهود إيران وحدهم، وأنا هنا لا ألوم يهود إيران انطلاقاً من كونهم يهوداً، بل ينبغي لنا أن نلوم أنفسنا، فهم يساعدون أهل دينهم ومذهبهم.

إنّ الواحد منهم يرسل المساعدات بكل فخر واعتزاز وتُرسل الوصولات من (موشي دايان). ويُبرزها بكل فخر في بازار طهران.

ألم يكتبوا في الصحف قبل أيام (وأنا شخصياً لدي قصاصة الصحيفة التي نشرت الخبر وهي صحيفة اطلاعات): إنّ يهود أمريكا وحدهم يُرسلون مساعدات بقيمة مليون دولار يومياً إلى «إسرائيل»!.

فما هي مساعينا وجهودنا نحن المسلمين مقابل ذلك؟.

قسماً بالله يجب أن نخجل من أنفسنا، ونحن نحمل لقب مسلمين ونخجل من أنفسنا ونحن ندّعي بأننا شيعة علي بن أبي طالب!!.

وأنا أقول: إنّه حرام علينا بعد كلّ هذا الذي جرى ويجري أمامنا، من الآن وصاعداً أن ننقل هذا الحديث الذي يقول أنّ علي بن أبي طالب عندما سمع بهجوم العدو على بلاد الإسلام قال: «وهذا أخو غامدٍ، قد وردت خيلهُ الأنبار». ثمّ أضاف: وإني سمعت أنّ حليّ امرأة مسلمة أو امرأة واقعة تحت حماية المسلمين قد أُخذ منها بالقوة، وإنّ العدو قد أغار على بلاد المسلمين ونهبها فقتل بعض رجالها وأسر آخرين واعتدى على النساء ونزع الحليّ والجواهر عن أجسادهنّ.

نعم، فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه الذي ندّعي بأننا من شيعته ونتعصّب إليه كذباً وبمناسبة وبدون مناسبة بعد أن سمع بتلك الأخبار يقول: «فلو أنّ أمرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»(١).

أليس من واجبنا تقديم المساعدات المالية لمثل هؤلاء؟ أليسوا مسلمين وعندهم أحبّة وأبناء أعزاء؟.

أليس من حقّهم أن ينهضوا ويثوروا مطالبين بحقوقهم الإنسانية المشروعة؟.

ومَن منّا يستطيع أن ينكر على هؤلاء الفلسطينيين اللاجئين حقّهم في العودة إلى وطنهم؟.

إنّني شخصياً قد التقيت بعددٍ من هؤلاء، والله إنّهم شباب يُفتخر بهم.

لقد كانوا يرددون جملة واحدة: «دماء الشهداء»، نعم، فإيمانهم وعزتهم بدم الشهيد، ودم الشهيد فقط!.

إنّ فيهم والله من هو بحاجة إلى اللباس والرداء ليحمي نفسه من العري.

ولو قرر سكان العالم المسلمون البالغ عددهم سبعمائة مليون أن يدفع كلّ أحد منهم ريالاً واحداً في العام، لكان مجموع ما سيدفعونه سنوياً يبلغ ثلاثمائة مليار دولار.

ولو أنّ الفرد الإيراني وحده والذي يشكل فيه المسلمون نسبة (٩٨٪) قرر المساهمة في مساعدة الفلسطينيين بريال واحد في السنة، لبلغ مقدار ما يقدّمه الشعب الإيراني الذي يبلغ تعداده خمسة وعشرين مليون فرد ما يُقارب التسعين مليون تومان سنوياً(٢).

وإذا ما قرّر عُشر مسلمي العالم فقط أن يتبرع الواحد منهم بريال واحد يومياً لبلغ مجموع الدعم الإسلامي المالي تسعة ملايين تومان يومياً.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.
(٢) أي ما يقارب العشرة ملايين دولار آنذاك، علماً بأن مجموع سكان إيران الآن يناهز السبعين مليون نسمة.

قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾[٢].

إنّ أقل ما يمكننا المساعدة به هو المال، ووالله! إنّ هذا الإنفاق في هذا الباب إنفاق واجب، وتكليف إلهي كما الصلاة والصوم واجبان.

وأوّل سؤال سيوجه إلينا بعد موتنا هو ماذا عملنا في مجال التضامن الإسلامي؟.

قال رسول الله ﷺ: «من سمع مسلماً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[٣]، فما الذي يمنعنا أن نفتح حساباً مصرفياً باسمهم؟ وما هو المانع في أن نخصص جزءاً بسيطاً من عائداتنا لدعمهم؟ ولماذا يقوم يهود العالم أجمع، ومعهم يهود إيران بمساعدة الإسرائيليين، وينالون على ذلك كلّ التبريك والتهنئة ويُنعتون بالشعوب الواعية، ولا يحصل مثل هذا من طرفنا؟ إنّ الشعوب الواعية هي تلك الشعوب التي تغتنم الفرص وتحس بالمعاناة التي تعيشها جماهير الأمّة، وتُدرك الحقائق المحيطة بها.

إنّني إنّما قمت بواجبي، وواجبي هو الإفصاح عن هذه الحقائق وإعلانها، وإنّ الله وحده هو الشاهد على أنّني إنّما فعلت ذلك تلبية لنداء الضمير والوجدان الذي كان يعذبني ليس إلاّ.

وإنّني أرى في الدعم المالي واجباً مفروضاً علينا جميعاً، وأرى أنّ من واجبي كما أنّه من واجب كلّ واعظ، وخطيب أن يُشير إلى هذه الحقائق ويُعلنها صراحة.

إنّ مراجع تقليدنا كآية الله الحكيم وغيره قد أفتوا رسمياً بأنَّ من يُقتل في هذه الجبهة وإن كان غير مُصلٍّ فإنّه شهيد في سبيل الله.

فتعالوا إذن لنمنح أنفسنا الاحترام والتقدير اللازمين ونُعطي القيمة لفكرنا وعملنا ولكتبنا وأموالنا ونجلب العزة والفخار والاحترام لأنفسنا بين شعوب الأرض.

---

(١) النساء: ٩٥.
(٢) التوبة: ٢٠.
(٣) الكافي ٢: ١٦٤.

إنّ سبب عدم اهتمام الدول الكبرى بنا وعدم اكتراثها بمصيرنا يعود إلى اعتقادهم بأننا نحن المسلمين لا غيرة لدينا.

وهذا الأمر هو الذي جعل الحكومة الأمريكية تتجرأ علينا، فهي تقول إنّ قادة المسلمين ليس لها غيرة على جماهير أُمّتها، وإنّها تفتقر إلى روح التضامن والتعاضد فيما بينها في حين ـ والقول للأمريكان ـ إنّ اليهودي الذي يموت من أجل المال، ولا يعرف شيئاً غير المال، والذي يعبد المال والذي تتعلق حياته ومماته كلّها بالمال؛ فإن هذا اليهودي، عندما يتعلّق الأمر بمثل هذه الأُمور الحسّاسة، تراه يُقدّم مليون دولار يومياً لأهل دينه ومذهبه، بينما يقف سبعمائة مليون مسلم في العالم متفرجين على أهل دينهم وملّتهم ولا يُقدّمون لهم أية مساعدة تذكر!.

اليوم هو يوم عاشوراء، يوم معراج الحسين بن علي عليه السلام، وهو يوم ينبغي علينا أن نستفيض فيه من روح الحسين، وغيرة الحسين، ومقاومة الحسين، وشجاعة الحسين عليه السلام. وبطولته، ورؤيته الثاقبة النيّرة، عسى أن نصبح آدميين، ونتسلّح بالوعي ولو بمقدار ذرّة.

إن أحد الكتّاب المعروفين جداً، وهو عبّاس محمود العقّاد يذكر عبارة حول أبي عبد الله الحسين عليه السلام في غاية الأهمية وخلاصتها:

إنّه بدأ في يوم عاشوراء، وكأن نوعاً من السبق أو المباراة قد برز بين الخصال الحسينية، أي إنّ الفضائل الحسينية في ذلك اليوم أرادت أن تسبق كلّ واحدة منها الأُخرى، فصبر الحسين أراد أن يسبق سائر خصاله الأُخرى، بينما رضا الحسين الذي هو من رضا الله أراد بدوره أن يسبق صبره.

ومن جهة فإخلاصه أراد أن يسبق كلاً من صبره ورضاه، وهكذا شجاعته، كانت تُسابق الجميع حتى تقف في المقدّمة من سائر الصفات الأُخرى.

وأنا بدوري أودّ أن أعرض عليكم أمراً (بالطبع تراني أستصعب الحديث عن الإخلاص الحسيني، فأنا أصغر من ذلك بكثير، ولكنني استطيع الإشارة إليه) وهو إنّ الخصلة التي برزت أكثر من سائر الصفات الأُخرى في يوم عاشوراء وتبلورت بوضوح هي طمأنينة الحسين، نعم طمأنينة الحسين، واستقامته وهدوء روحه.

إنّه ليس قولاً يعود الفضل فيه إليَّ، إنّه حديث يعود تاريخه إلى أولئك الأوائل الذين أدركوا هذه الحقيقة، منذ اليوم الأوّل.

فأحد الحضور(١) في معركة عاشوراء يُسجل وقائع المعركة، ويشير إلى هذه الحقيقة في جملة بليغة للغاية نسبة إلى عصره، ومستوى الوعي الذي كان متوفراً في ذلك الزمان، حيث يقول: «والله ما رأيتُ مكثوراً قط، قد قُتل وَلَدهُ وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً منه»(٢). إنّه قول صحفي، حضر وقائع المعركة ليس إلاّ.

إنّه لأمر عجيب للغاية، إنّه أمر جدي لا يقبل الهزل، وقد ظلّ هذا الأمر يثير إعجابي على الدوام، فأبو عبد الله الحسين عليه السلام، في يوم عاشوراء كان يمضي ثابت الخطى، عارفاً بمستقبله المُضيء والمشرق، وناظراً بنفسه للآثار النورانية المتوقعة لنهضته.

إنّه لم يكن ليشكّ لحظة واحدة بأنه قد انتصر بشهادته، ولم يكن ليشكّ لحظة بأنّه آن الأوان للبذل بكل ما يملك في سبيل الله.

ففي تلك اللحظات كان النداء الربّاني يشير إلى نهاية موسم الزرع والبذر وبداية فصل الحصاد واستثمار تلك النهضة، وهذا هو الذي حصل بالفعل.

فمقتل الحسين عليه السلام كان يعني بالضبط بداية عصر الحركات التحررية والثورات، وفصول التضامن والتآخي والتعاضد من جهة، والتمرد والقيام ضد جهاز الحكم الأموي من جهة أُخرى.

وأوّل المتمردين كانت زوجة أحد عساكر جيش الكفار عندما رأت الجند قد حملوا على مخيم الحسين عصر اليوم العاشر، وهم يُريدون السوء بحرم أبي عبد الله، فما كانت منها إلاّ أن حملت عمود خيمةٍ من الخيم وصدّت

---

(١) وهو عبد الله بن عمار بن يغوث البارقي ـ كما عن تاريخ الطبري وغيره ـ، وفي روضة الواعظين، حميد بن مسلم.

(٢) الملهوف: ٥٠، تاريخ الطبري ٥: ٤٥٢. والمكثور: المغلوب.

المهاجمين، وصارت تنادي أبناء عشيرتها، وهي قبيلة بكر بن وائل، أن يا آل بكر بن وائل! ويا أهلي وعشيرتي! أين أنتم؟.

تعالوا، هيّا بكم، فقد وصل بهم الأمر إلى التعرض لأهل بيت النبي ومحاولة الإساءة لهم!.

ولا بدّ هنا ـ برأيي ـ من الإشارة إلى ذلك الموقف الجليل والعظيم الذي وقفه أبو عبد الله عليه السلام في اللحظات الأخيرة من المعركة، فكما هو معروف فإنه عليه السلام كان قد ودّع أهل بيته بعد أن لم يبق أحد من أصحابه وأهل بيته من الرجال القادرين على القتال، فتوجّه إلى ساحة المعركة لكنّه ـ وكما تنقل الروايات ـ سرعان ما عاد مرّة أُخرى، وودّع أهل بيته للمرّة الثانية حيث يقال إنّه كان قد تمكّن من صدّ العدو والنفوذ إلى شريعة الفرات، وأنّه في اللحظة التي كان يستعد فيها لشرب بعض الماء، وإذا بأحد أفراد العدو يُناديه بأعلى الصوت (ربما بسبب عدم رغبتهم رؤيته يشرب الماء حتى لا يأخذ قوة جديدة للمبارزة والنزال) أنْ يا أبا عبد الله الحسين، أتشرب الماء! وأهلك وعيالك في المخيم قد أغار عليهم عساكر يزيد؟! فما كان منه إلاّ أن ترك الشريعة.

ولا أدري هنا هل كان الأعداء بالفعل يهمون بالهجوم على حرم الحسين أم لا؟ لكن المهم أنّ أبا عبد الله لم يكن في وضع يستطيع فيه التحقق من صحة النبأ، فالحرب على أشدها، ولا بدّ له من العودة بأسرع ما يمكن وقد وصل إلى المخيم قبل أن يصل أحد من عساكر العدو إليه.

وكما تذكر الروايات قد كانت هذه العودة فرصة له عليه السلام للوداع مع أهل بيته للمرة الثانية، حيث جمع النساء والأطفال، وهنا بالذات تبرز عظمة وجلالة روح أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فقد بادرهم بالقول: يا أهل بيتي «استعدوا للبلاء... واعلموا أنّ الله حافظكم ومُنجيكم من شرّ الأعداء، ومُعذّب أعاديكم بأنواع البلاء»(١).

هذا يعني أنّه كان يتنبأ بالمستقبل الذي ينتظر القوم بعد مقتله.

---

(١) الملهوف: ٥٠، مقتل الحسين للمقرم: ٣٤٨.

لقد اتّخذ أبو عبد الله عليه السلام في يوم عاشوراء من خيمة أهل البيت نقطة مركزية لإدارة المعركة، إذ كان يهاجم العسكر منها، فيتراجعون متقهقرين، وكانت المبارزة في البداية قد أخذت شكل المبارزة الفردية، ولكنه عليه السلام لم يترك أحداً يعود منها سالماً إلى معسكر العدو، الأمر الذي آثار الرعب والفزع في قلب العدو حتى صاح عمر بن سعد بالجند قائلاً: ماذا تفعلون؟ «والله نفس أبيه بين جنبيه وهذا ابن قتّال العرب...»(١).

نعم، فهذا هو ابن علي بن أبي طالب الذي قاتل العرب وقتلهم، وعمر بن سعد إنّما أراد بقوله ذلك تحريك النزعات القبلية ضد الحسين.

فردّ جماعته يسألونه ما العمل إذن؟.

فقال لهم: ليس من المصلحة أن نقاتله قتالاً فردياً، ووجهاً لوجه، لأنّه بهذه الطريقة سوف لن يبقى أحداً منكم على قيد الحياة.

وعليه لا بدّ من الهجوم الشامل عليه ومن كلّ جانب، وهكذا صار عليه السلام يقاتل بكل اتجاه وحيثما كان يضرب كانت العساكر تفرُ منه وتنهرم، لكنه كان حريصاً ألاّ يبتعد عن المخيم حيث الحرم والأطفال.

إنّها غيرة الحسين كما هي شجاعته وصبره ورضاه، بما هو رضا الله، وإخلاصه له سبحانه وتعالى، لكنها الغيرة الربانية التي لم تكن تسمح له أن يرى العدو يقترب من خيام الحرم، وهو لا يزال على قيد الحياة.

ولذلك تراه أصدر تعليماته المشدّدة لهم بعدم الخروج من الخيام أبداً، إنّه الكذب بعينه القول بأنّ أهل البيت كانوا يخرجون بين الحين والحين، وهم ينادون العطش... العطش!.

مرّة واحدة فقط خرجوا من الخيام عندما عاد فرس أبي عبد الله بدون صاحبه، ووقتها أيضاً لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر، إذ تصوّروا حين سماعهم لصهيل الفرس أنّ أبا عبد الله قد عاد يودّعهم للمرة الثالثة.

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١١٠.

يُقال إنّ هذا الفرس كان فرساً مدرّباً على هذه الحالات، ولم تكن هذه حالة فرس أبي عبد الله وحده، بل إنّ خيل العدو أيضاً كانت مدرّبة كذلك على مثل هذه الحالات، فعندما كان صاحب الفرس يسقط صريعاً، كان الفرس يحسّ الواقعة.

لذلك عندما سقط أبو عبد الله صريع الموت، قام فرسه بتلطيخ شعر رقبته بدم الحسين، ولمّا تأكد من رحيله عليه السلام اتّجه نحو خيام الحرم.

لقد كان في الحقيقة بمثابة الرسول الذي ينقل خبر الواقعة، وظنّاً من الحرم بأنّ أبا عبد الله قد عاد ليودّعهم ثالثة، خرجوا من الخيام ولكنهم عندما رأوا ما رأوا لم يبق أمامهم سوى الإحاطة بالفرس، والبكاء والنواح.

على كلّ حال لم يكن الحسين عليه السلام ليجيزهم بالخروج من الخيام وهو على قيد الحياة، لكنّه كان كما ذكرنا قد اتّخذ النقطة المركزية لإدارة المعركة قريبة من خيام الحرم حتى يُسمعهم صوته ما دام حيّاً، حتى يمنحهم الطمأنينة والاستقرار.

ويُقال إنّه كلما كان يعود إلى تلك النقطة كان ينادي بأعلى صوته (لا أعرف عندما أقول بصوت عال كيف كان يدور ذلك اللسان الجاف داخل الحلق)، وبكل ما أُوتي من قوّة: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».

إلهي، إنّ كل ما كان يملكه الحسين عليه السلام من قوة روحية وجسمية إنّما كانت من عندك، نعم، فعندما كان يسمع أهل البيت صوت الحسين كان السرور يدخل قلوبهم، بأنّه لا يزال حيّاً، ثمّ كانت استراحة بسيطة، ثمّ يعود الجند ليحيطوا به من جديد، ويُشدّدوا الحصار أكثر فأكثر، ويرموه بالنبال والسهام، ثم يُعاود الحسين الهجوم، وهكذا دواليك، فبين كرٍّ وفر كان القتال يدور على أشده.

لا بدّ أنكم سمعتم كيف بدأ عمر بن سعد الحرب يوم العاشر من محرم، وكيف أنّ أبا عبد الله لم يسمح لأصحابه بأن يكونوا هم البادئين بالحرب... وهذا تقليد كان يُتّبع من قبل أهل البيت في إدارة الحروب مع الفرق المسلمة في الظاهر، وهو التقليد الذي احترِمَ من قبل الحسين عليه السلام كما روعي من قبلُ

من قِبَل الإمام علي عليه السلام، حيث كان يقول: إنّني لن أكون الباديء في الحرب، وعندما سيشرعون في حربنا عندها سنردّ عليهم.

كذلك حال أبي عبد الله الحسين عليه السلام فهو لم يكن البادىء في الحرب، لكن عمر بن سعد ومن أجل الحصول على رضا عبيد الله بن زياد طلب القوس والسهم، ولمّا كان أبوه معروفاً في صدر الإسلام بأنّه من الرماة الماهرين، وربما كان هو أيضاً، فقد رمى سهماً نحو خيام حرم الحسين، ثمّ نادى صائحاً: أيّها الناس، اشهدوا لي عند الأمير بأني أول من رمى سهماً نحو مخيم الحسين.

نعم، إنّ حرب اليوم العاشر من محرم، قد بدأت بسهم واحدٍ، ولا بدّ من القول بأنّها قد ختمت بسهم آخر وهو الأخير، إنّه ذلك السهم المسموم الذي أصاب الصدر الحسيني المبارك: «فأصابه سهمٌ محدد مسموم».

وكان قد نفذ عميقاً للغاية، بحيث إنّه عليه السلام كلّما حاول إخراجه لم يتمكن، حتى إنّه كما يُروى، فقد خرج من الجهة الأُخرى من بدن الحسين عليه السلام، ومعه سقط الحسين عن فرسه، ولم يبق من قوته، وحركته الكثير، وما هي إلاّ برهة حتى انتهت فصول الكر والفر لدى الحسين.

يقول الرواة: إنّ الحسن بن علي عليه السلام كان له عدد من الأبناء كانوا قد شهدوا المعركة جميعاً إلى جانب أبي عبد الله، وكان القاسم أحدهم، كما كان للحسن عليه السلام ابن آخر، كان قد بلغ عشر سنوات من عمره، في اليوم العاشر من محرم، وهو آخر أبناء الحسن عليه السلام.

وربما كان هذا الصبي لا يتذكر شيئاً من حياة أبيه، ذلك أنّه لم يكن لديه سوى بضعة أشهر من العمر، عندما رحل أبوه فهو إذاً قد كبر، وتربّى في بيت الحسين عليه السلام.

وكان الحسين رؤوفاً وحنوناً للغاية على أولاد الإمام الحسن عليه السلام، وربما أكثر من حنانه ورأفته بأولاده، من حيث إنّهم كانوا يتامى لا أب لهم.

كان هذا الصبي يدعى عبد الله، وكان متعلّقاً بأبي عبد الله كثيراً، وكان

الحسين قد أوكل أمر رعاية الأطفال إلى زينب سلام الله عليها، وهي لم تتوان لحظة عن رعايتهم والاهتمام بشؤونهم.

وعلى حين غرّة لاحظت زينب أنّ عبد الله الصغير قد غادر الخيمة وهو يتّجه لرؤية عمّه الحسين بن علي عليه السلام، فركضت زينب خلفه لِتُمسك به، فصرخ الصبي: «والله لا أُفارق عمّي».

وكانت بالفعل لحظات مصيرية، فالطفل يعدو وزينب تعدو وراءه.

«السلام عليك يا أبا عبد الله، أشهد أنّك قد أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت في الله حقّ جهادة».

كان الطفل قد اقترب من أبي عبد الله، عندما لحقت به زينب وهمّت لتأخذه وتعيده إلى الخيمة، فأشار عليها عليه السلام بأن تعود إلى المخيم، وتترك الطفل بين يدي عمّه.

أمّا الصبي فقد ألقى بنفسه في هذه الأثناء في حضن عمّه الحسين عليه السلام، (إنّه الحسين بعالمه الخاص)، وفيما الطفل وعمّه في تلك الحالة اقترب أحد الأعداء، وأراد أن يضرب أبا عبد الله بضربةٍ بالسيف، وماأن رفع سيفه ليضرب به، حتى صاح به الطفل: «يابن الزانية أتريد أن تقتل عمّي!» وما كان من الطفل إلاّ أن مدّ يده لمنع الضربة عن عمّه، فنزل السيف على يده، فقطعها، فنادى الصبي: يا عمّاه انظر ماذا فعلوا بي[1]!.

«أشهد أنّك قد أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وجاهدت في الله حقّ جهاده، حتى أتاك اليقين».

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وصلّى الله على محمدٍ وآله الطاهرين، باسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكبر، يا الله...

اللهمّ ارزقنا جميعاً حسن العاقبة، وعرّفنا بالقرآن وبالإسلام.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٤٥١.

اللهمَّ ادفع عنّا هذا الكسل، وهذا التراخي، وهذا التردد المستحكم في أرواحنا نحن المسلمين.

اللهمَّ امنحنا الغيرة وارزقنا الوحدة والاتفاق وأكرمنا بروح التآخي والتضامن.

اللهمَّ ارفع شرّ الكفّار وإسرائيل والصهيونية عن رؤوس المسلمين، ووفقنا للجهاد ضد العدو الذي يهدد كيان الإسلام والقرآن.

اللهمَّ اغفر لموتانا من الأوّلين والآخرين في هذا اليوم العزيز.

المحاضرة السابعة

دور وتأثير قيام أهل بيت الإمام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد واقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، بارىء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله، وحبيبه وصفيّه، وحافظ سرّه، ومُبلّغ رسالاته، سيّدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين[١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

إنّ بحثي الليلة هو تتمة لأبحاثي الستّة السابقة، وممّا تم بيانه في المحاضرات السابقة يتّضح لنا أنّه لا بدّ من إحياء مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونُحيي أنفسنا أيضاً من خلال هذا المبدأ.

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٢٦ محرم الحرام ١٣٩٠هـ.
(٢) التوبة: ١١٢.

جاء في إحدى خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو يتحدث عن التقوى، وكما يصطلح عليه المناطقة بشبه الدور، فقد قال عليه السلام: «ألا فصونوها وتصوّنوا بها»[١]، أي أيها الناس، صونوا التقوى، واحفظوها وبذلك تكونون قد صنتم أنفسكم بواسطة صيانتكم للتقوى.

وفي الظاهر، فإنّ الأمر يوحي بوجود الدور، فهل مطلوب منّا أن نصون التقوى، أم أنّ التقوى يجب أن تصوننا؟.

والجواب: إنّ كلا الحالتين صحيحتان، وهو دور، لكنه ليس الدور المُحال، ذلك أننا نصون التقوى ونحافظ عليها بشكل من الأشكال وهي بدورها أيضاً تصوننا وتحفظنا بشكل آخر.

علينا إذاً أن نصون التقوى، ومطلوب من التقوى أن تصوننا، وهي قادرة على ذلك.

والحالة نفسها تنطبق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعلينا واجب إحياء هذا المبدأ ومطلوب منه أن يُحيينا في المقابل، وهذا ما يحصل بالفعل.

لقد تطرقنا في الجلسات السابقة إلى عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من زاوية مقدار تأثيره على النهضة الحسينية وأنّه بمثابة المحرّك والباعث والوازع الداخلي للحركة الحسينية.

لكنه يبقى أن نتطرق لموضوع حجم أو مقدار ما تمّ من فعل للأمر بالمعروف أو نهي عن المنكر في النهضة الحسينية.

إنّ الوجود المقدّس للحسين بن علي عليه السلام بحد ذاته في هذه النهضة يعتبر عملياً حضوراً مباشراً للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الأول في هذه الواقعة، ولكن ثمّ من يأتي بعده بعد الواقعة مباشرة، وربما يأخذ طابع الحجم الأوسع في ترجمة هذا الأصل والمبدأ، وهم أهل بيته عليهم السلام، وذلك بعد

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ١١٥.

شهادته عليه السلام مباشرة، أو على الأقل ابتداء من اليوم الثاني عشر من محرم حيث تحوّل أهل بيته إلى مجموعة عمل فاعلة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظلّوا كذلك إلى نهاية المطاف.

فهم عليهم السلام لم يظهروا لحظة كمجموعة منكسرة، إذ إنّهم كانوا مثلهم مثل أبي عبد الله عليه السلام، لا يرون خواتيم الأعمال في بقاء الإنسان حياً على قيد الحياة أو ميّتاً، وبالتالي لم تكن أمنيتهم في رؤية الحسين حياً، وقد صعد سلّم السلطة أو متنعّماً بحياة آمنة في زاوية من زوايا الدنيا، والآن وقد قُتل فعلى الدنيا السلام.

كلاّ أبداً، فهم ظلّوا يتابعون المسيرة الحسينية في نفس السياق.

إنّ مقتل أبي عبد الله كان بالنسبة لهم في أحد جوانبه بداية للنشاط والفعل، وليس خاتمة المطاف للمسيرة، فما أجمل حالة أهل بيت النبوة بعد شهادة الحسين عليه السلام، وكم هو ملفت للنظر وضعهم ذلك.

وفي الحقيقة فإنّ الإنسان عندما يُحلّل ويدقق في تلك الصورة تراه يقف حائراً ومتعجّباً أمام تلك العظمة، وذلك الجمال؛ جمال الهيبة والعظمة ولا يجد أمامه من رد فعل تجاه تلك القوة، وتلك الطاقة الروحية وذلك الإيمان واليقين، وتلك الشجاعة الروحية سوى أن يخرّ متواضعاً منبهراً.

لقد قاموا بالتبليغ للقضية الحسينية حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم، ونهو عن المنكر، وأمروا بالمعروف، ودعوا إلى الإسلام حتى الرمق الأخير.

أقول: لم يكن أحدٌ في كلّ بلاد الشام يكن الحب لعلي عليه السلام، ولا حتى يعرف من هو علي؟ ولا من هم أهل بيت النبي؟ أي إنّ أحداً لم يتعرف حتى ذلك الوقت على أهل البيت، وإن كان أحد قد عرفهم بشيء، فقد عرفهم بصورة بالغة السوء.

فتصوّروا إذاً مدى أهمية عمل أهل بيت النبوة عليهم السلام بعد الواقعة، سأذكر لكم مثالاً واحداً فقط، ومن ثمّ أعود للحديث عن القضايا الأُخرى.

كلّنا يعرف كيف كان الوضع في يوم عاشوراء، وكيف أمضى أهل بيت النبي ليلة الحادي عشر من محرم الحرام.

وفي اليوم الحادي عشر من محرم يأتي جلادوا ابن زياد ويُحمّلون آل البيت فوق جمال غير مجهّزة، ويتحركون بهم فوراً نحو الكوفة، وهم يُعانون من الآلام الروحية والجسمية البالغة.

وصباح اليوم التالي يصبحون على أبواب الكوفة.

ولم يكن العدو ليُمهلهم قليلاً، بل أدخلهم إلى المدينة في ذلك الصباح مباشرة وتوجه بهم على الفور إلى دار الإمارة حيث كان يجلس ابن زياد.

وكما هي الصورة التي أُريد عكسها على الرأي العام تصبح القافلة عبارة عن مجموعة من الأسرى التي تضم عدداً من النساء إضافة إلى رجل واحد عليل، ولقب العليل هذا الذي يُنسب إلى الإمام السجاد عليه السلام لا نسمعه إلاّ في أوساطنا نحن الإيرانيين!.

ولا أدري هنا ما الذي حصل حتى جئنا نحن الإيرانيين بهذه التسمية، ونقول الإمام زين العابدين العليل! في حين أننا لم نسمع في اللغة العربية أن نُسب مثل هذا اللقب إلى علي بن الحسين عليه السلام، فيقال مثلاً: «الإمام المريض» أو «الممراض».

ويبدو أنّ هذا اللقب قد لقّبه الإيرانيون من عندهم، وسبب ذلك عائد بالطبع إلى أنّه كان عليه السلام مريضاً جداً في يوم عاشوراء (وكلّ إنسان يمرض في حياته ومن هو الآمن من الآمراض في حياته؟) وقد كان السجّاد على فراش المرض آنذاك، ولم يكن باستطاعته التحرك بسهولة، وكانت المعركة بالنسبة إليه تحتاج إلى جهد كبير، بل إنّه كان لا يتحرك إلاّ بمساعدة العصا.

وفي مثل هذه الأحوال بالذات أمروا بتحريك القافلة وفيها الإمام زين العابدين أسيراً من أسرى الحرب.

لقد أجلس الإمام زين العابدين على جمل ذي مقعد خشبي، خالٍ من رَحْل الحيوان الذي عادة ما يوضع فوق ظهر الجمل، ولما كان الإمام مريضاً،

فقد تصوّروا أنّه ربما لن يستطيع المحافظة على توزان جسمه، فقد ربطوا رجليه بإحكام هذا بالإضافة إلى أنهم وضعوا الأغلال في عنقه، وبهذه الهيئة أدخلوهم مدينة الكوفة إلى جانب المعاناة الروحية، والتعنيف الأدبي والجسمي الذي كان في أقصى الحدود.

كلنا يعرف بالطبع أنّ السجين الذي يريدون استنطاقه وسحب الاعترافات منه عادةً ما يعرضونه إلى ما يُحطم أعصابه، ويُقوّض إرادته، كأن يمنعوا الطعام عنه لمدة أربع وعشرين ساعة، أو ثمان وأربعين، مضافاً إلى تعريضه لأنواع العذاب والتعنيف الروحي، وغالباً ما يستسلم السجين في مثل هذه الحالة، ويُصمّم على الاعتراف بكلّ شيء.

وعليه يمكنكم تصوّر وضع أسرى آل البيت بعد كلّ تلك المعاناة الروحية والجسمية، وقد أُدخلوا مباشرة على مجلس ابن زياد!.

تدخل زينب سلام الله عليها ذلك المجلس الأميري وهي مرفوعة الهامة، وحسب تعبير البعض: «وَحَفّ بها إماؤها».

نعم، واصطلاح الإماء هنا ليس بالمعنى المجازي، إذ إنّ جميع النساء اللآتي اشتركن في معركة الطف، ورافقن زينب إلى الكوفة يعترفن بالسيادة والزعامة والقيادة للعقيلة زينب، ويعتبرن أنفسهن بمثابة الإماء، وقد أحطْنَ بزينب من كلّ جانب.

تدخل العقيلة زينب مجلس دار الإمارة من دون أن تسلّم على الأمير، فهي لم تكترث للأمير ومقامه، لكن ابن زياد الذي أحسّ بروح المقاومة العالية لدى زينب عليها السلام، انزعج كثيراً فهو يعرف جيداً أنّ عدم سلامها يعني أنّها تريد بذلك أن تقول له: «إنّ إرادتنا نحن أهل البيت لا تزال حيّةً لم تَمُتْ، ولسنا نكترث بمقامك وموقعك، ولا تزال روح الحسين بن علي في أبداننا وهي تُنادي: «هيهات منّا الذلة»، و«لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرُّ فرار العبيد، أو لا أقرُّ إقرار العبيد»[١].

(١) الإرشاد للمفيد: ٢٣٥.

لقد تضايق ابن زياد كثيراً من عدم اكتراث «زينب ﷺ» به، فهو يعرف من هذه المرأة، فكل التقارير كانت تصله، وعندما رأى امرأة محترمة تحيط بها النساء من كلّ جانب، فإنّه لا بدّ قد عرف جيداً من تكون تلك المرأة، لأنّه أخبر بالتأكيد عن نوعية الأسرى القادمين، ولكن رغم ذلك تساءل: «من هذه المتكبّرة؟» أو «من هذه المتنكّرة؟»[١] فلم يجبه أحد، فعاود السؤال ثانية وكان يريد أن يردّ أحدهم من القافلة عليه، وعندما كرر السؤال للمرة الثالثة ردّت عليه إحدى النساء: «هذه زينب بنت علي بن أبي طالب»[٢].

فما كان من ابن زياد ـ هذا الرجل الدنيء الذي لا يملك ذرةً من شرف الرجولة والإنسانية، فالطرف المقابل له إنسان صاحب مصيبة بذلك الحجم المعروف، وكلّ من يملك ذرة شرف إنساني لا يُجيز لنفسه أن يزيد جراحات صاحب المصيبة المذكورة، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ صاحب المصاب امرأة، والامرأة لا توجّه لها الإهانات، ولا يتمّ التعرّض لها بأي شكل كان في أي قانون حربي في العالم، وكلّ من يملك ذرة من ذلك الشرف الإنساني ليس له إلاّ أن يأخذ المرأة أسيرة حرب مع المحافظة على قوانين الأدب والاحترام المرعيّة تجاه المرأة ـ إلاّ أنّه شرع بتوجيه أبشع الألفاظ البذيئة والمهينة وممّا قاله: «الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم».

لكن زينب ﷺ ردّت عليه على الفور بكلّ جرأة وشهامة: «الحمد لله الذي أكرمنا بالشهادة»، نعم، الحمد لله الذي أكرم أخي بتاج الشهادة، والحمد لله الذي جعلنا من آل بيت النبوة والطهارة ـ إلى أن قالت: ـ.

«إنّما يُفتضح الفاسق، ويَكذب الفاجر، وهو غيرنا».

فالفضيحة من نصيب الفسقة، ونحن لم نقل الكذب يوماً، ولم نساهم في

(١) وردت في حالتين.
(٢) الإرشاد للمفيد ٢: ١١٥، مثير الأحزان: ٩١.

خلق حادثة مزيفة واحدة، والفجر والفسوق قد صدر من عند غيرنا، أي من عندك، فأنت الفاسق، وأنت الكذّاب(١).

هذا المقدار من الشهامة، والجرأة والشجاعة والإيمان العملي! إنّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلّ هذا في المرحلة الأُولى، وليس إلاّ درجة واحدة من درجات العمل، فالقصة مع آل البيت وممارستهم، لهذا المبدأ طويلة.

فهناك أقوال زين العابدين عليه السلام، وهناك حديث إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام، ومن ثم خطاب العقيلة زينب في سوق الكوفة!، وذلك الكلام الرفيع لزين العابدين عليه السلام، وتلك الأحاديث، والأقوال، والتبليغ، التي مارسها آل البيت في الطريق إلى الكوفة، وفي الطريق إلى قصر الإمارة، ومن ثم إلى قصر يزيد في الشام، وتعاملهم مع الناس، والعابرون الذين كانوا يستوقفون القافلة في الطريق، وعلى رأس كل تلك الخُطب، تقف ـ برأيي ـ تلك الخطبة الغرّاء لزينب عليها السلام، في قصر يزيد بن معاوية.

فزينب هناك، كان قد مضى عليها أربع وعشرون ساعة، أو ثمان وأربعون، بل شهر كامل، وهي في أسر أولئك الظلمة، مع كل تلك المعاناة الروحية والجسمية التي يمكن أن تحدث للأسير طوال تلك المدة.

ولكن رغم ذلك كله، انظروا ماذا فعلت زينب في مجلس يزيد؟!.

وعلى هذا الأساس، لا بد من النظر إلى النهضة الحسينية، من زاوية كونها نهضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً، ومن ثم لا بد من دراسة الآثار المترتبة على هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا سيما في بلاد الشام، التي انقلبت انقلاباً شاملاً بعد ورود آل البيت إليها.

المسألة الأُخرى التي أردت تبيانها لكم هنا هي: إنّ فقهاءنا ذكروا موضوعين في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد لي من توضيحهما لكم.

---

(١) أي ابن زياد.

أولهما: هو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحصل فقط عندما يحتمل الإنسان حصول الفائدة والأثر المطلوبين من الفعل. فما معنى هذه الجملة؟.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس قانوناً تعبُّدياً، مثل واجبي الصلاة والصوم، الذي له حكمته، وفلسفته، وأثره الخاص به، لكنه لا يخصنا نحن البشر، أي إننا لا ننتظر حصول الأثر، أو لمسه، حتى نقوم بذلك الواجب، وفي حال عدم حصوله، لا نُمارس الواجب المذكور.

كلاّ فنحن قد قيل لنا: يجب الصلاة في كل الأحوال، ومن ثم فإنه ليس في عهدتنا أن نرى، أو نلمس حصول الأثر، أو عدم حصوله، وليس أمامنا سوى أداء ذلك الواجب بقواعده المعروفة، وما يخص حصول الأثر، أو عدم حصوله، يبقى خارج نطاق المنطق البشري.

فإذا كان هذا هو الأمر بالنسبة للواجب التعبدي، فهو ليس كذلك بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهنا ينبغي على البشر أن يُدير الأمر، ويُطبّقه بالمنطق البشري الملموس، أي لا بد من حساب النتائج المترتبة على حصول ذلك العمل.

فالإنسان هنا يبذل جهداً، وطاقة معينة، عندما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالتالي لا بد له من إجراء الحسابات اللازمة، وحصر مقدار النتائج الحاصلة، التي تؤدي للوصول إلى الهدف المرسوم، تماماً مثل التاجر الذي يستثمر أمواله في التجارة، ويُريد من وراء ذلك أن يعرف ـ على الأقل ضمن دائرة الاحتمالات ـ، هل ستضيف العملية التجارية ربحاً مُعيناً، يُضاف إلى رأس ماله الذي وضعه في العملية؟.

وهذا أمرٌ منطقي للغاية، فنحن لو علمنا أننا نمارس عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال معين، كأن نقوم بصرف مجهود مالي، أو بشري، أو كحد أدنى، مجهود وقتي، في اتجاه معين، لكنّا نعرف سلفاً، أنّ ذلك الجهد لن يعود علينا بأية نتيجة تُذكر، بل ربما يعود علينا بنتيجة معاكسة، فهل

ينبغي علينا بذل ذلك الجهد حقاً؟ بالطبع لا، وهذا كلام منطقي وصحيح، وهذا المنطق مُضاد لمنطق الخوارج.

ففي فقه الخوارج، يُعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عملاً تعبّدياً محضاً، أي إنّه لا يحق للإنسان أن يُدخل حسابات المنطق في هذا العمل، إذ ينبغي على الإنسان حسب فقههم، أن يُمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصورة عمياء حتى ولو تيقّن أنّه لن يحصل على شيء مُثمر نتيجة عمله أو استثماره لذلك الجُهد.

فهم يقولون إنّ الأمر لا يخصّنا نحن البشر، فالله قد أمرنا بممارسة فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كل الظروف والأحوال.

لكن أئمتنا قالوا لنا إنّ هذا لا يجوز، وهو عمل خاطىء حتماً، وإنّ الله سبحانه وتعالى، لم يأمرنا بممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الطريقة.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحاجة إلى الحساب والتدبير والفكر والمنطق بالتأكيد، والعلماء الذين حققوا ودققوا في القضايا الاجتماعية، قالوا بأن سبب انقراض الخوارج، إنما يعود في الواقع إلى أنهم أنكروا حسابات المنطق في ممارسة واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فقد كان يأتي الواحد منهم دون سلاح، أو تجهيزات، أمام أحد الطغاة الجبابرة، ويقول ما عنده، مع يقينه الكامل بعدم حصول أي أثر يُذكر لحديثه، ذلك الأمر الذي كان يعني القضاء على النفس دون نتيجة، أي كما يُصطلح عليه اليوم، فإنهم يعملون بدون تكتيك، لا يعملون للمنطق أي حساب يُذكر في أعمالهم.

لقد كانوا يرمون بأنفسهم في قاع الوادي، الأمر الذي أدى إلى انقراضهم.

لكن أئمتنا عليهم السلام، قالوا: بأنّ هذا العمل خطأ، وما «التقية» التي تسمعون

بها في فقهنا، سوى استخدام التكتيك في ممارسة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و«التقية» من مادة «وقى» أي المحافظة، وماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما هو إلاّ نضال، وفي النضال لا بد للإنسان من استخدام الوسائل الدفاعية اللازمة، أي: اضرب ولكن حاول أن لا تُضرب.

بينما يقول الخوارج: إنّ الجهاد واجب، ولمّا كان كذلك فلماذا السلاح، ولماذا الدرع والمتراس إذاً، ما دمتُ سأذهبُ إلى الجنة في حال الموت؟ إذاً سألقي بنفسي في قلب معسكر العدو حتى أموت وأدخل الجنة!!.

وهذا أمرٌ لا يجوز في فقهنا، فالذي يُستثمر هنا هو قوة الإسلام، والواحد منّا عبارة عن لبنة من لبنات النباء الإسلامي، قوة من قوى وطاقات الإسلام الكبرى.

وعليه لا بدّ لنا من النضال والمبارزة، ولكن مع السعي في تقليل الخسائر قدر الممكن، بينما لو أنك دخلت ميدان المبارزة دون سلاح، وقد قُتلت في هذه الأثناء بسبب إهمالك هذا، فإنّك تكون قد أهدرت طاقة الإسلام.

فالقاعدة أن ندخل ساحة القتال، ولكن مع تجنُّب القتل قدر الإمكان، أي القضاء على العدو مع المحافظة على النفس كلما أمكن، هذا هو معنى الموضوع الأول، الذي قال به فقهاؤنا، وهذا كلام منطقي للغاية.

أما الموضوع الثاني الذي يراد بحثه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما ورد متنه في الأخبار والروايات التي تُشكل قاعدة من قواعد فقهنا إنه: «إنما يجب على القوي المُطاع»[١]. أي إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يجب على من مَلَكَ القدرة على الفعل والأداء.

ومعنى ذلك: إنّ الإنسان العاجز عن الفعل، لا يتوجب عليه فعل الأمر

(١) الكافي ٥: ٥٩، ح١٦، التهذيب ٦: ١٧٧، ح٣٦٠، تذكرة الفقهاء ٩: ٤٣٣ مسألة ٢٦٣.

بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأمر بدوره مرتبط بالموضوع السابق أيضاً، إنّ المفروض بفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يؤدي إلى نتائج مثمرة، ذلك أنّ القاعدة هي الحفاظ على القوة الذاتية، والاستزادة بنتائج جديدة، في حين أن حالة العجز تعني فقدان القوة الذاتية، بالإضافة إلى عدم التوصل أو الحصول على نتائج مثمرة.

لكن قد يرتكب البعض هنا خطأً فادحاً إذا ما ذهب إلى القول:

ما دمتُ غير قادر على تنفيذ الواجب الفلاني، ولمّا كان الإسلام يأمرني بعدم الفعل في حالة العجز عن التنفيذ، إذن دعني أذهب وشأني وما لي وهذه القضية!.

ويأتي آخر ليقول: إنّ الإسلام قد أمر بفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حالة وجود احتمال النجاح، ولمّا كنت لا احتمل النجاح في هذه المهمة، لذا يسقط عني هذا الواجب.

وهذا خطأ كبير، فالاحتمال المطروح هنا، غير الاحتمال الذي يرد ذكره في باب الطهارات والنجاسات.

فلو كنت تجهل حتمية طهارة أو نجاسة شيء ما، لكنك احتملت أن يكون طاهراً، فالشارع هنا يُجيز لك أن تعتبره طاهراً وكفى، ومعنى الاحتمال في هذه الحالة هو الاحتمال الذهني المعروف، أي إنك حيثما حصل لك الشك في طهارة، أو نجاسة شيء ما، فإن احتملت أنه طاهر فاحمل على الطهارة وكفى، كأن يُرسل إليك دواء من الخارج، وأنت لا تعرف بالضبط، وغير متيقن نجاسته، فتحتمل النجاسة فيه بنسبة (٩٩٪)، لكنك غير متيقن من ذلك تماماً، إذ تحتمل أن يكون طاهراً، ولو نسبة (١٪) فيكون عند ذلك هذا الاحتمال كافياً لك باعتباره طاهراً، ومن ثم الاستفادة منه.

ولا حاجة بعد ذلك، وغير مطلوب مني أن أذهب، وأحقق في طهارته، أو نجاسته أبداً، فأنا لستُ مُكلّفاً على الإطلاق بالقيام بمثل هذه المهمة، ويكفيني ذلك الاحتمال الذهني، وكما يقول المثل العلمي يكفي العلم

الموضوعي الاحتمال الموضوعي، فذلك الاحتمال يصبح بالنسبة لك، موضوع الحكم وليس أمامك أيّ تكليف آخر.

بينما الأمر في حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يعني أبداً الجلوس في الدار، والقول باحتمال وجود النجاح، أو عدم وجوده، فالمسألة ليست مسألة طهارات، ونجاسات، بل المطلوب منّا في هذه الحالة، السعي وبذل الجهود، والتحقيق في سُبل النجاح، وإمكانيات الوصول إلى النتائج ومَنْ لا يُحقّق في الأمر، وهو جاهل بما سيؤول إليه فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس له عُذر يُجيز له ترك الواجب، كما أن من يقول:

إنني لستُ بقادر، والإسلام قد أوجب الأمر مع وجود الاستطاعة والقدرة، وبالتالي فأنا معذور عن القيام بالتكليف، هو الآخر لا يُقبل عُذره، فمطلوب منه أن يذهب، ويبحث عن القدرة، والاستطاعة، ويمتلكها وهذا الشرط شرط وجود وليس شرط وجوب.

أي إنّ الشرع يقول: ما دمت عاجزاً، فلستُ مُكلفاً بأداء المهمة، إذ إنك سوف لن تصل إلى نتيجة، لكنه قال أيضاً بأنّه ينبغي عليك العمل، من أجل كسب تلك الاستطاعة، ورفع ذلك العجز، حتى تتمكن من الحصول على النتائج المرجوة.

وهنا سأضرب لكم مثالاً على ذلك:

توجد في الفقه مسألة، يصطلح عليها الفقهاء عنوانها «قبول الولاية لدى السلطان الجائر»، أو «تولي المناصب في جهاز حكام الجور»، وهي مسألة كانت تُطرح بحدّة، لا سيما في زمن الأئمة ﷺ، فكانوا يأتون إليهم، ويسألون: «يابن رسول الله! إن هؤلاء الخلفاء (العباسيين وقبلهم الأمويين)، من حُكام الجور والظلم، فهل يحق لنا أن نتقبل تولي المناصب الحكومية في دولتهم أم لا؟».

ورأي الإسلام هو في عدم جواز العمل في جهاز هؤلاء الحكام، لكن أئمتنا، وبعد أن يوضحوا هذا الأمر الكلي، يُضيفون قائلين: بأنّ من يتمكن من تولّي منصب في حكومة هؤلاء، ويحتمل أن يتحوّل ذلك المنصب إلى أداة

قوة، في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيجب عليه بالتأكيد تقبُّل ذلك المنصب.

وهذه مسألة مطروحة في كتبنا الفقهية[١]، ونجدها في فقه المحقق (الحلّي) وفي كتابات الشهيدين (الشهيد الأول والشهيد الثاني)، كل ما هُنالك أنْ البعض يقول فيها: «استُحبَّتْ» بينما يقول البعض الآخر: «وَجَبَتْ» أي أنهم يقولون بأنّ هذا العمل الذي هو مساعدة الظالم، وإعانته في حكمه (كتولي علي بن يقطين الوزارة في حكومة هارون الرشيد الظالم الغاصب) أمر واجب، أو تكليف شرعي، أي إنّ هذا العمل، الذي هو بحد ذاته عمل حرام، إذا ما تحوّل إلى وسيلة تستطيع بواسطتها تقوية قدراتك، وطاقاتك في سبيل القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يصبح ليس فقط حلالاً لك، بل واجباً عليك.

يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام واصفاً محمد بن إسماعيل بن بزيع، وعلي بن يقطين، الشخصين الشيعيين اللذين كانا يعملان في جهاز حكم خلفاء الجور العباسيين، بأنهما نجوم الله في الأرض، بالرغم من أنهما قد قبلا العمل في جهاز السلطة الظالمة، لكن هدفهما كان يتمثل في خدمة المثل الإلهية، وليس حباً بالجاه والسلطة، أو أملاً في تحقيق المنفعة الشخصية، أو بهدف كسب المال والثروة، وبكلمة واحدة كان الدافع الحقيقي لهما، تحقيق التقدم للإسلام.

فهل رأيتم! كم هو مهم أمر اكتساب القدرة، واستحصال الاستطاعة، من أجل القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وكم هو واجب بحيث إن الإسلام يقبل لنا ارتكاب عمل حرام مئة بالمئة، من أجل تنفيذ ذلك الواجب الإلهي. أيْ إنّ هذا العمل الذي هو في ذاته عمل حرام، إذا كان الهدف من روائه الوصول إلى مكاسب سلطوية، ولا يتحقق من ورائه، أي عمل يحث إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بأية صلة، ولا خير يخرج منه للإسلام،

(١) انظر: قواعد الأحكام للعلاّمة الحلّي ١: ٥٢٦، الدروس للشهيد الأوّل ٢: ١١٢، مسالك الإفهام للشهيد الثاني ٣: ١١٠.

هذا العمل نفسه يتحول إلى عمل حلال إذا ما كان الولوج إليه بهدف خدمة الإسلام، بل يصبح عند ذاك واجباً بنظر البعض، أو مستحباً بنظر البعض الآخر من الفقهاء، كما هو رأي المحقق (الحلّي) في كتاب «الشرائع».

على أية حال، فالحد الأدنى هو تحوّله من عمل حرام إلى عمل مستحب، ومن هنا لا بد أن نفهم بأنّ مسألة الاستطاعة المطروحة في هذا الباب، ليست بمعنى مصادفة وجود الاستطاعة، فإذا ما صادف وجودها قمنا بالأمر بالمعروف، وفي حال عدم تصادف وجودها يسقط التكليف!.

الدليل الآخر، على عدم صحة هذه النظرية، التي تقول بأنّه إذا ما صادف وجود الاستطاعة، يصبح العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً، وفي حال عدمها يسقط التكليف، وبالتالي فإنّ تحصيل الاستطاعة أمر ليس واجباً، هو في العودة إلى الإسلام، لمعرفة القيمة التي يضعها الإسلام لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهل يمكن للإسلام أساساً أن يضع مثل هذا الأصل وهذه الوظيفة الإسلامية، تحت رحمة الصدف والظروف الموضوعية، ويصبح أمر هذا التكليف الإلهي مرهوناً باحتمال وجود الاستطاعة بالصدفة، وفي حال عدم وجودها، يسقط مثل هذا التكليف عن رقبة المسلمين من دون أن يُطلب منهم السعي وراء تحصيل تلك الاستطاعة؟!.

إنكم إذا أردتم معرفة مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته في الإسلام، أدعوكم لمطالعة تلك الرواية المفصلة في هذا الباب، والواردة في كتاب (الكافي)(١)، وهي من الروايات الشهيرة والمحكمة السند، المتواتر ذكرها، في كتب الفقه والحديث المعتبرة كافة.

وإليكم بعض المقاطع من تلك الرواية، حيث تبدأ الرواية بالحديث عن ظهور جماعة من الناس في آخر الزمان، تصفهم الرواية بالرياء، رغم قراءتهم للقرآن والدعاء، لكنهم «يتنسّكون» بتعبير الحديث، أي إنهم يُريدون، تملقاً

---

(١) الكافي ٥: ٥٥.

ورياءً، إظهار طابع القدسية في شخصيتهم، ومن ثم يُضيف الحديث: «حدثاء سفهاء» أي حمقى...

والشيء الوحيد الذي لا يكترثون له هو: «... لا يوجبون أمراً بمعروف، ولا نهياً عن مُنكر، إلاّ إذا أمِنوا الضرر...»، «.. ويطلبون لأنفسهم الرُخص والمعاذير...» من أجل التخلص من أداء الواجب.

ومن ثم: «يُقبلون على الصلاة، والصيام، ولا ما يُكلّفهم في نفسٍ ولا مال...»، بل وحتى إنَّهم مستعدون لترك أهم الفرائض وذلك بقوله: «كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها...»[1].

فما هي تلك الفريضة الأسمى، والأشرف؟ يقول الحديث: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فريضةٌ عظيمة بها تُقام الفرائض». أي إنّه لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون هناك أداء حقيقي للصلاة، ويكون هناك أداء للزكاة، وأداء للحج، وأداء للخمس، وللمعاملات، والقانون، والأخلاق.

وفي مكان آخر من الرواية يقول الراوي: «.. إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سبيلُ الأنبياء...»... «منهاجُ الصُلحاء، بها تُقام الفرائض، وتأمن المذاهب...»، وبها تُفتح الطرق، ويصبح الكسبُ حلالاً، وتُردُّ المظالم، وتعمر الأرض.

من هنا يمكنكم إدراك الإطار الذي وضعه الشارع المقدس، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إنّه إطار عمارة الأرض، فوالله إنّ الإنسان ليُجَنُّ أحياناً عندما يُتابع تطورات الأوضاع الراهنة، ويُقارن ذلك بتاريخنا الإسلامي المجيد، فأين كُنا، وأين أصبحنا اليوم؟!.

إنني أوصيكم هنا، بمطالعة كتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي، الذي يُعتبر بحق من أهم الكتب الإسلامية، لا سيما وأنّ الأوربيين والمستشرقين يولونه اهتماماً بالغاً.

---

(١) مختلف الشيعة ٤: ٤٦١، تذكرة الفقهاء ٩: ٤٤٠، المهذب البارع ٢: ٣٢٢.

إنّ هذا الكتاب، يشرح لنا الأنظمة الاجتماعية الواردة في الإسلام، والتي كانت قائمة ـ في بلادنا ـ قبل حوالي الألف عام.

فانظروا لتلك الأنظمة التي كانت قائمة في عالم الإسلامن آنذاك، ومعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي تلك الأزمنة، والآثار المترتبة على أدائه.

إنّ الأهم من ذلك الكتاب، هو كتاب «معالم القُربة في أحكام الحِسبة»، والذي يبدو لحسن الحظ أنّ أحد المستشرقين الأوروبيين، هو الذي أخرجه من إحدى المكتبات التركية، وطبعه، ونشره، (مرة أُخرى لا بدّ لنا هنا من الترحّم على أولئك الأوروبيين الذين يترددون على المكتبات، فيخرجون مخطوطاتنا النفيسة، ويطبعونها، وينشرونها بينما نظل نحن غير أهل لمثل هذه المهمات).

لقد تم تدوين هذا الكتاب، في القرن التاسع للهجرة. و«الحسبة» هنا تعني نفس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما اصطلح عليه بهذا المعنى منذ القرن الثاني للهجرة.

واصطلاح المُحتسب الذي كثيراً ما ورد ذكره في إشعارنا في اللغة الفارسية، إنما قصد به الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وتلك التشكيلات التي كانت موجودة في البلاد الإسلامية آنذاك، والتي كانت تُسمى بالتشكيلات الحِسْبية، والاحتسابية، إنَّما كان الأفراد المشرفون عليها يُطلق عليهم مُصطلح «المُحتسبة» أي هم المسؤولون عن الأمر المعروف والنهي عن المنكر، وهو، كما ذكرنا، ورد ذكره كثيراً في شعر شعراء أهل الفارس أمثال (مولوي) و(سعدي) و(حافظ)...

على أية حال، فإنّ الإنسان عندما يُطالع هذا الكتاب، وما يحتويه من تفسير لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يرى أنه يشمل في الواقع مختلف معالم الحياة. فكل الأعمال الموكلة اليوم إلى البلديات في المدن والأرياف، إنما كانت في نطاق مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك المهمات الموكلة اليوم إلى الشرطة والدرك هي الأُخرى كانت في نطاق مفهوم الاحتساب.

ففي الكتاب المذكور، ورد مثلاً: أنّ من واجبات المحتسب، عندما يمر من أمام أحد البقّالين، ويرى أنّه يبيع اللبن في أوانٍ مكشوفة، الأمر الذي يُعرّض اللبن إلى مضار وقوف الحشرات عليه، هو العمل فوراً على تغطية تلك الأواني، كذلك ملاحظة نظافة البقّال البائع، ومراقبة ملابسه التي ينبغي عليه تبديلها، أو غسلها بين يومٍ وآخر، إضافةً إلى الواجبات المُلقاة على المُحتسب في مراقبة نظافة الحمامات وسير أعمال المشرفين على المساجد ونظام الصيانة والنظافة والرعاية لهذه المرافق والأماكن العامة.

وعندما نُراجع اليوم هذه الفصول من تاريخنا نرى الواحد منا يقول: إلهي أحقاً كانت أيامُنا كذلك، وقد آلت أوضاعنا اليوم إلى ما هي عليه من حالة مُزرية؟! وهل هي حقاً تلك الصورة التي ترسمها لنا روايات (الكافي)، وكتبنا الفقهية الأُخرى كافة والتي تقول لنا بأنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كانت أهميته بحيث إنّها: «. . وتعمرُ الأرضُ ويُنتصف من الأعداء. . .».

إذاً علينا أن نُحيي مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى نتمكن من الوقوف بوجه العدو الصهيوني الغاصب، وإذا كُنا عاجزين عن مواجهة العصابات الإرهابية الصهيونية الغاصبة في فلسطين، فلنبحث عن جذور الموقف في القرون الأخيرة من تاريخنا، عندما تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر الذي سلّط علينا أعداءنا.

وإذا أردنا فعلاً أن يستوي أمرنا، فلا بد لنا من العودة إلى هذا الركن الذي يؤدي إلى: «. . . ويستقيم الأمرُ. . .».

وأخيراً تقول الرواية: «فانْكِروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصُكّوا بها جباهَهُمْ، ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإن اتّعظُوا، وإلى الحق رَجَعوا فلا سبيل عليهم ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(١)».

والآن هل يمكن التصور بأنّ فريضة لها كل هذا المقام، وهذه القيمة في

(١) الشورى: ٤٢.

الإسلام، يُقال حول تطبيقها بأنّها تصبح واجبةً فقط إذا ما صادف يوماً، وحصل أن توفّرت لك الاستطاعة والقوة على التطبيق، وإلاّ فالتكليف يسقط عنك في غير ذلك؟.

إنّ سقوط التكليف في مثل هذه الوظيفة يعني سقوط الإسلام، ذلك أنّ الأمر بالمعروف الذي يُعرّفه لنا الإسلام، بمثابة العمود والدّعامة الأساسية للصرح الإسلامي العظيم، فكيف إذاً، يأتي الإسلام ليقول لنا: إنّه إذا ما صادف ورأيت أنّ باستطاعتك حفظ الإسلام فيها، وأمّا في حالة عدم استطاعتك، فلا تكترث ونم خالي البال!.

الأمر نفسه ينطبق على موضوع احتمال وجود الأثر والفائدة، فالواحد منّا لا يمكنه الجلوس داخل جدران أربعة، والقول بأنه لا يحتمل وجود أثر ملموس من وراء العمل الفلاني مثلاً.

ليس من حقّك أن تحتمل وجود الأثر أو تحتمل عدمه، فأنت لم تُطالِع ولم تدرس الظروف المحيطة، ولا تملك تصوراً حول ما يجري حولك، ولا حتى تدري ما هو طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سبق لك أن درست علم النفس حتى تعرف كيف يمكن الدخول إلى روح البشر والتأثير عليهم، كما أنك لم تدرس علم الاجتماع، ولا تعرف شيئاً من هذا القبيل، حتى تريد أن تُجيز لنفسك وضع احتمالات لحصول الأثر والفائدة، أو عدم حصولها.

إن علم النفس وعلم الاجتماع هما ركنا هذا الأصل الأساسيان، وهما القدرة والمعرفة. وكلاهما لا بدّ من تحصيله واكتسابه ولا شيء غير ذلك.

إنّكم لا بد تقرأون في جرائدنا التي تتحدث عن وجود أكثر من ثلاثمائة وثمانين (٣٨٠) جمعية، لجمع الإعانات والتبرعات للعدو الصهيوني في بلاد عدوة الشعوب، أمريكا.

وأنا هنا أُقدّر هذا الموقف لهذه الأمة الواعية، فهؤلاء ينشطون ويعملون من أجل مصالحهم، والأمة الواعية هذا هو طريقها تماماً، وكل جماعة من

الناس في أي مكان تجمعوا أو تواجدوا، عليهم أن يجلسوا ويتدارسوا أمرهم، وينشطوا ويجمعوا إمكاناتهم، وأفكارهم، ويُفكّروا في عواقب أمورهم.

إنّ الأمر يحتاج إلى معرفة، وتحصيل المعرفة أمر واجب، والأمر بحاجة إلى قدرة واستطاعة، وتحصيل القدرة أمرٌ واجب كذلك.

مرة أُخرى أعودُ إلى الموضوع الذي تطرقتُ إليه في البداية، وهو موضوع التحقيق في عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية، وكيف استطاع أهل بيت الإمام استغلال الفرصة الملائمة للقيام بهذه الوظيفة، إلى الحد الأعلى للاستفادة، فرحم الله المرحوم (آيتي) رضوان الله عليه فما أعظمه من رجل جليل القدر! وما أتقاه من عالم كبير افتقدناه جميعاً! لقد ترك هذا الرجل العظيم أثراً منه باسم كتاب «دراسة تاريخ عاشوراء» وهو كتاب أظن أنّ الغالبية العظمى منكم قد رأوه.

ومن لم يرهُ أطلب منه أن يقتنيه ويطالعه، والكتاب عبارة عن تجميع لخطبه التي سبق له وأن أذاعها في المذياع، وقد تم جمعها في كتاب بعد موته، وإذا لم نقل بأنّ هذا الكتاب يُعتبر أفضل كتاب تم تدوينه باللغة الفارسية، في هذا المجال، فإننا نستطيع بالتأكيد القول بأنه واحدٌ من الكتب الممتازة في هذا المجال.

وهو كتاب إذا لم استطع التأكيد بأنه من الدرجة الأولى، من زاوية التحليل، لكنني استطيع القطع بأنّه كتاب لا نظير له من زاوية موضوعاته المُدعمة بالدليل والبرهان التاريخيين.

في هذا الكتاب، يؤكد المؤلف، على أنّ تاريخ كربلاء إنما أحياه وخلّدهُ الأسرى، أيْ إنّ الأسرى هم الذين تمكنوا من المحافظة على هذا التاريخ، وإن جهاز الحكم الأموي قد ارتكب خطأً بالغاً في عملية أسر أهل البيت، والانتقال بهم من ساحة المعركة إلى الكوفة، ومن ثم إلى الشام.

ولو لم يرتكبوا مثل هذا الخطأ، كان بإمكانهم ربما دفن تاريخ وقصة هذه النهضة، أو على الأقل الحد من تأثيراتها لكنهم هيأوا الفرصة السانحة بأيديهم أمام أهل بيت النبي، ليقوموا بدور المُسجّل، والمدوّن لهذه الواقعة الكبرى،

ولم يكن يخطر في بال جهاز الحكم الأموي أصلاً، بأنّ هؤلاء الصبية والنساء المُروَّعين والمفجوعين بتلك الواقعة المأساوية، سيتمكنون من استغلال تلك الفُرصة، أقصى الاستغلال، ومن كان يتصور أساساً أنّ شيئاً من هذا سيحصل! ولكننا رأينا كيف قاموا عليهم السلام بدورهم التبليغي على أحسن وجه!.

الزمان هو يوم الجمعة، والمكان هو الشام، والمناسبة صلاة الجمعة، ويزيد نفسه لا بد له وأن يشارك فيها، وربما كانت إمامة الصلاة أيضاً، قد عُهدت له (وليس عندي يقين طبعاً بهذا الخصوص) لكن على أية حال، فالخطيب ينبغي له أن يُلقي أولاً خطابين مُفيدين جداً، وقيمين تماماً، ومن ثم يشرع في الصلاة.

وهاتان الخطبتان أساساً يُعمل بهما كبديل عن ركعتين من صلاة الظهر، تسقطان لتتحوّل الصلاة إلى صلاة من ركعتين.

وهكذا صعد ذلك الخطيب المروّج لأمر السلطان، والمفروض على الأمة فرضاً، وقال كل ما هو مطلوب منه أنْ يقول حيث تحدث عن عظمة كل من يزيد ومعاوية، والصق بهما كل الصفات الجيدة والخيّرة الممكنة، ومن ثم عرّج على ذكر علي عليه السلام، والإمام الحسين.

وبعد توزيع السباب واللعن والشتائم عليهما اتهمهما بالخروج على دين الله (والعياذ بالله)، وأنهما فعلا كذا وكذا...

وفي هذه الأثناء ينهض زين العابدين، ويُدوي صوته في الآفاق، موجِّهاً كلامه إلى الخطيب قائلاً: «أيها الخطيب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق»[1]، ثم وجه كلامه إلى يزيد طالباً منه أن يجيز له صعود ذلك المقعد الخشبي، (لاحظ أنه لم يستخدم تعبير المنبر، وهو أمر عجيب فعلاً»! فأهل البيت كانوا دقيقين ومُقيّدين بشدة بالالتزام بتناسب المصطلحات والتعابير، فمثلاً لم يقل الإمام في مجلس يزيد: يا أمير المؤمنين، عندما أراد مخاطبة يزيد بل ناداه بالخليفة، كما أنه لم يناده بأبي خالد! بل يا يزيد!.

---

(١) الملهوف: ١٦٧، بحار الأنوار ٥٤: ١٣٧.

وزينب هي الأُخرى فعلت الشيء نفسه، وهنا في هذه الحالة لم يطلب الصعود إلى المنبر، فالمنبر هنا فقد دوره كمنبر في الشام، وضمن خلافة يزيد، وتحوّل إلى مقعد خشبي، بدرجات ثلاث، يجلس فوقه خطيب مرتزق، يخطبُ بتلك التُرهات المعروفة.

وعليه فإن المنبر لم يَعُد منبراً، بل صار أخشاباً، نعم فالإمام يطلب صعود تلك الأخشاب ليتكلم إلى الناس.

ويزيد يرفض الموافقة، لكن الحاشية المُحيطة، ومن زاوية كون علي بن الحسين حجازي السحنة واللسان، ولمّا كان أهل الحجاز معروفين بخطابهم الحلو واللطيف، فقد طلبت الحاشية من يزيد، منح الموافقة لهذا الحجازي، ليستمعوا إلى خطابه.

ثم جاء إليه ابنه وطلب منه هو الآخر السماح لهذا الشاب الحجازي بالخطاب، حتى يسمع نوع الخطاب الحجازي، وبعد ضغط شديد من الحاشية، وإصرار من أطراف عديدة، اضطر يزيد للموافقة لأنّ رفضه المتزايد كان يعني الخوف والعجز.

ولكن انظروا إلى زين العابدين، الذي كان في ذلك الوقت مريضاً من جهة، لكنه كان يتشافى ويتعافى شيئاً فشيئاً، وبالتالي لم يعد فيما بعد يختلف عن كونه إماماً مثل سائر الأئمة. وأسير حرب من جهةٍ أُخرى، ومن ثم من أهل المنبر، إضافةً إلى كونه قد قضى أربعين يوماً وليلةٍ، وهو في الطريق بين الطف والشام، مُكبلاً بالأغلال والقيود، لكنه رغم ذلك اعتلى المنبر، وخطب بالقوم خطبةً أقام لها الدنيا، ولم يُقعدها؟!.

فما كان من يزيد إلاّ أن فقد صوابه لشدة الصدمة، وانبهار الجماعة، وصار يقول بينه وبين نفسه: الآن سيحمل عليّ الناس ويقتلوني، فتوسّل بحيلة الأذان إذ كان قد آن وقت الأذان، فصاح فجأةً بالمؤذن أنْ هيّا كبّر إلى الصلاة، فقد حان موعدها.

ارتفع صوت المؤذن بالتكبير، فسكت زين العابدين عليه السلام، وقال المؤذن:

«الله أكبر الله أكبر»، ثم أكمل الإمام لكلامه بنداء «الله أكبر، الله أكبر» ثم أكمل المؤذن «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله»، ثم أكمل المؤذن متابعاً أذانه حتى بلغ قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله»، وحين بلغ هذا الحدّ من أذانه صاح به زين العابدين عليه السلام، فأسكته، ثم التفت بوجهه مخاطباً يزيد بقوله: يا يزيد! أتعرف من هو هذا الذي يردُ اسمه هنا، وتتم الشهادة برسالته؟.

أيها الناس! أتعرفون من نحن الذين جيء بنا إلى هنا أسرى؟ ومن هو أبونا الذي استشهد في واقعة الطف؟ ومن هو ذلك الذي تشهدون باسمه هنا في الأذان؟.

وحتى قبل حديث الإمام لم يكن الناس يعرفون ماذا هم فاعلون.

أنتم لا بد قد سمعتم أنّ يزيد قد أمر فيما بعد بإخراج آل بيت النبي من تلك الخربة التي كانوا قد وضعوا فيها أول الأمر، ثم أمر بإرسالهم مُعززين مُكرمين برفقة (النعمان بن البشير)، وهو الأمير السابق للكوفة، المعتدل الصيت والسمعة والسلوك مع التأكيد على ضرورة معاملتهم بكل عطف وحنان حتى الوصول بهم إلى المدينة.

ولكن هل تعرفون السبب الكامن وراء ذلك؟ فهل يُعقل أنّ يزيد قد تحوّل إلى رجل شريف مثلاً؟ أو أنّ نفسية يزيد قد تغيّرت؟ أبداً، كل ما هنالك أن الأجواء والأوضاع المُحيطة بيزيد قد تحوّلت.

وأنتم لا بد سمعتم أنّ يزيد صار يلعن ابن زياد، ويقول بأنّ الذنب ذنب ابن زياد، وأنّه صار ينكر بأنّه قد أصدر الأوامر له بقتل الحسين عليه السلام، وأنّ ابن زياد، إنما ارتكب فعلته تلك من عنده!.

فهل تعلمون سبب ذلك التحوُّل في موقف يزيد؟.

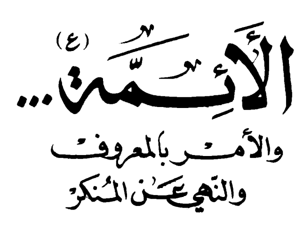
إنّ السبب هو أنّ زين العابدين وزينب عليهما السلام كانا قد قلبا أوضاع الشام، وأحوالها رأساً على عقب.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

الفهرس

دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية





"... إنني أعلن لجميع الأصدقاء غير المسلمين أن الفكر حر من وجهة النظر الإسلامية . فكل ما بدا لكم ان تفكروا فكروا , وكيف ما أردتم أن تعلنوا عن عقائدكم ـ بشرط أن تكون عقائدكم واقعاً ـ أعلنوا عنها، وكيفما أردتم أن تكتبوا أكتبوا. لن يمنعكم عن ذلك أحد.

إن السبب في بقاء الإسلام هو هذه الحريات . فسر بقاء الإسلام هو مواجهته بكل شجاعة وصراحة للأفكار المختلفة.

وإني أحذر الشباب المتحمس للدين الإسلامي أن لا يظنوا أن السبيل الوحيد لصيانة العقيدة الإسلامية هو منع الأخرين من إظهار عقائدهم.

إن القوة الوحيدة التي تحرس كيان الإسلام هو العلم ومنح الحرية للأفكار المخالفة ومواجهتها بكل صراحة ووضوح ."

من أقوال العلامة الشهيد مطهري